الزنج

وثورتهم المنسية



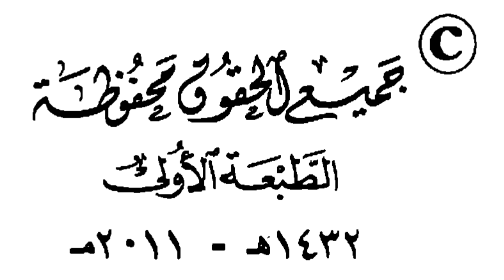
أميرة رضا فرحات

دار المحجة البيضاء

الزّنج وثورتهم المنسيّة

أميرة الشيخ رضا فرحات

دار المحجة البيضاء



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ISBN:978 - 9953 - 567 - 84 - 6



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

الإهداء

إلى روح أبي خلدون، رحمه الله

وإلى أبنائي وأبنائه

أهدي هذا الكتاب، عربون شكر ومودة

أميرة فرحات

المقدمة

تندرج ثورة الزَّنْج (٨٦٨ ـ ٨٨٣م) في إطار الانتفاضات «الاجتماعية» التي حدثت في العصر العباسي، من مثل ثورتي البابكيين والقرامطة.

وعندما نقول بأن تلك الثورات كانت «اجتماعية»، فإنما نشير إلى الدافع الرئيس الذي حمل الفقراء على الانخراط فيها، بحيث شكلوا مادتها الأساسية. هذا على تَفَاوُتٍ ما بين تلك الحركات لجهة وضوح «البرنامج الاجتماعي». فهو مثلاً شديد الوضوح لدى البابكيين وقرامطة العراق، بدائيٌّ ومُرتجل لدى الزَّنْج.

وهذا أيضاً من دون أن ننفي عن تلك الحركات الصبغة الدينية أو المذهبية التي طبعت كل انتفاضات هذا العصر تقريباً. ذلك أن الفضاء الديني كان يستوعب معظم مصطلحات العصر، بما فيها المصطلح الاجتماعي بطبيعة الحال. فالإسلام ـ وفقاً لما رَكَزَ في وعي جمهور المسلمين وغالبية نُخَبهم ـ كان ديناً ودولةً وأطروحة عدالة اجتماعية.

من هنا كان لا بدَّ لأي حركة سياسية ـ اجتماعية من استخدام المصطلح الديني لاجتذاب الناس وإقناعهم بمنطلقاتها وأهدافها. ولما كان المحرّك الرئيس لتلك الانتفاضات الاجتماعية هو فكرة «العدالة»، فقد كان لا بدَّ لها من الاستناد إلى تعبيرات هذه الفكرة بالذات في المصطلح الإسلامي. وهذا ما فعله القرامطة وصاحب الزَّنْج، مثلاً،

حين قالوا بعقيدة «المهديّ المنتظر» في بيئة اجتماعية مسحوقة (سواد الكوفة والبصرة) تتطلّع بفارغ الصبر إلى «مخلّص» تُرسله العنايةُ الإلهية، وليملأ الأرض قِسْطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظُلماً وجوراً. كذلك فعلوا حين استندوا إلى أن الإسلام يحرِّر معتنقه من العبودة بصورة تلقائية، على قاعدة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] الآية، كما أوّلوها على النحو المذكور.

بطبيعة الحال كان هنالك الحركات المذهبية، من مثل الخوارج والعلويين الذين لم تكن انتفاضاتهم تخمد حتى تثور مجدداً، ودائماً حول قضية «الإمامة والسياسة».

وكذلك فإن عباءَةَ الإسلام لم تكن لتضيق حتى عن الحركات ذات التطلُّع القومي، خصوصاً بإزاء الارستقراطية العربية التي وضعت يدها على مقدرات الدولة، وبالأخصّ بعد أن ابتعد التطبيق الإسلامي عن قاعدة «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، الأمر الذي سوَّغ ما يسمَّى «الشعوبية».

ولا نظنَّنَّ أن تلك الدوافع، من مذهبية واجتماعية وشعوبية ـ أقوامية، كانت وحدها خلف ذلك العدد الهائل من الانتفاضات ضد الدولة العباسية، خصوصاً في العصر العباسي الثاني، وبالأخصّ خلال القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي. فالواقع أن ضعف الدولة المركزية، جرَّاء مختلف أنواع الفساد الذي استشرى في مفاصلها، شكل مادة إغواء لكل طامح إلى السلطة أو مغامر.

إن نظرةً بانورامية على مجمل الانتفاضات ضد الدولة العباسية تبيّن لنا أن قليلاً من تلك الانتفاضات كان يحمل مشروع «سلطة بديلة»

أو «خلافة بديلة»، كالمشروع الإسماعيلي ـ الفاطمي، بينما كان معظم الثائرين في سائر أنحاء الإمبراطورية لا يتعدّى طموحُه اقتطاع سلطة ما، في ناحية ما، سرعان ما يساوم عليها السلطة المركزية أو يتمّ القضاء عليه. إلى ذلك يُلاحظ ضعف ـ وحتى غياب ـ التنسيق والتكامل بين حركات المعارضة، الأمر الذي أتاح للسلطة المركزية القضاء على معظمها، رغم ضعف تلك السلطة.

في هذا الإطار من انعدام التنسيق بين حركات المعارضة، ومن طغيان الطموح الشخصي المحمول على كثير من المغامرة لدى قادة تلك الحركات، تقع تجربة علي بن محمد، قائد ثورة الزَّنْج. وإذا كان بعضُ الدارسين قد رأى في غياب «البرنامج الثوري ـ الاجتماعي» لثورة الزنج السبب الرئيس لإخفاقها، فإننا نعتقد أن الأمرين المشار إليهما آنفاً يشكلان السبب الأقوى للإخفاق.

من المستغرب حقاً ألاّ يكون لقائد ثورةٍ تحالفاتٌ تكتيَّة أو استراتيجية، في واقع شديد التنوع والتعقيد والتناقضات، فيما هو يتنطّح لإسقاط «دولة عظمى»، مهما بلغت من الضعف والتداعي فإنها تبقى أقوى منه بما لا يُقاس! ورغم رفعه بعض شعارات الخوارج رأيناه يحاربهم! ورغم حاجته الموضوعية إلى مهادنة البابكيين أو التحالف معهم رأيناه ينأى بنفسه عن ذلك. ورغم العرض السخيّ الذي قدمه إليه داعية القرامطة حمدان قرمط، رأيناه يتعالى ويتشاوف! وإنْ دلَّ هذا الأمر على شيء فإنما يدلّ على نقص فادح في الرؤية الاستراتيجية لدى علي بن محمد. فالذي يُبادر إلى عرض التحالف في مثل تلك الظروف ـ كما فعل القرامطة والبابكيون في اتجاه صاحب الزَّنْج ـ فإنما هو ذاك

الذي يشعر بالمسؤولية وينظر إلى ما يتعدَّى الهمَّ الذاتي، فضلاً عن أنه لا إدارة ناجحة للصراع من دون احتساب موازين القوى. ويكاد الدارسون المحدثون يجمعون على أنه لو حصل التنسيق والتكامل بين ثلاث حركات متزامنة تقريباً (البابكيون والزَّنج والقرامطة) لكان ذلك كفيلاً بإسقاط السلطة العباسية.

وهكذا بدا الزَّنْج ـ أولئك الأغراب المستعبدون الأشقياء المتعبون ـ ضحيَّة عَسْف السلطة والملاكين والتجار من جهة، وضحيَّة ضيق الأفق لدى قائدهم من جهة ثانية. هذا رغم بسالتهم وشجاعة قائدهم وعدالة قضيَّتهم، بلا ريب.

ما تقدَّم سنطالعه مبسوطاً في تضاعيف هذا الكتاب وفصوله. غير أن ما يعترض الباحث في «ثورة الزَّنج» هو عقبةٌ أساسية من شقّين مترابطين: الأول، غيابُ المصادر الخاصة بالزنج أنفسهم، والتي يمكن أن تقدّم للباحث مادة أصلية للنظر والدراسة. فليس للزنج تاريخ من تدوينهم، ولم يتركوا لنا فكراً أو أدباً. كل ما لدينا لا يتعدَّى بعض الأشعار «المنسوبة» إلى علي بن محمد، وبعض «الشعارات» التي أطلقها في خطبة أو خطبتين. والشقّ الثاني من العقبة المنهجية يتمثل في إجماع المؤرخين المسلمين القدامى على إدانة سيرة الزنج والتشنيع عليهم. وهي المشكلة ذاتها التي واجهتنا في موضوع القرامطة، حيث «التأريخ الرسمي» يناصبهم العداء المطلق[١].

---

(١) راجع أميرة الشيخ رضا فرحات: «البحث عن القرامطة»، الفصل الأول، ص١٥ - ٢٢، منشورات دار المحجَّة البيضاء، بيروت ٢٠١١.

للتعامل مع هذه المشكلة كان علينا الاستناد أولاً إلى المصدر الأوفى والأوحد لأخبار ثورة الزَّنْج، وهو تاريخ الطبري. ولذلك أثبتنا تلك الأخبار مفصَّلة ومرتَّبةً على السنين في آخر الكتاب كما وردت في تاريخ ابن جرير، وقدمنا لها بما حملنا على هذا الاختيار.

غير أن الأخبار وحدها لا تفي بالغرض، خصوصاً إذا كانت تضرب في اتجاه واحد. لذلك عمدنا إلى ما تيسَّر لنا من دراسات حديثة حول الموضوع، فأخذنا منها بصورة انتقائية، تتيح لنا الإلمام بمختلف جوانب ثورة الزنج. وفي ما نقلناه راعينا «المقارنة» بين صورتين لثورة الزنج لدى المؤرخين والباحثين: صورة سلبية تقليدية، كما تظهر مثلاً من خلال «تاريخ الإسلام» لحسن إبراهيم حسن و«ظُهْر الإسلام» لأحمد أمين، فضلاً عن المؤرخين القدامى كالطبري والمسعودي وابن أبي الحديد وغيرهم؛ وصورة إيجابية مشرقة تظهر من خلال بعض الدارسين المحدثين من أمثال هادي العلوي وأحمد عُلبي وحسين مروة وغيرهم من أصحاب النزعة اليسارية ـ الاشتراكية.

لا شك في أن «ثورة الزَّنْج» ـ كغيرها من «الثورات المنسيَّة» في التاريخ الإسلامي ـ تُعَدُّ اكتشافاً جديداً لدى الباحثين، من حيث كونها «ثورة اجتماعية» تُساهم دراستُها في إلقاء ضوء إضافي على واقع الصراع الاجتماعي ـ الطبقي في قلب العالم الإسلامي، أي العراق في القرن الثالث الهجري. وبديهيٌّ أن الموضوع يحتمل المزيد من الدراسات والمراجعات في ضوء ما قد يستجدّ من وثائق ومعلومات حول الموضوع نفسه. وفي ما يلي ثَبْتٌ بالدراسات الحديثة التي تناولت ثورة الزَّنج، وفق التسلسل التاريخي لصدور تلك الدراسات:

ـ دراسة حول «طوپوغرافية ثورة الزنج»، للمستشرق تيودور نُولْدِكِه، نشرت في أواخر القرن التاسع عشر.

ـ «ثورتان» لطه حسين. وهي دراسة مقارنة عن ثورة الزنج وثورة سبارتاكوس، نُشرت في مجلة «الكاتب» المصرية سنة ١٩٤٦.

ـ «ثورة الزنج» لفيصل السامر، بغداد ١٩٥٢.

ـ «ثورة الزنج، وقائدها علي بن محمد» لأحمد عُلبي، بيروت ١٩٦١.

ـ «ثورة العبيد»، بالفارسية، لأحمد فَرَامَرْزي، طهران ١٩٦٨.

ـ «ثورة العبيد في العراق، خلال القرن الثالث الهجري»، للمستشرق الكسندر بوبوفيتش، باريس ١٩٧٦.

ـ «ثلاث ثورات اجتماعية: البابكيون ـ الزنج ـ القرامطة»، لحسين مروة. وهي تشكل الفصل الأول من الجزء الثاني من كتاب «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية»، بيروت ١٩٧٨.

ـ «ثورة الزنج»، لمحمد عمارة. كراسة صادرة عن دار الوحدة، بيروت، بلا تاريخ. وتاريخها على الأرجح أواخر السبعينيات من القرن الماضي.

ـ «ثورة العبيد في الإسلام»، لأحمد عُلبي، بيروت ١٩٨٥.

ـ «صاحب الزنج»، لهادي العلوي. دراسة مقتضبة، نشرت في مجلة «الحرية» دمشق ١٩٩٠.

وبعد، فقد حرصنا على أن يكون هذا الكتاب عَرْضاً موضوعياً

لثورة الزَّنج، من مختلف جوانبها، استناداً إلى ما تيسَّر لنا من دراسات ومراجع تاريخية. وأضفنا ثلاثة ملاحق في نهاية الكتاب هي: «ثورة الزنج في مرآة الأدب العربي» (عن أحمد عُلبي)؛ و«ثورة الأرقّاء في روما» (عن وول ديورانت)؛ و«في أن الظُّلم مؤْذِنٌ بخراب العمران» (عن مقدمة ابن خلدون). كذلك وضعنا في نهاية الكتاب، بالإضافة إلى فهرس الموضوعات، فهرساً واحداً بأسماء الأشخاص والأماكن والجماعات، لمن يريد مراجعة نقطة بعينها في الموضوع.

والله وليُّ التوفيق

الباب الأول

ثلاثة فصول تمهيدية

الفصل الأول: تعريفات سريعة

الفصل الثاني: قصة ثورة الزَّنج على سبل الاختصار من منظارين مختلفين: مؤيِّد ومعارض

الفصل الثالث: سيرة صاحب الزَّنج حتى قيام الثورة



الفصل الأول

تعريفات سريعة

ثورة الزَّنج:

هي تلك الانتفاضة المسلحة التي قامت في وجه السلطة العباسية ما بين سنتي ٢٥٥ و٢٧٠هـ (٨٦٨ ـ ٨٨٣م)، لا سيما في منطقة البصرة، بقيادة علي بن محمد، واستطاعت أن تدوّخ الدولة العباسية وتستنزف مواردها على مدى نحو أربعة عشر عاماً. وقد سُمّيت «ثورة الزَّنْج» لأن مادَّتها البشرية الأساسية كانت مؤلفة من العبيد الزَّنْج الذين كانوا يعملون في استصلاح الأراضي لدى إقطاعيي ذلك الوقت. هذا رغم أن قيادتها المركزية العليا لم تكن من الزَّنْج، كما شارك فيها جماعات وأفراد من القبائل العربية.

اسم الزَّنج:

كلمه «زَنْج» ـ بفتح الزاي أو كسرها؛ ولا يجوز الضمّ ـ مقتبسة عن «زَنْكَ» الفارسية، ومعناها: الحبشة. فهي تُطلق إذاً على الأرقّاء السودان الذين كان يؤتَى بهم من شرقي أفريقيا (خصوصاً الحبشة) للعمل في الأراضي الزراعية.

طبيعة عملهم وأحوالهم على وجه الإجمال:

كان الزَّنْج يعملون على شكل جماعات في منطقة البصرة حيث تمتد المستنقعات. وكان عليهم أن يجفّفوا تلك المستنقعات وأن يزيلوا عن التُّربة الطبقة الملحية ـ وهي السِّباخ أو الشُّورَج ـ كي تُصبح صالحة للزراعة. ثم كانوا ينقلون ذاك الملح على البغال إلى حيث يُعرض ويُباع. ويبدو أن بيع هذا الملح كان يدرّ ربحاً على من يتعاطون بيعه، وهم الشُّورجيّون الذين كان لهم غلمانهم (أي عمَّالهم) من العبيد والأحرار. وكان هؤلاء الغلمان من أوائل الذين انتزعهم علي بن محمد، صاحب الزَّنج، من وكلائهم وضمَّهم إلى ثورته. ومن الزنج من كان يعمل في استخراج الدبس من التمر، وهم غلمان الدبّاسين والتمّارين. كما كان بعضهم يعمل في بيوت دهاقين البصرة، أي تجارها.

أما شروط حياتهم على وجه الإجمال فكانت تتَّسم بظُلم فادح. فعلاوةً على وضعية الرقّ المعلومة، فإن عملهم كان مرهقاً لا يحتمله إلا من اعتاد على الكدّ، وطعامهم لا يُشبع ولا يغذي، والبيئة الطبيعية التي يعملون فيها تشكل مرتعاً للأوبئة الفتَّاكة. هذا إلى تفكيك بنيتهم الاجتماعية وعيشهم بلا عوائل بعيداً عن أوطانهم الأصلية.

قائد الثورة، أو صاحب الزَّنج، علي بن محمد:

«الصاحب» لقبٌ كان يطلق على قائد أي جماعة أو عمل أو دعوة. فيقال: صاحب الشرطة، وصاحب الخراج، مثلما يقال صاحب الزنج وصاحب القرامطة وصاحب الدعوة الفاطمية.. إلخ.

أما علي بن محمد، فالثابت في جميع المصادر التاريخية أنه ليس بزنجي. بعد هذا يختلف المؤرخون في أصله ونسبته. فمنهم من قال إنه عربي، يرجع نسبُه إلى قبيلة عبد القيس، من ربيعة. ومنهم من اعتبره فارسياً، نظراً لولادته في قرية «وَرْزَنين» التي تقع على مقربة من طهران الحديثة. وقد ادعى علي بن محمد نسباً علوياً، ولكنه جاهر بمبادىء الخوارج. وسيأتي تفصيل ذلك كله في فصل خاص عن سيرة علي بن محمد.

الإطار التاريخي ـ السياسي لثورة الزّنج:

حدثت ثورة الزَّنج في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وامتدت على نحو خمس عشرة سنة ما بين سنتي ٢٥٥ و٢٧٠ هجرية. كان طابعها الغالب اجتماعياً في وجه ملاَّكي الأراضي، ثم سرعان ما تحوّلت إلى مواجهات مسلحة مع جيوش الخلافة العباسية. فهي والحالةُ هذه تقع في العصر العباسي الثاني الذي يجعله المؤرخون ما بين خلافة المتوكل (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) وخلافة المقتدي (٤٦٧هـ/ ١٠٧٠م) وعلى نحو أكثر تحديداً فهي تقع في خلافتي المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ) والمعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ). أما المواجهات الكبرى والمعارك الحاسمة التي قضت على ثورة الزنج فقد كانت بقيادة أبي أحمد الموفَّق، أخي المعتمد ووليّ عهده. وفي الإطار التاريخي ـ السياسي تزامنت ثورة الزَّنج مع عدة ثورات أو انتفاضات ضد الدولة العباسية، أهمها حركة الصفَّاريين في بلاد فارس بقيادة يعقوب الصفَّار، وانتفاضات العلويين في الكوفة والريّ وغيرهما، وتمرُّد مُساور الخارجي في الموصل، وخروج بعض الثوار الأكراد في فارس

والأهواز، وبدايات ثورة القرامطة في سواد الكوفة. علماً أن صاحب الزنج لم يستطع ـ وغالباً لم يُرد ـ أن يعقد أي تحالف مع تلك الحركات المناهضة للدولة العباسية.

نطاق الثورة البشري والجغرافي:

كان نطاق الثورة، على الصعيدين البشري والجغرافي، محدوداً. فرغم تعاون بعض القبائل العربية (بدافع الكسب المادي) إلا أن الثورة استمدت قوتها الأساسية والدائمة من العبيد الزَّنج. وهؤلاء لم ينخرطوا جميعاً في الثورة، بل إن قسماً كبيراً منهم ظلَّ خارجها موالياً لأسياده. إلى ذلك انحصرت الثورة بشكل رئيسي في منطقة البصرة، على ما لهذه المنطقة من أهمية استراتيجية في ذلك الوقت.

هذه التعريفات السريعة والملاحظات الأولية سنأتي على تفصيلها في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب:

الفصل الثاني

قصة ثورة الزِّنج على سبل الاختصار من منظارين مختلفين: مؤيِّد ومعارض

الغاية من هذا الفصل هي تقديم صورة إجمالية مختصرة عن ثورة الزِّنج، قبل الدخول في دراسة تحليلية موسَّعة عن أسباب تلك الثورة ومجرياتها ونتائجها. فبعد التعريفات السريعة المتعلقة ببعض النواحي الأساسية لهذه الثورة (الفصل التمهيدي الأول)، رأينا أن نقدّم للقارىء غير المتخصّص فكرة إجمالية مختصرة عن الموضوع تساعده في الولوج إلى التفاصيل في الفصول اللاحقة. والأمانة تقتضي منا أن نقدّم صورتين أو قصتين لا قصة واحدة. ذلك أن ثورة الزِّنج، مثل ثورة القرامطة[١] وسائر «الثورات المنسيَّة» في التاريخ الإسلامي، قد تمَّت مقاربتُها أو النظرُ إليها بطريقتين متعارضتين: طريقة المؤرخين المسلمين القدامى وبعض المؤرخين المحدثين؛ وهي نظرةٌ معادية لتلك الثورة، لم تجد فيها سوى خروج على السلطة الشرعية والنظام العام، ومُروقٍ من الدين القويم، وسلوكٍ تخريبي وإجرامي أضرَّ بالدولة وبمصالح الناس.

---

(١) راجع كتابنا «البحث عن القرامطة» منشورات دار المحجَّة البيضاء.

وهناك مقاربة بعد المؤرخين والدارسين المعاصرين الذين اعتبروا تلك الثورة علامة من العلامات المضيئة في تاريخ الشعوب الإسلامية وثورة اجتماعية تمتلك مسوّغاتها المشروعة. هذا في حين أن الزَّنج، على غرار القرامطة، لم يقدّموا «روايتهم الخاصة». فهؤلاء وأولئك لم يتركوا لنا أي أثر مكتوب يمكن الاعتماد عليه لرواية حكايتهم... أو أن مثل هذا الأثر قد أُزيل وانمحى، فبقيت رواية المؤرخين «الرسميين» المعادية.

الروايةُ الوحيدة الوافية هي رواية الطبري، لأن سائر الروايات التاريخية عن ثورة الزَّنج عالةٌ عليها. وهي بطبيعة الحال معادية للزَّنج وتعبّر إلى حد بعيد عن موقف السلطات الرسمية من تلك الثورة (انظر: «أخبار الزنج من تاريخ الطبري» في ملحق هذا الكتاب). ولما كانت تلك الرواية عبارة عن وقائع وأحداث وأخبار كثيرة مرتَّبة على توالي السنين ـ فهي بالتالي رواية مطوَّلة ـ رأينا أن نقدم في هذا المدخل روايتين مختصرتين، بأقلام مؤرخين ودارسين معاصرين، من وجهتي النظر المتعارضتين اللتين أشرنا إليهما أعلاه.

أولاً: قصة الزّنج، برواية معادية أو غير متعاطفة.

أ ـ قصة أحمد أمين[(١)].

«ومن العناصر التي كوَّنت سكان المملكة الإسلامية في هذا العصر، فكثرت وكان لها أثرٌ كبير: الزَّنج الذين كانوا يُجلبون في الأكثر

(١) من كبار علماء الأدب والتاريخ والثقافة العربية المعاصرين. من كتبه المشهورة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام». توفي سنة ١٩٥٤م. وما نقله أعلاه مأخوذٌ من كتابه «ظهر الإسلام»، ج ١، ص ٧٠ ـ ٧٢.

من سواحل أفريقيا الشرقية. ولا أدلَّ على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التي قاموا بها قرب البصرة وهدَّدوا بها الدولة العباسية ودوّخوها أربعة عشر عاماً وأربعة أشهر (من ٢٥٥ إلى ٢٧٠هـ). وكانت حرباً بين الأجناس: بين السود والبيض، دعا إليها رجلٌ ادّعى نسبته إلى علي بن أبي طالب، فزعم أنه علي بن محمد بن أحمد (وصولاً بنسبه إلى علي بن أبي طالب). وأكثر المؤرخين يرون أنه دَعِيٌّ وأن أصله عربيٌّ من عبد القيس. وقد توجَّه هذا الرجل إلى البصرة وحرَّض الزنوج الذين كانوا يكسحون السِّباخ في أراضيها. فإنّ مُلاَّك هذه الأراضي كانوا يملكون سوداً من السودان يعملون لهم في أرضهم، فيعزقونها ويرفعون عنها الطبقة المالحة ليصلوا إلى الأرض الصالحة للزراعة؛ وهو عمل شاق جداً في هذه المنطقة. فاستطاع هذا الذي لُقّب من بعد بـ«صاحب الزنج» أن يؤلّب هؤلاء العمال الزنوج، بعد أن درس حالتهم وبؤسهم وأجورهم ونفسيتهم، فأتاهم من الناحية الدينية، فهي أفعلُ في نفوسهم. فادعى أنه متَّصل باللّه على نحو ما، فاجتمع إليه خلق كثير، فوصف لهم بؤسهم وظلم سادتهم لهم، ورثى لعيشهم على السَّويق والتمر، ودعاهم إلى الخروج على هؤلاء الظالمين، ومنَّاهم ووعدهم أن يقوّدهم ويرئّسهم ويملّكهم الأموال. وحلف لهم الأيمان الغِلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم. ومَنْ وقع في يده من هؤلاء السادة مالكي العبيد كان يُسلمه لغلمانه ويأمر بضربه. فكانت حركته الأولى حركةً ضد الملاك، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة. وقال للزَّنج إن الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله، ودعا إلى مذهب الخوارج.

قال المسعودي: «كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج؛ لأن

أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحقّ القتل يشهد بذلك عليه. وله خطبة يقول في أولها: الله أكبر، الله أكبر! لا إلٰه إلا الله والله أكبر! ألا لا حُكمَ إلا لله!.. وكان يرى الذنوبَ كلها شركاً».

وكان عدد هؤلاء الزنوج كثيراً، وفيهم شجاعة نادرة ومِرَانٌ على القتال. وفي بعض الوقائع الحربية انضمّت الفرقة السودانية في الجيش العباسي إلى إخوانهم الزنوج فزادوهم قوة. وقد تملكوا في بعض الأحيان الأُبُلَّة وعبَّادان والأهواز ثم البصرة وواسط والنعمانية ورامهرمز. وكانوا يهزمون الجيوش العباسية المرة بعد المرة.

واغتنوا، فأصبح الزنوج يملكون البيض، بل خير البيض. يقول المسعودي: «وقد بلغ من أمر عسكره (أي عسكر صاحب الزنج) أنه كان ينادَى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم عن سائر العرب وأبناء الناس، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة، وينادى عليها بنسبها: هذه ابنة فلان الفلاني، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون، يطؤهنَّ الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف. ولقد استغاثت إلى علي بن محمد (صاحب الزنج) امرأةٌ من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه، فقال: هو مولاك وأولى بك من غيره».

وأخيراً تغلّب عليهم الموفَّق (أخو الخليفة المعتمد على الله) وابنه أبو العباس (الذي صار فيما بعد خليفة ولقّب بالمعتضد)، وقتل صاحب الزنج بعد أن خرب الزنج كثيراً من البلاد وأفنوا كثيراً من الناس. وقد

قتلوا من أهل البصرة وحدها في وقعة واحدة ثلاثمائة ألف. وقد تكلم الناس في قدر ما قُتل على أيدي الزنج في السنين الأربع عشرة، فمكثر ومُقِلّ. فأما المكثر فإنه يقول: أُفني من الناس ما لا يدركه العدّ ولا يقع عليه الإحصاء. والمقِلُّ يقول: أفني من الناس خمسمائة ألف. وكلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحدساً» انتهى.

ب ـ رواية حسن إبراهيم حسن[1].

«أثار الزنج ـ وهم طائفة من عبيد أفريقيا ـ القلق والرعب في حاضرة الخلافة العباسية. وكان مسرح هذه الثورات الجامحة العنيفة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة تلك المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط. وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم. وكانوا لا يتقاضون من الأجر شيئاً، بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة على أتمّ الاستعداد للخروج على ولاة الأمر فيهم.

وقد قاد هؤلاء الزنوج رجلٌ فارسي يسمى علي بن محمد، من أهالي الطالقان، ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي. كما ادعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى أيضاً العلم بالغيب وانتحل النبوَّة. ولكنه لم يجهر

---

(١) مؤرخ إسلامي معاصر. توفي سنة ١٩٦٨م. والكتاب الذي ننقل عنه هو «تاريخ الإسلام السياسي»، ج ٣، ص ٢٠٩ ـ ٢١٣.

بعقائد المذهب الشيعي على الرغم من ادعائه النسب إلى علي وفاطمة، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج.

وقد علّل نولدكِه هذه المفارقة بقوله: «لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه أنه تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديموقراطية أكثر من مذهب الشيعة الذي ينطوي على التوريث؛ وهو مما لا يلائم عقول مواطنيه، ومن ثَمَّ يتَّضح وضوحاً كافياً لماذا رفض حمدان قرمط ـ المؤسس الحقيقي لمذهب القرامطة؛ وهو المذهب الشيعي المتطرف ـ أن يرتبط بزعيم العبيد، متأثراً بعوامل مذهبية، على الرغم مما قد يفيده من اشتراكه معه في حركته ضد الدولة العباسية».

ومهما يكن من أمر فإن صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية، حتى إنّ أعداءه سمّوه «دعيّ عليّ» كما سموه «الخبيث».

قدم صاحب الزنج بلاد العراق، واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ)، ثم سار في سنة ٢٤٩هـ إلى البحرين، ودعا إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها، واستمال قلوبهم، حتى إنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه. فعظم شأنه وقويت شوكته، ولقيت دعوته قبولاً بين أهالي هجر والبحرين والعراق. ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤هـ، وأقام هناك سنة، «فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه».

وقد نقش صاحب الزنج على لوائه هذه الآيات من سورة التوبة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾. وقد أوّل صاحب الزنج هذه الآيات بأن المؤمنين ـ وقد اشتروا أنفسهم ـ لم يعودوا بعدُ عرضة للرق والعبودية، وبالتالي فإن ساعة القضاء على الرق والعبودة قد حانت. وهو تأويل سياسي قصد به تضليل أنصاره.

وسرعان ما قدم صاحب الزنج البصرة، فأسرع إليه بعض غلمانها رغبة في التخلُّص من الرقّ. ويقول ابن الأثير: «وأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليهم عبيدهم، فبطح أصحابهم، وأمر كل من عنده من العبيد، فضربوا مواليهم أو وكيلهم، كلٌ سيّد خمسمائة سوط، ثم أطلقهم».

وما زال الزنج يلتفّون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر، فخطبهم وصلى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعَنَت، ومنّاهم الأماني الطيبة من إطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التي يغنمونها في حروبهم. واتّخذ في مدينته التي بناها وسماها «المختارة» منبراً كان يصعد عليه ويسبّ عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة، على الرغم من ادعائه الانتساب إلى عليّ.

انتشرت جيوش صاحب الزنج في العراق وخوزستان والبحرين، ونهبوا القادسية، وهزموا أهالي البصرة، واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كان تحمل بعض الحجاج إلى مكة. وألقوا الرعب والفزع في قلوب الأهلين، حتى عجزوا عن مقاومتهم. وشكوا إلى الخليفة المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ) ما حلَّ بهم من بلاء، فأنفذ إليهم أحد قواده الأتراك. ولما ولي المعتمد الخلافة (٢٥٦ ـ ٢٧٠هـ) سيَّر جعلان أحد

قواد الأتراك لمحاربة صاحب الزنج بالبصرة، ونشب القتال بين الفريقين، فانتصر صاحب الزنج، وقُتل القائد التركي. واستولى الزنج على مدينة الأُبُلَّة ـ على مقربة من الخليج الفارسي وشط العرب حيث يتفرع دجلة والفرات ـ ثم استولوا على الأهواز. وخرّبوها، واضطر أهالي البصرة وما جاورها إلى مغادرة بلادهم والانتقال إلى المدن البعيدة عن مطامع الزنج.

وقد أدخل الزنج الفزع والرعب في قلوب كثير من أهالي البلاد الإسلامية، فاستولوا على البصرة سنة ٢٥٧هـ وذبحوا كثيراً من أهلها، وخربوا مسجدها العظيم، وأشعلوا النار في المدينة، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة.

وبعد ذلك دخلت جموع صاحب الزنج واسط ورامهرمز، فسيّر إليهم الخليفة المعتمد كثيراً من مشهوري قواده، من أمثال موسى بن بغا الذي قتل عدداً كبيراً منهم. غير أن هذه الهزيمة لم تفلَّ شوكتهم، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العباسية تتوالى. فبعث الخليفة المعتمد في طلب أخيه الموفَّق، أبي أحمد طلحة ـ وكان الخليفة المهتدي قد نفاه إلى الحجاز ـ وعهد إليه بقتال الزنج. وعلى الرغم من أنه حاز هو وموسى بن بغا شيئاً من النجاح في بعض المواقع، فقد انطلقت جيوش الزنج في غزو العراق وخوزستان والبحرين بشكل جماعات منظمة غايتها السلب والنهب، وألقوا الفزع والرعب في نفوس الأهلين.

ولما اطمأن الموفَّق من ناحية أعدائه الآخرين (الصفّاريين والأكراد والخوارج والعلويين) تفرَّغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه.

وخرج من بغداد إلى واسط في شهر صفر سنة ٢٦٧هـ، وهزم فريقاً كبيراً منهم وأسر بعضهم. وما زالت انتصارات الموفَّق تتوالى على الزنج حتى أجلاهم عن الأهواز، وحاصر مدينتهم «المختارة»، وبنى بإزائها مدينة سمَّاها «الموفقيَّة» نسبة إليه. وقطع أبو العباس بن الموفَّق الميرة عن صاحب الزنج، ثم استولى أبوه على الجزء الغربي من هذه المدينة. واضطر بعض زعمائهم إلى طلب الأمان بعد أن تضاءل أملهم في إحراز النصر. وبدأ بقية الثائرين ينضمون إلى الموفَّق، فأمَّنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم. وأخيراً سقطت قلعتهم، وقُتل «الخبيث». وقد قُتل صاحب الزنج في الثاني من صفر سنة ٢٧٠هـ، فعُلّق رأسه على رمح، وطيف به في بغداد وسط معالم الزينة، واستطاع الناس العودة إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج.... وأشاد الشعراء بذكر هذا الانتصار». انتهى.

هاتان الروايتان (أحمد أمين وحسن إبراهيم حسن) تمثلان نموذج المقاربة السلبية لثورة الزنج. فبعد أن تشيرا بشكل سريع إلى الظروف الصعبة التي كان يعيش فيها الزنج، فإنهما تركّزان على جرائم الزنج ووحشيتهم، كما على الخداع والشعوذة في شخصية قائدهم علي بن محمد. وإذ رأى أحمد أمين أن تلك الثورة كانت عبارة عن «انتقام السود من البيض»، فقد رأى حسن إبراهيم حسن ـ في جانب منها ـ انتقاماً للفرس من العرب. وكلا الافتراضين غير دقيق، لا بل غير سليم.

ثانياً: قصة الزنج برواية مؤيّدة لهم ومتعاطفة:

ظهرت هذه الرواية في مؤلفات بعض المؤرخين والدارسين

المحدثين، لا سيما ذوي الاتجاهات الثورية واليسارية الحديثة، من أمثال محمود إسماعيل وحسين مروة وأحمد عُلبي وغيرهم. وينظر هؤلاء إلى ثورة الزنج ـ كما إلى ثورة القرامطة في سواد الكوفة، وثورة البابكيين في بلاد فارس ـ على أنها حركات اجتماعية تقدمية في تاريخ الاجتماع الإسلامي، استناداً إلى نظرية الصراع الطبقي بين قوى الإنتاج المسحوقة وبين مالكي أدوات الإنتاج وزمام السلطة السياسية، بتحالف وثيق مع «السلطة الدينية». وفيما يلي مثال على هذه المقاربة، بقلم الباحث اليساري اللبناني حسين مروة، في كتابه «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية».

ثلاث ثورات اجتماعية في القرن الثالث الهجري (البابكية ـ الزّنج ـ القرامطة)[1]

لقد حفل القرن الهجري الثالث بانتفاضات جماهيرية وحركات ثورية عدة حدثت في العراق ومصر وبعض مناطق شبه الجزيرة العربية وفي الأقاليم الآسيوية البعيدة التابعة يومئذ لدولة الخلافة. هذه الانتفاضات والثورات شارك فيها فئات اجتماعية واسعة من الكادحين والمستضعفين، لا سيما الفلاحون، في المجتمع العربي ـ الإسلامي، في حين كانت هذه الفئات تنتسب إلى مختلف الأقوام والشعوب التي كان يتألف منها هذا المجتمع. وإذا كان بعض هذه الثورات

(١) نقلاً عن حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، الجزء الثاني، ص ١٢ ـ ٢٧.

والانتفاضات اصطبغ بصبغات مذهبية أو دينية أو نزعات فلسفية، فإن الدراسة التاريخية العلمية تكشف أن الدافع الاجتماعي كان هو المحرك الغالب لمعظم الانتفاضات التي شهدها القرن الثالث، والتي امتد بعضها منه إلى القرن الرابع الهجري. يكفي أن نذكر منها هذه النماذج الثلاثة: ثورة **الزنج**، وثورة **القرامطة**، والثورة **البابكية الخرميَّة**. فقد كان لهذه الثورات الثلاث من الدلالات الاجتماعية ما يساوي الخطر الذي هددت به النظام الاجتماعي لدولة الخلافة من أساسه. ولهذا يمكن القول إن الفترة الزمنية التي بلغ فيها خطر هذه الثورات الثلاث ذروته قد اتسمت بنوع من التوتر قد لا يكون له مثيل في معظم فترات التاريخ الإسلامي الحادة، على كثرة ما حفل به هذا التاريخ من فترات التوتر الحاد.

لا يمكن القول إن المصادفة وحدها جمعت الثورات الثلاث على صعيد القرن الثالث بعينه، بل هناك الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية التي هيأت هذا القرن لأن يستقبل في مستهله ثورة البابكيين (٢٠١ ـ ٢٢٣هـ) في جبال قرطاغ على حدود أذربيجان، ثم يستقبل في مطلع نصفه الثاني ثورة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ) في البصرة، ثم لا ينقضي نحو عشر سنين بعد اشتعال ثورة ثورة الزنج هذه حتى تبدأ حركة القرامطة تلقي بذور ثورتها في سواد الكوفة (٢٦٤هـ) لكي تنمو وتنتشر طوال النصف الثاني من القرن نفسه، في العراق وسورية والبحرين، إلى أن تبسط ظلالها على القرن الرابع الهجري وما بعده.

أما الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية التي نعنيها هنا فإنما هي الامتداد الكمي للآثار والظاهرات التي كان يخلقها النظام الاجتماعي

القائمة على أساسه دولة الخلافة الإسلامية، أموية كانت أم عباسية. وهذا النظام يتميز، منذ قيام الدولة الأموية، باقتصاده الزراعي - التجاري المتداخل، وبالسمة الأساسية لعلاقاته الإنتاجية: أي الملكية الاقطاعية **والاستثمار الإقطاعي**، متمثلاً كل ذلك مباشرة برؤوس الفئة الحاكمة حكماً مطلقاً باسم الإسلام.

إن آثار هذا النظام وظاهراته كانت تمتد، بصورة **كمية**، على مدى القرنين الهجريين الأولين، فلما جاء القرن الثالث كان قد بلغ الامتداد الكمي حداً يؤذن بمثل تلك الانفجارات النوعية التي كانت الثورة البابكية وثورة الزنج وحركة القرامطة، أبرز نماذجها في ذلك القرن **المتفجر**.

بدأت علاقات الإنتاج الإقطاعية في دولة الإسلام - زمن **معاوية** الأول بخاصة وفي بلاد الشام أولاً ثم العراق - بداية حيوية جددت شباب الإقطاعية الرومانية والساسانية التي كانت قبل دولة الإسلام تعاني مرحلة انحدار وتناقض حاد مع قوى الإنتاج البشرية (العبيد والأحرار معاً). غير أن الفئة الحاكمة الإسلامية دخلت طرفاً مباشراً في عملية الإنتاج الزراعي، أي أنها دخلت العملية، لا بصفتها سلطة سياسية ممثلة لفئة الإقطاعيين وحسب، بل كذلك بصفتها المالك الأكبر للأرض والمستثمر الإقطاعي الأكبر.

وهذا الواقع أخذ يحدث - تدريجاً - تأثيرات سلبية في تطور العلاقات الإقطاعية وتطور القوى المنتجة العاملة في الأرض؛ إذ أخذت السلطة، بصفتيها معاً: الاقتصادية والسياسية، ترهق هذه القوى (الفلاحين والشغيلة الزراعيين) بالعمل وبالمزيد من الضرائب وسوء

جبايتها، فتعرقل نموها، بل تضعف حيويتها، وتدفعها أخيراً إلى التخلي عن العمل في الأرض والهجرة عنها إلى العمل في المدن، أو إلى البطالة. ثم دخل عملية الإنتاج الزراعي عنصر آخر، عند ازدهار التجارة في العصر العباسي الأول، هو توظيف حاصل المرابح التجارية باستثمار الأرض. هذا العنصر الجديد دخل العملية بطريق استملاك كبار التجار أراضي صغار الفلاحين وترك هؤلاء فقراء معدمين. وهناك عنصر ثالث كان بالغ التأثير على القوى المنتجة الزراعية، هو اضطرار الكثير من مالكي الأرض، هرباً من وطأة الضرائب وقسوة الجباة، إلى تسجيل أراضيهم، في ديوان الخراج، بأسماء بعض رجال السلطة النافذين لقاء جزء من نتاج الأرض يدفعه المالك الأصلي لرجل السلطة نفسه الذي «رضي» أن تسجل باسمه!

غير أن هذه الأراضي كانت تنتهي أخيراً إلى ملكية الفئة الحاكمة وصيرورة الفلاحين الأصليين ملحقين بالأرض كزراعيين كادحين فقط، أو مهجرين عنها إلى أعمال أخرى لكسب ضرورات العيش.. هكذا أصبحت عوامل تركيز العلاقات الإقطاعية وتوطيدها بهذ الطرق، هي نفسها عوامل إضعافها وتخلفها الإنتاجي، فضلاً عن إفقار جماهير واسعة من كادحي الأرض وتعطيل قوى هذه الجماهير عن استغلال خيرات الأرض.

ولكن بحكم السمة العامة، أي السمة الإقطاعية، للنظام الاجتماعي الذي تمثله وتدعمه دولة الخلافة، كان التجار الكبار، فضلاً عن الصغار يحسبون ـ من حيث المكانة الاجتماعية ـ جزءاً من طبقة «العامة» في نظر الأرستقراطية الإقطاعية الحاكمة. ذلك بالرغم من أن

موقع التجار في البنية الاقتصادية للمجتمع كان موقعاً أساسياً (نظراً لأنه كان مجتمعاً زراعياً ـ تجارياً من حيث الأساس بصورة متداخلة كما أشرنا سابقاً) وبالرغم من الفاعلية العملية لفئة كبار التجار في النشاط السياسي، بفضل الإمكانات المادية التي كانت تتيح لهم التأثير حتى في إجراءات الحكام من مختلف الدرجات. من هنا كان يحدث التناقض غالباً بين الأرستقراطية الإقطاعية وكبار التجار. ولكنه لم يخرج عن كونه تناقضاً بين فئتين من طبقة واحدة، هي الطبقة المسيطرة اقتصادياً، التي تتناقض مصالحها، ككل، مع مصالح جماهير الفلاحين وسائر كادحي الريف وصغار الحرفيين وصغار التجار.

* * *

كل هذه الظاهرات الاقتصادية ـ الاجتماعية كانت تؤلف السمات العامة لمجتمع دولة الخلافة بمختلف أقاليمه وشعوبه، ولكن هناك خصائص محلية كان يتفرد بها هذا الإقليم أو ذاك إضافة إلى تلك الظاهرات العامة. من هنا تختلف إحدى الانتفاضات أو الثورات عن الأخرى، في القرن الثالث، تبعاً لاختلاف تلك الخصائص المحلية، بالرغم من اتفاقها جميعاً من حيث عواملها ودوافعها الاجتماعية، ومن حيث الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية العامة التي هيأت لها أسباب الانفجار.

١ ـ **ثورة البابكيين**: بالرغم مما قيل عن أسبابها المذهبية[1] أو

---

(١) يضفي البغدادي مثلاً، على ثورة البابكيين (نسبة إلى قائدها بابك الخرمي) صفة دينية مذهبية وقومية إذ يقول: «إن الخرميين كانوا على مذهب المزدكين» (الفرق بين الفرق ـ ص ٢٦٧).

«القومية»، لدينا من الدلائل ما يثبت كونها ثورة اجتماعية لها أساسها الطبقي الواضح. فإن الدوافع الاقتصادية ـ الاجتماعية هي في أساس التجمع الجماهيري الفلاحي الهائل حول هذه الثورة في منطقة آسيوية واسعة وبين «قوميات» عدة؛ إذ اشترك فيها الكثير من فلاحي الفرس والكرد والأرمن والروم وغيرهم من قبائل ما وراء القفقاس. ذلك أن قوانين علاقات الإنتاج الإقطاعية التي كانت سائدة بأشكالها القديمة الساسانية في تلك المنطقة (أذربيجان وما جاورها من الأقاليم الفارسية)، كانت تحصر حق ملكية الأراضي واستثمارها في فئة قليلة العدد من الدهاقين والخانات[1] تستغل الفلاحين وشغيلة الأرض استغلالاً تعسفياً دون فرق بين العبيد والأحرار، ولم تغيِّر دولة الخلافة الإسلامية تغييراً أساسياً في أشكال هذه العلاقات أو في أوضاع شغيلة الأرض المضطهدين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ثورة البابكيين تقدمت ببرنامج اقتصادي ـ اجتماعي ثوري كان الجزء الأساسي والجذري فيه «نزع الأراضي الواسعة من أربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين أو الدولة، وتوزيعها على المزارعين المحتاجين» نقول: إذا أضفنا هذا الواقع إلى واقع العلاقات الإنتاجية الإقطاعية بأشكالها الساسانية المختلفة، تبين لنا أن **الطابع الطبقي** كان بالفعل أبرز سمات هذه الثورة. يؤكد هذا الاستنتاج أننا لم نجد في المؤلفات التاريخية التي تحدثت عن هذه الثورة ما يدل على أنه كان لها برنامج ديني محدد يقوم

---

(١) الدهقان (بضم الدال وفتحها) كلمة فارسية تعني رئيس الإقليم ثم استعملت للدلالة على كبار مالكي الأرض، و«الخان» لقب كان يعني السلطان عند الأتراك واستعمل للدلالة على الأمير الإقطاعي.

على فلسفة معينة أو عقائد دينية أو مذهبية تؤيد انتسابها الذي زعموه إلى المزدكية والزرادشتية، بالرغم من الأخبار المستفيضة التي تنسب إلى ثورة البابكيين كل ما يشوّه أهدافها الاجتماعية الثورية.

٢ ـ ثورة الزنج: ترتبط هذه الثورة ارتباطاً مباشراً بأسوأ ظاهرات الاستغلال الإقطاعي للقوى البشرية المشتغلة في الأرض. والمواجهة هنا مباشرة أيضاً هي بين هذه القوى وبين مالكي الأرض. ولكن الظاهرة الخاصة هنا تكمن في أن الفلاحين الأصليين في منطقة البصرة من جنوب العراق كانوا، تحت وطأة الضرائب وقسوة الجباة، يضطرون لهجر العمل في الأرض، خصوصاً بعد أن أصبحوا لا يملكون منها شيئاً منذ اتخذت دولة الخلافة خطة إقطاع التجار الأثرياء أراضيها للتخلص من أعباء استثمارها وإقبال هؤلاء التجار على توظيف أرباحهم من التجارة في استملاك المزيد من أراضي الفلاحين الصغار. فأدى ذلك أولاً إلى تعرية هؤلاء الفلاحين من ملكياتهم الصغيرة بصورة شملت أوسع الجماهير الفلاحية. وأدى ثانياً إلى انتشار الملكيات الزراعية الكبيرة على نحو احتاج معه استثمار هذه الملكيات إلى كثافة الأيدي المشتغلة في الأرض، على حين كانت هجرة الفلاحين عن الأرض تتعاظم باستمرار تخلصاً من إرهاق الإقطاعيين الجدد لهم بتشديد العمل مع قليل من العائدات المادية للعيش.

هذه الظروف دفعت «أصحاب الإقطاعات» أن يبحثوا عن قوى للإنتاج من الأيدي العاملة الرخيصة، فوجدوا ضالتهم في زنج شرقي إفريقيا، فجلبوهم بأعداد هائلة، وحشدوهم في منطقة البصرة حيث نشبت ثورتهم. كان على هؤلاء الزنج أن يعملوا في منطقة البصرة، بالأرض، تحت وطأة أقسى ظروف العمل وأسوأ أحوال العيش والشروط الصحية،

يفتك بهم سوء الغذاء وجهد العمل وانتشار الأوبئة، مع حرمانهم الجانب الإنساني ببعدهم عن أوطانهم وأهاليهم. نرى إذن أن هذه الجماعة المضطهدة من شغيلة الأرض كانت مشبعة بدوافع الانفجار وعوامل الحقد الاجتماعي المشروع حين وجدت في «علي بن محمد» معبِّراً عن هذه الدوافع وقائداً منظماً لها. من هنا كانت استجابة الزنج له سريعة.. لقد هزت ثورة الزنج دولة الخلافة هزة عنيفة بما اكتسحت، خلال خمسة عشر عاماً، من مدن وقرى وأراضي عامرة، وبما هزمت من جيوش للدولة، وبما هددت به النظام القائم من أخطار، ثم بما عطلت من فاعليات اقتصادية: زراعية وتجارية، وما كلفت خزينة الدولة من تكاليف لم تكن هذه الخزينة قادرة على تحملها في ذلك الحين.

صحيح أن ثورة الزنج هذه لم يكن لها برنامج يحدد أهدافها، لكن فقدانها البرنامج ليس يرجع إلى نقص في مضمونها الاجتماعي الثوري التاريخي، بل يرجع إلى مدى الثغرة الأيديولوجية بين جماهير الثورة وقيادتها. فإن «علي بن محمد» حين تصدى لقيادة ثورة الزنج هذه لم يكن لديه أي دافع طبقي أو فكري يؤهله لحمل أيديولوجية هذه الفئة الاجتماعية المسحوقة. لذلك لم يكن مؤهَّلاً لصياغة أيديولوجيتها في شكل برنامج يحدد أهداف ثورتها، على حين كانت هي - أي فئة الزنج - من التخلف الاجتماعي والذهني بحيث لا تستطيع صياغة هذا البرنامج. وتنبغي الإشارة أخيراً، إلى أن ثورة الزنج هذه في البصرة هي الثالثة من نوعها[١]، وإن كانت هي الكبرى بينها[٢].

---

(١) كانت الثورة الأولى زمن الحجاج - نقلاً عن البلاذري: أنساب الأشراف ص ٣٠٣- وكانت الثانية زمن المنصور - نقلاً عن وكيع: أخبار القضاة جـ ٢، ص ٥٧.

(٢) كانت ثورة الزنج طبقية محضة ولم تكن عنصرية بين سود وبيض، بدليل =

٣ ـ حركة القرامطة[1]: هذه حركة ذات جانب ثوري كانت لها نظريتها وأيديولوجيتها، ووضعت لنفسها خطة وبرنامجاً يتفقان مع نظريتها وأيديولوجيتها. غير أن هذا الواقع بالذات كان السبب ـ كما يبدو ـ في إحاطة تاريخها وأيديولوجيتها بكثير من الغموض. أما كتب تاريخ المذاهب والفرق في الإسلام فهي تتحدث عنها ـ غالباً ـ من طرف واحد، أي من طرف خصومها، لأن مصادرها المباشرة، أي مؤلفات القرامطة أنفسهم، اكتنف مصيرها الغموض كذلك. إن هذه الظاهرة بذاتها هي من الدلائل على كون هذه الحركة كانت في الموقع المعارض لأيديولوجية الدولة الرسمية ومن تمثلهم الدولة من الإقطاعيين، وكذلك رجال الدين من المحافظين. وبقطع النظر عن تفصيل الخلاف، بين مؤرخي الفرق والمذاهب في الإسلام، بشأن

= ظروفها الاقتصادية ـ الاجتماعية، وبدليل أن قيادتها من البيض (قائدها الأول علي بن محمد وأعوانه: علي بن أبان، ويحيى بن محمد، ومحمد بن سلم) وأن جماعات كبيرة من الأعراب ومن الفلاحين غير الزنج قدموا لهذه الثورة مساعدات قيمة من حيث تموين جيوشها.

(١) المرجح أن اسم القرامطة يرجع إلى كون أول من فهم الحركة، ونشرها في منطقة الكوفة، ومنها انطلقت إلى حيث عرف التاريخ مناطق انتشارها، كان اسمه «حمدان قرمط». كان حمدان هذا كادحاً زراعياً بسيطاً في إحدى القرى المجاورة للكوفة، ثم اتصل به أحد دعاة الإسماعيلية المعروف بالحسين الأهوازي (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م)، فأدخله حظيرة الدعوة وعهد إليه أمر التبشير بها في تلك الناحية وتنظيم أتباعها. لكن القرامطة أنفسهم لم يكونوا يسمون جماعتهم بهذا الاسم الذي عرفوا به، بل كانوا يسمون أنفسهم: «المؤمنون المنصورون بالله والناصرون لدينه والمصلحون في الأرض».

علاقة القرامطة بالإسماعيلية، نميل إلى الرأي القائل بأن حركة القرامطة نبعت من الحركة الإسماعيلية، ثم حدثت فجوات بينهما نرجح أن مصدرها عملي سلوكي وسياسي أكثر منه فكرياً أو أيديولوجياً أو مذهبياً. . . والمهم في موضوعنا الآن أن نرى كيف دخلت حركة القرامطة حياة جماعات كبيرة من صغار الفلاحين وسائر كادحي الريف والحرفيين وغيرهم من الكادحين والمعدمين من سكان المدن في منطقة واسعة بين البصرة والكوفة من العراق، وفي منطقة البحرين، وبعض مناطق بلاد الشام، بل بعض نواحي اليمن في جنوب الجزيرة، وكيف اجتذبت الحركة هؤلاء الناس المستضعفين والمضطهدين[(١)]، وجعلت منهم جيشاً مسلحاً يقاتل بحماسة جيوش الخلافة العباسية هنا وهناك، وأقامت لهم جمهورية في البحرين كانت تعبيراً عن أحلامهم الطبقية المبهمة الحدود يومئذ، وعاشت هذه الجمهورية مستقلة عشرات السنين كتجربة تاريخية فريدة من حيث موقعها المكاني والزماني ومن حيث مضمونها الثوري.

نفهم من المقريزي مثلاً، أن دعوة القرامطة في نواحي الكوفة قد انتشرت بين مختلف القبائل العربية القاطنة يومئذ هناك، إضافة إلى

---

(١) يقول البغدادي (الفرق بين الفرق ص ١٤٢) عن هؤلاء الناس الذين استجابوا للدعوة القرمطية من قبائل جنوب العراق وبادية الشام بأنهم كانوا مضرب الأمثال في الفقر. والدمشقي، أبو الفضل (الإشارة في محاسن التجارة ـ القاهرة ١٣١٨هـ ـ ص ٤٣) يصف أهل الحرف وعامة الشعب، الذين انضموا لهذه الدعوة من سكان المدن بأنهم كانوا أكثر الأحرار فقراً.

النبط[١] العاملين بالزراعة في سواد الكوفة، حيث كان لها تنظيم دقيق يعمل سراً بمهارة ودأب، وكان دعاتها على صلة مستمرة بالأعضاء والمنظمات وفق خطط منسقة للاطلاع على شؤونهم وسير الدعوة بينهم. لقد ظهرت براعة حمدان قرمط التنظيمية في هذا المجال يعاونه اثنا عشر نقيباً اختارهم من بين الدعاة على نحو ما كانت تعمل الإسماعيلية. هذا الأسلوب التنظيمي الدقيق رافقه تنظيم مالي ساعد في توسيع مجال الدعوة بين جماهير الفلاحين الفقراء وكادحي الريف والحرفيين الصغار في العراق. يقوم التنظيم المالي هذا، أولاً، على فرض ضرائب معينة على الأتباع، ويقوم ثانياً، على توزيع الأموال المتجمعة من الضرائب والممتلكات التي تنازل عنها أصحابها لمصلحة الدعوة توزيعاً بين الأتباع حسب حاجاتهم. كما أمكن الاستفادة من هذه الأموال ببناء قلعة حصينة لهم قرب الكوفة سنة ٢٧٧هـ سميت «دار الهجرة»، وبتسليح الأتباع تقوية لحركتهم ولفرض هيبتها في نفوس الناس واستعداداً للثورة. ولكن دولة الخلافة لم تبد اهتماماً يذكر بهذه الحركة إلا منذ عام ٢٨٧هـ ٩٠٠م وأثناء خلافة المعتضد

(١) النبط: «قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين وسموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين، ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم» (المنجد ـ مادة نبط). ويقول د. عبد العزيز الدوري إن لفظ النبط يطلق على فلاحي العراق القدماء الذين يتكلمون الآرامية ودخل هؤلاء في جملة الفرس وانتسبوا إليهم بعد إضعاف الفرس لهم، ثم أسلموا وكانوا يتكلمون لغة عربية ركيكة، لكنهم تمسكوا بتقاليدهم السابقة للإسلام، وقد استقر بينهم بعض البدو وأصبح الجميع سواديين (الدروي: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ـ بغداد ١٩٤٨، ص ٢٦).

العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠١م). فقد بدأت الدولة منذ ذلك الحين تشتد في مطاردة القرامطة إذ أحست بخطر حركتهم اجتماعياً وأيديولوجياً، فضلاً عن خطرها على السلطة السياسية للخلافة. ويدلنا على مدى هذا الخطر عمقاً واتساعاً ما ذكره ابن الأثير من أن أحد قواد جيش المعتضد فاجأ القرامطة في أحد مراكزهم من منطقة الكوفة عام ٢٨٧هـ، فقتل رؤساءهم وأسر الآخرين ولكنه اضطر إلى تسريحهم جميعاً لأنهم كانوا من الفلاحين، ولأن قتلهم أو إبقاءهم في الأسر يومئذ يعني تعطيل الأرض هناك من الزراعة. ففي هذه الواقعة دلالة على الجانب الطبقي من القضية أولاً، وعلى كثرة الفلاحين الداخلين في الدعوة القرمطية ثانياً، إلى حد أن غيابهم عن الأرض كان يؤدي إلى شلل حركة الزراعة في المنطقة. ومنذ هذه الواقعة تتابعت الحركات المسلحة للقرامطة في العراق، دون أن تستطيع جيوش الخلافة العباسية القضاء على حركتهم. وخلال هذا الصراع الدامي بين الدولة والقرامطة في العراق استطاع أحد زعمائهم التسلل إلى بلاد الشام عام ٢٨٩هـ/ ٩٠١م فأسس هناك بؤرة جديدة للحركة القرمطية المسلحة وسعت مجال الدعوة من جهة، وأطالت زمن هذا الصراع الذي أفقد سلطة الخلافة سيطرتها على كثير من الأقاليم من جهة ثانية. ثم زاد خطر هذه الحركة في مواجهة النظام الاجتماعي لدولة الخلافة، حين نجح أحد الدعاة القرمطيين[1] الذي أرسله حمدان قرمط إلى البحرين داعياً للحركة. فقد وجد أبو سعيد الجنابي في

---

(١) هو أبو سعيد الجنابي، نسبة إلى قرية في جنوب إيران تسمى «جناب». وأبو سعيد هذا كان كادحاً يشتغل بترقيع أكياس الطحين لقاء أجر بخس جداً.

البحرين استجابة واسعة للدعوة بين سكان المدن هناك وسكان البادية أيضاً، إذ نشر فيهم فكرة **المؤاخاة** الشاملة بين الناس، مهما **اختلفت انتماءاتهم الدينية والعرقية والجغرافية**. وأثار فيهم كذلك أحلام السعادة في الحياة على هذه الأرض دون انتظار السعادة الأخروية الموعودين بها في الأديان.

منذ أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين، تركزت قوة المواجهة المسلحة بين القرامطة ودولة الخلافة في جبهة قرامطة **البحرين**. فقد ظلت قوى هذه الجبهة القرمطية تتعاظم ويستعصي على جيوش الخلافة إخضاعها حتى انسلخت منطقة البحرين عن سلطة الخلافة، واستقلت دولة البحرين القرمطية في عهد سليمان أبي طاهر أحد أبناء أبي سعيد الجنابي. وذلك أثناء عشرينات القرن الرابع. وحينئذ نشأت أول **جمهورية** عربية في العصر الوسيط، بل في تاريخ العرب كله، لها نظريتها وأيديولوجيتها وبرنامجها الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ السياسي. فهي دولة من طراز جديد كل الجدة في عصره، لا تقوم على الدين، بل هي أقرب إلى العلمانية بمفهومها المعاصر. صحيح أن الدعوة القرمطية رفعت، أثناء كفاحها في العراق، شعارات ذات وجه ديني مذهبي، لا سيما شعار الطاعة **للإمام الخفي** المنتظر. لكن ظهر، بعد قيام جمهورية البحرين، أن فكرة الإمام هذه ليست أبعد من كونها فكرة اجتماعية في شكل ديني. لكن أعمال التخريب وسفك الدماء التي ارتكبتها الجمهورية القرمطية، بفظاظة، تجاه الكعبة والحجاج المسلمين، كانت تعبيراً **غير موفق** عن مكافحة ما يعتقده القرامطة «وثنية»، من جهة، وتعبيراً ـ من جهة ثانية ـ عن محاولتهم إضعاف هيبة دولة الخلافة بإظهارها لدى الرأي العام الإسلامي أنها

عاجزة عن حماية أقدس الأماكن والشعائر الإسلامية وعن تحقيق سلامة حجاج هذه الأماكن المسلمين. وكذلك شأن الهجمات الفظيعة التي اقترفها قرامطة البحرين حيال مدينتي الكوفة والبصرة أكثر من مرة. ولسنا نعتقد أن النهب والقتل كانا مقصودين لذاتيهما، بل وسيلتين للجمهورية القرمطية استغلهما المحافظون وممثلو الأيديولوجية الرسمية لإضفاء الطابع الهمجي على حركة القرامطة بذاتها.

كل ما يمكن قوله، بشأن عقيدة مؤسسي جمهورية البحرين القرمطية، أنه كانت لهم فلسفة، ولم تكن لهم عقيدة بالمعنى الديني. تتمثل هذه الفلسفة بفكرة **«تأليه» العقل، أو «عقلنة» الله**. فهم يقولون بـ**«العقل الأعلى»** الذي هو الله، أو الحكمة العليا. لقد ألغوا الطقوس والشعائر الدينية كلياً، ولكن ذلك لم يمنع أن يرى ناصر خسرو في الأحساء، أثناء زيارته جمهورية القرامطة سنة ١٠٥٢م، مسجداً بناه أحد الفرس السنيين هناك، وأن يشهد لهم هذا الرحالة الفارسي بأنهم «لا يمنعون أحداً من إقامة الصلاة، أما هم فلا يقيمونها». لقد كان البغدادي على حق، إذن، بقوله عنهم أنهم «ينكرون الرسل والشرائع كلها» إذا كان القصد بالشرائع لاهوتيات الأديان. **أما النظام السياسي لجمهورية** البحرين، فقد كان يختلف، جوهرياً، عن الأنظمة السياسية الأولغارشية *(Oligarchies)* السائدة في العصر الوسيط، إذ كان للجمهورة شكل من القيادة **الجماعية**. فهناك حكومة يرأسها ستة أشخاص يؤلفون ما كانوا يسمونه مجلس **«العقدانية»**، الذي كان ينتخب مواطنو الجمهورية أعضاءه من أسرة سليمان أبي طاهر وأعوانه المقربين أو غيرهم ممَّن يثقون بهم من ذوي الدرجات العالية في **منظمة** الحركة، وهناك ستة وكلاء لأعضاء «العقدانية» يجلسون على تخت وراءهم، أو

يجلسون على مقاعدهم حين يغيبون عن الجلسات. ومجلس «العقدانية» هذا يصدر مقرراته في شؤون الجمهورية بالإجماع. ويبدو أن هذا الشكل من النظام السياسي ظل متبعاً في جمهورية البحرين حتى الزمن الذي زار فيه ناصر خسرو هذه الجمهورية (سنة ١٠٥٢م).

ومما وصل إلينا من تشريعات «العقدانية» الباكرة إلغاء ضرائب الأراضي، وإلغاء الرسوم، وسن نظام ضرائبي لا يرهق المواطن المكلف، مثل وضع ضريبة على المراكب التي تمر في الخليج، وضريبة على أهل مقاطعة عمان، وضريبة على الحجاج الذين يقصدون مكة والمدينة كل عام، وضريبة على صيادي اللؤلؤ في مياه البحرين والخليج. وتأتي بقية الموارد المالية من الضرائب التي تفرضها الجمهورية، سنوياً، على بعض مدن العراق وقراه، بالإضافة إلى موارد الثروة الداخلية من ثمرات أرض البحرين وعمان التي كانت من أخصب أراضي جزيرة العرب. وبفضل السياسة المالية السليمة المنظمة صح القول بأن «مالية البحرين بلغت في عهد القرامطة درجة لم تبلغها (. . .) في دور آخر من أدوار تاريخها». أما نوعية ملكية الأرض فليس لدينا حتى الآن من المصادر ما يوضح هذه القضية، ولكن يمكن أن نفهم من ناصر خسرو ما يلقي عليها بعض الضوء. فهو يخبرنا أن هناك ثلاثين ألفاً من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب «العقدانية» وهي الحقول والبساتين التي اشترتها بمال الأمة، وأن الشعب هناك لا يؤدي لحكومته ضرائب ولا أعشاراً، وأنه حين يصيب أحدهم فقر، أو يقع تحت دين لا يستطيع وفاءه، تسلفه «العقدانية» ما يحتاج إليه دون فائدة، وأن حكومة الجمهورية كانت إذا دخل الأحساء غريب ذو حرفة تسلفه ثمن أدوات العمل حتى يعمل في حرفته ويكسب عيشه ويسدد

السلفة دون فائدة، وأنه كان إذا أصابت صاحب بيت أو طاحون مصيبة وكان ضعيفاً أمدته «العقدانية» بالشغيلة لترميم بيته أو طاحونه ذلك بالإضافة إلى قوله بأن في الأحساء طواحين للحكومة تطحن للناس قمحهم دون أجرة، وأنه لم يبق في البلاد فقير، ثم بالإضافة إلى أن التجارة الداخلية والخارجية كانت في يد الحكومة، وأن أرباحها تنفق على المصالح العامة وتحسين أعمال المزارعين والشغيلة.

إن هذه الواقعات تكشف أن شكلاً من «القطاع العام» في جمهورية البحرين كان هو الطابع الغالب للمؤسسات الاقتصادية ـ الاجتماعية. وهذا هو الوجه الثوري الأساسي لهذه التجربة الفريدة في تلك العصور. ومن هنا بالذات تنبع قوة الصمود التي صانت هذه التجربة عشرات السنين رغم كونها محاطة بالقوى المعادية لها طبقياً وأيديولوجيًا، وكانت تعمل بكل جهد لخنقها قبل أن تصبح مثالاً خطراً على النظام الاجتماعي العام لدولة الخلافة، ودويلاتها بعد ذلك. وحين لم تستطع خنقها شوهت تاريخها وطمست إيجابياتها ولم تدع ما يبرز منها للتاريخ سوى سلبياتها وأخطائها التي كانت أخطاء فادحة بالفعل.

٤ ـ اهتزاز أيديولوجية الخلافة: إن وقفتنا أمام النماذج الثلاثة السابقة من الثورات والانتفاضات التي واجهتها دولة الخلافة على مدى القرن الثالث الهجري وامتداد آثارها إلى ما بعد هذا القرن، لم تخرج بنا عن دائرة الموضوع الذي نحن بصدده. والواقع أننا تعمدنا هذه الوقفة كي نكشف عن جوهر هذه النماذج الثلاثة، من أجل أن يساعدنا ذلك في إيضاح ما كانت تعانيه دولة الخلافة، في تلك المرحلة، من

اهتزاز وتصدع يتعرض لهما النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي نفسه الذي تقوم عليه المؤسسات السياسية والحقوقية والأيديولوجية. وقد انعكس هذا الاهتزاز والتصدع على الأجهزة العسكرية وأنظمتها المالية عجزاً عن أداء دورها في خدمة أهداف النظام، بل عجزاً عن حماية النظام ـ بالدرجة الأولى ـ من الحركات الاجتماعية والانتفاضات الجماهيرية المسلحة وغير المسلحة. فإن الواقع الذي لحظناه من استفحال الثورات الثلاث المذكورة وغيرها[1]، لم يكن ناشئاً ـ بالأساس ـ عن الضعف المتمكن في جيوش الدولة وأوضاعها المالية بقدر ما كان هذا الضعف نفسه ناشئاً عن علل النظام وضعفه وعجزه. يتحدث المؤرخون كثيراً عن الآثار السلبية لتغلغل نفوذ الأتراك في مختلف مرافق الدولة، وعن نقمة الجماهير الشعبية من تفاقم هذا النفوذ إلى حد التصرف لا بوصول الخليفة أو ذاك إلى سدة الخلافة فقط، بل حد التصرف كذلك بحياة الخلفاء، أي بقتلهم جسدياً. لكن المؤرِّخين هؤلاء لم يحاولوا أن ينفذوا إلى ما وراء هذه الظاهرة في الواقع المادي الملموس. إن العلة الكامنة وراء الظاهرة هذه تبدأ، حقيقة، بنشوء ما قد يصح أن نسميه

(١) نذكر من أمثلة ذلك: تمرد أبي حرب المبرقع اليماني الذي حدث في خلافة المعتصم بن الرشيد. فقد ظهر أبو حرب هذا في جبال الأردن، معلناً العصيان على الدولة وهو يضع على وجهه برقعاً في النهار يخفي به نفسه، فاستجاب له كثير من فلاحي تلك المنطقة، ولم تستطع الدولة القضاء على حركته إلا في موسم الزرع، أي وقت انشغال الفلاحين أتباعه بحراثة الأرض.. ونذكر أيضاً ثورة الحسن بن زيد العلوي وتكوينه دولة علوية في طبرستان، وقيام الدولة الصفارية في طبرستان (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ) وتأسيس أحمد بن طولون دولة مستقلة في مصر.

بالإقطاعية «اللامركزية». نعني بها الاستقلالية الواسعة الحدود التي كان يتمتع بها ممثلو السلطة في مختلف أقاليم الدولة العباسية، فأتاح لهم ذلك أن يتحولوا في الأقاليم التي يعملون فيها إلى إقطاعيين يحتلون المرتبة الأولى بين ملاكي الأرض، وأن يرشوا مركز السلطة في دار الخلافة بالوافر من الأموال للإبقاء على مراكزهم وإقطاعاتهم، وهذا كان يقتضيهم أن يثقلوا الفلاحين وجماهير الكادحين في الأقاليم بأثقل الضرائب وأسوأ أشكال الجباية تغذية لحاجات الترف الأسطوري الذي كان منغمساً فيه سكان قصور الخلافة في المركز. ذلك مما أدخل عوامل الضعف والعجز في علاقات الإنتاج الإقطاعية نفسها من جهة، لأنه أدخل الوهن والعجز عن التطور لدى القوى المنتجة العاملة في الأرض، ولدى الأرض نفسها. ومن جهة ثانية، أوجدت عوامل الانحلال والتفكك في روابط المؤسسة السياسية التي هي «الدولة»، فأصبح القائمون على رأس هذه المؤسسة عاجزين عن الرقابة على تطبيق التشريعات والقوانين والأنظمة وأوامر الدولة، وعاجزين في الوقت نفسه عن تقديم أبسط الخدمات الاجتماعية، بأبسط مفهوماتها في ذلك العصر، إلى جماهير المواطنين **«الرعايا»**..

من هنا حدث ما يسميه بعض الباحثين «فقدان ثقة» الخلفاء العباسيين، منذ المعتصم، بالفرس والعرب، واضطرارهم لاصطناع الأتراك في أجهزة الجيش أولاً، ثم الإدارة من قاعدتها إلى القمة، ثم تحول الأتراك هؤلاء إلى أداة تخريب جديدة، وأداة تنكيل بالخلفاء الذين لا يسلسون لمطامعهم ورغباتهم، ثم تحولهم ـ أي الأتراك ـ إلى إقطاعيين أشد تخريباً لعلاقات الإنتاج الإقطاعية من سابقيهم.

لكن، ليست هي مسألة «ثقة» بهؤلاء القوم وأولئك أو عدم ثقة. وإنما هي مسألة نظام اقتصادي ـ اجتماعي بلغ مرحلة العجز عن تطوير نفسه أولاً والعجز ثانياً عن حماية مؤسساته من الانهيار ومن نقمة الجماهير المستثمرة والمضطهَدة والبائسة. لذلك أخذ يتخبط بعلله وأمراضه، وأخذ يعمق الهوة بين الحاكمين وجماهير المواطنين، ويعمق اعتمال النقمة في هذه الجماهير بحيث أصبحت تستجيب لكل دعوة للثورة، ولكل تمرد على الدولة، ولكل حركة تقوم على أي نوع من الفكر يعارض فكر السلطة العليا. ثم إن المسألة ليست أيضاً مسألة فرس وعرب وترك وديلم إلخ.. أي أنها ليست مسألة «قوميات»[1]، رغم أننا لا ننكر أن مشاعر العصبيات لم تكن بعيدة عن حوافز بعض الحركات التي ظهرت في هذا الإقليم أو ذاك بقيادة شخصيات تنتمي، أصلاً، إلى بعض «القوميات» غير العربية في بلاد دولة الخلافة. ولكن هذه الحوافز ـ إذا كانت موجودة بالفعل ـ إنما كانت تنحصر في الشخصيات القائدة، أو الشخص الواحد القائد لهذه الحركة أو تلك.

---

(١) حين ضاق صدر الخليفة العباسي المعتز بن المتوكل (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٨) بأساليب الجند الأتراك في الضغط عليه بمطالبهم، استعان عليهم بالجند المغاربة (أي الجنود العرب في الجيش العباسي) لكن المعتز عجز عن دفع رواتب الجند، فاتفق الأتراك والعرب من الجنود على موقف واحد معاد للخليفة نفسه، ثم اشتركوا معاً في قتل المعتز (انظر ابن الوردي: تاريخه، ص ٣٣٢). إذن لم تمنع العصبية لدى الجنود العرب ضد الأتراك المسيطرين سياسياً من أن يتفقوا مع زملائهم «الطبقيين»: الجنود الأتراك، في موقف موحد يتصل بمصلحتهم المادية المشتركة، رغم كون الخليفة، القتيل بأيديهم معاً، عربياً..

غير أن الملحوظ، تاريخياً، أنه ما من قائد لأية ثورة أو انتفاضة نهضت في وجه الخلافة العباسية، رفع أية شعارات قومية صريحة في المناطق غير العربية، بل الذي نعرفه أن قيادات هذه الثورات والانتفاضات كانت مضطرة، لكي تجتذب الجماهير إليها، أن ترفع شعارات أو تعلن برامج، تتصل بمطالب هذه الجماهير الاقتصادية والاجتماعية، إمّا مباشرة، وإما بوساطة أفكار ذات إطار ديني أو فلسفي لا يحجب المضمون الواقعي لهذه المطالب، كما نلحظ ذلك في الحركات القائمة على فكرة الإمام المنتظر.

هذا واقع تاريخي، وليس افتراضاً نظرياً. وهو يعني بوضوح:
أولاً - أن الجماهير لم تكن قط في عزلة[١] عما تجريه رياح الأحداث داخل مقاصير الحكم وأهل النظام القائم حينذاك، ولم تكن مستسلمة لمجاري رياح الأحداث هذه دون مقاومة، مهما يكن شكل المقاومة.

---

(١) من الوسائل الكثيرة التي كانت الجماهير تستخدمها، حينذاك، في الكفاح الاجتماعي ما تعبر عنه هذه الواقعة: نصب الأتراك محمداً ابن الواثق خليفة بعد مقتل المعتز بن المتوكل، ولقبوه بالمهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦هـ/ ٨٦٨ - ٨٦٩م) ولكن المهتدي خيب ظنهم. فقد حاول التخفيف من الإسراف وتحسين أجهزة الدولة وأوضاع المظلومين، فأثار بذلك نقمة الأتراك الذين نصبوه، وأخذوا يدبرون لإزالته أو إبادته جسدياً كالعادة، فأحس «العامة» ببوادر المؤامرة، واتخذوا موقفاً للدفاع عن الخليفة. لقد أعدوا رقاعاً (منشورات) ألقوها في الطرقات والمساجد مكتوباً عليها: «يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل، أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤونة ظالمه، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فإن الأتراك قد أجبروه بأن يخلع نفسه» (الطبري: تارخي الأمم، ج - ٧، ص ٥٧١ - ٥٧٢).

وثانياً ـ أن هذه الجماهير لم تكن تتحرك للدفاع عن قضية أو أيديولوجية غير القضية أو الأيديولوجية المعبرة عن مصالحها الطبقية بوجه ما. لا نزعم ـ بالطبع ـ أنها كانت ذات **وعي طبقي** بالمفهوم العلمي لهذا الوعي. ذلك زعم لا يمكن القول به بالنسبة للظروف التاريخية للعصر الوسيط. وإنما الذي نعنيه هنا أن الحافز الطبقي **العفوي** هو الذي كان لدى هذه الجماهير في ذلك العصر، يحركها من وراء كل حاجز تقليدي أو لاهوتي يمنع عنها حضور الوعي الصحيح للحدود الطبقية التي تميزها في عملية إنتاج الخيرات المادية للمجتمع. لقد تلمَّس المؤرخ البغدادي هذه الحقيقة من بعيد دون أن يصل إليها. ذلك حين حاول أن يعلل الاستجابة السريعة الواسعة النطاق التي استقبل بها فلاحو سواد الكوفة دعوة القرامطة في وقت قصير، فنسب إليهم الجهل بأمور الشريعة الإسلامية، وكون هذا الجهل سبباً عندهم لاتباع **مصالحهم الشخصية** عند التعارض بينها وبين العمل بأحكام الشريعة. إن هذا التعليل ـ رغم سذاجته من حيث ارتباطه بجهل الشريعة الإسلامية ـ يشتمل على نظرة واقعية تكاد تدرك العامل المادي الحاسم في التحركات الاجتماعية، ولكن البغدادي لم يكن بإمكانه، في ذلك العصر، أن يسمي المصالح الطبقية (الاقتصادية ـ الاجتماعية) باسمها الحقيقي، فدلَّ عليها بتلك الإشارة المعبرة عنها بشكل ساذج، ثم سماها المصالح «الشخصية»!.

* * *

من هذا العرض التركيبي لأبرز الظاهرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في مجتمع الخلافة العباسية خلال القرن الثالث الهجري، نفيد حقيقة مهمة كنا نحاول بهذا العرض أن نصل إليها في

ضوء الواقعات التاريخية. هذه الحقيقة هي أن تلك الظاهرات بجملتها، وبما كانت تثيره في المجتمع من انتفاضات وثورات وغيرها من أشكال الرفض والمقاومة، قد جعلت أسس النظام الاجتماعي القائم حينذاك عرضة للاهتزاز والاختلال وأخذت تحدث أنواعاً من التصدّع في أهم مرتكزاته ومسلماته الفكرية والحقوقية. وذلك يعني أن التصدع كان يتسرب وقتئذ إلى أيديولوجية هذا النظام ذاتها، وقد كانت الأيديولوجية الدينية هي السند الحقوقي الأساس لسلطة الخلافة وسيطرتها السياسية، أي سلطة المنتفعين بالنظام الاجتماعي، نظام علاقات الإنتاج القائمة، والذين كانوا يتخذون من المفهوم الروحي للخلافة ومن أيديولوجيتها الدينية حصناً لهم وسلاحاً لمحاربة الأفكار والحركات والانتفاضات ذات المضمون الاجتماعي الثوري.

الفصل الثالث

سيرة صاحب الزَّنج (علي بن محمد)

ترجمته كما وردت في «الأعلام» للزركلي:

صاحب الزَّنج (٠٠٠ ـ ٢٧٠هـ = ٠٠٠ ـ ٨٨٣م)

هو علي بن محمد الوَرْزَنيني العلوي، الملقَّب بصاحب الزَّنج: من كبار أصحاب الفتن في العهد العباسي. وفتنتُه معروفة بفتنة الزَّنج، لأن أكثر أنصاره منهم. ولد ونشأ في «وَرْزَنين»، إحدى قرى الريّ. ظهر في أيام الخليفة العباسي المهتدي بالله سنة ٢٥٥هـ، وكان يرى رأي الأزارقة من الخوارج. التفَّ حوله سودان أهل البصرة ورعاعها، فامتلكها واستولى على الأبلَّة. تتابعت لقتاله الجيوش العباسية، فكان يظهر عليها ويشتتها. نزل البطائح، وامتلك الأهواز، وأغار على واسط. وبلغ عدد جيشه ثلاثمائة ألف مقاتل. وجعل مقامه في قصر اتخذه بمدينة بناها وسمَّاها «المختارة». عجز عن قتاله الخلفاء، حتى ظفر به الموفَّق بالله في أيام المعتمد، فقتله وبعث برأسه إلى بغداد. قال المرزباني: تُروى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك، كان يقولها وينحلها لغيره. وفي نسبه (العلوي) طعنٌ وخلاف. وفي «أخبار التراث»

العدد ٧٦ أن أشعاره جمعها أحمد جاسم النجدي ونشرها في كلية الآداب بجامعة بغداد ـ انتهى ما ذكره صاحب «الأعلام».

مولده ونسبه:

لا خلاف بين المؤرخين والمحققين على أنه ولد في قرية «وَرْزَنين» التي تقع على مقربة من مدينة طهران الحديثة؛ وفيها أمضى علي بن محمد سنيَّ نشأته. ولذلك يُقال في نسبته: الوَرْزَنيني.

أما لجهة أصله ونسبه فيوقعنا هذا الرجل في ورطة. فهو، استناداً إلى الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ والذي عاصر صاحب الزنج وثورته): علي بن محمد بن عبد الرحيم. ونسبُه في قبيلة عبد القيس من ربيعة. وعبد القيس هذه من القبائل العربية التي حلَّت في البحرين قبل الإسلام وبعده. كذلك يقول ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»: «إن جمهور النسابين اتفقوا على أنه من عبد القيس».

غير أن مؤرخين ومحققين آخرين عدّوه فارسياً. من هؤلاء: الحُصْري في «زهر الآداب»، والمسعودي في «مروج الذهب»، والصفدي في «الوافي بالوفيات». إلى ذلك يقول ابن الجوزي في «المنتظم» والسيوطي في «تاريخ الخلفاء» إن اسم صاحب الزنج هو بهبوذ، ما يوحي بفارسيته. والجدير بالذكر أن أحد قواد صاحب الزنج يدعى بهبوذ بن عبد الوهاب، كما أن اسم ابن صاحب الزنج هو أنكلاي.

ولكن الأمر الذي يستوقف النظر هو أننا لا نعثر في سيرته، كما جاءتنا في المصادر العربية، على أي إشارة نستدلُّ بها على أن صاحب الزنج كان يتكلم الفارسية، ما دام أنه ولد ونشأ في ورزنين. ثم إنه لم

يكن بين أتباعه المقرَّبين أيُّ رجل فارسي، كما أنه لم يلحق به من فارس أيُّ إنسان خلال ثورته.

أما لماذا كانت ولادة علي بن محمد ونشأته الأولى في وَرْزَنين ـ وهو العربي من عبد القيس ـ فيقول الطبري: «ذُكر عن صاحب الزنج أنه كان يقول إن جدَّه لأمه (من أهل الكوفة وقبيلة بني أسد) خرج على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين. فلما قُتل الثائر العلوي هرب جدُّه لأمه والتجأ إلى قرية ورزنين في بلاد الريّ. أما جدُّه لأبيه، عبد الرحيم، فقد ولد في الطالقان من مدن فارس، ثم قصد العراق واستقرَّ فيه. وفي العراق ابتاع جارية سندية فرزقت منه محمداً أباه». وما دام علي قد ولد ونشأ في ورزنين، فلا بد أن يكوه أبوه قد قدم الريّ حيث اقترن بوالدته قُرَّة التي فرَّ جدّها إلى هناك بعد إخفاق ثورة زيد بن علي كما مرَّ معنا.

مما تقدم يخلص الباحث أحمد عُلبي في كتابه «ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد» إلى القول: ليس بمقدورنا أن نقطع في نسب علي بن محمد، وبخاصة أنه ادَّعى العلوية، كما سيأتي معنا، وأخذ يصطنع الأنساب العلوية المختلفة خدمةً لمأربه. قد يكون الرجل فارسياً، وقد يكون عربياً. بيد أنه لا سبيل إلى الجزم في أيهما كان، خصوصاً وأن أياً من المؤرخين والمحققين لم يُشبع البحث في هذا الأمر ليخلص منه إلى حكم تدعمه الحجة العلمية القاطعة.

نشأته في وَرزَنين:

لا نعرف عنها شيئاً سوى ما قاله ابن أبي الحديد من أنه «كان متشاغلاً في بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات».

قدومه إلى العراق ونزوله سامراء (٢٤٨ - ٢٤٩هـ)

قدم علي بن محمد العراق ونزل سامرّاء حوالي سنة ٢٤٨هـ في خلافة المنتصر. وفي سامراء، العاصمة الجديدة للخلافة منذ سنة ٢٢١هـ، كانت له اتصالات مع أناس من حاشية السلطان وأخوال بني العباس. وهذا يعني أن علي بن محمد كان قريباً من مجاري الأمور. ولا بد أن معرفته بهؤلاء الناس قد أتاحت له الفرصة ليرى عن كثب كيف كانت تُدار دفّة الحكم، وكيف أن الخلافة العباسية كانت تعاني أزمة الرجل المريض، وقد طمح الطامحون في تركته وتوثّبت المعارضة لتجهز عليه.

في سامراء كان علي بن محمد يعتاش بفضل عطايا الذين سبق ذكرهم. إذ «كان منهم معاشه» كما يقول الطبري، و«تصرَّف في أشغال الديوان» كما ذكر الصفدي، و«اتصل بقوم من أصحاب السلطان وكتّاب الدولة، يغدق عليهم أشعار المديح ويستمنحهم بها»، على ما ذكر ابن أبي الحديد الذي قال أيضاً إنه كان في سامراء «يعلّم الصبيان الخط والنحو والنجوم». وإن من يعلم النحو ويقول الشعر قد لا يصعب عليه أن يكون «خطيباً فصيحاً بليغاً» على حدّ قول ابن الطقطقي.

لم تصلنا خطب علي بن محمد بنصّها، كما لم يصلنا شيءٌ من شعره في المديح. ما وصلنا مقطوعات شعرية في موضوعات مختلفة، ويبلغ مجموعها نحو مائة بيت من الشعر. بعض هذا الشعر يذكّرنا بثورة المتنبي في شبابه. من ذلك قوله:

وإنـا لـتـصـبـح أسـيـافُـنـا إذا ما انْتُضينَ ليومٍ سَفُوكْ

منـــابــرهُــنَّ بــطــونُ الأكُــفِّ وأغــمــادُهُــنَّ رؤوسُ الـمـلـوكْ

ومنه بالمعنى نفسه:

رأيتُ المُقامَ على الاقتصادِ قَـنُـوعـاً بـه ذِلَّـةً فـي الـعـبـادْ
إذا الـنـارُ ضـاق بـهـا زَنْـدُهـا فـفُـسْـحَـتُـهـا فـي فِـراق الـزِّنـادْ
إذا صــارمٌ قــرَّ فــي غِــمْــدِهِ حَوَى غيرُه السَّبْقَ يومَ الجِلادْ

هذا وينبغي أن يكون علي بن محمد، أثناء إقامته بسامراء، قد عاصر مقتل المنتصر الذي فصده طبيبُه ابن طيفور بريشة مسمومة، نزولاً عند طلب الأتراك الذين أغروه بالمال. والمنتصر هو الذي شارك الأتراك في مؤامرة قتل أبيه المتوكل. ولم يتمتّع المنتصر بالخلافة سوى ستة أشهر، خلفه بعدها المستعين سنة ٢٤٨هـ. وقد ترك علي بن محمد سامراء إلى البحرين سنة ٢٤٩هـ، فيكون قد أدرك المستعين.

علي بن محمد في البحرين والبادية (٢٤٩ ـ ٢٥٤هـ)

في البحرين ادَّعى علي بن محمد نسباً علوياً، لمعرفته بحبّ أهل تلك البلاد لآل علي عليه السلام. وقد دعا الناس بمدينة «هجر» ـ وهي قاعدة البحرين ـ إلى طاعته، فانقسموا على أنفسهم وتقاتلوا بسببه. عندئذ التجأ إلى مدينة الأحساء، حيث أطاعه أهلُها، إلى حدّ أنهم «كانوا يلتقطون فضلاته، فلا يدعونها تسقط إلى الأرض، ويتبركون بها» (الصفدي). وقد أصاب علي بن محمد في البحرين نجاحاً مرموقاً، «إذ نَفَذ حكمه، حتى إن الخراج جُبي له، وقاتل مناصروه جنود الدولة، بعد أن أحلَّه أهلُ البحرين من أنفسهم محلَّ النبيّ. ثم ساءت العلاقة بينه

وبينهم، بعد أن وَتَر جماعة كثيرة منهم، فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية» (الطبري).

ومما يلفت النظر في هذه المرحلة أنه ليس في أخبار علي بن محمد ما يومىء إلى أنه اتّصل بالبحرين بأُناس يعرفهم من عبد القيس، القبيلة التي ينتسب إليها والتي كانت تحلّ آنذاك في هَجَر. وهذا ما يحملنا على الارتياب في نسبته إلى عبد القيس. ويزيدنا ارتياباً أن عبد القيس قد اشتركت في مناجزة علي بن محمد والإيقاع به مراراً ـ على ما أورد المسعودي ـ بحيث أنه جاء على ذكر هذه القبيلة في أحد الأبيات المنسوبة إليه، ونفسه تضطرم بالحقد عليها:

أتحسبُ عبدُ القيس أني نسيتُها ولستُ بناسيها ولا تاركاً ثاري

بعد أن أخفق علي بن محمد في محاولته الأولى بالبحرين للاستيلاء على السلطة، ارتحل إلى البادية وشرع يتنقَّل فيها من حيّ إلى آخر. وفي البادية أخذ يُوهم مَن حوله أن لسانه يجري بآيات من القرآن لم يعرفها من قبل وأنه «يعلم منطق الطير». ثم ادَّعى أنه يحيى بن عُمر العلوي، الذي قُتل على مقربة من الكوفة، وقد رجع إلى الدنيا مهدياً مخلِّصاً. وقد خدع علي بن محمد بدعواه فئة كبيرة من أهل البادية، وزحف بهم إلى قرية «الرَّدم» في البحرين (وهي معقل لعبد القيس) فهُزم هزيمة نكراء. وكان من جراء ذلك أن انفضَّ الأعراب من حوله، واضطر إلى ترك البادية.

رحيله إلى البصرة:

توجه علي بن محمد إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ، مع أعوانه الذين

صحبوه من البحرين. وكان في البصرة نزاعٌ بين قبيلتين من أهلها: البلالية والسعدية، فحاول أن يستميل أحد الفريقين إليه ولكنه فشل في ذلك. إذ طارده وأصحابَه عاملُ السلطان على المدينة، ففرّوا من وجهه واستطاع عامل البصرة أن يقبض على زوجة علي بن محمد وابنه الأكبر وابنته، وعلى جارية له حامل، وعلى بعض الذين استمالهم إليه في البصرة.

وسرعان ما تمكن والي البطيحة من القبض على علي بن محمد وأتباعه، وحملهم إلى عامل الخليفة بواسط، محمد بن أبي العون. ولكن علياً احتال على ابن أبي العون، وفرَّ مع أصحابه إلى بغداد. ولا شك أن إقامته القصيرة في البصرة قد أفادته. فقد كسب بعض الأتباع، أهمُّهم عليّ بن أبان، المعروف بالمهلَّبي، من ولد المُهَلَّب بن أبي صفرة، والذي سيكون له دورٌ قيادي بارز في ثورة الزَّنج.

فراره إلى بغداد:

رأينا كيف أن عامل الخليفة على البصرة لم يمكِّن علي بن محمد من الإقامة فيها والدعوة لنفسه، ففرَّ إلى بغداد ليقيم فيها سحابة العام ٢٥٤هـ. وفي بغداد «أقام حولاً يستغوي الناس من الحاكة والأراذل» على حدّ قول الصفدي. وهذا يشير بوضوح إلى أن علي بن محمد كان دائم الانشغال بأمر التحريض والتنظيم، وأن عينه كانت تتطلع إلى الفئة المسحوقة من العاملين في الحياكة ومن الفقراء المعدمين الذين يدعوهم الصفدي «الأراذل». وفي بغداد أيضاً استنبط علي بن محمد نسباً علوياً جديداً، فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد، كما تحدَّث عن رؤية آيات دالة على «إمامته». فادعى أنه يعلم ما في ضمائر أصحابه، كما

زعم أنه سأل ربَّه أن يُعلمه حقيقة أمره «فرأى كتاباً يُكتب له وهو ينظر إليه على حائط، ولا يرى شخص كاتبه»، على ما يروي الطبري.

العودة إلى ظاهر البصرة والقيام بالثورة سنة ٢٥٥هـ:

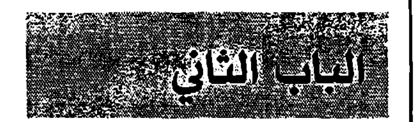
رأينا حتى الآن العقبات التي حالت دون نجاح علي بن محمد في «مشروعه»: ففي سامراء (٢٤٨ ـ ٢٤٩هـ) واجه وضعاً معقَّداً يتحكم به قادة الأتراك والغلمان والنساء. وهو وضعٌ لم يُتح له أن يلعب دوراً مرموقاً، وإن كان قد شحنه بمزيد من الطموح إلى «اقتطاع سلطةٍ ما» في دولةٍ متهالكة تُغري كلَّ ذي طموح إلى السلطة. أما في البحرين والبادية (٢٤٩ ـ ٢٥٤) فيبدو أن علي بن محمد لم يتمتع بالحكمة الكافية في إدارة مشروعه. فبالرغم من التأييد الاستثنائي الذي لقيه من أهل هَجَر والأحساء الذين أنزلوه من أنفسهم منزلة الأنبياء، فقد انتهج فيهم سياسة التفرقة، كما «وتَرَ منهم جماعة كثيرة» على حد قول الطبري، «فتنكّروا له، وتحوّل عنهم إلى البادية». وقد أخطأ علي بن محمد مرة ثانية حين راهن على أهل البادية للانتقام من أهل البحرين. فعند أول هزيمة أصيب بها علي بن محمد في مواجهة البحرينيين (موقعة الرَّدْم) انفضَّ الأعرابُ من حوله. وإذ رحل علي بن محمد إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ ليجرّب حظه فيها، لم يمكّنه عاملها من الاستقرار فيها لحظة واحدة، كما رأينا. بعد هذا الفشل الثالث انتقل إلى بغداد ليمضي فيها سنة ٢٥٤، وليعمل على اجتذاب وتنظيم الفقراء و«الأراذل»، كما مرَّ معنا. ويبدو أن هذه الفئة في بغداد لم تكن مؤهَّلةً لحمل مشروعه، كما يبدو أن عينه كانت تنظر دائماً إلى «عبيد البصرة».

وقد سنحت الفرصة في النصف الأول من سنة ٢٥٥هـ. إذ ثارت قبيلتا السعدية والبلالية على عامل البصرة، ففتحتا السجون وأخرجتا من كان فيها. وهكذا أُطلق سراح أهل علي بن محمد وأتباعه، فوافاهم في البصرة في شهر رمضان من تلك السنة.

عاد علي بن محمد إلى البصرة ومعه: علي بن أبان، ويحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع وغيرهم. وهؤلاء هم قادة حركته. وما أن وصل علي وأعوانه إلى البصرة حتى «ساروا جميعاً إلى ظاهر المدينة، ونزلوا موضعاً يسمَّى «برّ نَخْل»، حيث شرعوا في دعوة الزَّنج واستنفارهم إلى الثورة» (الطبري). ويبدو أنهم قدموا البصرة وهم مصمّمون على قيادة الزنج في ثورة ضد الخلافة العباسية.

هذا هو القسم الأول من سيرة علي بن محمد: من ولادته ونشأته الأولى في بلاد فارس إلى إطلاقه ثورة الزنج في البصرة سنة ٢٥٥هـ. ونحن كما رأينا، لا نكاد نعلم شيئاً من سيرته حتى قدومه العراق سنة ٢٤٧هـ. والسنوات الثماني التالية (٢٤٧ ـ ٢٥٥هـ) هي عبارة عن محاولات لاستكشاف طريق الثورة ومكانها ومادتها البشرية. القسم الثاني، الزاخر بالأحداث والتفاصيل، هو زمن ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ. ولسنا ههنا، في وارد رواية هذا القسم من سيرة علي بن محمد، تجنُّباً للتكرار. إذ إنّ ما أثبتناه في نهاية هذا الكتاب من «أخبار ثورة الزنج كما أوردها الطبري» يغنينا عن ذلك، خصوصاً وأن المؤرخين الآخرين كانوا ـ في هذا الموضوع ـ عالةً على الطبري. كذلك يستطيع القارىء أن يرجع إلى «قصة ثورة الزنج على وجه الإجمال»، كما أثبتناها بروايات أحمد أمين وحسن إبراهيم حسن

وحسين مروة. هذا فضلاً عن أن الجوانب الأخرى من سيرة وشخصية علي بن محمد (عقيدته، سياسته وخطته في قيادة الثورة... إلخ) ستكون موضوع فصول لاحقة من هذا الكتاب.



الإطار التاريخي لثورة الزنج

الفصل الأول: الحركات السياسية والدينية التي سبقت ثورة الزنج في العصر العباسي

الفصل الثاني: قصة النفوذ التركي

الفصل الثالث: العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي مهّدت لثورة الزنج واكتنفتها



الفصل الأول

الحركات السياسية والدينية
التي سبقت ثورة الزنج في العصر العباسي

ثورة التوابين تفتح باب الثورة الدائمة[(١)]

من مقتل الحسين بن علي عليه السلام إلى ثورة العباسيين:

كانت الحركات الثورية التي أخذت تنشأ منذ السنة الأربعين للهجرة، السنة التي قتل فيها علي عليه السلام أرضاً خصبة لنشوء كثير من عناصر التحول. وبدأت هذه الحركات بشكل معارضة للحكم الأموي. وقاد المعارضة الأولى سليمان بن صرد، على أثر تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية، وعبر عن سخطه على الحسن لموقفه هذا بأن سماه «مذل المؤمنين». وقاد المعارضة الثانية قيس بن سعد بن عبادة قائد «شرطة الخميس» الذين بايعوا علياً على الموت. وانتهى الشكل الثالث للمعارضة بمقتل قائدها حجر بن عدي وأصحابه. وكان مقتل الحسين مرحلة حاسمة انتقلت فيها المعارضة من النظر إلى العمل. وقد

---

(١) نقلاً عن كتاب «الثابت والمتحوّل»، تأليف الشاعر أدونيس، ص ١٨٦ ـ ١٩٢.

تمثلت معارضة الحسين في ثلاثة مبادىء: الأول يقوم على أن «أهل البيت» أولى بالخلافة، والثاني يقوم على أن أصحاب الخلافة من آل أمية يدعون ما ليس لهم. . . ويسيرون في الناس بالجور والعدوان. والثالث أن من لم يغير الجَوْر بالقول والفعل يكون هو نفسه بمنزلة الجائر. وبدأ العمل الثوري باجتماع خمسة أشخاص في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، «ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم». وكان هذا الاجتماع نقداً ذاتياً من جهة، وتخطيطاً للعمل الذي يقضي على قتلة الحسين، أي يقضي على الطغيان والجور، من جهة ثانية. وهكذا اتخذوا شعاراً لهم: النصر أو الموت. وكانت الخطوة الأولى جمع المال لتجهيز المقاتلين من «ذوي الخلة والمسكنة» وتحديد زمن التحرك ومكانه. وكانت الدعوة للثورة التي تولى أمر التخطيط لها سليمان بن صرد دعوة عامة في البلاد كلها، وقد استجاب لهذه الدعوة بعد موت يزيد «أضعاف من كان استجاب قبل ذلك».

وفي سنة خمس وستين، الموعد الذي حدد لبداية الثورة، خرج سليمان بن صرد في عدد من أصحابه لم يتجاوز أربعة آلاف، وكان قد عاهده وبايعه ستة عشر ألفاً. وقد فوجىء سليمان بن صرد، فقال يعرّض بالمتخلفين: «أما يخافون الله؟ أما يذكرون الله وما أعطونا من أنفسهم من العهود والمواثيق؟». ويبدو أن سبب التخلف عائد إلى أن دعوة سليمان بن صرد لا تعد بغنيمة ولا مال وإنما هي جهاد في سبيل الحق ربما قدم فيه المجاهد حياته ذاتها، فوق ما يقدمه من ماله. وإلى هذا أشار في كلمة له وأشار بعض أصحابه. وينشب القتال، ويستبسل سليمان بن صرد وأصحابه، فيموت معظمهم ولا يبقى غير القليل.

غير أن ثورة التوابين ـ كما دعيت ـ فتحت، على الرغم من فشلها، باب الثورة المستمرة. وقد استطاع المختار الثقفي أن يجعل من هذا الفشل دافعاً جديداً لمكافحة الطغيان، فجمع حوله الغاضبين للحق وأخذ يتهيأ لإعلان الثورة من جديد. وكانت أهداف الثورة الدعوة للعمل بكتاب الله وسنة نبيه، «والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلّين، والدفع عن الضعفاء». وكان بين الذين انضموا إلى الثورة «سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب»، بالإضافة إلى «المحرَّرين» وكانت التهم التي توجه للثورة أن انتصارها يعني مشاركة المحرَّرين لأسيادهم في الفيء، والفيء حق الأسياد وحدهم، ولا حق للمحرَّرين فيه. ويعني أيضاً ذهاب عز الأسياد وسلطانهم. ومن هذه التهم أيضاً أن الثوار «عصبة، خبيث دينها، ضالة مضلة». ويخطب مرة بن مطيع، والي ابن الزبير على الكوفة، فيقول لأهلها «علمت الذين صنعوا هذا منكم من هم، وقد علمت أنما هم أراذلكم وسفهاؤكم وطغامكم وأخساؤكم، ما عدا الرجل أو الرجلين». ومقابل هذا التمييز العنصري، كان المختار يساوي بين أصحابه في العطاء، ولا يميز أحداً إلا بحسب الجهد الذي يبذله. وكان كذلك يشعر العناصر غير العربية بأنها سواء والعناصر العربية في الثورة، وبأن الجميع «إخوة».

ويروي الطبري أن «أشراف الناس بالكوفة» كانوا يقولون عن المختار: «أدنى موالينا فحملهم على الدواب، وأعطاهم وأطعمهم فَيْأَنا، ولقد عصتنا عبيدنا». ويقول الطبري إن المختار لم يحدث شيئاً أعظم على هؤلاء الأشراف «من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً». ويخاطبه «شيخهم» شبث بن ربعي، وكان جاهلياً إسلامياً، يقول: «عمدت إلى موالينا وهم فَيْءٌ أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً، فأعتقنا

رقابهم، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا». وفي هذا الكلام ما يشير إلى اعتقاد هؤلاء «الأشراف» أن الموالي أشياء يملكونها شأن أي شيء مادي، ويشير إلى استفظاعهم عمل المختار لأنه يساويهم بهذه المخلوقات ـ الأشياء. وفيه ما يوضح أيضاً أن العنصر الاقتصادي كان في أساس العصبية الجنسية عند العرب، وفي أساس التمسك بمبدأ المساواة الإسلامي، الذي لا يفرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وفي أساس التفاف الموالي حول الغاضبين على السلطة الجائرة. ويمكن القول، استناداً إلى هذا كله، أن الدين كان، بالنسبة إلى «الأشراف» وإلى النظام الأموي، وسيلة لترسيخ السلطة، وكان بالنسبة إلى الموالي وسيلة لهدم السلطة، أي للمساواة والعدالة. ولم يكن الانقسام الطبقي بين العرب من جهة، وغير العرب من جهة ثانية، وإنما كان انقساماً اجتماعياً بين فئات مسيطرة ساحقة، وفئات مغلوبة مسحوقة. وقد أخذ هذا الانقسام يتعمق ويتسع، فيحل الولاء للعقيدة محل الولاء للجنس أو للقبيلة، ويصبح الناس قسمين: الموالين للسلطة، والثائرين عليها.

فشلت ثورة المختار هي أيضاً، لكنها كانت وقوداً حياً في أتون الثورة المتزايدة. فبعد تسع سنوات من فشلها، ثار صالح بن مسرح التميمي هادفاً إلى محاربة الجور وإقامة العدل، وتابع ثورته شبيب الخارجي إلى أن قتل سنة ٧٧هـ أو ٧٨هـ، وكان صالح بن مسرح قد قتل سنة ٧٦هـ.

وفي سنة ٧٧هـ، ثار مطرف بن المغيرة، وكان قد أقنعه بالثورة أنصار شبيب الخارجي الذين نقموا على قومهم «الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود

والتسلط بالجبرية»، فأعلن خلع عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، ودعا إلى «قتال الظلمة»، وإلى «جهاد من عَند عن الحق، واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب». وكان يصف عبد الملك بن مروان والحجاج بأنهما جباران مستأثران «يتبعان الهوى، فيأخذان بالظنة ويقتلان على الغضب». وفشل مطرف أيضاً وقتل في السنة ذاتها.

وفي سنة ٨١هـ، ثار عبد الرحمٰن بن الأشعث وبايعه الناس على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة، وجهاد المحلِّين، وبايعه فيمن بايعه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك جميع أهل البصرة «من قرائها وكهولها». وبلغ عدد الذين انضموا إليه «مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم». وخطب عبد الرحمٰن بن الأشعث بالناس لما اجتمعوا بالجماجم، فقال: «ألا إن بني مروان يعيرون بالزرقاء، والله ما لهم نسب أصح منه، إلا أن بني أبي العاص أعلاج من أهل صفورية، فإن يكن هذا الأمر في قريش فعني فقئت بيضة قريش». وكان في ثورة ابن الأشعث عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه والشعبي وسعيد بن جبير. وكان سعيد بن جبير وأبو البختري الطائي «يحملان حتى يواقعا الصف». وتغلب الحجاج على ابن الأشعث، وكان بين الذين قتلهم من الأسرى أعشى همدان، الشاعر، ومحمد بن سعيد بن أبي وقاص «ظل الشيطان» كما وصفه الحجاج. وقتل فيما بعد سعيد بن جبير، سنة ٩٤هـ. ويقول الطبري واصفاً طغيان الحجاج أنه قتل «يوم الزاوية أحد عشر ألفاً ما استحيا منهم إلا واحداً». وفي رواية أنه «قتل جهراً مئة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً».

وقد عمقت ثورة ابن الأشعث الاتجاه الذي بدأته ثورة المختار

فيما يتصل بالانقسام الاجتماعي، والصراع الطبقي بين الفئات المسيطرة والفئات المسحوقة. وفي هذا ما يفسر حماسة الموالي وجمهور القراء، بخاصة، لهذه الثورة وانخراطهم النضالي فيها.

وفي سنة ١٢٢هـ ثار زيد بن علي بن الحسين، داعياً الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، ورد الظالمين، وإقفال المجمَّر (الجند الذين يبعثهم الخليفة أو الوالي في البلدان التي فتحوها ولا يسمح بعودتهم) ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا العداء وجهل حقنا.

وتتميز هذه الثورة بتوكيدها على العناية بالطبقات المحرومة المظلومة، وعلى التوحيد بين الفكر والعمل، وعلى أن عنف الطغيان لا يرد عليه إلا بعنف الثورة، وهذا ما يعبر عنه أنصار زيد بقولهم: «الإمام من خرج بسيفه، لا من أرخى عليه ستره». وما عبر عنه زيد بقوله: «لم يكره قوم قط حرَّ السيف إلاّ ذلوا» وكان بين الذين انضموا إلى زيد أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وكثيرون من المحدثين والفقهاء، وقد قتل زيد في نفس السنة وصُلب بالكناسة، ثم أرسل إلى دمشق وصلب على بابها، ثم أرسل إلى المدينة وصلب بها، وإلى مصر حيث طيف به بعد صلبه. وبقي مصلوباً حتى سنة ١٢٥ هجرية، حيث أمر الوليد بن يزيد «بحرقه ونسفه في اليمّ نسفاً».

وقال الطبري: قتل يحيى بن زيد سنة ١٢٥هـ. وقد وصفه الوليد بن يزيد بأنه (عجل العراق)، وأمر بأن يحرق ويذرّ رماده في الفرات شأن أبيه. وأعلن يحيى أنه خرج «منكراً للظلم وما عمّ الناس من

الجور». وحين مات أظهر أهل خراسان النياحة عليه سبعة أيام في سائر أعمالها في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية ـ ولم يولد في تلك السنة مولود في خراسان إلا سُمِّي بيحيى أو بزيد لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه.

وقد أعطت هذه الثورة للفكر الثوري في ذلك الوقت منحاه العام وطابعه الغالب، وبخاصة فيما يتعلق بالإمامة ومسألة الرد على الطغيان بالقوة والعنف. ولم يكن مقتل يحيى بن زيد إلا ليزيد في ترسيخ المبادىء اليت أطلقتها ثورة أبيه زيد بن علي بن الحسين، وليؤكد مبدأ التغيير بشكل عام.

بعد مقتل يحيى بن زيد سنة ١٢٥هـ أعلن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الثورة سنة ١٢٧هـ. وبهذه الثورة كان عبد الله بن معاوية قد أكد على الفعل، وعلى دور الطبقات المسحوقة. وحين سأله الناس بعد أن سيطر على فارس: «علامَ نبايع؟ قال: على ما أحببتم وكرهتم».

وكان يتمثل بهذين البيتين:

فلا تركبنَّ الصنيع الذي ... تلوم أخاك على مثله
ولا يعجبك قول امرىء ... يخالف ما قال في فعله

وفي هذه السنة كان الحارث بن سريج مستمراً في خروجه منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور، يعلن: «لست في هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء، وإنما أسأل كتاب الله عز وجل، والعمل بالسنّة واستعمال أهل الخير والفضل». وكان في ذلك يرد

على نصر بن سيار الذي أراد أن يسترضيه ويستميله، فبعث إليه «بفرش كثيرة وفرس» لكن الحارث باع ذلك كله وقسمه في أصحابه بالسوية.

وفي سنة ١٢٨هـ كان قد برز أبو حمزة الخارجي داعياً للثورة أو «إلى خلاف مروان بن محمد وإلى خلاف آل مروان» كما يعبر الطبري.

وفي السنة ١٢٩هـ أمر أبو مسلم الخراساني: «بإظهار الدعوة والتسويد. وفي ليله الخميس ـ الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة نفسها ـ اعتقد أبو مسلم ومن معه «اللواء» الذي بعث به الإمام إليه، ويُدعى «الظل»، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، ولبس السواد هو ومن كان معه.

ويرمز السحاب إلى الدعوة العباسية ـ فهي تطبق الأرض شأن السحاب ـ ويرمز الظل إلى الخليفة، فكما أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً، فإنها لا تخلو، أبد الدهر، من خليفة عباسي.

وفي أواخر السنة ١٣٩هـ «لم يدر الناس بعرفة إلا وقد طلعت أعلام عمائم سود. . في رؤوس الرماح. ففزع الناس حين رأوهم وقالوا: ما لكم؟ وما حالكم؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرُّؤ منه».

وفيما كان أبو مسلم الخراساني يحقق الانتصار تلو الآخر في فارس في السنة ١٢٠هـ، كان أبو حمزة الخارجي يدخل المدينة بعد معركة قديد التي قتل فيها عدد كبير من قريش، ويهرب واليها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى دمشق. ومن خطب أبي حمزة الخارجي بالمدينة ما يعكس لنا مواقع الناس ونفسياتهم في تلك المرحلة: فهم يعترفون بظلم الولاة وجورهم، لكنهم لا يحاربونهم.

وحينما يظهر من يحاربهم لا يعاونونه، بل على العكس يقفون ضده إلى جانب الولاة. وكان أبو حمزة الخارجي يسمي هشام بن عبد الله «الأحول» ويقول عنه: «زاد الغني غنى وزاد الفقير فقراً». ومقابل هذه الصورة عن الناس والولاة، يقدم أبو حمزة صورة عن الثوار الذين يقودهم والذين يعملون لإقامة النظام الجديد، فيقول في إحدى خطبه: «تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا. ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وعنف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمٰن وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله... أقبلنا من قبائل شتى: النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا وأيدنا بنصره، فأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً...».

وهكذا كانت الحياة الإسلامية تدخل في تحول جديد. وفي ١٣ ربيع الأول من السنة ١٣٢هـ، خطب بالناس في جامع الكوفة، باسم هذا التحول، أول خليفة عباسي.

الخلفاء العباسيون

خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ)

السفَّاح ١٣٢هـ (٧٥٠م).

المنصور ١٣٦هـ (٧٥٤م).

المهدي ١٥٨هـ (٧٧٥م).

الهادي ١٥٩هـ (٧٨٥م).

الرشيد ١٧٠هـ (٧٨٦م).

الأمين ١٩٣هـ (٨٠٩م).

المأمون ١٩٨هـ (٨١٣م).

المعتصم ٢١٨هـ (٨٣٣م).

الواثق ٢٢٧هـ (٨٤٢م).

خلفاء العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٤٦٧هـ)

* وفي النصف الأول من هذا العصر حدثت ثورة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ).

المتوكل ٢٣٢هـ (٨٤٧م)

المنتصر ٢٤٧هـ (٨٦١).

المستعين ٢٤٨هـ (٨٦٢م).

المعتزّ ٢٥٢هـ (٨٦٦م).

المهتدي ٢٥٥هـ (٨٦٩م).

المعتمد ٢٥٦هـ (٨٧٠م).

المعتضد ٢٧٩هـ (٨٩٢م).

المكتفي ٢٨٩هـ (٩٠٢م).

المقتدر ٢٩٥هـ (٩٠٨م).

القاهر ٣٢٠هـ (٩٣٢م).

الراضي ٣٢٢هـ (٩٣٤م).

المتقي ٣٢٩هـ (٩٤٠م).

المستكفي ٣٣٣هـ (٩٤٤م).

المطيع ٣٣٤هـ (٩٤٦م).

الطائع ٣٦٣هـ (٩٧٤م).

القادر ٣٨١هـ (٩٩١م).

القائم ٤٢٢هـ (١٠٣١م).

المقتدي ٤٥٦هـ (١٠٧٠م).

العباسيون يواجهون الثورات[١]

عمل العباسيون في مستهلّ دولتهم على التخلُّص من بني أمية، فأسرفوا في قتلهم والتمثيل بهم، مدفوعين في ذلك بما أضمروه للأمويين من ذلك العداء القديم الذي بقيت آثاره بعد ظهور الإسلام. ومال العباسيون إلى الفرس ميلاً شديداً، فقرّبوهم إليهم وآثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين. غير أن الفرس لم يقنعوا بما تمتعوا به من نفوذ وسلطان في ظل العباسيين، فمالوا إلى آل علي عليه السلام، لأنهم يجمعون ـ على حدّ قولهم ـ بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي. إلى ذلك واجه أبو جعفر المنصور عمَّه عبد الله بن علي الذي أخذ يؤلّب الناس على الخليفة ويعمل على اغتصاب الخلافة منه، لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي، وبين الساخطين من الفرس، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني. أضف إلى ذلك خروج العلويين، وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في الحجاز والعراق.

وقد استطاع أبو جعفر المنصور، بما أوتيه من دهاء وحزم، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر عمه عبد الله بن علي ثم يقتله، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية.

(١) عن تاريخ الإسلام، تأليف حسن إبراهيم حسن، ج ٢ و٣ (باختصار).

محاولة الفرس استمالة العلويين

وقبل أن نشير إلى أهم الحركات السياسية ـ الدينية التي قامت في وجه الدولة العباسية، قبل ثورة الزنج، يحسن بنا التنبيه إلى أن محاولة الفرس استمالة العلويين وتحويل الخلافة إليهم لا تعني استجابة هؤلاء جميعاً (أي العلويون) لتلك الدعوة الانقلابية. ودليلنا على ذلك ما رواه حسن إبراهيم حسن نفسه في كتابه «تاريخ الإسلام» عن موقف الإمام جعفر الصادق عليه السلام من تلك الدعوة الانقلابية التي دعاه إليها أحد زعماء الفرس في زمانه، وهو أبو سَلَمة الخَلاَّل.

كتاب أبي سَلَمة الخلاَّل إلى الإمام الصادق عليه السلام:

قال حسن إبراهيم حسن:

«مال الفرس إلى العلويين وعملوا على تحويل الخلافة إليهم. وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس، وهو أبو سلمة الخلاَّل الذي كان قد أخلص للدعوة العباسية في البداية. ولكنه لما سَبَر أحوال بني العباس، عزم على العدول عنهم إلى أولاد علي بن أبي طالب. ولما عزم على تنفيذ رغبته أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً، وأمره أن يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. فإن أجاب أبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي. فإن أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن علي زين العابدين، وإن لم يجب قصد عمر. فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فلم يُقم له وزناً ولم يحفل به، وقال: «ما لي ولأبي سلمة، وهو شيعةٌ لغيري؟!». ثم

وضع الكتاب على السراج فاحترق. فسأله الرسول عن ردّ كتاب أبي سلمة فقال له: «قد رأيتَ الجواب!».

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض، فسُرَّ بالكتاب، وركب غداة ذلك اليوم إلى جعفر الصادق وقال له: «هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة؛ وقد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان». فقال له جعفر الصادق: «ومتى صار أهلُ خراسان شيعتك؟! أأنت وجَّهت إليهم أبا مسلم؟! هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته؟! كيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟!». وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه إلا أن ردَّ الكتاب وقال: «أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه!». انتهت رواية حسن إبراهيم حسن.

نقول: وهذه الرواية لا تدل فحسب على تشكيك قادة العلويين آنذاك في دعوة الفرس، بل تدل أيضاً على عدم ثقة الخلّال بالحصول على ما أرسل في طلبه، بدليل توجيهه ثلاث رسائل إلى ثلاثة أشخاص في وقت واحد وبالمعنى ذاته، عَلَّه يجد ضالَّته في واحد منهم.

أما حسن إبراهيم حسن فيستنتج من تلك الواقعة «أن العلويين آنذاك لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يُعبّد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تتهيَّأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها».

نقول: إن ملاحظة حسن إبراهيم حسن قد تنطبق على حال العلويين بوجه عام، ولكنها لا تنطبق بالضرورة على سلسلة الأئمة الاثني عشر من البيت العلوي. فإذا كان التاريخ قد سجّل انتفاضات

كثيرة قام بها العلويون ضد الخلافة العباسية، إلا أنه لم يسجل أيَّ انتفاضة قام بها إمامٌ من أئمة الشيعة الاثني عشرية. فتأمَّل!

بعد هذا نذكر أهم الحركات السياسية ـ الدينية التي قامت في وجه الدولة العباسية، قبل ثورة الزنج. وهي حركات الموالي وحركات الحزب العلوي، والإسماعيلية، والخوارج.

حركات الموالي(١)

١ ـ الراونديّة:

لم يكد المنصور ينتهي من قتل أبي مسلم الخراساني حتى فوجىء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس؛ وكانوا قبل الفتح الإسلامي يقدسون ملوكهم فيجعلونهم في مصاف الآلهة. وهؤلاء هم الراوندية ـ نسبةً إلى مدينة راوند القريبة من أصفهان، وكانت مهد دعوتهم.

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين، لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي، كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة، يرون أن تعود المجوسية، أو شكل من أشكالها كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها. فعاملهم كما عامل أبا مسلم، وقتلهم شرَّ قتلة. إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يقضي عليهم قضاء تاماً، فظهروا في صور مختلفة نراها في مثل ثورات المقنَّع الخراساني وبابك الخُرَّمي وغيرهما.

---

(١) يُطلق اسم «الموالي» على الذين دخلوا الإسلام من غير العرب.

٢ ـ المُقنعيّة:

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) ظهر المقنَّع بخراسان. وكان رجلاً قبيح الخلقة أعور قصيراً، من أهل مرو. عمل وجهاً من ذهب وركبه على وجهه، وادَّعى الألوهية. وكان يقول إن روح الله قد حلَّت في صورة آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم في صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء، ثم في محمد، ثم في علي وأولاده، حتى حلت في صورة أبي مسلم الخراساني ومنه انتقلت إلى المقنَّع.

ولما قوي أمر المقنع وكثر أنصاره، انضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين يقيمون حول بحر قزوين، واعتصم بقلعة حصينة في ناحية كُشّ. فأرسل إليه الخليفة المهدي سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم الذي حاصره وضيَّق عليه حتى طلب أكثر أصحابه الأمان. ولما شعر المقنَّع بالهزيمة أشعل النار في القلعة، ثم ألقى بنفسه وأهله ومن بقي من أصحابه في النار، بعد أن شرب وسقاهم شراباً مسموماً، فماتوا جميعاً. وذلك سنة ١٦٩هـ.

٣ ـ البابَكيّة الخُرّمية:

نسبةً إلى بابك الخُرَّمي. وتُسمَّى الخُرَّمية البابكية، أو الخُرَّمية الثانية، لتمييزها عن الخُرَّمية المزدكية أو الخُرَّمية الأولى.

وكانت بلاد فارس التي نشأ فيها بابك الخُرَّمي كثيرة المعتقدات والبدع، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده. لهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها، ومنها طائفة الخُرَّمية التي أسسها مَزْدَك في أيام قباذ أبي كسرى أنوشروان. وقد نشأت من طائفة الخرمية

المزدكية هذه طائفةُ الخرمية البابكية التي تُنسب إلى بابك الذي ادَّعى الألوهية، وعكَّر صفو الدولة العباسية في أيام المأمون، وأخذ أمره يتفاقم إلى أيام المعتصم.

ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخُرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني، وأنه ثار في وجه العباسيين لينتقم لأبي مسلم.

وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان، أحد رؤساء الخرمية. ولما توفي جاويدان أقامت امرأتُه بابك مكانه، وادَّعت أن روح زوجها حلَّت في جسده، وأوعزت إلى رجاله بوجوب طاعته، ثم تزوجت منه.

وفي عهد المعتصم تفاقم قلق أهل بغداد من بابك الخرمي، ودخلت أذربيجان تحت حوزته، وأعانه ملك أرمينية وأمبراطور الدولة البيزنطية وانتشرت جيوشه، وأدخل الرعب في نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التي كانت تموج بالمذاهب المختلفة: فهناك الزرادشتية والمانوية والمزدكية والأبو مسلميَّة (أتباع أبي مسلم الخراساني). وكل هذه العقائد مجتمعة تكوّن عقائد الخُرَّمية[١].

مباديء الخُرّمية

من مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس والمجوس. وهم بذلك قد أثاروا حرباً شعواء على الإسلام والعرب. ويقول البَلْخي عن مبادئهم: «وهم فرق وأصناف، غير أنهم

(١) قيل إنهم سموا خُرَّمية نسبةً إلى خُرَّما، امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها.

يجمعهم القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (أي التناسخ)، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة، وأن الوحي لا ينقطع أبداً. وكل ذي دين مُصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب.. وهم يعظمون أمر أبي مسلم الخراساني، ويلعنون أبا جعفر المنصور على قتله. وأصل دينهم القول بالنور والظلمة.... ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء».

ويؤيد هذا ما قاله نظام الملك (في كتابه: سياسة نامة) من أنهم رفضوا جميع الفروض الدينية، كالصلاة والصوم والحج والزكاة، وأباحوا شرب الخمر، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية في النساء. كما أنهم لم يشعروا بأي ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت عليهم السلام، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلاً إلى جذب الأنصار. ويقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء.

ولم يكد المعتصم ينتهي من ثورة بابك[١] التي هددت ملكه وأفنت كثيراً من جنده وأضاعت أمواله، حتى فوجىء بثورة الأفشين، أو بمؤامرته التي دبّرها بالاشتراك مع المازيار الذي كان رئيساً للمحمِّرة؛ وهم فرقة من الخرمية أتباع بابك الخرمي.

وكان الأفشين ـ كما كان بابك والمازيار من قبله ـ يسعى إلى الاستقلال ببلاده (بلاد ما وراء النهر، الواقعة بين أقاليم فرغانة شرقاً وسمرقند غرباً والشاس شمالاً) والخروج على الإسلام والدولة العباسية

(١) قضى عليه الأفشين، قائد المعتصم، سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، وصُلب في سامراء.

معاً[١]. ويقول براون: «إن الأفشين لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقلَّ وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه في نهايته المحزنة».

وقد تمكن المعتصم من القبض على المازيار أولاً، فصلبه بسامراء إلى جانب بابك الخرمي. بعد ذلك قبض على الأفشين وأودعه السجن فمات مسموماً. ثم أخرجت جثته فصلبت، وأحرقت مع الأصنام التي وجدت في داره؛ وذلك في سنة ٢٢٦هـ.

وقد عبَّر أبو تمام عن عقيدة الأفشين بهذه الأبيات:

قد كان بوَّأه الخليفةُ جانباً ... من قلبه حرماً على الأقدارِ
فإذا ابن كافرةٍ يسرُّ بكفره ... وَجْداً كوجد فرزدقٍ بنوار[٢]
ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى شرَّ الزناد الواري
صلَّى لها حياً وكان وقودها ... ميتاً، ويدخلها مع الفُجّارِ

٤ ـ الزنادقة:

كان أشدَّ الثورات بأساً وأكثرها خطراً في العصر العباسي الأول، تلك الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة.

---

(١) هذا بعد أن كان في خدمة المعتصم الذي وثق به وقرَّبه، فولاه إحدى الفرق التي سيّرها لغزو عمورية.

(٢) نوار هي زوجة الفرزدق التي كان طلقها وندم على ذلك، فقال:

نـدمـتُ نَـدَامـةَ الـكُـسَـعـيّ لـمـا ... غـدت مـنّـي مـطـلّـقـةً نَـوَارُ
وبِـتُّ كـفـاقـدٍ عـيـنـيـه عـمـداً ... فـأصـبـح مـا يـضـيء لـه نـهـارُ

وللزندقة عدة معانٍ تختلف باختلاف العصور. فقد كان العرب يطلقون لفظ «زنديق» على من ينفي وجود الله سبحانه، أو يقول إن له شريكاً[١].

وقيل: إن الزنديق هو من يُبطن الكفر ويُظهر الإيمان.

وكان لفظ «زنديق» يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم ويُسرف في العبث والمجون، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتّخذ عقائد المانوية شعاراً له، ويتمسك بعقيدة الثَّنَويَّة، وعبادة إلهين اثنين، واتّباع تعاليم ماني. ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزندقة، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية، أو يتظاهر بالظرف.

اضطهد بعض الخلفاء العباسيين أشياع هذه التعاليم، فتعقَّبهم المهدي، وأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه تسمية «صاحب الزنادقة». وقد صار القضاء على أتباع هذه الطائفة شغل المهدي الشاغل. وجاء ابنه الهادي من بعده، فسار في ذلك سيرة أبيه. وقد أُثر عنه أنه قال: لئن عشت لأقتلنَّ هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف. كذلك فعل الرشيد الذي كان يمتحن كل من يُتَّهم بالزندقة ويعاقب كل من تثبت عليه بكل أنواع العقوبة.

ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم، بل كان هناك كثير من العرب، من أمثال صالح بن عبد القدوس، ومطيع بن إياس الشاعر الذي عاش في عهد المنصور والمهدي. ويقول ابن النديم إن أكثر

(١) الغزالي: كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

البرامكة كانوا زنادقة، حتى زعم البعض أن ذلك كان من أهم أسباب نكبتهم. وذكر ابن قتيبة أن الأصمعي رماهم بالكفر فقال:

إذا ذُكر الشركُ في مجلسٍ أضاءتْ له وجوهُ بني برمكِ
وإن تُليت عندهم آيةٌ أتوا بالأحاديث عن مزدك

وبقيت الزندقة بعد عهد الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم الذي كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية. ولا بد أنها سارت شوطاً بعيداً بعد تغلُّب الأتراك على الدولة العباسية.

وقد بذل كثير من أدباء هذا العصر ومفكريه الجهد في مكافحة الزنادقة والردّ عليهم. ومن ثم نشأ علم الكلام. وكان واصل بن عطاء أول من تصدَّى للرد عليهم، وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتبيّنوا يا معشر الأشرارِ
النارُ عنصرهُ وآدمُ طِينَةٌ والطينُ لا يسمو سُمُوَّ النارِ
الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وذكر ابن النديم عند كلامه على يزدان بخت، وهو الذي أحضره المأمون من الريّ بعد أن أمَّنه، فأفحمه المتكلمون، فقال له المأمون: «أَسلمْ يا يزدان! فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا ولك شأن». فقال له يزدان: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول. ولكنك ممن لا يُجبرون الناس على ترك مذاهبهم». فقال المأمون: أجل!

حركات الحزب العلوي

لما ظفر العباسيون بالخلافة وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني أمية، لم يرق ذلك للعلويين. إذ أدركوا سريعاً أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحقُّ بها منهم. فنابذوهم العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل.

١ ـ ثورة محمد النفس الزكية في الحجاز وأخيه إبراهيم في العراق

كان أول الخارجين من العلويين في أيام العباسيين محمد (النفس الزكية) بن عبد الله (المحض) بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه إبراهيم. (انظر شجرة البيت العلوي على الصفحة رقم ٨٨؛ وفيها تبيان لسلسلة الأئمة لدى الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ابتداءً من علي بن أبي طالب إلى المهدي المنتظر عليه السلام).

وقد وصف ابن طباطبا (في تاريخه: الفخري) مبايعة بني هاشم لمحمد النفس الزكية في أواخر أيام بني أمية، فقال: اجتمع بنو هاشم من العلويين والعباسيين في أواخر الدولة الأموية، وتذكروا حالهم وما تعرَّضوا له من الاضطهاد، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، وميل الناس إليهم، ورغبتهم في أن تكون لهم دعوة. وقد اتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية الذي كان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً. وقد حضر هذا المجلس من أعيان الطالبيين جعفر الصادق وعبد الله المحض وابناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمرى؛ ومن أعيان العباسيين حضر السفاح والمنصور وغيرهما. قال: واتفق الجميع على مبايعة محمد النفس الزكية، إلا جعفر بن محمد الصادق الذي قال لأبيه عبد الله المحض: «إن ابنك لا ينالها

(يعني الخلافة)؛ ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر (يعني أبا جعفر المنصور)»[١]. وكان المنصور حينئذ يرتدي قباء أصفر.

وبالفعل لم يمكّن العباسيون محمداً النفس الزكية من الخلافة، بل دفعوا بها إلى السفاح ثم المنصور. ومهما يكن من شيء، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين، ورأى أنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه إبراهيم.

وقد استطاع محمد النفس الزكية أن يستميل أهل المدينة الذين كانوا يتدفقون حماسة لآل عليّ؛ فحموا محمداً، وصدّوا رياح بن عثمان بن حيان، قائد المنصور الذي أتى المدينة وخطب في أهلها على نحو ما خطب الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة، قائلاً: «يا أهل المدينة! أنا الأفعى ابن الأفعى عثمان بن حيان، وابن عم مسلمة بن عقبة[٢]، المبيد خضراءكم، المُفني رجالكم، واللّهِ لأدعنَّها بَلْقعاً لا ينبح فيها كلب!»[٣].

---

(١) علّق حسن إبراهيم حسن على هذا الكلام بقوله: «يظهر أن هذا الحديث من وضع الشيعة. فإنهم ينسبون إلى أئمتهم العلم بالغيب، مبالغةً في احترامهم».
والحال أن موقف الإمام الصادق عليه السلام ليس فيه أي شيء من دعوى العلم بالغيب، بل يدلّ على بُعد نظر وفهم عميق لواقع الحال. فهو كان يدرك أن العباسيين لن يسلموا الأمر ببساطة لأهل البيت العلوي، كما كان يرى بأم العين استعدادات السفاح والمنصور للوثوب على الخلافة، مع استعدادهما للبطش بكل من ينافسهما. ويبدو أن تقدير الإمام الصادق للموقف استمر على هذا النحو عندما دعاه أبو سلمة الخلال بعد ذلك إلى طلب الخلافة.

(٢) مسلمة بن عقبة المرّي، قائد وقعة الحرَّة في عهد يزيد بن معاوية.

(٣) وهو خطاب أشبه ما يكون بخطبة الحجاج بن يوسف الثقفي التي مطلعها: =

بيد أن أهل المدينة فاجأوه بهذه الكلمات: «يا ابن المجلود حدَّين! لتكُفَّنَّ أو لنكفَّنَّك عن أنفسنا!». ثم رموه بالحصى واضطروه إلى الهرب. وكان ذلك سنة ١٤١هـ.

وفي سنة ١٤٥هـ لم ير محمد بداً من الظهور، بعد أن دعا إلى نفسه سراً وعاش في الخفاء سنوات، حتى اعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة وتلقب بأمير المؤمنين. وقد ساعده على ذلك فتوى الإمام مالك بن أنس بنقض بيعة المنصور، حيث قال لأهل المدينة: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مُكْرَهٍ يمين!».

ظهور إبراهيم بن عبد الله في العراق

ثم ظهر إبراهيم، أخو محمد النفس الزكية، في البصرة، واستولى على دار الإمارة، وهزم قوات الخليفة المنصور، ودعا لأخيه محمد بالخلافة. وقد شدَّ أزره فقهاء البصرة وغيرهم من ذوي الرأي والجاه، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه، وعاونه الإمام أبو حنيفة وراسله سراً، كما عاون الإمام مالك أخاه محمداً بالمدينة. وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالي واسط والأهواز وفارس في دعوته. ولم يزل إبراهيم يوالي انتصاراته حتى أتاه خبر مقتل أخيه محمد قبل عيد الفطر سنة ١٤٥هـ بثلاثة أيام، فصلَّى بالناس يوم العيد، ونعى إليهم أخاه، فازدادوا حماسة في نصرة العلويين وبايعوا إبراهيم على إمارتهم.

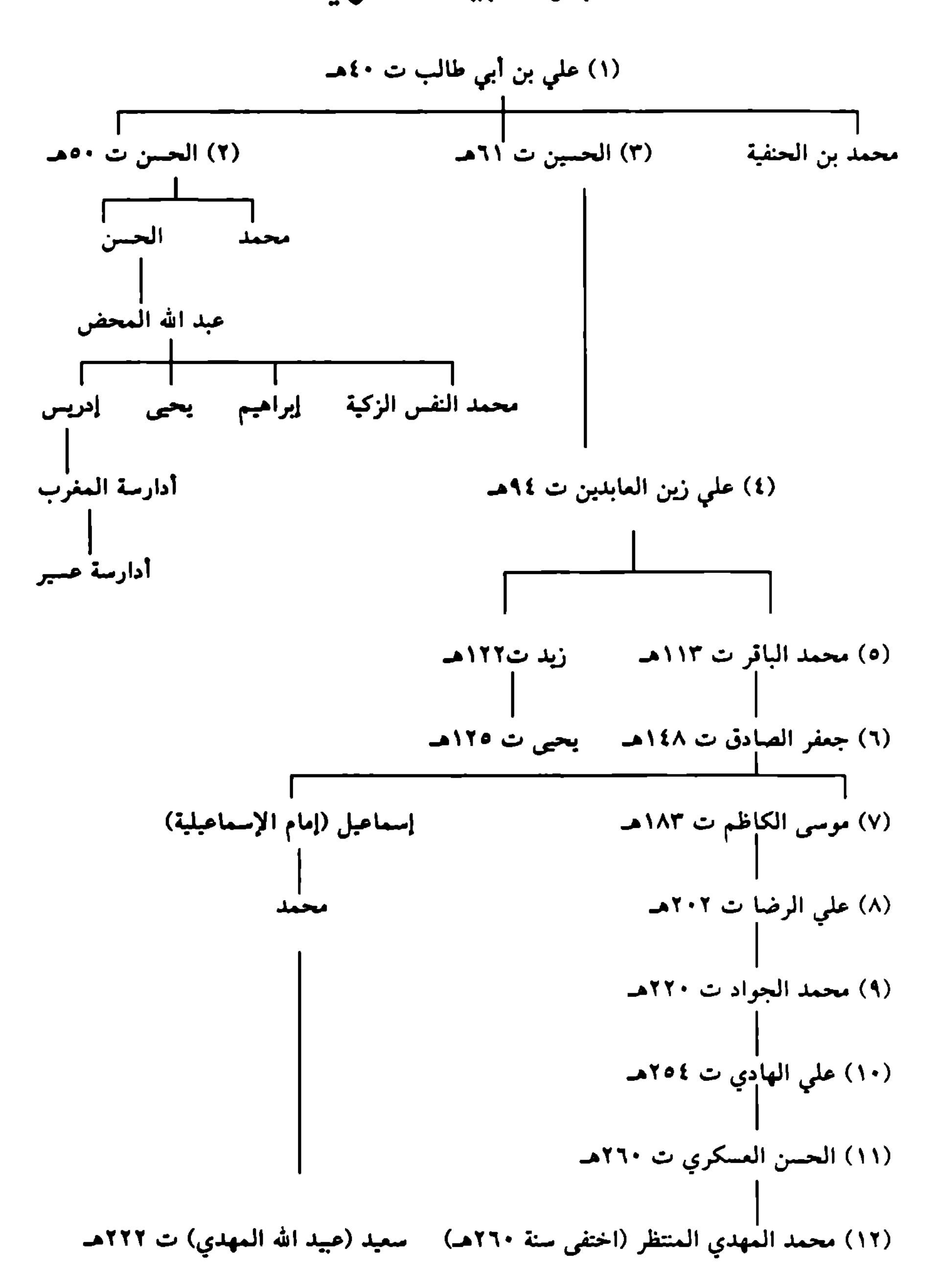
وسرعان ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى لمحاربة إبراهيم في العراق. ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخمرى، بين

= أنا ابن جلا وطَلاَّع الثنايا متى أَضَعِ العمامةَ تعرفوني

الكوفة وواسط. وما زال الفريقان يقتتلان حتى انهزم جند إبراهيم، وأصيب هو بسهم في حلقه، فاحتُزَّ رأسه وأُرسل إلى المنصور.

ويرى المؤرخ حسن إبراهيم حسن أن من أقوى أسباب إخفاق هذه الثورة ـ بالإضافة إلى قوة المنصور ودهائه ـ عدم تنفيذ الخطة التي رسمها محمد وإبراهيم والتي كانت تقضي بأن يخرجا في وقت واحد. ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم بسبب مرضه، أو بسبب تعجُّل محمد للحرب. ولو خرج هذان الأخوان في وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما.

شجرة البيت العلوي



٢ ـ ثورة الحسين بن علي بن الحسن بمكة والمدينة:

وفي عهد الهادي العباسي خرج العلويون بمكة والمدينة، بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وذلك سنة ١٦٩هـ، وقصد الحسين مكة، فلقيه جيش العباسيين بوادي فخّ، على بُعد ستة أميال من مكة. قُتل الحسين في هذه الموقعة، وقتل معه بعض أهل بيته، بعد أن أبلى بلاءً شديداً. وقد قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فَخّ. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

فلأبكينَّ على الحسين ... بعَوْلةٍ وعلى الحسنْ
وعلى ابن عاتكةَ[1] الذي ... واروه ليس بذي كفَنْ
تُركوا بفخّ غُدْوةً ... في غير منزلة الوطنْ
كانوا كراماً هُيِّجوا ... لا طائشين ولا جُبُنْ
غسلوا المذلَّة عنهم ... غَسْلَ الثياب من الدَّرَنْ
هُدِيَ العبادُ بجدّهم ... فلهم على الناس المِنَنْ

٣ ـ ثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله المحض:

نجا من وقعة فخّ رجلان من العلويين، هما: يحيى بن عبد الله المحض صاحب الديلم، وأخوه إدريس الذي فرَّ إلى بلاد المغرب.

أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الديلم، فاعتقد أهلها أحقّيته بالإمامة وبايعوه. ولكن الرشيد أعمل معه الحيلة، فأمَّنه ثم غدر به. كذلك

---

(١) هو الحسين بن علي، قتيل فخّ؛ وأمه تسمَّى عاتكة.

استطاع الرشيد أن يبعث رجلاً إلى إدريس في المغرب، فتقرَّب منه ثم دسَّ له السمّ فمات سنة ١٧٧هـ دون أن يترك ولداً. فانتظر أتباعه أَمَةً له كانت حاملاً، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة. وإليه تنسب دولة الأدارسة ببلاد المغرب.

وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على استئصالهم. وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد أفريقية (تونس) ليقف في وجه الأدارسة.

٤ ـ خروج محمد بن جعفر الصادق والقاسم بن إبراهيم

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق بمكة، في خلافة المأمون، وبويع بالخلافة وتلقب بلقب أمير المؤمنين. وكان بعض أهل بيته قد حسَّن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج.

قال حسن إبراهيم حسن: ويظهر أن خروج محمد الديباج قد حدث قبل أن يولّي المأمون علياً الرضا بن موسى الكاظم عهده، أو أن ذلك كان سبب الاختلاف بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم وبين أشياع أخيه محمد الديباج. ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجاً على من خالفوهم في العقيدة من أشياع موسى الكاظم(١).

---

(١) وذكر السيد محسن الأمين في «أعيان الشيعة»، نقلاً عن الشيخ المفيد في

وعلى أي حال فقد أرسل إليه المأمون عسكراً، فظفر به ثم عفا عنه. وكان ذلك سنة ٢٠٠هـ.

كذلك خرج من العلويين في أيام المأمون القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد بايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وطبرستان وبلاد الديلم. فأمر الخليفة بالتشدُّد في طلبه، فاختفى في بلاد اليمن. ولما ولي المعتصم بعث إليه بجند كثيف، وقضى على حركته سنة ٢٢٠هـ.

الشيعة الإمامية

وقد سُمّوا بالإمامية لقولهم بأن قيادة المسلمين بعد النبي ﷺ تعود إلى «الإمام» الذي يتعيَّن شخصُه بالوصيَّة. هذا مقابل نظرية الخلافة القائمة على الشورى.

والشيعة الإمامية قسمان: الإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية أو «السبعيَّة».

وهذا التمييز ضروري جداً، ليس على صعيد العقيدة فحسب، بل أيضاً وخصوصاً على صعيد موضوعنا، أي الحركات السياسية والدينية التي ناهضت الدولة العباسية بالسيف. إذ إن معظم المؤرخين القدامى والمحدثين ـ ومن بينهم حسن إبراهيم حسن الذي ننقل عنه في هذا

«الإرشاد»، أن محمداً الديباج كان «يرى رأي الزيدية في الخروج بالسيف». هذا خلافاً لرأي الإمامية الاثني عشرية من أصحاب جعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا... إلى آخر السلسلة.

الفصل ـ قد خلطوا خلطاً عجيباً بين مختلف العلويين والطالبيين والشيعة عندما تناولوا قضية المعارضة وأسلوب عملها، مثلما خلطوا بين مختلف الفرق التي أدرجوها تحت مسمًّى «الباطنية» عندما تناولوا قضية العقائد.

وغايتنا من تسليط الضوء على هذا الفارق بين الإمامية الاثني عشرية وبين سائر الجماعات العلوية أو الطالبية أو الشيعية، هي التنبيه إلى أن الاثني عشرية، بقيادة أئمتهم جميعاً، قد اعتزلوا المعارضة العنفيَّة الدموية، سواء في وجه العباسيين أو الأمويين. وحتى ثورة الحسين بن علي عليه السلام، شهيد كربلاء، فإن كثيراً من المحقّقين لا يرون فيها خروجاً بالسيف على سلطة الحاكم الأموي آنذاك، يزيد بن معاوية، بمقدار ما كانت خروجاً في طلب الإصلاح وتعبيراً عن رفضه مبايعة يزيد بالإكراه. غير أن الحاكم الأموي أبى لذاك الاعتراض إلا أن ينتهي بفاجعة كربلاء على النحو المعلوم. قصارى القول أن الإمام الحسين لم يكن مبادراً إلى السيف، بل جاءت المبادرة من الفريق الآخر.

إن سيرة أئمة الاثني عشرية تؤكد هذا المنحى غير العنفيّ وغير الانقلابي في ممارسة المعارضة، مثلما تؤكد أن إمارة الحكم (= إمامة السياسة) لم تكن في أي يوم من الأيام ضالَّتَهم. فإن جاءت تلك الإمارة راضيةً مختارة، فخيراً وحَسُنَتْ، وإنْ لم تأتِ فلا بأس. المهمّ في نظرهم هو «إمامةُ الدين» التي يعتبرونها حقاً لهم شرعياً، فيمارسونها على سبيل الإرشاد وعلى قاعدة «وحدة الأمة». وهذه النظرة إلى الأمر هي تماماً نقيض تلك النظرة التي يعبّر عنها كلامٌ منسوبٌ إلى معاوية بن أبي سفيان بقوله: «ما قاتلتكم كي تصوموا أو تُصلّوا، وإنما لأَتَأَمَّرَ عليكم!».

وفي ما يتّصل بموضوعنا بصورة مباشرة (أي المعارضة العنفيَّة ضد الدولة العباسية)، فإن في مواقف الإمام جعفر الصادق عليه السلام خير دليل على ما ذهبنا إليه. فقد رفض الصادق أن يتصدَّى للخلافة عندما دعاه التيار الفارسي إلى ذلك (راجع ردَّ الصادق على كتاب أبي سَلَمة الخلاَّل)، كما رفض أن يزكّي ترشيح محمد النفس الزكية للخلافة في اجتماع بني هاشم من العلويين والعباسيين في أواخر الدولة الأموية (راجع: ثورة محمد النفس الزكية في الحجاز وأخيه إبراهيم في العراق). وإذا كان بعضُ المؤرخين قد استنتج من مواقف الصادق «أنَّ العلويين آنذاك لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يعبّد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها» ـ نقول إن هذا الاستنتاج افتراضيّ ومتسرّع، لأن موقف الصادق منسجمٌ تماماً، وبالوقائع التاريخية، مع مواقف مَنْ سبقه ومَنْ لحقه مِن أئمة الشيعة الاثني عشرية.

لذلك فإنه عند الكلام على معارضة عنفية وانقلابية ضد الدولة العباسية ينبغي أن ينصرف التفكير بشكل رئيسي إلى الإسماعيلية الذين انتشرت مبادئهم بين القرامطة في سواد الكوفة والبحرين وشمالي العراق وبادية الشام، كما في بلاد اليمن على يد ابن حوشب وحلفائه من الصليحيين خاصة. ولم تخلُ بلاد الفرس من دعاة الإسماعيلية في هذا العصر. وقد تكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم في مصر، وامتدت رقعتها إلى فلسطين والشام وبلاد الحجاز وغيرها، كما خُطب للفاطميين في الموصل وبغداد حيناً من الدهر.

انقسام الإمامية:

بعد وفاة الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ انقسم الشيعة الإمامية قسمين:

١ ـ الإمامية الموسوية: نسبةً إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وقد أُطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية، لأنهم قالوا بإمامة اثني عشر إماماً بعد النبي في سلسلة متصلة؛ وهم: علي بن أبي طالب، الحسن بن علي، الحسين بن علي، علي بن الحسين زين العابدين، محمد بن علي الباقر، جعفر بن محمد الصادق، موسى بن جعفر الكاظم، علي بن موسى الرضا، محمد بن علي الجواد، علي بن محمد الهادي، الحسن بن علي العسكري، ومحمد بن الحسن المهديّ المنتظر. كذلك يطلق عليهم «الجعفرية» نسبةً إلى جعفر الصادق، السادس في ترتيب أئمتهم وواضع أصول مذهبهم الفقهي.

٢ ـ الإمامية الإسماعيلية: نسبةً إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذي قالوا بإمامته بعد والده والذي كان أكبر أولاد أبيه. ومع أن وفاته كانت في حياة أبيه سنة ١٤٥هـ، فقد حوّل أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد المستور؛ وهو عندهم الإمام السابع. ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم «السبعيَّة» لتمييزهم عن طائفة الاثني عشرية.

وفي شعبان سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ولد للحسن العسكري[1]، وهو

(١) نسبةً إلى «مدينة العسكر»؛ وهي سامراء التي أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكراً لجنده الأتراك. ولم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ ـ ٢٧٩هـ) ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة.

الإمام الحادي عشر عند الإمامية الموسوية، ولدٌ سماه محمداً من أم ولد اسمها صقيل. فلما توفي الحسن سنة ٢٦٠هـ كان ابنه محمد في الخامسة من عمره، فأصبح الإمام الثاني عشر عندهم. ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامراء وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين.

ومن هنا تنسب إلى محمد بن الحسن، الإمام الثاني عشر، غيبتان: الغيبة الصغرى وتبدأ بمولده سنة ٢٥٥هـ وتنتهي بموت أبيه سنة ٢٦٠هـ. والغيبة الكبرى، وتبدأ من اختفائه أخيراً في سنة ٢٦٠هـ إلى الآن. ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم. ولهذا يعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن محمد بن الحسن سيظهر ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ومن ثم سمي الإمام المنتظر، وصاحب الزمان، والقائم بالأمر، والحجة.

الخوارج

إذا كان الخوارج قد شاركوا إلى حد كبير في سقوط الدولة الأموية، فقد أقلقوا خلفاء العصر العباسي الأول في المغرب خاصة، حيث مال أهل تلك البلاد إلى الخوارج الذين بلغت جيوشهم نحو مائة ألف، وخلعوا طاعة أبي جعفر المنصور وهزموا جيوشه واستولوا على مدينة القيروان في عهده أكثر من مرة.

على أن خطر الخوارج لم ينته في العصر العباسي الأول، بل إننا نقرأ عن ثوراتهم التي كانوا يذكونها من حين إلى آخر. ففي سنة ٢٥٢هـ خرج مساور بن عبد الحميد الشاري الخارجي على والي الموصل في

عهد الخليفة المستعين، واستولى على أكثر أعمال الموصل وهزم الجيوش العباسية عدة مرات حتى وفاته سنة ٢٦٣هـ.

على أن أمر الخوارج أخذ في الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم، الأمر الذي أتاح للعباسيين فرصة التغلب عليهم وتخليص بلاد الموصل من يدهم. ولكنهم ظلوا يقلقون الفاطميين في المغرب والعباسيين في اليمن وعمان خاصة.

الفصل الثاني

قصة النفوذ التركي[١]

لعل أهمّ ما يَسِمُ المرحلة التي سبقت ثورة الزنج، ورافقتها أيضاً، هو النفوذ التركي في الدولة العباسية. ولهذا النفوذ قصةٌ ينبغي التعرُّض لها. فهو مكمن الداء الذي سيستشري في كيان الخلافة العباسية ويعمل، فضلاً عن غيره من العوامل، على الإطاحة بها.

المعتصم يقتني الأتراك ويعتني بهم، للوقوف في وجه الجُند الخراساني:

بعد العصر الذهبي العباسي، عصر الرشيد الموطَّد الأركان، المزدهر بالعلوم، أتى المأمون وتقوَّى بالفرس (في وجه العرب الذين ناصروا أخاه الأمين). ثم خلفه المعتصم الذي اصطنع الأتراك لمواجهة نفوذ الفرس. وكان المعتصم قد أخذ يقتني الأتراك، قبل أن يرتقي سدَّة الخلافة، ويبعث إلى ما وراء النهر (تركستان) في شرائهم. واعتنى المعتصم بمماليكه هؤلاء، فألبسهم أجمل الثياب الخاصة، وجعلهم بمنزلة حرسه الشخصي. وكان في هذا «يتشبَّه بملوك الأعاجم ويمشي مشيهم»، على حد قول السيوطي في «تاريخ الخلفاء». وقد رمى

---

(١) نقلاً عن أحمد عُلبي: ثورة الزنج، ص ١٢٩ ـ ١٣٩.

المعتصم، من وراء ذلك، إلى الوقوف في وجه الجند الخراساني، وقد اشتدّت سطوتهم بعد مقتل أخيه الأمين، وممالأة المأمون لهم.

ولما ولي الخلافة سنة ٢١٨هـ، أكثر من هؤلاء الأتراك، وصمَّم على تكوين جيش كامل منهم، بعد أن كانوا في أيام المنصور يشكلون شرذمة صغيرة. وعندما قويت شوكة الأتراك في البلاط العباسي وعلا نجمهم في بغداد، «رغب أولاد العائلة المالكة التركية وأمراء الطبقة النبيلة، في بلاد ما وراء النهر، في المجيء إلى المعتصم والعيش في كنفه. كما أن عامة الأتراك زحفوا بعشرات الألوف إلى العراق، لينتظموا في الجندية التي كانت مورد رزق لهم؛ إذ ما من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الأتراك في جندها، سواء كانت شيعية أو سنية»، على حد قول جرجي زيدان في «تاريخ التمدن الإسلامي». وهكذا تحول الجيش العباسي إلى جيش من المرتزقة، في حين كان يتألف، في مطلع الدولة العباسية، من العرب والفرس، الذين كان معظمهم من الجنود الأحرار، بلا بَيْعٍ أو عِتْق.

صفات هؤلاء الأتراك:

ولا حاجة بنا إلى شرح نفسية المرتزق. فهو مضرب المثل في اهتبال الفرص ما سنحت له، ولا يردّه عن الفتك والسلب أو الفرار، عند تأزم الأمور، وازعٌ من ضمير أو وطنية. ومعلومٌ أن تحوّل الجيش الروماني إلى جيش مرتزقة، كان نذير الانحطاط في الأمبراطورية الرومانية. وهذا ما سيكون عليه مصير الأمبراطورية العباسية.

كان هؤلاء الأتراك رجالاً أشدّاء، ومحاربين جلودين، وبدواً

بطّاشين، يتحملون المكاره. وقد دافعوا عن العباسيين وخاضوا الحروب ضد الثائرين الذي خرجوا على الخلافة، كبابك الخُرَّمي وصاحب الزنج. وقد نَبَه بين هؤلاء الأتراك القواد العسكريون، أمثال: الأفشين وبُغا الكبير وأشناس وإيتاخ وموسى بن بُغا وغيرهم. ولقد فطن المعتصم، وليُّ نعمتهم، إلى أن شدّة بأس هؤلاء الأتراك تكمن في بُعدهم عن متارف الحضارة التي أفسدت قومه العرب وذهبت بعصبيتهم ونخوتهم. لهذا سعى المعتصم إلى إبقاء الأتراك على ما هم فيه من فطرة وخشي تحضُّرهم؛ فحال دون اختلاطهم بالقوميات الأخرى، بل منع تزوّجهم بغير التركيات؛ فجلب لهم الجواري التركيات وأجرى لهنّ الأرزاق. وكان من جهل الأتراك بالعلوم أن ابن الأثير، لما ذكر معرفة «قتلمش» بعلم النجوم، قال: «ومن العَجَب أن قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم، وقد أتقنه، مع أنه تركيّ!».

أخلاق المعتصم:

وكان المعتصم في خشونة أتراكه وشدّة مراسهم. فأمه مولاة تركية تُدعى «ماردة»، وكانت أحظى الناس عند الرشيد. أما هو فيُروى أنه «كان يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات» (ابن الطقطقي)، كما كان «يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره» (السيوطي). فهذه الأخبار وغيرها قد يكون مبالغاً فيها، ولكنها تنبىء بأن المعتصم كان، كأتراكه، قوياً جلوداً. ولا عجب، بعد ذلك، أن يكون فاتح عَمُّورية، ولا عجب أيضاً أن يكون، شأن أتراكه، «عُرْياً من العلم»، كما قال السيوطي.

المعتصم يخرج بأتراكه من بغداد ويبني لهم سامراء:

وأخذ هؤلاء الأتراك يتحرّشون بسكان بغداد، ويتعرّضون للنساء، ويؤذون الناس، وربما قتلوا منهم. فضجَّ أهلُ بغداد بالشكوى. عند ذلك خرج المعتصم من بغداد، مع جنده الأتراك، إلى موضع يبعد ستين ميلاً شمالي بغداد، وعليه تمَّ بناء مدينة سامَرَّاء سنة ٢٢١هـ. أصبحت سامراء العاصمة الجديدة، ونافست بغداد في البناء والعظمة. وقد ظلت مقراً للخلافة العباسية طوال ستّ وخمسين سنة، أي منذ عهد المعتصم إلى عهد المعتضد. وهكذا فإن عاصمة الخلافة، إبان ثورة الزنج، كانت سامَرَّاء.

عواقب اصطناع المعتصم للأتراك:

إن ما زرعه المعتصم، من تمكينه الأتراك في مفاصل الخلافة، سيحصد نتائجه الوخيمة الخلفاء الذين جاؤوا من بعده. ويبدو أن المعتصم ندم على ما فعل، بحسب روايةٍ للطبري.

لكن أسف المعتصم جاء بعد فوات الأوان. إذ أمسك الأتراك بناصية الخلافة، فدخلوا على المتوكل ليلاً، سنة ٢٤٧هـ، وهو يشرب، ففتكوا به، متواطئين مع ابنه المنتصر. ومنذ تلك الليلة الرهيبة التي قُتل فيها المتوكل، كما يقول نولدكِه، بدأت الأمبراطورية العباسية المتضعضعة في الاضمحلال.

لقد حاول المتوكل أن يقف وجماعته في وجه قواد الأتراك، وأن يستصفي ضياعهم، فوثبوا به قبل أن يتمكن منهم. وهكذا أصبح الخليفة، بعد مقتل المتوكل، «كالأسير في يد الأتراك، إن شاؤوا

أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه، وإن شاؤوا قتلوه»، كما يقول ابن الطقطقي المؤرخ.

وعندما ولي المنتصر، قاتلُ أبيه، الخلافة أخذ يتذمّر بدوره من الأتراك ويقول: «هؤلاء قَتَلةُ الخلفاء». فأغروا به طبيبه ابن طيفور، ففصده بريشة مسمومة، فمات دون السادسة والعشرين من عمره، وقبل أن تمضي ستة أشهر على خلافته.

وخلفه المستعين، ابن المعتصم، فحاول بدوره الوقوف في وجه النفوذ التركي، فجابهه الأتراك. عندئذ فرَّ من سامراء إلى بغداد، فأخرج الأتراك المعتزّ من السجن وبايعوه. ونشبت حرب أهلية بين المستعين والمعتزّ دامت أشهراً، انقطعت أثناءها الميرة، وقلّت الأموال، وارتفعت الأسعار. وكانت الغلبة في هذه الحرب للمعتز. فخُلع المستعين ثم قُتل وهو شاب. وفي عهد المستعين بدأ تأثير النساء والخدم في سياسة الدولة. فقد ترك هذا الخليفة لأمه ـ وكانت صقلبية الأصل ـ ولشاهك الخادم الحبل على الغارب؛ فنهبا مالية الدولة بالاشتراك مع أتامش التركي.

وكان المعتزّ ـ وقد ارتقى سدَّه الخلافة سنة ٢٥٥هـ ـ مستضعفاً مع الأتراك، ويخشاهم كثيراً. فعمل على دفع خطرهم، فاغتنموا الفرصة وطالبوه بدفع رواتبهم، فعجز عن ذلك. وأبتْ أمه أن تعينه، برغم غناها، فهاجمه الأتراك وأعملوا فيه التعذيب ومنعوا عنه الطعام، ثم خلعوه وقتلوه. ويُحكى أنه «لما جلس المعتزّ على سرير الخلافة، قعد خواصُّه وأحضروا المنجمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء، فقال: أنا أعْرَفُ من هؤلاء

بمقدار عمره وخلافته. فقالوا له: كم تقول إنه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك! فلم يبق في المجلس إلا مَنْ ضحك». وقد صدق هذا المتهكّم الظريف.

وعيَّن الأتراك المهتدي سنة ٢٥٥هـ. وكان أحسن الخلفاء العباسيين سيرة، يحاول التشبُّه بعمر بن عبد العزيز. ولكن عدل المهتدي جاء في غير زمانه، فاجتمعت كلمة الأتراك عليه وقتلوه قبل أن ينقضي عام على تعينيه. وفي أيام المهتدي خرج علي بن محمد، صاحب الزنج.

وعندما قتل الأتراك المهتدي، أخرجوا المعتمد من السجن وبايعوه. وهكذا اعتلى عرش الخلافة، خلال تسع سنوات تقريباً ـ من مقتل المتوكل (شوّال ٢٤٧هـ) إلى مقتل المهتدي (رجب ٢٥٦هـ) ـ أربعةُ خلفاء: المنتصر، المستعين، المعتزّ، والمهتدي. وقد ذهبوا جميعاً طُعماً للقتل والسمّ والتعذيب والخلع على يد الأتراك.

لقد انحدرت الخلافة العباسية إلى قرار سحيق، وأضحى الخلفاء رهناً بمشيئة الأتراك؛ وهو ما عبَّر عنه البيتان المشهوران:

خليفةٌ في قفصٍ   بين وصيفٍ وبَغَا
يقول ما قالا له   كما تقول الببَّغَا

وكان لسان الشعب يلهج بما قاله الشاعر العلوي الثائر دعبل الخزاعي المتوفى سنة ٢٤٦هـ:

خليفةٌ مات لم يحزن له أحدٌ   وآخر قام لم يفرح به أحدُ
فمرَّ ذاك ومرَّ الشؤمُ يتبعُهُ   وقام ذا فقام النحسُ والنَّكَدُ

الفصل الثالث

العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي مهَّدت لثورة الزنج واكتنفتها

أولاً: العوامل الاقتصادية[1]

١ ـ مالية الدولة في النصف الأول من القرن الثالث الهجري

كانت مالية الدولة خلال هذه الفترة في تأخر ملحوظ. ذلك أن الخلفاء قد أسرفوا في تبذير الأموال وصرف مداخيل الدولة في شؤونهم الخاصة ولياليهم المترفة.

فالمعتصم أتى بالحرس التركي، ثم أصبح هذا الحرس جيشاً نظامياً صرف عليه المعتصم الأموال الطائلة، بحيث صار عالةً على مالية الدولة وشخص الخليفة. وستصبح أموال الدولة عرضة لسطو الأتراك وجشعهم، فتفرغ الخزائن.

وقد رأينا أن المعتصم نقل مركز الخلافة إلى سامراء. ولا شك أن بناء العاصمة الجديدة قد كلف الدولة أموالاً لا تحصى، ما دام أنها ضاهت بغداد في فخامتها.

---

(١) نقلاً عن أحمد عُلبي، باختصار.

أما المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) فقد كان منصرفاً إلى ملاذّه، يُسرف في المجون والهزل، ويبني القصور مُنفقاً عليها الأموال، حتى قيل إنه «لم تكن النفقات في عصر في العصور مثلها في أيام المتوكل»، على ما ينقل المسعودي الذي قال أيضاً إنه كان للمتوكل «أربعة آلاف سُرِّيَّة (أي جارية) وطئهنَّ كلَّهن».

وفي عهد المستعين كان الخراج الذي يرد إلى بيت المال يصبّ في جيوب أم الخليفة وشاهك الخادم وأُتامش التركي.

والجدير بالذكر أن بيت مال المسلمين وخزينة الخليفة الخاصة ـ اللذين كانا يؤلفان كلاً واحداً في الواقع ـ قد فصلهما الخلفاء وميزوا بينهما مع اشتداد نفوذ الأتراك الذين وضعوا يدهم على «بيت المال». وهكذا أوكل الخلفاء إلى الوزراء مهمة الإشراف على بيت المال ووضع ميزانيته، في حين انصرفوا من جانبهم إلى تنمية موارد خزينتهم الخاصة ولجأوا بشكل خاص إلى المصادرة.

ولعل أخطر ظاهرة تدل على مدى التدهور الذي صارت إليه مالية الدولة، هي مصادرة الكتّاب والوزراء والعمّال (أي وكلاء النواحي). وشملت المصادرة رجال الحكومة كافة، والرعية طبعاً، وكوّنت مع الأيام المصدر الرئيس لتحصيل الأموال. وقد صارت المصادرة متسلسلة الحلقات: فالعامل يتفنّن في ابتزاز الأموال من الشعب الكادح، والوزير يقبض من العامل مالاً لقاء تعيينه؛ وقد يصادر الوزير العامل بعد تعيينه. وأما الخلفاء فكانوا يصادرون الجميع: الرعية وكل صاحب مال، حتى إنهم أنشأوا ديواناً خاصاً بهذا الشأن سُمّي «ديوان المصادرة» وهو في الواقع والحقيقة ديوان الابتزاز واللصوصية.

ومن أغرب طرق الاغتصاب أن يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة ضيعةً لبعض الناس، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه. وإذا استحقَّ عليها الخراج أدّاه صاحبُها الأول، مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها، إذا ما دُوِّن خراجها باسمه في الديوان فيبطل حقُّ مالكها الحقيقي في ملكيتها. وهكذا يضطر المالك إلى دفع الخراج أعواماً، على أمل أن يجد مَن ينصفه؛ وغالباً ما لا يجد!.

٢ ـ التركيب الطبقي للمجتمع العباسي:

كان المجتمع العباسي يتألف، في القرن الثالث الهجري، من ثلاث طبقات أساسية:

- الطبقة الإقطاعية: تمتلك الإقطاعات الواسعة، وترتبط مصالحها وأوضاعها الاجتماعية بالخلافة عملياً.
- الطبقة التجارية: وتتألف من التجار الذين توفرت الأموال بين أيديهم بصورة استثنائية في هذا العصر، حيث عرفت التجارة الإسلامية ازدهاراً كبيراً. وهؤلاء التجار وظفوا أموالهم في الزراعة، من طريق امتلاك الأراضي.
- الطبقة العامة: وتتألف من الكادحين الذين يقطنون المدن، إلى جانب القبائل التي كانت لا تزال قريبة عهد بالبداوة، والفلاحين البعيدين عن مراكز الحياة السياسية.

وسنركّز الضوء على الطبقة الإقطاعية، لأن مأساة الزنج ارتبطت بها.

الطبقة الإقطاعية:

تشكلت هذه الطبقة من الأسرة المالكة (الخليفة وأفراد البيت

العباسي)، وقواد الأتراك، والوزراء الأثرياء، وأصحاب المناصب العليا، يُضاف إليهم التجار الذين وظفوا الفائض المالي الذي لديهم في امتلاك الأراضي واستثمارها زراعياً.

أما كيف نشأت الملكيات الفردية الواسعة في أراضي السواد (وهي المنطقة التي كانت المسرح الرئيس لثورة الزنج)، مع أن عمر بن الخطاب سنَّ قاعدة تقول بأن السواد ملكٌ مشترك بين المسلمين، فإليك القصة.

عندما تسلَّم بنو أمية الحكم، أطلقوا الحرية لمن أراد من العرب المسلمين أن يقتني ما يشاء من الأراضي، خارج جزيرة العرب، بعد أن كان ذلك ممنوعاً، كما يُقال، في أيام أبي بكر وعمر. فكان من ذلك أن تهافت أصحاب الثروة والسلطة من العرب على امتلاك الأراضي في العراق ومصر وسائر البلاد المعروفة بجودة تربتها وغزارة مياهها. جراء ذلك سقط معظم الأراضي الزراعية في أيدي قبضة من الأسر العربية، إلى جانب الأسرة الحاكمة، وأخذ استغلال هذه الأراضي الخصبة يقوم على أكتاف علوج[١] البلاد وزنج إفريقيا الشرقية.

وإذا نظرنا إلى وضع الأراضي في العصر العباسي، نرى أنها كانت تنقسم إلى قسمين رئيسين:

أ - ضياع الخلافة. وتتألف من الضياع التي كانت للأمويين فصادرها العباسيون؛ ومن «الصوافي»، أي الأراضي التي استصفاها عمر بن

---

(١) العلوج، كما يبدو، هم الذين يعملون في الأراضي بالأجرة، أي بتعبير عصرنا العمال الزراعيون. والعِلْج - بحسب ما جاء في «المنجد» - هو الرجل الضخم القوي من كفّار العجم.

الخطاب من أملاك الفرس والبيزنطيين، ثم انتقلت إلى الأمويين فإلى العباسيين الذين أضافوا إليها أراضي جديدة بالشراء وبتجفيف المستنقعات في جنوبي العراق وبمصادرة ضياع المغضوب عليهم من موظفين وغيرهم.

ب ـ الإقطاعات. منها ما كان يُعطى، مؤقتاً، للوزراء وكبار الموظفين والقواد، لتقوم وارداتُها مقام رواتبهم التي عجزت الدولة عن دفعها. ومن هذه الإقطاعات ما كان يمنحه الخلفاء إلى الشعراء والمقرَّبين كمكافأة أو صلة. وهناك أخيراً الأراضي المهملة أو الموات التي كان يُقطعها الخلفاء إلى أصحاب الثروات لإصلاحها وزرعها.

والأرض المَوَات هي التي لا يملكها أحد، وليس عليها بناء أو زرع أو مرعى أو مقبرة أو موضع احتطاب. فهي والحالة هذه «للدولة». وإحياء الأرض الموات هو أن يأخذ أحدٌ هذه الأرض، فيجلب إليها الماء أو يبني عليها، فتصبح له. وذلك عملاً بالحديث الشريف: «مَنْ أحيا أرضاً مَوَاتاً فهي له». . وزاد أبو حنيفة على الحديث بأن قال: «إذا أجازه الإمام». هذا وكانت ضياع البصرة، حيث كان يعمل الزنج، إحياء مواتٍ في الإسلام. فقد كان إقطاعيو الأرض في منطقة البصرة قد جلبوا أعداداً هائلة من زنج شرقي إفريقيا وحشدوهم في هذه المنطقة، بوصفهم أيدي عاملة رخيصة.

ثانياً: العوامل الاجتماعية[1]

من بين الفئات الاجتماعية المختلفة التي كانت تشكل نسيج

---

(١) نقلاً عن أحمد أمين («ظُهر الإسلام») وأحمد عُلبي («ثورة الزنج») بتصرُّف.

الاجتماع الإسلامي في القرن الثالث الهجري، نركّز الحديث على فئة «الرقيق»، لا سيما الرقيق الأسود، وأشهره الزَّنْج.

الرقيق:

قال أحمد أمين: كثر الرقيق في هذا العصر كثرة بالغة، وامتلأت به القصور، وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية. وقد كثر نسل الجواري واختلطت الدماء. حتى الخلفاء أنفسهم في هذا العصر كانوا من نسل السراري. قال ابن حزم في كتابه «نَقْط العروس»: «لم يلِ الخلافة في الصدر الأول مَنْ أُمُّه أَمَة، حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد. ولا وليها من بني العباس من أُمُّه حرَّة، حاشا السفاح والمهدي والأمين. ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أُمُّه حرَّة أصلاً».

وكثر تعليم الجواري الغناء، واتخذ أصحابهنَّ لهن بيوتاً معدَّة للسماع في الأحياء المختلفة. وكثرت هذه البيوت في بغداد، حتى قال أبو حيَّان التوحيدي: «وقد أحصينا من المغنّيات أربعمائة وستين جارية في جانبي بغداد، ومائة وعشرين حرَّة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعِشرة ـ هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزّته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت، أو ثمل في حال، أو خلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه».

وكان الرقيق صنفين متميزين: صنف أبيض، وصنف أسود. فالصنف الأبيض كان من الترك والصقالبة والأرمن واليونان. وكانت أكثر أسواقه سوق سمرقند، يأتي إليها رقيق تركستان وما وراء النهر

والبلغار، وسوق شرق أوروبا. أما الصنف الأسود فكان يجلب من السودان والحبشة وما إليهما.

وقد قام هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة، وتغلغل في الحياة الاجتماعية. فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة في حروبها؛ حتى لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب، مثل مؤنس في العراق، وجوهر الصقلي في المغرب ومصر، وكافور الإخشيدي بمصر، وسبكتكين في الأفغان.

ومنهن القيان في محالّ الغناء العامة؛ ومنهن أمهات الأولاد وملك اليمين، يتغلغلن في بيوت الخلفاء والأمراء والأغنياء والأوساط؛ ومنهن من يقمن بالخدمة في البيت، وقد يبلغن منزلة عالية.

ومن الرجال الأرقاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم؛ ومنهم طبقة الخصيان، وقد انتشرت في هذا العصر انتشاراً كبيراً. كذلك كان منهم الغلمان في الأوساط المستهترة.

ومن هنا نرى كيف أثَّر الرقيق أثراً كبيراً من النواحي الاجتماعية والحربية والمالية والأخلاقية.

أ- الزّنج: اسمهم ومصدرهم وأحوالهم

إن كلمة «زَنْج» مقتبسة عن «زنك» الفارسية، ومعناها الحبشة. ومنها جاءت «زنكبار» التي حُرّفت إلى «زنجبار» التي تقع على الساحل الشرقي لأفريقيا (فيليب حتّي: تاريخ العرب). ويلاحظ أن كلمة «زنجد» في الفارسية معناها المعدن، كما أن كلمة «زِنْجار» العربية المأخوذة عن الفارسية «زنكار» تعني صدأ الحديد والنحاس. كذلك فإن «زنجير»

العربية مقتبسة عن «زنكير» الفارسية ومعناها السلسلة المعدنية. فهل لنا أن نستنتج أنه من المحتمل أن بلاد الزَّنْج تعني بلاد المعادن، وبخاصة أن القارة الأفريقية تزخر بالمعادن النادرة التي كان يستوردها التجار المسلمون إلى بلادهم؟

ب ـ مصدر الزّنْج:

لقد جُلب هؤلاء الزَّنْج من أفريقيا الشرقية. جلبهم تجار الرقيق المسلمون الذين ضربوا بتعاليم الإسلام عُرْضَ الحائط، وجعلوا من بغداد محطة كبرى لتلك التجارة الوضيعة، الرابحة، التي دعوها النخاسة.

وكان في ميسور التجار المسلمين أن يأتوا بأعداد ضخمة من هؤلاء الزَّنْج، لأن اتصال العرب بشواطىء أفريقيا الشرقية موغل في القدم. فقد عرفوها قبل الميلاد، وظلت علاقتهم بها وثيقة بعد الإسلام. فاستعمروا هذه السواحل واستولوا على تجارتها، وجعلوا منها سوقاً عربية ثم إسلامية خالصة، لا ينازعهم فيها منازع، يوم كانوا أسياد المحيط الهندي وأرباب الملاحة والاكتشافات والعلوم البحرية.

وعلى هذه السواحل الشرقية لأفريقيا نشأت مستعمرات إسلامية ومستوطنات، أمثال لامو *(Lamou)* ومُمْبَسَّه *(Mombassa)* وزنجبار *(Zanzibar)* وموزمبيق *(Mozambique)*. فمن هذه السواحل ومن جزيرة مدغشقر *(Madagascar)* أتى التجار بالرقيق الأسود، وكان مرفأ سُفالة *(Sofala)* مركزاً لتصديره.

هذا وكان الزَّنْج يقصدون ميناء سُفالة ليبيعوا أولادهم وزوجاتهم،

بالتمر والخرز والملح، كما كانوا يجلبون سائر محاصيل القارة السوداء وطيورها ومعادنها النادرة، التس أضفت مظاهر البذخ على المجتمع العربي في ذلك الزمن البعيد. وبالمقابل كان التجار المسلمون يصدّرون إلى هذه السواحل التمور والقطن والأنسجة والأدوات الفولاذية والأواني الزجاجية.

وهكذا كان الزنج يؤسرون، أو يُعرضون كسلعة في سوق النخاسة، أو يأتون على شكل جزية تتقدم بها دولة خاضعة للخلافة. وكان ثمن العبد في «بورصة الرقيق» حوالي منتصف القرن الثاني الهجري مائتي درهم.

ج ـ أحوال الزنج وطبيعة عملهم:

كان الزَّنْج يعملون على شكل جماعات في منطقة البصرة حيث تمتد المستنقعات. وكان عليهم أن يجففوا تلك المستنقعات، وأن يزيلوا عن الأرض الطبقة الملحية ـ وهي السّباخ أو الشُّورَج ـ كي تصبح صالحة للزراعة. ثم كان الزَّنْج ينقلون الشُّوْرَج، أو الملح، على البغال إلى حيث يُعرض ويباع.

ويبدو أن بيع هذا الملح كان يدرّ ربحاً على من يتعاطون بيعه، وهم الشُّورجيّون الذين كان لهم غلمانهم من العبيد والأحرار. وكان هؤلاء الغلمان من أوائل الذين انتزعهم علي بن محمد، صاحب الزَّنْج، من وكلائهم، وضمَّهم إلى ثورته.

ومن الزنج من كان يعمل في استخراج الدبس من التمر، وهم

غلمان الدبّاسين والتمّارين. كما كان بعضهم يعمل في بيوت دهاقين البصرة.

كان استصلاح الأرض وإعدادها للحرث والبذر عملاً شاقاً لا يقوى عليه إلا الزَّنْج الذين لهم جَلَد على الكدّ. «فالزنجي إذا شبع، فصُبَّ العذابُ عليه صباً، فإنه لا يتألم له» ـ على حد قول ابن بطلان. ولكن طعام الزنج لم يكن ليُشبع أو يغذّي. فهو من الدقيق والسويق والتمر. فأين هذا الطعام الهزيل من طعام الزنج في بلادهم. إذ كان يتكوَّن من الذرة والموز ـ وهو كثير ببلادهم ـ ومن اللحم والعسل والنارجيل وغيرها.

علاوة على «الشبع الموهوم»، فقد كان الزنج عرضة للأمراض الفتاكة. فهم يعيشون في منطقة ملأى بالمستنقعات والأنهار، وهذا يعني أن الرطوبة والقذارة والأوبئة كان ترى في الزنج مرتعاً خصباً لها. وهكذا فتكت الأمراض بالزنج، كما أنها فتكت خلال الثورة بجيوش أعدائهم من جند الخليفة. وقد كانت الأوبئة من شدائد ذلك العصر. فقد وقع سنة ٢٥٨هـ، أي خلال ثورة الزنج وفي مرحلة من عنفوانها، وباءٌ في كُوَر دجلة وفشا في العراق والأهواز «حتى مات غالب عسكر الموفَّق». وإن منطقة البطائح، التي استولى عليها صاحب الزنج لفترة من الزمن، كانت أشبه بالسعير. وقد تعوَّذ المقدسي بالله منها، فقال في كتابه «أحسن التقاسيم»: «ومن شاهدها في الصيف رأى العجب... وثَمَّ بقٌّ له حُمَةٌ كالإبرة».

بالإضافة إلى هذه العوامل المادية ـ من جهد جسماني مرهق، وسوء تغذية، وأمراض مهلكة ـ كانت هناك عوامل نفسانية شديدة الوطأة

على الزنج. فعلاوة على جهل أكثرهم للعربية، كانوا يعيشون بعيدين عن عائلاتهم وبيئتهم وطبيعة بلادهم. وهذا النفي كان يكون محتملاً لو أن الزنج شكلوا مجتمعاً خاصاً بهم وأحياء تضمّهم. فالحال أنهم «لم يكونوا ذوي زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشُّطَّار[١] عُزَّاباً»، كما يقول ابن أبي الحديد. فأيُّ حرمان جنسي كانوا يُعانون! وقد علَّل الجاحظ عدم تكاثر نسل الزنج في العراق بكون «الزنجي والزنجية قليلاً ما يلدان من الغرائب، وأن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجيّ».

اتصال الزنج والسودان بالعرب... قديم

كتب أحمد أمين في «ظُهر الإسلام»:

وقديماً اتصل هؤلاء السودان بالعرب، فكان منهم بلال الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ؛ ومنهم سعيد بن جبير سيّد التابعين الذي قتله الحَجَّاج؛ وكان من أشعر شعرائهم في العصر الأموي الحَيْقُطان؛ وقد هجا جريراً وفخر عليه بالزنج، فقال:

والزِّنْجُ لو لاقَيْتَهم في صفّهم لاقَيْتَ ثَمَّ جَحَاجِحاً أبطالا

وكان الزنج يفخرون بطلاقة اللسان، وكثرة الكلام، وشدة الأبدان، والسخاء، وقلة الأذى، وطيب النفس، وضحك السنّ، وحُسن الظنّ. وقد عُيّروا بصغر عقولهم وضعف ذكائهم وقلة علمهم،

(١) أطلقت تسمية الشُّطَّار والعيارين، في ذلك العصر، لا سيّما في بغداد والقاهرة، على الشبان الذين يترددون بلا عمل، ويعصون أهلهم ويعيشون في الخلاعة على هواهم.

فأجابوا: «إنكم لم تروا الزنج الحقيقيين، وإنما رأيتم السَّبْيَ يجيء من السواحل، وأهلُ السواحل هؤلاء ليس لهم جمالٌ ولا عقول، ولو رأيتم كرام الزنج لرأيتم الجمال والكمال والعقل».

وكان في الجيش العباسي فرقة من الزنج، كما كان منهم الكثير في خدمة القصور. وقد نبغ منهم كافور الإخشيدي الذي ملك مصر والشام، وخُطب له على المنابر في مكة والمدينة. وقد مدح المتنبي سواده، فقال:

فجاءتْ به إنسانَ عين زمانه وخلَّتْ بياضاً خلفها ومآقيا

ثم ذمَّ سواده حين هجاه فقال:

مَنْ علَّم الأسودَ المخصيَّ مكرمةً أقومُه البيض أم آباؤه الصيدُ

أم أذنُه في يد النخَّاس داميةً أم قدرُه وهو بالفلسين مردودُ

وذاك أن الفحولَ البيضَ عاجزةٌ عن الجميل فكيف الخصيةُ السودُ

ومن قديم كان للبيض نساء من السود. فأعشى سليم كانت له دنانير بنت كعبويه الزنجي، وكانت زنجية. وقد رآها تكتحل فقال:

كأنها والكحلُ في مِرْوَدها تكحل عينيها ببعض جلدها

وقد تزوج الفرزدق أمَّ مكية الزنجية، وترك ما عنده من النساء من أجلها، وقال فيها:

يا رُبَّ خَوْدٍ من بناتِ الزَّنْجِ

وكثر ذلك في العصر العباسي، فامتلأت بهن القصور وبيوت

الأوساط والفقراء. فقد كانت الجواري البيض أغلى ثمناً، فكانت أكثر ما تكون في بيوت الأغنياء. أما السوداوات فكثيرات ورخيصات.

وقد ذكر ابن بطلان خصائص السود فقال:

«الزنجيات مَسَاويهن كثيرة. وكلما زاد سوادهنَّ قبحت صورهن، وتحدَّدت أسنانهن، وقلَّ الانتفاع بهنّ، وخِيفت المضرَّة منهن. والغالب عليهن سوء الأخلاق، وكثرة الهرب، وليس في خلقهن الغمّ، والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن... ويقال: لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع!... أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها. يعتادهنَّ السلّ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص. دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها».

غير أن الشريف الإدريسي، في كتابه «نزهة المشتاق»، امتدح النوبيات فقال: «إن في نساء النوبة جمالاً فائقاً. فلهنَّ كمال المحاسن، والشفاه الرقاق، والأفواه الصغار، والمباسم البيض، والشعور السَّبِطة[١]... ولا أحسن أيضاً للجماع منهنّ. ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر فيهن، ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن أمهات أولاد، لطيب متعتهن ونفاسة حسنهنّ».

---

(١) شعر سَبِط: مسترسل، عكس الجَعْد.

الباب الثالث

عقيدة علي بن محمد والمضمون الديني لثورة الزنج

الفصل الأول: «مهدوية» صاحب الزنج وعلويته

الفصل الثاني: خارجيَّة صاحب الزَّنج وأزرقيَّتُه

الفصل الأول

«مهدوية» صاحب الزنج وعلويته

توسَّل علي بن محمد، في جميع مراحل حياته السياسية، بنظرية رافقت التاريخ الإسلامي وقامت فيه بدور جليل، ألا وهي نظرية أو عقيدة «المهدي المنتظر»، هذا الذي يعود إلى الدنيا، بعد احتجابه زمناً لا يُعرف مقداره، فيملأها قِسْطاً وعدلاً بعد أن تكون قد ملئت ظلماً وجوراً.

عقيدة المهدي المنتظر في تاريخ الشرق:

هذه العقيدة عريقة في تاريخ الشرق. فقد خضعت شعوب الشرق القديم لنير الاستغلال الشرس على مدى قرون وأجيال. ثم استفاقت ووعت أن الأغلال في أيديها، ووعت أيضاً أن تحطيم هذه الأغلال أمرٌ عسير؛ فلجأت إلى التعلُّل بالآمال للتخلص من الواقع الشقيّ. وقد تجمعت هذه الآمال الدينية مع الزمن، فكان أن نتج عنها، وبفضلٍ من الاعتقاد الديني، عقيدة «المنقذ» أو «المخلّص»، مبعوث العناية الإلهية الذي يأتي لينتشل الناس من وهدة اليأس والشقاء. فالمهديُّ المنتظر أمرٌ شائع في معتقدات قدامى المصريين والصينيين والفرس والهنود

والعبرانيين. وعلى سبيل المثال فإن مسيحيي الحبشة ينتظرون رجعة ملكهم تيودور كمهديّ في آخر الزمان.

المهديّ في الإسلام:

شكل الإسلام ثورة على الظلم. ولكن هذه الثورة لم تَطُلْ بعد وفاة النبي ﷺ وذهاب الخلفاء الراشدين. إذ عاد الظلم في ثوب جديد. وهذا ما عناه عبد الرحمٰن بن أبي بكر بقوله لمروان بن الحكم الأموي: «تريدون أن تجعلوها (أي الخلافة) هِرقلية: كلما مات هِرقْلٌ قام هِرَقل!». والهرقلية كانت، عهد ذاك، كالكسروية والقيصرية والملكية والجبّارية والفرعونية، تعني: الظلم والاستبداد وحكم الفرد وسيادة الطغيان.

ويرى ابن خلدون أن الخلافة قد تحولت، بعد علي بن أبي طالب عليه السلام إلى «مُلك تسنده العصبية القبلية»، وبعد أيام هارون الرشيد وبعض ولده «ذهبت معاني الخلافة، ولم يبق إلا اسمُها، وصار الأمرُ ملكاً بحتاً، وجرت طبيعة التغلُّب إلى نهايتها».

وقد كتب ابن خلدون في مقدمة تاريخه فصلاً رائعاً تحت عنوان «في أن الظلم مؤذِنٌ بخراب العمران». ومما قاله في ذلك: «اعلمْ أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابُها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك. والعُمرانُ ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش

وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال، وابْذَعَرَّ الناسُ في الآفاق (أي تفرَّقوا)، فخفَّ ساكنُ القُطْر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورةٌ للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورةً»[١].

وفي ما آل إليه الحكم من ظلمٍ للمحكومين، يقول علي عبد الرازق[٢]: «لقد كان عرشُ الخليفة ـ وقد تحوَّلت الخلافة إلى ملكية ـ لا يرتفع إلا على رؤوس البشر، ولا يستقرُّ إلا فوق أعناقهم. وإن ذاك الذي يسمَّى تاجاً لا حياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر، ولا قوة إلا بما يغتال من قوتهم، ولا عظمة ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم».

ويقول أحمد عُلبي[٣]: «نعتقد أن الشعوب التي نهضت في ثورة الإسلام الاجتماعية قد أصابتها خيبةٌ في مطامحها نحو الحياة الفُضلى العادلة التي بشَّر بها الدين الجديد. ونخصّ بالذكر الموالي الذين اضطهدهم الحكام وفرضوا على معظمهم دفع الجزية رغم دخولهم الإسلام واعتناقهم إياه. وهكذا كانت انتفاضات الموالي الصوت الجريح الذي يجأر مطالباً بالعدل وبتطبيق تعاليم الدين الإسلامي. كذلك ثار الخوارج والشيعة في وجه السلطان الجائر غير مرة في عهود أكثر الخلفاء».

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ـ منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٢) الإسلام وأصول الحكم، ص ٢٦.

(٣) ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، ص ٨١.

لكن تلك الثورات والانتفاضات كانت تُقمع بالقوة والإرهاب، فيزداد يأس الناس، ويأخذون في الهرب من واقعهم المرير إلى التعلق بأمل الخلاص. يقول غولدزيهر: «ومن هذه الآمال الصامتة انبعثت فكرة المهدي التي تقوم على الاعتقاد الراسخ بأنه سيظهر حاكمٌ يستمد سلطته من الله ويحكم بالعدل. . .».

تجدر الإشارة إلى أنه لم يرد في القرآن الكريم ذكرٌ للمهدي وظهوره، إنما ورد ذلك في أحاديث منسوبة إلى النبي، ثم «تحوَّل مع الزمن إلى عقيدة إسلامية موضوعة»، على حدّ تعبير ڤان ڤلوتن.

علوية المهدي:

اقترنت عقيدة المهدي، على وجه خاص، بالشيعة الذين كوّنوا قلب المعارضة في العصور الإسلامية، ولاقى أتباعهم العنت الشديد ومُرَّ العذاب؛ حتى إن عبيد الله بن زياد كان يصلب العلويين على جذوع النخل. ثم جاء العباسيون إلى الحكم فتعرَّض العلويون من جديد لاضطهاد بشع وتنكيل غاشم. وهكذا رسخ في نفوس الناس اعتقادهم بالمهديّ، وبأنه علويٌّ بلا ريب. وقد لازم هذا المعتقد الشيعة، نتيجة نظرتهم شبه القدسية إلى أئمتهم، وغدا حجر الزاوية والعصب الحيوي في مجمل المذهب الشيعي.

استغلال عقيدة المهدي:

نظراً لرواج عقيدة المهدي بين الناس، فقد كانت موضع استغلال كبير، وعمل بها غيرُ ثائرٍ يطلب السلطة، وأخذت كل فئة إسلامية تتبنّى مهدياً.

فقد عمل بها الأمويون، وأوجدوا مهدياً اسمه السفياني؛ وهو الذي ـ في نظرهم ـ سيعيد ملك بني أمية.

واليمانيون كانوا يترقَّبون «القحطاني المنتظر»؛ وذكر بعضُهم أنه الثائر عبد الرحمٰن بن الأشعث.

كما كان المضريون يعقدون آمالهم على «تميميّ منتظر». وهناك أيضاً «الكلبي المنتظر»، وهو مهديٌّ من بني كلب.

وبلغ استغلال عقيدة المهدي حداً طريفاً، بحيث أن أحد الثائرين تغلب على الأمويين واتخذ المهدي لقباً، فخرج عليه أحدُ الأمويين وتلقَّب بالمهدي أيضاً. وهكذا ـ كما يقول أحمد أمين ـ «حاربَ مهديٌّ مهدياً آخر!».

وعندما استولى العباسيون على السلطة عملوا بفكرة المهدي، تلك الفكرة التي كانت بمنزلة الشعار الديني ـ السياسي الذي رفعه كل ناقم على ظلم بني أمية، والذي سيرفعه كل ناقم على ظلم بني العباس فيما بعد. وهكذا اخترع العباسيون، بعد توليهم الحكم، الأحاديث النبوية لتثبيت دعواهم بأن المهدي منهم، وأنه يخرج وأصحابه من خراسان، حاملين الرايات السود، مما ينطبق على الأحداث التاريخية التي توالت من قبل.

وقد لقَّب أبو جعفر المنصور ابنه وولي عهده بالمهدي، ودعا إليه على أنه «المهديّ المنتظر».

والحال أن استغلال الثائرين لفكرة «مهديّ منتظر» من سلالة علي بن أبي طالب يرقى (هذا الاستغلال) إلى الفترة التي أعقبت مقتل الإمام

الحسين عليه السلام في كربلاء. ولقد كان المختار الثقفي في طليعة أولئك الثائرين.

يقول برنارد لويس: «كانت الكوفة حينما بدأ المختار فيها ثورته سنة ٦٦هـ مرتعاً مدهشاً لحركات مختلفة العناصر ومصطبغة بفكرة ظهور المسيح، غرضها إحداث ثورة اجتماعية. ولم يجد المختار رجلاً في سنٍّ موافقة من سلالة فاطمة، فوقع اختياره على محمد ابن الحنفية (ابن علي من زوجته المعروفة باسم «الحنفية») ليكون إمامه المهديّ».

والحال أيضاً أن البيئة العقائدية التي احتضنت فكرة «المهدي» وتعلقت بها أكثر من سواها ـ أي البيئة الشيعية ـ قد اختلفت في من هو شخص المهدي. فبعد وفاة الإمام السادس لدى الشيعة، جعفر بن محمد الصادق، افترقت شيعته ست فرق:

ـ الناووسية: قالت بأن جعفر بن محمد الصادق لم يمت وأنه هو المهدي.

ـ الإسماعيلية الخالصة: وهي التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر، وبأن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس؛ فهو الإمام القائم والمهدي المنتظر.

ـ المباركية: نسبة إلى المبارك، مولى إسماعيل بن جعفر. وقالت بإمامة محمد بن إسماعيل بعد وفاة أبيه.

ـ السمطية: نسبة إلى يحيى بن أبي السمط. وقالت بإمامة محمد ابن جعفر وولده من بعده.

ـ الفطحيَّة: نسبة إلى عبد الله بن جعفر الأفطح. وقالت بإمامة عبد الله بن جعفر.

ـ الموسوية: قالت بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وفي امتداد هذه الفرقة تكونت الإمامية الاثنا عشرية؛ ومهديُّها المنتظر محمد ابن الحسن العسكري «صاحب العصر والزمان وقائم آل محمد»[١].

مهدوية صاحب الزنج:

وجاء علي بن محمد، صاحب الزنج، يستغلّ بدوره تلك العقيدة الرائجة، وله أحاديث وأعمال دالَّة على ادعائه المهدية والإمامة والوحي، ذكرها الطبري.

من ذلك أنه لما كان في البادية قال لأصحابه إن لسانه جرى بسور من القرآن لا يحفظها. وعندما أراد اقتحام البصرة ادَّعى أنه خوطب فقيل له: «إنما البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها». ثم لما أخرب البصرة ادَّعى أن الملائكة هي التي فعلت ذلك، وقال: «ولو كان أصحابي تولوا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم». ولما دارت المعركة حامية الوطيس بين الزنج وأهل البصرة، ادَّعى أن البصرة رُفعت إليه «فرأيتُها ورأيت أصحابي يقاتلون فيها». وفي إحدى المعارك وقع عليٌّ ونفرٌ يسير من أصحابه في مأزق، وتعرّضوا للموت، فلما قرب العدو منهم قال عليّ: «اللهمَّ إن هذه ساعة العسرة، فأعنّي! قال: فرأيتُ طيوراً بيضاً تلقَّت ذلك الجمع». ولما قُتل يحيى بن محمد، أحد

---

(١) راجع: «البحث عن القرامطة»، عرض ومقارنة أميرة الشيخ رضا فرحات، ص ٩٠ ـ ٩٨، منشورات دار المحجَّة البيضاء، بيروت.

أصحابه المقربين، خوطب صاحب الزنج من قبل الغيب وقيل له: «قَتْلُه خيرٌ لك: إنه كان شرهاً». ولما قُتل الجبّائي، أحد قادة الزنج البارزين، زعم علي بن محمد أنه علم بذلك «مما سمع من زَجَل الملائكة بالدعاء للجبّائي والترحُّم عليه».

ولم يقف علي بن محمد عند هذا الحدّ من ادعاء الإمامة واكتناه ما في ضمائر أصحابه ومخاطبة الملائكة له، بل زعم أن النبوَّة عُرضت عليه فأباها، «لأن لها أعباء خِفْتُ ألا أطيق حملها». ومن هنا رأينا الموفَّق العباسي يكتب رسالة إلى صاحب الزنج يدعوه فيها إلى التوبة وإلى العدول عن «انتحال ما لم يجعله الله عزَّ وجلَّ له أهلاً، من النبوة والرسالة»، كما جاء في تاريخ ابن الجوزي.

هذا وقد جاء على ظهر القطعة النقدية الذهبية، التي أصدرها صاحب الزنج في عاصمته «المختارة»، والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٢٦١هـ، جاء تعبير «المهدي علي بن محمد».

وكان علي بن محمد، بادعائه المهديَّة، إنما ينقر على وتر حساس في نفوس المسلمين المضطهدين، الذين كانوا يرجون ما رجاه دِعْبِل الخزاعي بقوله:

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ لقطَّع قلبي، إثرهم، حَسَراتي
خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ يقوم على اسمِ اللّه والبركاتِ
يميّز فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ ويَجْزي على النَّعْماء والنَّقَماتِ
فيا نفس طيبي، ثم يا نفس أبشري فغيرُ بعيدٍ كلُّ ما هو آتِ

ولم يقف ادعاء المهدية على عليّ بن محمد، بل إن الحركات

التي تلته، كالقرامطة مثلاً، اعتمدت أيضاً على الدعوة للمهدي المنتظر. ويذهب أحمد أمين في كتابه «المهديّ والمهدوية» إلى أننا «لو قلنا إن كل الحضارة الفاطمية والعلم الفاطمي والقاهرة الفاطمية هي نتاجٌ غير مباشر لفكرة المهدي، لما بَعُدْنا».

علوية صاحب الزنج:

لا عجب أيضاً أن يدَّعي صاحب الزنج نسباً علوياً. ففي ذلك الوقت كان الناسُ يحدبون على آل علي، ويشفقون عليهم ممّا حلَّ بهم من تشريد وتنكيل وتقتيل. فقد مات أكثر آل أبي طالب، في العهدين الأموي والعباسي، «في الحبس وبالسمّ وغير ذلك من أنواع القتل»، كما يقول الخوارزمي. وأُلّفت عشرات الكتب في استشهاد العلويين، أهمُّها كتاب أبي الفرج الأصفهاني: مَقَاتل الطالبيين. وفي هذا الكتاب يعرض أبو الفرج لقتلى العلويين منذ عهد النبي ﷺ حتى سنة ٣١٣هـ، ولا يذكر من آل علي عليه السلام إلا «الذي ذهب شهيداً، وكان قويم السيرة، لم يخالط عقيدته طمعٌ أو زَيْغ».

كان الشيعة، كما سبق وذكرنا، يشكلون قلب المعارضة. وقد أبدى أتباعُهم ضروب البسالة، فكانوا موضع إعجاب الناس وتقديرهم. لذا فإن الخليفة الذي يشدّ قبضة الإرهاب على الشيعة كان يستفزّ، بمسلكه هذا، جمهور المسلمين ويثير حفيظتهم. فعندما هدم المتوكل قبر الحسين عليه السلام سنة ٢٣٦هـ ومنع الناس من زيارته «تألّم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء»، كما ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء. ولا بد أن علي بن محمد قد شهد في سامراء سنة ٢٥٤هـ تلك الحادثة التي ذكرها اليعقوبي

في تاريخه. فقد توفي أحد العلويين بسامراء، فبعث الخليفة بأخيه ليصلّي عليه في أحد الشوارع. «فلما كثر الناس واجتمعوا، كثر بكاؤهم وضجّتهم، فرُدَّ النعش إلى داره ودُفن فيها». ولا بد أيضاً أن يكون علي بن محمد قد حفظ قصيدة الفرزدق في مديح الإمام زين العابدين، علي بن الحسين، وعرف مناسبتها؛ ومطلعُها:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأته والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ[1]

حاول علي بن محمد أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الجماهير، فادَّعى أنساباً علوية:

- ادَّعى أولاً أنه «علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»، كما يذكر الطبري. يقول الحُصري في كتابه «زهر الآداب»: «لقد كان لمحمد بن أحمد ولد اسمه علي، لكنه مات بعد هذا المدّعي اسمه ونسبه بزمان».
- ثم استغنى علي بن محمد عن هذا النسب، وزعم أنه «علي بن

---

(١) لما حجَّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر عن ذلك لكثرة الزحام، فنُصب له كرسي وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان الشام. فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين، وطاف بالبيت. فلما انتهى إلى الحجر تنحَّى له الناس حتى استلم الحجر، فقال رجلٌ من أهل الشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟! فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام. وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه. ثم اندفع منشداً قصيدته تلك. (انظر: شرح ديوان الفرزدق. تأليف إيليا حاوي. الجزء الثاني، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦. منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت ١٩٨٣).

محمد بن عبد الرحيم بن رُحَيب بن يحيى ـ المقتول بخراسان ـ ابن زيد بن علي». والطريف أنه لم يكن ليحيى ولد يسمَّى رحيباً ولا غيره، لأن يحيى قُتل وهو ابن ثماني عشرة سنة ولا ولد له (الحصري). وهنا يبدو أن صاحب الزنج كان يرتجل الأمر ارتجالاً دون تدقيق.

- وفي البحرين ادَّعى أنه «علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب» (الطبري).
- وعند مصيره إلى البادية أوهم الناس أنه «يحيى بن عمر العلوي» الذي قُتل على مقربة من الكوفة (الطبري). وذلك على أساس أن رجعة المهدي المنتظر تعني عودة الميت أو المختفي إلى الظهور ثانية.
- وفي بغداد، التي نزلها بعد فراره من البصرة، انتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ثم بعد أن فتح البصرة وأخربها، خلال ثورته، رحل إليه منها جماعة من العلويين، وكان بينهم علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد (!). عندئذ تخلّى صاحب الزنج عن نسبه هذا، وانتسب إلى يحيى بن زيد. والجدير بالذكر أن «الإجماع في يحيى أنه لم يُعقب إلا بنتاً، ماتت وهي ترضع»، كما يذكر الطبري وابن كثير.

نلاحظ إذاً أن صاحب الزنج ادَّعى ستة أنساب علوية مختلفة في غضون سنوات قليلة. وهذه الواقعة بحدّ ذاتها تقوم دليلاً على عدم صدقه. لذلك يكاد المؤرخون يجمعون على أن علوية صاحب الزنج مختلقة. وحسبُنا أن نذكر من هؤلاء ـ فضلاً عن الطبري ـ اليعقوبي

والمسعودي وابن أبي الحديد وابن الطقطقي. وهؤلاء الذين ذكرناهم يُعدّون من محبّي العلويين، على أقلّ تقدير. يكفي أن الإمام الحسن العسكري عليه السلام وهو معاصر لصاحب الزنج، وعاش في سامراء تحت ظلال العباسيين ـ هو القائل: «وصاحب الزَّنج ليس منّا أهل البيت»، بحسب رواية عباس القمّي في كتابه «الكنى والألقاب».

هذا على صعيد «تحقيق النسب». ولكن سلوك صاحب الزنج حيال العلويين هو الذي يطعن في مصداقية زعمه أكثر من أي شيء آخر. فهو الذي قتل علي بن زيد العلوي، صاحب الكوفة، سنة ٢٦٠هـ (الطبري). وهو الذي رضي ببيع النساء، من ولد الحسن والحسين، جواري للزنج، وذلك بدرهمين أو ثلاثة. وقد استغاثت بعلي بن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كان يملكها أحد الزنج، ورجته أن يعتقها أو ينقلها لزنجيّ آخر، فقال لها: هو مولاكِ وأوْلى بكِ من غيره (المسعودي). وهو الذي كان يسب علي بن أبي طالب، فيمن يسب، من على منبره في عاصمته «المختارة» (ابن تغري بردي والسيوطي).

ويروي البيروني في تاريخه «الآثار الباقية» حكاية معبّرة؛ فيذكر أن الحسن بن زيد، الذي أسس دولة شيعية في طبرستان، كتب إلى علي بن محمد، بعد خروجه، يسأله عن نسبه. فأجابه صاحب الزَّنج: «لِيَعْنِكَ من أمري ما عناني من أمرِك.. والسلام!». وهو جواب، على اقتضابه، شديد الإيحاء وحَمَّال أوْجُهٍ، كما يقال.

الفصل الثاني

خارجيَّة صاحب الزَّنج وأزرقيَّتُه

يرى المسعودي في تاريخه «مروج الذهب» أن علي بن محمد، قائد ثورة الزَّنج، «كان يذهب إلى رأي الأزارقة من الخوارج». فهل كان حقاً كذلك؟ وكيف يمكن التوفيق بين أزرقيته هذه، وخارجيته بطبيعة الحال، وبين «علويته» و«مهدويته» وتقرُّبه من علي بن أبي طالب بهذا الشعر المنسوب إليه:

متى أرى الدنيا بلا مُجْبِرٍ   ولا حَرَوْريّ ولا ناصِبِ

متى أرى السيفَ دليلاً على   حُبِّ عليٍّ بنِ أبي طالب؟

رأينا في الفصل السابق تهافُتَ ادعائه العلوي؛ فهل يرجّح هذا الأمر خارجيته وأزرقيته؟ سنرى، في ما يأتي، أن المسألة ليست بهذه البساطة.

الخوارج:

هم أقدم الفرق الإسلامية. خرجوا علي علي بن أبي طالب لأنه رضي بالتحكيم إثر معركة صفين بينه وبين معاوية بن أبي سفيان. ومن هنا عُرفوا باسم «الخوارج» وبالشعار الذي رفعوه آنذاك: «لا حُكم

إلا لله». وقد أقاموا معسكراً في «حَرَوْراء» قرب الكوفة، فسمُّوا «الحَرَوْرية». كذلك سُمّوا «الشُّراة» ـ والواحد منهم «الشَّاري» ـ لزعمهم أنهم شَرَوْا أنفسهم، أي باعوا أنفسهم لله، على معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾ إلى آخر الآية ١١١ من سورة التوبة، و/أو على معنى الآية ٢٠٧ من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ...﴾. وقد أوقع بهم الإمام علي في النهروان قرب بغداد، فتفرقت فلولهم. ثم إنهم تمكّنوا، بالمؤامرة والحيلة، من اغتيال علي بواسطة رجل منهم يدعى ابن ملجم.

اشتهروا بالعنف وسفك الدماء والتشدُّد في أحكام الدين، على نحو ما فهموا تلك الأحكام، كما عُرفوا بكثرة التعبُّد. وقد لخصَّ عليٌّ عليه السلام مشكلتهم بقوله إنهم «طلبوا الحقَّ فأخطأوه... وليس مَنْ طلب الحقَّ فأخطأه كمن طلب الباطِلَ فأصابه». وقد تفرقوا فيما بعد فرقاً كثيرة، تراوحت بين الاعتدال ومنتهى التطرف. وأهمُّ فرقهم: الإباضية والأزارقة والصُّفْرية. قاوموا بالسيف سلطات الأمويين والعباسيين، ولاقت دعوتُهم انتشاراً واسعاً في أفريقيا، وحكمت منهم في المغرب سلالة الرستميين الإباضية.

ومن أشهر مواقفهم المتشدّدة في الدين أنهم يكفّرون مرتكب الكبيرة من الذنوب، فيستحلّون دمه وماله، كما كفّروا سائر المسلمين الذين يخالفون عقيدتهم. وفي الميدان السياسي أجاز الخوارج أن تكون الإمامة أو الخلافة في غير قريش. وهو رأي سبقهم إليه الأنصار في «المدينة»، عندما رشّحوا سعد بن عبادة لخلافة النبيّ ﷺ.

الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق، الفقيه والزعيم الخارجي المتوفى سنة ٦٥هـ والذي سكن البصرة. درس على الصحابي عبد الله بن عباس، فكان شديد التَّسْآل ملحاحاً حول تفسير القرآن ومفرداته، حتى قيل إنه «أضجر أستاذه». تعمَّق في الدين، فغدا بعد ذلك من الفقهاء البارزين لدى الخوارج. ثم صار يحضّ الناس على الثورة والتمرد، فأشاعت جماعته من الخوارج الاضطراب في البصرة واتخذوا من مِرْبَدها[١] معسكراً لهم. كان نافع رمح التطرُّف الخارجي، حتى إنه عندما خرج إلى منطقة الأهواز واجتاحها بسرعة مذهلة، طارداً عمالها، سمَّى الذين يتوانوا من الخوارج عن نُصرته «قَعَدة الخوارج»، فكفّرهم لقعودهم عن الجهاد. وأمام خطر نافع المستفحل عاد الوئام إلى قبائل البصرة المتنابذة للوقوف في وجه المدّ الخارجي الأزرقي. وفي تلك الفترة انطلق الجدل بين الخوارج الذين اتخذوا مواقف متباينة من آراء نافع المغالية. وهكذا نشأت عهد ذاك فرق خارجية هي: الإباضية، نسبة إلى عبد الله بن إباض؛ والصُّفْرية، نسبة إلى عبد الله بن صُفار؛ والبَيْهَسية، نسبة إلى أبي بَيْهَس. هذا بالإضافة إلى الأزارقة، نسبة إلى نافع بن الأزرق. وبرغم تطرُّف الأزارقة فإن عقائدهم في معظمها لا تخرج عن خط معتقدات الخوارج التي أشرنا إليها[٢].

أما تطرُّف الأزارقة فيتجلّى في تكفيرهم سائر المسلمين وإباحة

---

(١) المِرْبَد: أرض واسعة تُحبس فيها الإبل وما شاكلها.

(٢) راجع: «ثورة الزنج» لأحمد عُلبي، ص ١٠٣ ـ ١١٣؛ و«الخوارج»، تأليف أميرة فرحات، منشورات دار المحجة البيضاء، بيروت ٢٠٠٩.

دمائهم وأموالهم. ولم يتسامح الأزارقة في موضوع الأعمال، فاعتبروا الكبائر والصغائر كفراً على حدّ سواء. وبخلاف بقية الخوارج، رفضوا التقيَّة ورأوا أنها غير جائزة قولاً وعملاً. ومن فرط تشدُّدهم قال الأزارقة بقطع يد السارق من العضد، ودعوا النساء إلى تأدية الشعائر الدينية جميعها خلال فترة الحيض، وأسقطوا رَجْم الزاني لأنه من الحدود الواردة في السنَّة النبوية وليس في القرآن. يقول أحمد عُلبي: «ولعل ما نقرأه في أيامنا هذه من آراء غاية في التعصُّب والغلوّ لبعض الأصوليين العرب، وخصوصاً في الجزائر، هي صدى لبعض آراء الأزارقة الذين دعوا إلى الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم، مهاجرين من دار الشرك إلى دار الإيمان، على نحو ما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة. وبالتالي فمخالطة هؤلاء المسلمين ومؤاكلتهم ومناكحتهم كلها حرام».

وفي البحث عن أسباب هذا التطرف الأزرقي، يؤيد العُلبي ما ذهب إليه محمد رضا حسن الدجيلي في دراسة عن فرقة الأزارقة بقوله: «ولا يخفى أن تطرف نافع بن الأزرق ناتج عن سياسة السلطة الأموية وقبضتها الحديدية، المتمثلة في سياسة عبيد الله بن زياد العنيفة حيالهم. زد على ذلك أن أهل البصرة أظهروا عداءً صريحاً للخوارج، وكانوا عين السلطة عليهم، فولَّد هذا العداء من المسلمين تجاههم شعوراً بالعزلة والعداء المتبادل. إنهم نتاج عصرهم وظروفهم، وإن كان الهلع الذي بثّوه في قلوب الناس انقلب مع الزمن ضدهم».

خارجية صاحب الزّنج وأزرقيته:

إلى ماذا استند المؤرخون للقول بأن صاحب الزنج كان خارجياً على رأي الأزارقة؟ يمكن استعراض أدلّتهم وقرائنهم على النحو التالي:

- عندما شرع علي بن محمد في التهيّؤ لثورته، أخذ لواءً حريرياً وكتب عليه بالأحمر والأخضر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم. . .﴾ إلى آخر الآية ١١١ من سورة التوبة. ثم كتب على اللواء اسمه واسم أبيه، أي: علي بن محمد، من دون أن يشير إلى نسبه العلوي. (الطبري). كما أنه سجَّل جزءاً من الآية المتقدمة على النقود الذهبية التي ضربها، والتي وصلتنا منها قطعتان، توجد إحداهما حالياً في المتحف البريطاني والأخرى في باريس.

من تلك الإشارة (على اللواء والنقود) استدل المؤرخون على خارجية علي بن محمد، أي أنه من «الشُّراة». وقد أراد بذلك أن يقول لأتباعه من الزنج إنهم ـ بعد أن اشتروا أنفسهم بالجهاد في سبيل الله ـ لم يعودوا عُرْضَة للرق والعبودية، بل أصبحوا وأسيادهم سواسية.

- إلى ذلك كتب صاحب الزنج على نقوده السالفة الذكر: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ الآية ٤٤ من سورة المائدة. كذلك جاء في نقوده: «ألا لا حُكم إلا لله ولا طاعة لمن (عدا) الله». وجاء في خطبة لعلي بن محمد: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، ألا لا حُكم إلا لله» (المسعودي). كما أنه كان يأمر الزنج بأن يهتفوا «الله أكبر» قبل خوض المعارك (الطبري). وفي ذلك كله إشارة صريحة إلى موقف الخوارج الرافض للتحكيم بعد معركة صفين وشعارهم «لا حكم إلا لله».

- وكان علي بن محمد «يرى الذنوب كلَّها شِركاً» (المسعودي). وهذا مما عُرف عن الأزارقة تحديداً.

- وجاء أن علي بن محمد كان له منبر في عاصمته «المختارة»، وأنه كان يعتلي المنبر ويسبّ عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة؛ وهذا هو رأي الخوارج الأزارقة (ابن تغري بردي). كما أُثر عن علي بن أبان ـ وهو أبرز قادة ثورة الزنج ـ أنه كان يخطب لعلي بن محمد من على منبر البصرة، فيترحّم على أبي بكر وعمر، ويُغفل ذكر عثمان وعلي، ويلعن أبا موسى الأشعري، وعمرو بن العاص (الحَكَمين) ومعاوية وجبابرة بني العباس (المسعودي).

- أما الدليل الأقوى على أزرقيَّة صاحب الزنج ـ بحسب المسعودي ـ فهو سلوكه الدمويّ، وفي ذلك يقول: «وظهر من فعله ما دلَّ على تصديق ما رُمي به، أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج، لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحقّ القتل، يشهد بذلك عليه».

مناقشة رأي المسعودي:

يرى أحمد عُلبي أن الدليل الذي يسوقه المسعودي ليقيم الحجة على أن صاحب الزنج كان من الأزارقة هو دليل ضعيف ومتهافت. ذلك أن البطش وإهراق الدماء وقتل الأسرى كانت من سمات الحروب والثورات التي قامت في العصور الوسطى، شرقاً وغرباً. ويرى عُلبي أن ظروف الزنج هي التي اضطرتهم إلى العنف وليست أزرقيتهم. فقد جابهتهم الخلافة ـ كعادتها عند قيام ثورة تهدّدها ـ بضراوة شديدة وحقد يماثل حقد الزنج على مستثمريهم. وعندما وقع يحيى بن محمد البحراني ـ وهو أحد قادة الثورة البارزين ـ في يد السلطان، «ضُرب بين

يدي الخليفة بسامراء مائتي سوط بثمارها[١] ثم قُطعت يداه ورجلاه مِن خلاف[٢]، ثم خُبط بالسيوف، ثم ذُبح، ثم أحرق»، على ما يقول الطبري. وهكذا يكون الزنج قد بادلوا الدم بالدم، فدحرجوا الرؤوس وفتكوا بأسراهم، حتى إنهم «تهادوا لحوم قتلاهم». برواية الطبري. ومما حمل الزنج على العنف والانتقام، أن بعض القرى كانت تعاهدهم على ألا تقاتلهم أو تعين عليهم أحداً، ثم لا تلبث أن تحنث بوعدها. هذا إلى اعتقاد كثير من الدارسين بأن جمهرة المؤرخين قد بالغت في الحديث عن وحشية الزنج وجرائمهم.

خلاصة عامة في عقيدة علي بن محمد وأصحابه من الزّنج:

مما تقدم يبدو أن علي بن محمد لم يكن علوياً ولا خارجياً بالمعنى الدقيق لكلمة علويّ أو خارجي. نعم، لقد ادَّعى شيئاً من مبادىء الخوارج، وزعم لنفسه نسباً علوياً ـ بل أنساباً علوية مختلفة ـ وشيئاً من معتقدات الشيعة. وهو في هذا وذاك إنما كان يسعى إلى «خدمة» مشروعه في الانقلاب على السلطة القائمة، كما كان يبحث بصورة «انتقائية» عن الملامح العقيدية التي تناسب أصحابه الزَّنج وتَوْقَهم إلى التخلُّص من نير العبودية والاضطهاد.

فالبيئات العلوية في ذلك الوقت كانت تشكل الحاضن الرئيسي للانتفاضات ضد السلطة العباسية، كما كان جمهور المسلمين يتألّم،

(١) ثمرة السوط هي العقدة في طرفه، على سبيل الشبه بالثمر في الشكل والتدلّي. والسوط المعقودة ثمرته يكون أشدَّ إيلاماً من الذي يكون طرفه محلولاً ليناً.
(٢) من خلاف: أي أن تُقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، أو عكس ذلك.

في السرّ والعلن، لما يلاقيه العلويون من اضطهاد على يد أبناء عمومتهم العباسيين. من جهة ثانية اتَّسمت عقيدة الخوارج بملمح «ديموقراطي» تمثَّل في قولهم بأن خليفة المسلمين يصحّ أن يكون في غير قريش وغير العرب، لا بل يصحّ أن يكون «عبداً، أو حراً، أو نبطياً، أو قرشياً»، كما ذكر الشهرستاني في «الملل والنحل». وهذا مما يلائم الزنج، غير العرب وغير الأحرار.

والملاحظ أيضاً أن علي بن محمد ـ رغم انتسابه العلوي وأخذه ببعض الملامح الخارجية ـ لم يتعاون بأية صورة من الصور مع الانتفاضات العلوية أو الخارجية التي حدثت في أيامه. وهذا ما يؤكد مرة أخرى أن مشروعه ليس علوياً ولا خارجياً، بل هو مشروع «خاص».

إلى ذلك يمكن القول أن علي بن محمد ـ باستخدامه مصطلحات خارجية وعلوية شيعية ـ إنما كان يستخدم لغة العصر السياسية والدينية، تماماً مثل أي طامح للسلطة في أي زمان ومكان. والواقع أنه، في ذلك العصر، لم يكن ثمة مجال للفصل بين الدين والسياسة. فالدين هو السياسة، والسياسة هي الدين. ومن هنا لا وجه للافتراض بإمكانية قيام حركة تغييرية أو إصلاحية، في ذلك الوقت، تعتمد العقل بمنأى عن الدين.

وهذا ما حدا بعلي بن محمد إلى المجاهرة بآراء دينية، اعتمد فيها على القرآن وعلى تيارات عصره الدينية ـ السياسية. فاقتبس من عقيدتي الشيعة والخوارج في آن معاً، من غير أن يتبناهما.

وفي هذا الشأن يقدّم أحمد علبي تفسيراً معتبراً، حيث يقول:

«يبدو لنا أن ما زعمه علي بن محمد من ادعاءات دينية اقتصر على الخاصة من أتباعه، وكان يهدف منه إقناع عامة المسلمين ليرضوا به ويكونوا له ظهيراً على السلطة. ونعتقد أن علي بن محمد لم يكن ليخاطب أصحابه الزنج بتلك المصطلحات. إذ ما شأنهم بالعلوية أو الخوارج، بل ما مصلحة قومٍ كالسودان والنوبيين والصوماليين والأحباش وغيرهم من الأفارقة في آل عليّ وحقهم أو تقوى الخوارج وتعنُّتهم؟!».

أما عقيدة الزَّنج، بوجه عام، فهي الإسلام، كونهم من الموالي. أما خصوصيتهم فتتمثّل في كونهم عبيداً أرقاء. ومن هنا فإن ما كان يهمّ علي بن محمد في شأن عقيدتهم الدينية هو الحرية والعِتْق، والوعد بتمليكهم أراضي الأسياد.. وحَلَف لهم على ذلك الأيمان المغلَّظة.

قصارى القول أن مشروع علي بن محمد كان «سلطوياً خالصاً»، اختار له من الشعارات الدينية ما يلائمه. وسوف نتبيَّن من الفصول اللاحقة أنه لم يكن صاحب دعوة دينية محددة، على غرار القرامطة مثلاً، كما لم يكن صاحب «نظرية اجتماعية».



مراحل الثورة

الفصل الأول: مرحلة الصعود والصمود

الفصل الثاني: مرحلة الانحدار والتراجع

الفصل الأول

مرحلة الصعود والصمود
عوامل القوة الذاتية والموضوعية

تحوُّل علي بن محمد إلى البصرة والشروع في الثورة:

رأينا في الفصل الثالث من الباب الأول (سيرة صاحب الزنج) كيف أن علي بن محمد غادر بغداد سنة ٢٥٥هـ على وجه السرعة، قاصداً البصرة، على أثر اضطرابات في المدينة أدت إلى فتح السجون وإطلاق سراح المسجونين؛ ومن بينهم أتباع علي بن محمد وأهله. وقد كان في صحبته، حين وافى جماعته في شهر رمضان من تلك السنة، أركان حركته: علي بن أبان، ويحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع وغيرهم. وإذ توجّهوا من فورهم إلى ظاهر البصرة، ونزلوا موضعاً يسمَّى «برَّ نَخْل»، وشرعوا في دعوة الزنج واستنفارهم إلى الثورة ـ إذ فعلوا ذلك، بدا واضحاً أن علي بن محمد قرَّر إعادة إطلاق ثورته هذه المرة اعتماداً على هؤلاء الزنج، بعد فشله في البحرين والبادية وبغداد ما بين سنتي ٢٤٩ و٢٥٥هـ.

صعود سريع وصمود طويل:

منذ البداية أخذت البصرة تتعرض لخطر الزنج. وقام أهلها

يحشدون المتطوعين للقضاء على علي بن محمد واسترجاع عبيدهم الأُبّاق[١]. وكاد البصريون يفتكون بعلي بن محمد نفسه في إحدى المعارك المبكرة، إلا أنه انتقم منهم في معركة رهيبة (يوم الشَّذا)، بحيث أمسكوا عن حربه وكتبوا إلى الخلافة يستعينون بها.

والحال أن الخلافة لم تكن في ذلك الوقت لتستطيع أن تنجد أحداً من رعاياها، لانشغالها بكل أنواع المفاسد والصراعات. وهكذا تمكَّن الزنج خلال سنوات قليلة من اجتياح منطقة واسعة: فدخلوا الأُبُلَّة (على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة) وأحرقوها؛ وقد كانت مبنيَّة بخشب السَّاج. واستسلمت لهم عبّادان خوفاً من شر المصير. وسقطت الأهواز تحت ضربات سيوفهم. وفي سنة ٢٥٧هـ دخلوا البصرة واستباحوها ثلاثة أيام، فأعملوا السيف في أهلها حتى سُمع من بعيد «تشهُّدهم وضجيجهم وهم يُقتلون» ـ على قول الطبري ـ وحتى «لم يبق فيها منزل يُسكن» ـ على قول اليعقوبي. وانشغلت الخلافة بحرب يعقوب بن الليث الصفَّار الذي استولى على فارس، فتمادى الزنج في توسُّعهم: فدخلوا البطيحة (أرض واسعة بين واسط والبصرة)، وصعّدوا في فتوحاتهم نحو بغداد، فدخلوا سنة ٢٦٤هـ مدينة واسط واستباحوها. ودخلوا سنة ٢٦٥هـ النعمانية وجرجرايا (بين واسط وبغداد على الجانب الشرقي من دجلة).

---

(١) مرَّ معنا أن علي بن محمد اعتمد على العبيد الزنج الذين كانوا يكسحون السِّباخ في أراضي البصرة، فحرَّضهم على الثورة ونجح في انتزاع قسم كبير منهم من أسيادهم مُلاَّك الأراضي ووكلائهم.

هكذا نرى أن الزنج وضعوا يدهم، خلال عشر سنوات (٢٥٥ ـ ٢٦٥هـ)، على منطقة واسعة تمتد بين واسط والأهواز. والواقع أن صعودهم استمر حتى سنة ٢٦٧هـ حين تفرغت لهم جيوش الخلافة بقيادة الموفَّق، كما استمر صمودهم حتى سنة ٢٧٠هـ حين سقطت عاصمتهم «المختارة».

وقبل استعراض عوامل القوة الذاتية والموضوعية التي مكَّنت ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد من الصعود سريعاً والصمود طويلاً، لا بد لنا من وقفة أمام «خراب البصرة» الذي ضُرب به المثل.

خراب البصرة:

للعُنف المفرط الذي استخدمه الزنج وصاحبهم ضد البصرة أسبابٌ جعلت الحقد الأعمى متبادلاً بين الطرفين، ممّا أدَّى إلى ترجمة هذا الحقد بمجزرة رهيبة:

- من جهة علي بن محمد، فقد كان شخصياً يحقد على أهل البصرة الذين خذلوه مراراً بعد أن وعدوه بعدم مساعدة الدولة ضده. كما مرَّ معنا أيضاً أنهم كادوا يقتلونه في بعض المواجهات المبكرة. هذا في الظاهر. أما في العمق، فقد كانت البصرة تشكل التحدّي الأول والأكبر لمشروع صاحب الزنج. فمُلاَّك أراضيها كانوا أسياد العبيد الذين يعوّل عليهم في مشروعه، ويريد انتزاعهم من أسيادهم. وتُجّارُها كانوا من أغنى الأغنياء في ذلك الوقت؛ إذ كانت البصرة ملتقى القوافل الآتية من الجزيرة العربية، في زمن عرفت التجارة الإسلامية تفتُّحاً مدهشاً (القرن الثالث الهجري)، كما كانت الدولة

تشجّع التجار وترفع الضرائب عنهم[١]. وعليه كانت البصرة «مركزاً راقياً للمؤسسات الصيرفية، وراج فيها التعامل بواسطة الحوالات المالية»، على ما يذكر بعض الدارسين المحدثين. ومن هنا سيلحّ الزنج، عند فتحهم البصرة، على طلب الأموال المخبأة، كما يشير الطبري. ولذلك كله كان علي بن محمد يردّد على مسامع أصحابه «أنه اجتهد في الدعاء على البصرة، أن يصيبها الخراب، من جميع جهاتها، وأنه خوطب في أمرها، فقيل له: إنما البصرةُ خبزةٌ لك تأكلها من جوانبها». أما حقد الزنج العبيد على البصرة وأسيادها من الملاكين والتجار فلا حاجة بنا إلى تبيان دوافعه.

- من جهة مجتمع البصرة الميسور، فإن حقده على الزنج وصاحبهم واضح الأسباب أيضاً، لما تقدَّم من أحوال هذا المجتمع. وقد قيل إن التجارة كانت تجري في دماء البصريين، فكانوا من الذين «إذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً» ـ الآية. وقيل أيضاً: «أبْعَدُ الناس نُجْعَةً في الكسب بصريّ»، كما كان يُنسب إلى البصريين قلَّةُ الحنين إلى الوطن. وقد حاول تجار البصرة، مع الإقطاعيين، إغراء علي بن محمد بالمال في بداية حركته، ولكنَّ ذلك لم يَحُلْ دون ما سيكون.

عشيَّةَ اجتياح البصرة كانت المعادلةُ إذاً على النحو التالي: جموعٌ ناقمة ومسلَّحة، متحفِّزة للانقضاض على مدينة «غابت عنها الدولة»!

---

(١) وهذا مما جعل التُّجار يدخلون ميدان الملكية الإقطاعية ويصبحون من كبار الإقطاعيين، أي من الأعداء المباشرين للعبيد.

وفيما يلي وصفٌ لاجتياح البصرة عام ٢٥٧هـ وخرابها، ننقله عن المؤرخ الأدبي شوقي ضيف[1]:

«بأتباعه من الزنج والعبيد، وبمن انضمَّ إليه حينئذ من الأعراب، هاجم علي بن محمد البصرة في أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات. وقد انقضَّ عليها من ثلاث جهات، مُعملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال النار. وتقول أقلّ الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلاثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل، وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً. يقول المسعودي: «واختفى الناس ذعراً في الدور والآبار، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، وكذلك الفئران والسنانير. وكانوا إذا مات الواحد منهم أكلوه؛ وعدموا مع ذلك الماء العذب». وتسامع الناس والشعراء في بغدادا وسامراء بهذه النكبة المروّعة التي حلَّت بالبصرة، فبكوها بدموع غزار؛ وفي مقدمتهم ابن الرومي بقصيدته التي مطلعها:

ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنامِ ... شُغْلُها عنه بالدموعِ السِّجامِ

وفي القصيدة نَدْبٌ حارٌّ للبصرة، وتفجُّع وتوجُّع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكاد تتخيلها الأوهام. وقد مضى الشاعر يصوّر قتلى الزنج وصرعاهم، وانتهاكهم الحرمات، وسبيهم الحرائر المصونات ممزّقات الثياب داميات الوجوه، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوّلوا قصورها تلالاً ورماداً، وكيف ملأوا شوارعها بالرؤوس

---

(١) العصر العباسي الثاني، ص ٢٩ ـ ٣٠. من سلسلة تاريخ الأدب العربي، الصادرة عن دار المعارف بمصر، ١٩٧٣.

والجثث والأيدي والأرجل المبتورة. وهو في تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذّياد عن الحُرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان». ويختم الشاعر قصيدته بالقول:

إنْ قَعَدتُمْ عن اللَّعين فأنتُمْ شركاءُ اللَّعين في الآثامِ

العوامل الذاتية والموضوعية لصعود ثورة الزنج وصمودها

أولاً: غَفلة الحكومة المركزية عن حركة الزنج في البداية وضعف الدولة:

إن غفلة الحكومة المركزية عن خطر الثورة في البداية ساعدت الزنج على أن يوطّدوا أقدامهم في منطقة البصرة، وأن يخلقوا بذلك مواقع قوة لحركتهم. وانشغال الحكومة آنذاك مردُّه إلى ضعف الخليفة، وانحلال السلطة، وخضوعها لاستبداد الأتراك المرتزقة ومؤامراتهم المتواصلة. وإلى ذلك كانت الدولة منشغلة بحماية ثغورها. إذ في سنة ٢٦٠هـ أخذ الروم لؤلؤة، وكانت هجماتهم تتوالى على أطراف الخلافة.

كان المعتمد على الله العباسي خليفة ضعيفاً، عاكفاً على الملاهي، مشتغلاً باللذّات. وعندما تعاظم خطر الزنج، بعث المعتمد سنة ٢٥٧هـ رسولاً إلى مكة ليأتيه بأخيه أبي أحمد طلحة الذي كان الخليفة المهتدي قد نفاه إليها. وبايع المعتمد ابنه جعفراً بولاية العهد، وولاه المغرب، كما عين أخاه طلحة ولياً ثانياً للعهد بعد ابنه جعفر، وسمَّاه «الموفَّق» وولاه الشرق. وهكذا وزَّع الخليفة المسؤولية على ابنه وأخيه، وتفرَّغ هو للهو والخمر والنساء.

وفي هذا الوضع يقول الطقطقي في كتابه «الفخري»: «كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع. كان هو وأخوه الموفَّق طلحة كالشريكين في الخلافة: للمعتمد الخُطبة، والسِّكَّة، والتسمّي بإمرة المؤمنين. ولأخيه طلحة الأمر والنهي، وقَوْد العساكر، ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء».

وبالرغم من قوة الموفَّق وحزمه، إلا أنه لم يصرف في البداية الجهد الكافي لمواجهة الزنج. فقد أحال هذا الأمر إلى ولده الشاب أبي العباس، وصرف هو أكثر جهده في ترتيب الخلافة ومواجهة الروم، وحرب يعقوب بن الليث الصفّار، ولم يلتحق بولده إلا سنة ٢٦٧هـ.

إلى ذلك أخطأ الموفَّق في استعداء أحمد بن طولون والي مصر. هذا رغم حاجته إلى دعمه المالي؛ إذ كانت خزينة الدولة مستنزفة خاوية. وقد أدى عداء الموفق لابن طولون أن زحف هذا الأخير إلى سوريا واستولى عليها سنة ٢٦٤ ـ ٢٦٥هـ، أي خلال انشغال الدولة بحرب الزنج الذين كانوا قد فتحوا مدينة واسط وانتهبوها. علماً أن الموفَّق سوف ينجح لاحقاً في استمالة «لؤلؤ» والي الشام من قبل أحمد بن طولون، وضَمّه إلى صفوفه في محاربة الزنج سنة ٢٧٠هـ.

نَزوةٌ غير مسبوقة:

في سنة ٢٦٩هـ، أي في ذروة اشتغال الموفَّق بحرب الزنج، إذا بالخليفة المعتمد يكتب إلى ابن طولون الذي كان نازلا بدمشق، يخبره بأنه سيصير إليه ويحتمي به، بعد أن أصبح لا أمر له ولا نهي. وقد شجعه ابن طولون على ذلك، نكاية بالموفَّق. وبالفعل شخص المعتمد

من سامراء مع حاشيته، متظاهراً بالصيد. لكنه لم ينجح في الفرار، لأن عامل الموصل، إسحاق بن كنداج، قبض عليه وعلى حاشيته بأمرٍ من الموفق. وقد سمح ابن كنداج لنفسه بأن «يعذل الخليفة في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه، وفراقه أخاه على الحال التي هو بها، من حرب من يحاول قتله وقتل أهل بيته وزوال ملكهم»، على ما يروي الطبري. ثم حُمل المعتمد إلى سامراء حيث حُجِرَ عليه. يقول السيوطي في تاريخ الخلفاء: «وهو أول خليفة قُهِرَ وحُجِرَ عليه ووُكِّل به».

ثانياً: علي بن محمد القائد الناجح

منذ البداية، شكل علي بن محمد لثورته ما يمكن أن يُسمَّى بحقّ «مجلس قيادة» مؤلفاً من أَخْلص أصحابه وأكفئهم. وهم ستة: علي بن أبان المهلَّبي، يحيى بن محمد المعروف بالبحراني، محمد بن سلم، سليمان بن جامع، ومُشْرِق ورفيق غُلاما يحيى بن عبد الرحمٰن بن خاقان. وكان يحضر مع هؤلاء الستة جنديٌّ يكنَّى أبا يعقوب، الملقَّب بجُرْبان. (الطبري).

هؤلاء الستة كانوا، مع غيرهم من القواد الكبار الذي برزوا خلال الثورة، من الرجال الصناديد، كما كانوا على وفاق تام مع قائدهم منذ بدء الثورة، بل قبل قيامها بزمن، فما خذلوه ولا خانوه.

أما علي بن أبان فكان قد انضمّ إلى علي بن محمد عند قدومه البصرة سنة ٢٥٤هـ. وكان ـ على حدّ قول المسعودي ـ «من عِلية أصحاب علي بن محمد». أما يحيى بن محمد البحراني فقد صحب علي بن محمد وهو في الأحساء؛ وكان يشتغل كيّالاً. وقد جُرح في

إحدى المعارك سنة ٢٥٨هـ وأُسر، ثم عُذّب في سامراء وقُتل. وأما محمد بن سلم فكان قصّاباً من أهل هجر في البحرين قُتل في بداية الثورة، إذ بعثه علي بن محمد إلى أهل البصرة ليعظهم ويشرح لهم سبب خروجه، فغدروا به وقتلوه. وقد جزع عليه علي بن محمد جزعاً شديداً وقال لأصحابه: «إنكم تقتلون به في غدٍ عشرة آلاف من أهل البصرة». وأما سليمان بن جامع فكان «قائد جيش الزنج»، بحسب قول الطبري. وهو مولى أسود لبني حنظلة صحب علي بن محمد من البحرين، وظل حتى نهاية الثورة سنة ٢٧٠هـ حين أُسر وقتل. وأما مُشرق ورفيق فكان علي بن محمد قد كسبهما إلى جانبه عند نزوله بغداد بعد فراره من البصرة.

يتَّضح مما تقدم أن علي بن محمد الذي فشل في تجربة البحرين لم يرجع منها خالي الوفاض، بل اكتسب عدداً من خيرة أصحابه وقوّاده. ثم إنه كان يتمتَّع بشخصية قيادية محنّكة، استطاع من خلالها أن يفرض نفسه على مرؤوسيه، ويوفّق بينهم، ويحملهم على الاحتكام إليه في كل مسألة. فكان هؤلاء القواد يراسلونه على الدوام وينتظرون أوامره وتعليماته. وكان علي بن محمد إذا فرغ من معركة وعسكر في مكان، انفرد بأصحابه الستَّة فتداول معهم الأمور وعيَّن لهم المهمات الجديدة.

وكما نجح علي بن محمد في انتقاء قواده ومجلس ثورته، فقد أحسن أيضاً اختيار جنوده من الزنج، واجتهد في المحافظة عليهم إلى جانبه. فكان يبذل لهم ما يغنمون، ويعدهم بتحكيمهم في أسيادهم وانتزاع ملكياتهم، كما كان حريصاً على نزع الشكوك من أنفسهم كلما لاح له أنهم يشككون في إخلاصه لقضيتهم حتى النهاية. ومن هنا رأيناه

في غير مناسبة يحلف لهم الأيمان المغلظة بأنه لن يخذلهم. لذلك أبدى الزنج في أثناء ثورتهم ضروب البسالة، «حتى لقد كانوا يقفون الموقف، فيصيب أحدهم السهم أو الطعنة، فيسقط، فيجذبه الذي إلى جنبه ويقف موقفه، إشفاقاً من أن يخلو موقف رجل منهم، فيُدخل الخلل على سائر أصحابه»، على ما يروي الطبري. ومن هنا صدق فيهم قول الشاعر شيخ بن رباح شار، مفاخراً جريراً بالزِّنج:

والزَّنْجُ لو لاقَيْتَهم في صَفِّهم   لاقيتَ ثَمَّ جَحَاجِحاً أبطالا

ثالثاً: خبرة الزِّنج بميدان المعركة

ومما ساعد الثورة على الصمود أيضاً أن الزنج كانوا يحاربون في «ميدان» هم أدرى الناس به. فالأرض التي دارت عليها رحى المعارك ملأى بالآجام والبطائح، وبالأدغال وغابات النخيل، وبالأنهار التي يتفرّع منها آلاف الجداول، وبالقنوات والسدود. كما كان هناك المستنقع الكبير الذي يدعى «البطيحة» حيث يغلب الماء وتعبث الملاريا. هذا الميدان هو باختصار منطقة «الأهوار» في العراق. وكان الزنج يعرفون مسالك هذه المنطقة ومتعرجاتها، فنصبوا فيها الكمائن لأعدائهم، وقادوها حرب عصابات دوّخت الدولة العباسية واستنزفت قوى الجيش العباسي. إلى ذلك وفَّرت تلك المنطقة للزنج إمدادات غذائية هائلة.

● **نبذة عن منطقة الأهوار**

تعرضت منطقة أدنى العراق، منذ زمن الأشوريين، للفيضانات المتأتية عن دجلة والفرات. ومن هنا تسمية العراق ببلاد ما بين

النهرين. وقد غطت المياه أراضي واسعة ما بين الكوفة وواسط شمالاً حتى البصرة جنوباً، تُقدَّر بستة آلاف ميل مربع. وهذه المستنقعات دعيت «البطائح»، تخلّلتها «الأهوار» أي البحيرات غير العميقة الغور. وهي تعدّ أكبر أهوار العالم. تلك المنطقة كانت تعبرها آلاف الأنهار الصغيرة والأقنية المائية، وتحفل بالمستنقعات الكثيرة، وتنمو في جنباتها الخضراوات والأرز وغابات النخيل والقصب. كذلك كانت بيئة طبيعية لعدد هائل من أنواع الأسماك والطيور. من هنا شكلت الأهوار بيئة مدهشة بغناها وتنوعها، ومدهشة في استعصائها على السلطات المركزية قديماً وحديثاً. ولذلك رأينا النظام العراقي (أيام صدام حسين) يُقدم على قطع مياه دجلة والفرات عن الأهوار، بغية تجفيفها، لئلا تعود مأوى لبعض معارضي النظام، خصوصاً وأنها محاذية للحدود الإيرانية. ويصف خبراء البيئة ما قام به الحكم العراقي في تلك المنطقة بالتراجيديا الطبيعية الحقيقية. فقد تمَّت إبادة الآلاف من أنواع النباتات، وأنواع نادرة من الحيوانات والأسماك والطيور لا مثيل لها في أي بيئة مائية أخرى. هذا فضلاً من تهجير السكان، بطبيعة الحال. وبعد زوال حكم صدام حسن، أُعيد غمر نحو أربعين بالمائة من المنطقة، بعد قرابة ١٥ عاماً من تجفيفها، فعادت نباتات كثيرة إلى الظهور وأنواع جمة من الأسماك. وإلى هذا الغنى الطبيعي، فإن تلك المنطقة شكلت مرتعاً خصباً للأمراض التي عانى منها الزنج، خصوصاً عندما حاصرتهم جيوش الخلافة وقطعت عنهم المؤن. وفي الأهوار اليوم واحدة من ألطف العشائر وأقلّها حظاً تدعى «السودان»[١].

---

(١) باختصار عن أحمد علبي: ثورة الزنج، حاشيتان: ص ١٩٢ ـ ١٩٥ وص ٢٤٨.

● **نبذة أخرى عن ثورة الزُّطّ في المنطقة عينها**

وكان لمناعة هذه الأرض التي تحصَّن بها الزنج أثرٌ فعال في صمود ثورتهم، كما صمدت من قبل فتنة الزط في البقعة نفسها. وكان هؤلاء الزط من الهنود الذين أنزلهم الساسانيون بين واسط والبصرة، فأثاروا الفتن في عهد المأمون والمعتصم، وقطعوا المواصلات بين بغداد والبصرة طوال سنوات. وقد دامت حركتهم بضعة عشر عاماً، إلى أن قمعها المعتصم سنة ٢١٩هـ. هذا مع العلم أن الزطّ لم يكونوا في شجاعة الزنج وبأسهم، ولا في عددهم وتنظيمهم. ثم إن الخلافة العباسية لم تكن آنذاك تشكو الوهن، بل كانت في عهد ازدهار وقوة.

رابعاً: مناعة «المختارة»:

ومن العوامل التي ساعدت ثورة الزنج على الصمود، مناعة عاصمتهم «المختارة». كانت المختارة حصناً حقيقياً. فقد أُحيطت بالأنهار والخنادق والأسوار، كما أن الحياة في داخلها كانت منتظمة. فقامت فيها الدواوين، وامتدت أسواق البيع، وربطت قناطر وجسور بين أجزاء المدينة التي كانت تجري فيها الأنهار. كانت المختارة مدينة واسعة وعامرة، وكان تحصينها شديداً. ولهذا اضطر الموفَّق إلى الاستعانة بفريق من الفعلة المتخصصين بهدم الأسوار. واضطر أيضاً إلى المصابرة والمكايدة والتحايل وبذل الضحايا، طوال ثلاثة أعوام، حتى ظفر بالمختارة.

الفصل الثاني

مرحلة الانحدار والتراجع
عوامل الضعف وإخفاق الثورة

مع صعود ثورة الزنج وتفاقُمها كانت الدولة العباسية تواجه انتفاضات وحركات تمرُّد مختلفة، لعل أبرزها وأخطرها ثورة يعقوب بن الليث الصفَّار الذي استولى على سجستان وخراسان، وأصبح سيد فارس، واضطرت الخلافة العباسية للاعتراف به والياً على تلك البقاع. وبالإضافة إلى خطر الصفَّار هناك الخطر العلوي الذي كان ماثلاً على الدوام. فقد كان علي بن زيد قد ظهر بالكوفة سنة ٢٥٦هـ وهزم الجيش الذي بُعث لقتاله. كما أن الحسن بن زيد استولى على منطقة الريّ في السنة ذاتها. وكان هناك أيضاً مساور الخارجي في الموصل، وبعض الثوار الأكراد، كأحمد بن الليث في فارس ومحمد بن عبيد الله بن أزارْمَرْد في الأهواز. إلى ذلك كان هناك خطر الروم الذي يهدّد الثغور.

وقد مرّ معنا في الفصل السابق أن غَفْلة الدولة العباسية عن حركة الزنج في البداية ساهمت في صعودها السريع. ومما لا شك فيه أن علي بن محمد استفاد موضوعياً من تلك الانتفاضات التي كانت تشغل الدولة، من دون أن ينسّق مع أيّ منها.

والحال أيضاً أن الموفَّق كان يسعى جهده لإرضاء بعض الثائرين وأخذهم بالتي هي أحسن، ليتخلّص من خطرهم ويتفرَّغ لحرب الزنج. وما أن مات يعقوب الصفار سنة ٢٦٥هـ وخلفه أخوه عمر حتى سارع الموفَّق إلى إقناع عمرو بعقد الصلح، وأرضاه بكثير من الامتيازات. ومن ذلك اليوم أخذت الأمور تتطور لصالح الدولة العباسية في حربها مع الزنج. كما أن الموفق اتصل بالثائر الكردي محمد بن عبيد الله بن أزارمرد، وصالحه وتخلَّص من شرّه. أما بداية الانحدار المتسارع في ثورة الزنج فيمكن تحديدها بسنة ٢٦٧هـ، تاريخ انخراط الموفَّق شخصياً في قيادة الجيوش ضد الزنج.

أما العوامل التي أدَّت إلى تراجع حركة الزنج ثم اندحارها، فضلاً عن تفرُّغ الموفَّق لحربهم وتجنيد إمكانات الدولة في هذا السبيل، فيمكن إدراجها كما يلي[1]:

أولاً: افتقار ثورة الزنج للبرنامج الثوري

وهذ هو السبب الجلل الذي قاد إلى إخفاق ثورة الزنج وسائر حركات العبيد التي تقدمتها في العالم القديم. إن كل ما نقع عليه من «برنامج» لثورة علي بن محمد يظهر من خلال خطبتين خاطفتين، «وعد» فيهما صاحب الزنج أتباعه و«منّاهم» أن يأخذ بناصرهم وأن ينتشلهم مما كانوا فيه من شقاء. ثم زاد على ذلك بأن خاطبهم، بعد الصلاة بهم في

(١) ما يأتي من عوامل نسوقه باختصار وبعض التصرف نقلاً عن أحمد علبي في كتابه «ثورة الزنج»، ص ٢١٣ ـ ٢٤٩.

يوم عيد الفطر من سنة ٢٥٥هـ، قائلاً «إنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملّكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الدرجات».

ولكي يُطمئنهم كان يحلف لهم على ما يعدهم به، بل إنه «حلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم، ولا يخذلهم، ولا يَدَع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم»، لا سيما عندما كان الزنج يرتابون في صاحبهم، مخافة أن يرتشي ويُرجعهم إلى أسيادهم، كما ذكر الطبري. حتى إنه خاطبهم في إحدى المرات قائلاً: «ليُحِطْ بي منكم جماعة، فإن أحسّوا مني غدراً فتكوا بي».

صحيح أن علي بن محمد كان عند وعوده وعهوده، من حيث أنه لم يغدر بأصحابه الزنج، رغم الإغراءات الي عرضها عليه إقطاعيو البصرة وتجارها كي يُعيد إليهم عبيدهم الأُبّاق، كما أنه مكّن أصحابه - لِفترة - من امتلاك القصور واسترقاق النساء وجَلْد الأسياد؛ غير أنه بذلك إنما أعاد سيرة مَنْ ثار عليهم!

هذه المفارقة يردّها أحمد عُلبي إلى غياب البرنامج الفكري - الاجتماعي لدى علي بن محمد، وإلى كون مشروعه يتلخّص في طموحه إلى اقتطاع سلطةٍ له، على ناحية ما من نواحي الدولة العباسية المتداعية والتي تُغري بها أيَّ طامح مغامر. هذا فضلاً عن أن علي بن محمد «لم يكن في مستوى فكري يسمح له بوضع البرنامج المطلوب».

ويطوّر عُلبي النقاش في هذه المسألة، ليرى أنه إذا كان الثوار القدامى مثل سبارتاكوس، معذورين في عدم قدرتهم على وضع رؤية اجتماعية لثوراتهم، نظراً لكونهم متواضعي الحال على المستوى الاجتماعي - الثقافي، ولافتقارهم إلى مثال يحتذونه في هذا المجال،

فإن علي بن محمد غير معذور في هذا الأمر. ذلك أن العصر العباسي قد شهد في الربع الأول من القرن الثالث الهجري (٢٠١ ـ ٢٢٣هـ) ثورةً من أخطر ثوراته الاجتماعية، هي ثورة بابك الخُرَّمي في جبال قراطاغ بفارس. وقد نجح في «تأسيس جمهورية» تستند إلى برنامج ثوري خطير، كان من بنوده الرئيسية: توزيع الأرض على الفلاحين، وتحرير المرأة من عبوديتها. وكان البابكيون يعاملون أسرى أعدائهم من نساء وأطفال معاملة طيبة مشرّفة، خلافاً لما فعل الزنج. ويخلص إلى القول: «إن تجربة بابك كانت جديرة بأن تنير تفكير علي بن محمد»؛ وهو ما لم يحصل.

كذلك فإن القلق الاجتماعي الذي كان يجيش في نفوس المسلمين في تلك الفترة ساعد على قيام «حركة تشتمل على برنامج سياسي واجتماعي وثقافي منظم، يقوم على العقل والتسامح والمساواة الاجتماعية والاقتصادية»، هي الحركة القرمطية.

ولكنْ هل وجود برنامج ثوري ـ اجتماعي، وتوفُّر القوة البشرية، كافيان لإنجاح الثورة في ذلك الوقت؟ يجيب عُلبي بأن ذلك كان من شأنه «إطالة عمر الثورة» من دون أن يضمن نجاحها بالضرورة. والسبب ـ من وجهة نظر الكاتب الذي يأخذ بنظرية الصراع الطبقي والتحليل المادي للتاريخ ـ أن تلك الثورات الاجتماعية «جاءت جميعها على غير ميعادٍ ملائم مع تطور التاريخ. فوسائل العيش وتوزيعها كانت دائماً تضع الطبقة المالكة الغنية، القابضة على ناصية الحكم، في وضع قوي، سواء في الميدان الاقتصادي أو السياسي، يسمح لها بأن تضرب

بعنف كل الحركات التقدمية التي تهدف إلى قلب العلاقات الاجتماعية وتهديد مركز الحاكمين الاقتصادي والسياسي».

ثانياً: نطاق الثورة المحدود

ظلت حركة علي بن محمد محدودة النطاق. فقد ضمت في صفوفها الزنج بخاصة، ثم بعضاً من البدو الأعراب الذين وفّروا للثورة إمدادات المؤن في أوقات الشدة، وشاركوا في عمليات النهب. وفي الحالتين كان حافزهم الكسب المادي... حتى إذا ما ضرب الموفَّق على أيديهم وقمعهم انقطعوا عن التعاون مع صاحب الزنج. ولا ريب أن الأعراب انضموا إلى علي بن محمد لأن السلب يفتنهم؛ فكيف وهم على أبواب البصرة، مدينة المصارف وكعبة كبار التجار الأثرياء في ذلك الوقت! إذ ليس لدى الأعراب دافع فكري أو عقائدي يحملهم على معاضدة الزنج.

والواقع أن تلك الثورة لم تشمل جميع الزنج والعبيد في العراق، بل اقتصرت على أولئك العاملين في منطقة البصرة، من عمال زراعيين وغلمان الديّاسين والتمارين وخدم البيوت.

لم تحقق ثورة الزنج ههنا ما حققته ثورة العبيد في جنوب إيطاليا سنة ٧٣ قبل الميلاد بقيادة سبارتاكوس. فما كاد سبارتاكوس يصدر نداءه إلى أرقاء إيطاليا، داعياً إياهم إلى الثورة في وجه الارستقراطية الرومانية التي كانت تحكم قبضتها على الثورة والأرض والتجارة، حتى التفَّ أولئك العبيد حوله بعشرات الألوف. وقد عظم عددهم فبلغ مائة وعشرين ألفاً، بحيث اضطر سبارتاكوس إلى الامتناع عن قبول متطوّعين جدد، في حين أن بقية الأرقاء في إيطاليا كانوا على أهبة الاستعداد

للانقضاض على أسيادهم. أما علي بن محمد فقد رأينا كيف أنه انتزع الزنج انتزاعاً في بداية أمره من أسيادهم دهاقين البصرة وتجارها.

ولكن إخفاق ثورة علي بن محمد في أن تكسب أتباعاً من غير الزنج لا يعني، في حال من الأحوال، أنها كانت حرباً بين البيض والسود، كما ذهب البعض إلى القول، ومنهم أحمد أمين في كتابه «ظهر الإسلام». فالدوافع الطبقية لهذه الثورة بيِّنة ظاهرة لا تحتاج إلى دليل. إلى ذلك كان السودان يقاتلون في كلا الجانبين: جانب الثورة (زنج البصرة) وجانب الدولة (فرق السودان التي كانت في تشكيلات الجيش العباسي). ثم إن القائد لؤلؤ، الذي خرج عن طاعة أحمد بن طولون وانضم إلى الموفَّق في حربه مع الزنج، كان زنجياً. كما كان هنالك كثير من السودان في عداد فرقته العسكرية. ومن الدلائل القوية على الطابع غير العِرْقي لثورة الزنج، أنَّ قائدها ومجلس قيادته كانوا من البيض، باستثناء سليمان بن جامع الذي كان مولى أسود لبني حنظلة، كما مرَّ معنا.

ثالثاً: امتناع علي بن محمد عن التحالف مع الانتفاضات الأخرى

مرَّ معنا في بداية هذا الفصل أن الدولة العباسية كانت تواجه، أثناء مواجهتها ثورة الزنج، حركات تمرُّد أخرى مختلفة، أبرزها ثورة يعقوب الصفّار، وخروج عدد من الثوار العلويين. يُضاف إلى ذلك حركة مُسَاوِر الخارجي وبعض الثوار الأكراد. وفيما كانت ثورة الزنج في ذروة انتصاراتها، كان هناك خطر آخر على الدولة، بدأ في محيط الكوفة، وهو الدعوة القرمطية.

الملاحظة التاريخية الأساسية في هذا الصدد، هي أن علي بن

محمد لم يتحالف، ولم يحاول التحالف، مع أي من تلك الحركات المناهضة للدولة العباسية:

ففي سنة ٢٦٠هـ قتل صاحب الزنج الثائر العلوي علي بن زيد الذي خرج بالكوفة. وفي سنة ٢٦٣هـ أوقع الزنج برجال يعقوب الصفَّار «وقعة غليظة» ـ على حد تعبير الطبري ـ وأبوا المهادنة إلا بشروط اضطر الصفّار لرفضها. وفي سنة ٢٦٦هـ اشتبك الزنج مع الأكراد.

وفي بعض السنوات الأخيرة من ثورة الزنج (لا يذكر المؤرخون أيَّ سنة بالضبط) فشلت محاولةٌ للتفاهم والتحالف بين علي بن محمد وداعية الحركة القرمطية في سواد الكوفة حمدان قرمط. ولهذه المحاولة قصة تُروى:

يذكر الطبري وغيره من المؤرخين أن حمدان قرمط روى لبعض أصحابه تلك القصة فقال: «صرتُ إلى صاحب الزنج ووصلت إليه وقلت له: إني على مذهب، وورائي مائة ألف ضارب بالسيف، فناظرني؛ فإن اتَّفقنا على المذهب مِلْتُ بمن معي إليك، وإن تكن الأخرى انصرفتُ عنك. وقلتُ له: تعطيني الأمان؛ ففعل. قال حمدان: فناظرته إلى الظهر، فتبيَّن لي في آخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري. وقام إلى الصلاة، فانسللت، ومضيت خارجاً من مدينته، وصرت إلى سواد الكوفة».

كان القرامطة قبل هذا الوقت في مرحلة البناء التنظيمي، ولم يكونوا قد تسلحوا بعد أو تمرّدوا. إلا أنه يبدو من الحديث المذكور أنهم كانوا قد بلغوا من القوة مبلغاً جعل قرمط يقول إن وراءه مائة ألف محارب. أما الزنج فكانوا قد أوقعوا الهزائم بجيوش الخلافة وأدخلوا

الرعب في قلوب الناس، مما دفع قرمط إلى طلب الأمان قبل المناظرة، ومما دفع صاحب الزنج إلى اللامبارة بمائة ألف من المقاتلين يعرضون عليه التحالف. ولكنْ ينبغي التوقف عند قول قرمط: «إني على مذهب؛ فناظرني. فإن اتفقنا ملت بمن معي إليك، وإن اختلفنا انصرفت عنك». فإذا كان صاحب الزنج لم يبال بالتحالف مع هؤلاء، إلا أن قرمط وضع مسألة «الاتفاق على المذهب» شرطاً لمثل هذا التحالف. أي بعبارة حديثة، أنه وضع «الاتفاق على برنامج الحركة وأهدافها» شرطاً للتحالف. وبطبيعة الحال فإن كلامه على «المذهب» يعني العقيدة الدينية. إذ كان قرمط داعية إسماعيلياً، بينما كانت عقيدة علي بن محمد تتأرجح بين شعارات علوية وأخرى خارجية[1].

غايةُ القول أنه لو قام تحالف مدروس ـ إن لم يكن متيناً ـ بين تلك الحركات، من زنج وقرامطة وصفّاريين وأكراد وعلويين، لكان على الأرجح كفيلاً بالقضاء على سلطة الخلافة العباسية. ومما لا شك فيه أن عليّ بن محمد كان أبعد هؤلاء عن فكرة التنسيق والتحالف، لأسباب ترجع إلى «التباس عقيدته» من جهة، وإلى احتباس شخصيته داخل «طموح انتهازي» زيَّن له إمكانية الانتصار بمفرده. ولسوف يظهر خطل رأي صاحب الزنج عند نجاح خطة الموفَّق المضادة، والقائمة على «تحييد» الخصوم و«تجميع» الحلفاء. والدليل أن كفة الدولة العباسية أخذت ترجح في حربها مع الزنج ما أن توصَّل الموفَّق إلى عقد صلح مع الصفّاريين وتحييدهم. ونعتقد أن هذه المسألة ـ أي غياب

---

(١) راجع: أميرة الشيخ رضا فرحات: «البحث عن القرامطة»، ص ٩٨ ـ ١٠٠، منشورات دار المحجَّة البيضاء، بيروت ٢٠١١.

سياسات التحالف لدى علي بن محمد ـ لم تكن أقلَّ شأناً من «غياب البرنامج الثوري»، لا سيما على الصعيد العملي.

رابعاً: شخصية الموفّق

أرسلت الخلافة العباسية لحرب الزنج القائد بعد القائد، فكان الإخفاف نصيب الجميع، إلى أن تفرَّغ الموفَّق لحربهم، بعد أن كانت الأخطار الداهمة، هنا وهناك، تشغله عن مواصلة المعارك.

فبالإضافة إلى «تاكتيكه» الناجح في موضوع التحالفات (الذي أشرنا إليه في العنوان السابق)، وإلى خطته الموفَّقة في محاصرة الزنج بقطع التموين عنهم وإبعاد الأعراب (وهو ما سنشير إليه في العنوان التالي)، تحلَّى الموفَّق بصفات جعلت منه قائداً كبيراً وشخصية فذَّة. فهو يدير الدولة بكل شؤونها وشجونها، في ظل خليفة غير مبالٍ. وهو يواجه الأخطار الجسام في الداخل والخارج. وهو في الوقت نفسه غير هيَّاب لعظائم الأمور، يواجهها بعزيمة لا تلين وتصميم لا يتراجع أمام العقبات الكأداء. ولذلك كان ذكر اسمه يرفع من معنويات جنده، كما كان يدبّ الجزع والرعب في نفوس الزنج وقائدهم. وحين صمَّم الموفَّق على خوض المعركة حتى النهاية، قصد عاصمة الزنج الحصينة (المختارة) وبنى بإزائها عاصمة حَرْبه: الموفَّقية. ولما أصابه سهم في صدره ـ وهو على أبواب النصر ـ أخفى ذلك لئلا يتطرَّق الخوف إلى جنده، حتى إذا ما استعاد عافيته ورجع إلى ميدان المعركة، أخذ علي بن محمد يكذّب ذلك الخبر ويقول إنه «باطلٌ لا أصلَ له، وإن الذي رأوه ما هو إلا مثالٌ مُوِّه لهم وشُبِّه لهم»، كما يروي الطبري.

خامساً: انقطاع التموين

ثار الزنج في أغنى بقعة من بقاع المملكة العباسية، فساعدهم

ذلك على التمتع بخيرات المناطق التي سيطروا عليها. وذلك بعد طول حرمان يناهز الجوع. إلى ذلك أقاموا شبكة من العلاقات مع الأعراب، كانت تموّن الثورة بالإبل والغنم والسمك. وقد كانت «المختارة» مستودعاً كبيراً للمؤن التي تتوافد إليها من مختلف الجهات. ومن هنا كانت خطة الموفَّق ـ في جانب أساسي منها ـ تقوم على محاصرة الزنج في المختارة وقطع المؤن عنهم بكل الوسائل الممكنة.

فبالإضافة إلى بناء «الموفَّقية» واتخاذها مركزاً لحشد القوات، ومنطلقاً لشنّ الغارات المتواصلة على الزنج، عمد الموفَّق إلى قطع المؤن عنهم. فأحرق بيادر الزنج، ونكَّل بالأعراب حتى ردعهم عن تموين المختارة، وانقطعت عنها كل مادة. وهكذا أكل الزنج الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر بهم «حتى أكلوا لحوم بعضهم بعضاً من أحياء وأموات»، على قول الطبري.

قد يرى بعضُ الدارسين مبالغة في كلام الطبري وغيره من المؤرخين، ولكنَّ الأمر المحقَّق أن الجوع عضَّ مِعَد الزنج في المختارة، فتراخت قواهم، واستأمنت أعداد كبيرة منهم إلى الموفَّق الذي كان لا يدع وسيلة لاجتذابهم ودفعهم إلى الاستئمان والاستسلام إلا واستعملها. وكان الأسير أو المستأمن منهم يُسأل عن عهده بالخبز، «فيعجب من ذلك، ويذكر أن عهده بالخبز منذ سنة أو سنتين».

ومن يطالع أخبار السنتين الأخيرتين من ثورة الزنج في تاريخ الطبري (٢٦٩ و٢٧٠هـ)، يستوقفه مشهد يتكرَّر تكراراً مدهشاً. وهذا المشهد يقوم على العناصر التالية: عدد كبير أو صغير من الزنج يُرسلون في طلب الأمان، فيعطيهم الموفَّق ما طلبوا، حتى إذا أصبحوا في

معسكر الخلافة «أمر الموفَّق لكل واحد منهم من الخِلع والصِّلات على أقدارهم في أنفسهم»، ثم يضمُّهم إلى ديوان الجند برواتب شهرية، ثم يأمر بإنزالهم في المراكب على أحسن هيأة ليُطاف بهم على مرأى من جنود «المختارة»، كي يُعاين هؤلاء ما كسبه رفاقهم جرّاء انضمامهم إلى معسكر الخلافة. وتلك بلا شك خطة ذكية أعطت ثمارها، ليس على صعيد أجناد الزنج فحسب، بل وعلى صعيد عدد من قادتهم الميدانيين.

كلمة أخيرة:

سقطت «المختارة»، واحتُزَّ رأس علي بن محمد، ورُفع على قناة، وأدخل بغداد بين يدي الخليفة العباسي. قال الطبري: «وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ، وقُتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠هـ، فكانت أيامه من لدن خرج إلى اليوم الذي قُتل فيه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام».

ثم استسلم عدد كبير من الزنج، بعد أن بذل الموفَّق لهم الأمان. ومن الذين استسلموا علي بن أبان المهلَّبي، أحد كبار قادة الثورة، وأنكلاي ابن قائد الزنج. وانقطع من الزنج «زهاء ألفٍ مالوا نحو البرّ، فمات أكثرهم عطشاً، وظفر الأعراب بمن سلم منهم واسترقّوهم». وهكذا عاد الزنج إلى ما كانوا عليه. وأسدل الستار على هؤلاء الذين حملوا الرماح وانتضوا السيوف والمناجل وبذلوا الأرواح، ليفوزوا بحريتهم.. وقد أبيد أكثرهم من غير أن يحققوا شيئاً مذكوراً لأنفسهم، وإنْ شكلوا بالتأكيد مهمازاً لثورة القرامطة من بعدهم ولثورات أخرى في القرن الرابع الهجري.

والعجيب أن زنج البصرة ما زالوا حتى اليوم يعيشون على السَّويق[١]!.

(١) السَّويق هو الناعم من دقيق الحنطة والشعير.



أخبار ثورة الزّنج كما جاءت في تاريخ ابن جرير الطبري

أخبار ثورة الزَّنج كما جاءت في تاريخ ابن جرير الطبري[١]

فيما يلي نثبت أخبار ثورة الزَّنج وقائدها علي بن محمد، كما وردت في «تاريخ الأمم والملوك» ـ المشهور باسم «تاريخ الطبري» ـ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ.

وقد وقع اختيارنا على هذا المصدر بالتحديد لأسباب ثلاثة أساسية:

أولاً: لأن تاريخ الطبري يشكل المصدر الرئيس والأوحد، في شموله وتشعُّب تفاصيله، بخصوص ثورة الزَّنج. أما سائر المصادر التاريخية فتفيد من حيث أنها تحتوي على معلومات عقائدية خاطفة، أو أخبار متفرقة عن سيرة قائد هذه الثورة، علي بن محمد. وفي ما عدا ذلك فإن تلك المصادر إنما تنقل في الغالب نقلاً حرفياً عن الطبري. وقد عبَّر المؤرخ ابن كثير (توفي سنة ٧٧٤هـ) عن هذا الواقع بصراحة. ففي معرض كلامه على ثورة الزنج في أخبار سنة ٢٦٩هـ يقول: «وشرح ذلك يطول. وقد حرَّره مبسوطاً ابن جرير، ولخّصه ابن الأثير، واختصره ابن كثير.. والله أعلم».

---

(١) تاريخ الطبري؛ ص ٤٤١ ـ ٥٨٨؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٧. هذا ولم نورد الأخبار الأخرى غير ذات الصلة.

ثانياً: لأن مؤرخنا (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) عاصر تلك الثورة (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ) وعايش أحداثها عن قرب. فمن جهة أولى، بدأت تلك الثورة وهو في سن الحادية والثلاثين، ثم انتهت وهو في الخامسة والأربعين. أي أنه كان في عزّ فتوَّته العمرية والعلمية. ومن جهة ثانية، فإن متابعته للأحداث والتفاصيل تنمّ عن صلة وثيقة بمصادر المعلومات، أكانت تلك المصادر رسمية أو غير رسمية.

فهو ينقل عن بعض قادة الزَّنج الذين استأمنوا وانتقلوا إلى معسكر الموفَّق قائد جيوش الخلافة (مثل ريحان بن صالح المغربي، أحد قادة صاحب الزنج، الذي استأمن في ذي الحجة سنة ٢٦٧هـ)، مثلما ينقل عن مصادر الخلافة، «حتى ليبدو الطبري وكأنه مدوّن التقارير الرسمية التي كانت ربما ترد إلى بغداد حول المعارك الدائرة»، على حدّ تعبير بعض الباحثين. من هنا يعدُّ الطبري مؤرِّخَ ثورة الزَّنْج بامتياز.

ثالثاً: ومما يشجّع على الركون إلى رواية الطبري ـ فضلاً عن كونها الرواية الوحيدة الوافية ـ أن ابن جرير مؤرخ ثقة من الطبقة الأولى في نظر المسلمين على اختلاف مذاهبهم. فهو في منزلةٍ نأتْ بنفسها عن «التطرفين» السنّي والشيعي، فحاز بالتالي على ثقة الباحثين. وهو إلى ذلك رائد مدرسة التأريخ الحَوْلي (التأريخ على توالي السنين)، ورائد الرواية بالسند التاريخي، على غرار سند الحديث الشريف.

وبعد، فإن العودة إلى تاريخ الطبري بخصوص ثورة الزَّنج لا تعني الدعوة إلى الأخذ بموقفه السياسي والعقائدي من تلك الحركة. فهو على غرار جميع المؤرخين المسلمين التقليديين يعتبرها خروجاً على السلطة الشرعية ومروقاً من العقيدة الصحيحة، وينعت قائدها علي بن

محمد بالخبيث والفاجر والفاسق واللعين والدعيّ والخائن. . كذلك فإن رواية الطبري ـ كسائر الروايات التاريخية ـ فقيرة بالمعطيات «العمرانية» (بالمعنى الخلدوني لمصطلح «العمران»)، من اقتصادية واجتماعية وسوى ذلك مما يدخل في صلب عملية التقييم الموضوعي لأي حركة أو ظاهرة تاريخية. لذلك فإن العودة إلى نصّ الطبري هي في الواقع عودةٌ إلى المصدر الأساس والأوفى لأخبار حركة الزنج، بروايةٍ على درجة معتبرة من الموثوقية. أما الموقف والاستنتاج، بعد النظر في المعطيات والربط فيما بينها واكتشاف معطيات أخرى، فكل ذلك من مهمة الباحثين على اختلاف درجات اجتهادهم.

أخبار سنة ٢٥٥هـ

خروج أول علويّ بالبصرة

وللنصف من شوّال من هذه السنة، ظهر في فُرات البصرة رجل زعم أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عليّ بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وجمع إليه الزَّنج الذين كانوا يكسحون السِّباخَ، ثم عبر دِجلة، فنزل الدِّيناريّ.

ذكر الخبر عن أمره والسبب الذي بعثه على الخروج هناك:

اسمه ونسبته:

وكان اسمه ونسبه ـ فيما ذكر ـ عليّ بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبهُ في عبد القَيْس، وأمه قرّة ابنة عليّ بن رحيب بن محمد بن حكيم، من بني أسد بن خزيمة، من ساكني قرية من قرى الرّي، يقال

لها وَرْزَنين، بها مولده ومنشؤه؛ فذُكر عنه أنه كان يقول: جدّي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن عليّ بن الحسين. فلما قُتل زيد هرب فلحق بالرّيّ، فلجأ إلى وَرْزَنين، فأقام بها. وإن أبا أبيه عبد الرحيم رجلٌ من عبد القيس، كان مولده بالطالقان، وأنه قدم العراق فأقام بها، واشترى جارية سنديّة، فأولدها محمداً أباه؛ فهو عليّ بن محمد هذا، وأنه كان متصلاً قبل بجماعة من آل المنتصر؛ منهم غانم الشطرنجيّ وسعيد الصغير ويُسر الخادم؛ وكان منهم معاشه ومن قوم من أصحاب السلطان وكتّابه يمدحهم ويستمنحهم بشعره.

في البحرين:

ثم إنه شخص ـ فيما ذُكر ـ من سامرّاء سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادّعى بها أنه عليّ بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب، ودعا الناس بهجر إلى طاعته، واتّبعه جماعة كثيرة من أهلها، وأبته جماعة أُخَر؛ فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين أبَوْهُ عصبية قُتِلت بينهم جماعة، فانتقل عنهم لما حدث ذلك إلى الأحساء، وضوى إلى حيّ من بني تميم ثم من بني سعد، يقال لهم بنو الشّماس؛ فكان بينهم مقامه. وقد كان أهل البحرين أحلُّوه من أنفسهم محلّ النبيّ ـ فيما ذكر ـ حتى جُبيَ له الخراج هنالك ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه ووتَر منهم جماعة كثيرة، فتنكّروا له، فتحوّل عنهم إلى البادية.

في البادية:

ولما انتقل إلى البادية صحبه جماعة من أهل البحرين، منهم رجل

كيّال من أهل الأحْسَاء، يقال له يحيى بن محمد الأزرق المعروف بالبَحْرانيّ، مولى لبني دارم، ويحيى بن أبي ثعلب، وكان تاجراً من أهل هَجَر، وبعضُ موالي بني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع؛ وهو قائد جيشه، ثم كان ينتقل في البادية من حيّ إلى حيّ.

نزول الوحي بالتوجُه إلى البصرة:

فذكر عنه أنه كان يقول: أوتيت في تلك الأيام آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس؛ منها ـ فيما ذكر عنه ـ أنه قال: إني لُقِّيتُ سُوَراً من القرآن لا أحفظها، فجرى بها لساني في ساعة واحدة، منها سبحان، والكهف، وص. قال: ومن ذلك أني ألقيت نفسي على فراشي، فجعلت أفكر في الموضع الذي أقصد له، وأجعل مقامي به؛ إذ نَبَتْ بي البادية، وضقت بسوء طاعة أهلها؛ فأظلتْني سحابة، فبرقت ورعدت، واتّصل صوت الرّعد منها بسمعي، فخُوطبتُ فيه، فقيل: اقصد البصرة، فقلت لأصحابي وهم يكنُفونني: إني أمرت بصوت هذا الرّعد بالمصير إلى البصرة.

وذكر أنه عند مصيره إلى البادية أوْهم أهلها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة، فاختدع بذلك قوماً منهم، حتى اجتمع بها منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم إلى موضع بالبحرين يقال له الرّدْم، فكانت بينهم وقعة عظيمة، كانت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه، قُتلوا فيها قتلاً ذريعاً، فنفرت عنه العرب وكرهتْه، وتجنّبت صحبته. فلما تفرّقت عنه العرب، ونبت به البادية، شخص عنها إلى البصرة، فنزل بها في بني ضُبيعة، فاتّبعه بها جماعة؛ منهم عليّ بن أبان المعروف بالمهلبيّ وأخواه محمد والخليل وغيرهم.

الفتنة بين البلاليّة والسعديّة:

وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين، ومحمد بن رجاء الحضاريّ عامل السلطان بها، ووافق ذلك فتنةُ أهل البصرة بالبلالية والسعدية، فطمع في أحد الفريقين أن يميل إليه، فأمْر أربعة نفر من أصحابه، فخرجوا بمسجد عبّاد، أحدهم يسمى محمد بن سلْم القصاب الهجريّ، والآخر بُرَيش القُرَيعيّ، والثالث عليّ الضرّاب، والرابع الحسين الصيدنانيّ؛ وهم الذين كانوا صحبوه بالبحرين، فدعوْا إليه، فلم يجبه من أهل البلد أحد، وثاب إليهم الجند، فتفرّقوا ولم يظفر بأحد منهم. فخرج من البصرة هارباً، فطلبه ابن رجاء فلم يقدِرْ عليه، وأُخبر ابن رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه، فأخذهم فحبسهم؛ فكان فيمن حبس يحيى بن أبي ثعلب ومحمد بن الحسن الإياديّ وابن صاحب الزَّنْج عليّ بن محمد الأكبر وزوجتُه أمّ ابنه ومعها ابنة له وجارية حامل، فحبسهم.

التوجُّه إلى بغداد والانتساب إلى أحمد بن عيسى بن زيد والادعاء بظهور آيات له

ومضى هو لوجهه يريد بغداد، ومعه من أصحابه محمد بن سلْم ويحيى بن محمد وسليمان بن جامع وبُريش القريعيّ. فلما صاروا بالبَطيحة نذِر بهم بعض موالي الباهليّين، كان يلي أمر البَطيحة، يقال له عُمَير بن عمار، فأخذهم وحَملهم إلى محمد بن أبي عَوْن، وهو عامل السلطان بواسط، فاحتال لابن أبي عَوْن حتى تخلّص هو وأصحابه من يده. ثم صار إلى مدينة السلام، فأقام بها حَوْلاً، وانتسب فيها إلى أحمد بن عيسى بن زيد. وكان يزعم أنه ظهر له أيام مقامه بها آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه، وما يفعله كلّ واحد منهم؛ وأنه سأل ربه

بها آيةً أن يعلم حقيقة أمره، فرأى كتاباً يُكتب له، وهو ينظر إليه على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

وذكر عن بعض تُبَّاعه أنه بمقامه بمدينة السلام استمال جماعةً، منهم جعفر بن محمد الصُّوحانيّ ـ كان ينتسب إلى زيد بن صُوحان ـ ومحمد بن القاسم وغلاما يحيى بن عبد الرحمٰن بن خاقان: مشرق ورفيق؛ فسمّى مشرقاً حمزة وكنّاه أبا أحمد، وسمّى رفيقاً جعفراً وكناه أبا الفضل. ثم لم يزل عامَهُ ذلك بمدينة السلام حتى عُزِل محمد بن رجاء عن البصرة. فخرج عنها، فوثب رؤساء الفتنة من البلاليّة والسعدية، ففتحوا المحابس، وأطلقوا مَنْ كان فيها؛ فتخلّصوا فيمن تخلّص.

العودة إلى البصرة

فلما بلغه خلاصُ أهله، شخص إلى البصرة، فكان رجوعه إليها في شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه عليّ بن أبان ـ وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام ـ ويحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع، وغلاما يحيى بن عبد الرحمٰن: مشرق ورفيق؛ وكان يحضر هؤلاء الستة رجلٌ من الجند يكنى أبا يعقوب، ولقّب نفسه بعد ذلك بجُرْبان، فساروا جميعاً حتى وافوا برّ نخل، فنزلوا قصراً هنالك يعرف بقصر القرشيّ، على نهر يعرف بعمود ابن المنجم؛ كان بنو موسى بن المنجم احتفروه؛ وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع السباخ، وأمر أصحابه أن يَنْحلوه ذلك، فأقام هنالك.

لواء صاحب الزّنج:

فذُكر عن ريحان بن صالح أحد غلمان الشُّورَجيّين ـ وهو أوّل من

صحبه منهم ـ أنه قال: كنت موكلاً بغلمان مولاي، أنقل الدقيق إليهم من البصرة، وأفرّقه فيهم، فحملت ذلك إليهم كما كنت أفعل، فمررت به وهو مقيم ببرّ نخل في قصر القرشيّ، فأخذني أصحابُه، فصاروا بي إليه، وأمروني بالتسليم عليه بالإمْرة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئتُ منه، فأخبرته أني أقبلت من البصرة، فقال: هل سمعتَ لنا بالبصرة خبراً؟ قلت: لا. قال: فما خبر الزينبيّ؟ قلت: لا علم لي به قال: فخبر البلاليّة والسعديّة؟ قلت: ولا أعرف أخبارهم أيضاً. فسألني عن أخبار غلمان الشُورجيّين[1] وما يجري لكلّ غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر وعمّن يعمل في الشورج من الأحرار والعبيد، فأعلمته ذلك، فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبته، فقال لي: احتَلْ فيمن قدرت عليه من الغلمان، فأقبلْ بهم إليّ. ووعدني أن يقوّدني على من آتيه به منهم، وأن يحسن إليّ؛ واستحلفني ألاّ أعلِم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. فخلّى سبيلي، فأتيت بالدقيق الذي معي الموضع الذي كنت قصدته به، وأقمت عنده يومي، ثم رجعت إليه من غد، فوافيته وقد قدم عليه رفيق غلام يحيى بن عبد الرحمٰن، وكان وُجّه إلى البصرة في حوائج من حوائجه. ووافاه بشبل بن سالم ـ وكان من غلمان الدّباسين[2] ـ وبحريرةٍ كان أمره بابتياعها ليتخذها لواء؛ فكتب فيها بحمرة وخضرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ

(١) الشورجيون هم متعهّدو كَسْح الطبقة الملحيّة من التربة. وتسمّى: السّباخ أو الشّوْرَج. وكان أولئك المتعهدون يستخدمون الزّنج في كسحها.

(٢) الدبّاسون: الذين يستخرجون الدبس من التمر.

لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]، إلى آخر الآية، وكتب اسمه واسم أبيه، وعلّقها في رأس مُرْديّ[٢]، وخرج في السحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان.

الاستيلاء على غلمان الشورجيين ووعوده للزنج:

فلما صار إلى مؤخر القصر الذي كان فيه، لقيه غلمان رجل من الشورجيين يعرف بالعطار، موجّهين إلى أعمالهم، فأمر بأخذهم فأخِذوا، وكُتف وكيلهم، وأخذ معهم؛ وكانوا خمسين غلاماً. ثم صار إلى الموضع الذي يعمل فيه السّنائيّ، فأخذ منه خمسمائة غلام، فيهم المعروف بأبي حُدَيد، وأمر بوكيلهم فأخِذ معهم مكتوفاً؛ وكانوا في نهر يعرف بنهر المكاثر. ثم مضى إلى موضع السيرافيّ، فأخذ منه خمسين ومائة غلام، فيهم زُرَيق وأبو الخنجر. ثم صار إلى موضع ابن عطاء، فأخذ طريفاً وصبيحاً الأعسر وراشداً المغربيّ وراشداً القرماطيّ، وأخذ معهم ثمانين غلاماً. ثم أتى موضع إسماعيل المعروف بغلام سَهْل الطحان، ثم لم يزل يفعل ذلك كذلك في يومه، حتى اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيّين. ثم جمعهم وقام فيهم خطيباً، فمنَّاهم ووعدَهم أن يُقَودّهم ويرئّسهم، ويملّكهم الأموال، وحلف لهم الأيمان الغِلاظ ألاّ يغدر بهم، ولا يخذَلهم، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلاّ أتى إليهم. ثم دعا مواليَهم، فقال: قد أردت ضرب أعناقكم لِمَا كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذي استضعفتموهم وقهرتموهم، وفعلتم بهم ما

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) المُرْديّ: خشبة تُدفع بها السفينة.

حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم ما لا يُطيقون، فكلمني أصحابي فيكم، فرأيت إطلاقكم. فقالوا: إنَّ هؤلاء الغلمان أُبّاق، وهم يهربُون منك فلا يُبقون عليك ولا علينا، فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا. فأمر غلمانهم فأحضَروا شَطْباً ثم بَطَح كلُّ قوم مولاهم ووكيلهم، فضرب كلّ رجل منهم خمسمائة شَطْبة، وأحلفهم بطلاق نسائهم ألاّ يُعلموا أحداً بموضعه، ولا بعدد أصحابه، وأطلقهم. فمضوْا نحو البصرة.

ومضى رجل منهم يقال له عبد الله، ويعرف بكَرِيخَا، حتى عَبَر دُجَيْلاً، فأنذر الشورجيّين ليحرِزوا غلمانهم، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام.

ثم سار بعدما صلّى العصر حتى وافى دُجَيلاً، فوجد سفن سَمَاد تدخل في المدّ، فقدّمها، فركب فيها، وركب أصحابُه حتى عبروا دُجَيلاً، وصاروا إلى نهر ميمون، فنزل المسجد الذي في وسط السوق الشارع على نهر ميمون، وأقام هناك. ولم يزل ذلك دأبه، يجتمع إليه السودان إلى يوم الفِطْر. فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة الفطر فاجتمعوا. وركز المرديّ الذي عليه لواؤه، وصلّى بهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملّكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلَى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغ من صلاته وخطبته، أمر الذين فهموا عنه قولَه أن يُفهموه من لا فهم له من عجمهم، لتطيب بذلك أنفسُهم. ففعلوا ذلك، ودخل القصر. فلمّا كان بعد يوم قصد نهر بور، فوافى جماعة من أصحابه هناك الحميريّ

في جماعة، فدفعوهم حتى أخرجوهم إلى الصحراء، فلحقهم صاحب الزّنج فيمن معه، فأوقع بالحميريّ وأصحابه، فانهزموا حتى صاروا إلى بطن دِجلة. واستأمن إليه رجل من رؤساء الزّنْج يكنى بأبي صالح، يعرَف بالقصير، في ثلاثمائة من الزّنج، فمنّاهم ووعدهم.

فلما كثر مَن اجتمع إليه من الزّنج قوَّد قواده وقال لهم: كلّ مَنْ أتى منكم برجل فهو مضموم إليه. وقيل إنه لم يقوّد قوّاده إلاّ بعد موقعة الخَوَل ببَيَان ومصيره إلى سَبَخة القَنْدَل.

معاركه الأولى:

وكان ابنُ أبي عَوْن نقِل عن ولاية واسط إلى ولاية الأبُلّة وكُور دِجلة. فذُكِر أنه انتهى إليه في اليوم الذي قوّد فيه قوّاده أن الحميريّ وعقيلاً مع خليفةِ ابن أبي عون المقيم كان بالأبُلّة، قد أقبلوا نحوه، ونزلوا نهر طير. فأمر أصحابه بالمصير إلى الرزيقية وهي في مؤخّر الباذَاورد. فصار إليها في وقت صلاة الظهر، فصلوا بها، واستعدُّوا للقتال، وليس في عسكره يومئذ إلاّ ثلاثة أسياف: سيفُه، وسيف عليّ بن أبان، وسيف محمد بن سلم. ونهض بأصحابه فيما بين الظهر والعصر راجعاً نحو المحمديّة، وجعل عليّ بن أبان في آخر أصحابه، وأمره أن يعرف خبر مَنْ يأتيه من ورائه. وتقدّم في أوائل الناس حتى وافى المحمديّة، فقعد على النهر، وأمر الناس فشربوا منه. وتَوَافَى إليه أصحابُه، فقال له عليّ بن أبان: قد كنا نرى من ورائنا بارقةً ونسمع حسّ قوم يتبعوننا، فلسنا ندري: أرجعوا عنا أم هم قاصدون إلينا؟ فلم يستتمّ كلامه حتى لحق القوم. وتنادى الزنج السلاح، فبدر مفرّج النوبيّ المكنى بأبي صالح، وريحان بن صالح، وفتح الحجام ـ وكان فَتْح يأكل

ـ فلما نهض تناول طبقاً كان بين يديه، وتقدّم أصحابه، فلقيه رجل من الشورجيّين، يقال له بلبل، فلمّا رآه فَتْح حمل عليه وحذَفَه بالطبق الذي كان في يده، فرمى بلبل بسلاحِه، وولّى هارباً، وانهزم أصحابه، وكانوا أربعة آلاف رجل، فذهبوا على وجوههم، وقُتِل مَنْ قتِل منهم، ومات بعضهم عطشاً، وأُسِرَ منهم قوم. فأتيَ بهم صاحب الزّنج، فأمر بضرب أعناقهم فضربت، وحملت الرؤوس على بغال كان أخذَها من الشورجيّين، كانت تنقل الشورج؛ ومضى حتى وافى القادسيّة؛ وذلك وقت المغرب. فخرج من القرية رجل من موالي بعض الهاشميين على أصحابه، فقتل رجلاً من السودان، فأتاه الخبر، فقال له أصحابه: ائذن لنا في انتهاب القرية وطلب قاتل صاحبنا، فقال: لا سبيلَ إلى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم، ونسألهم أن يدفعوه إلينا؛ فإن فعلوا وإلاّ ساغ لنا قتالُهم.

وأعجلهم المسير، فصاروا إلى نهر ميمون راجعين، فأقام في المسجد الذي كان أقام فيه في بدأته وأمر بالرؤوس المحمولة معه فنُصبت، وأمر بالأذان أبا صالح النوبيّ فأذّن، وسلم عليه بالإمْرَة، فقام فصلى بأصحابه العشاء الآخرة، وبات ليلته بها. ثم مضى من الغد حتى مرّ بالكرخ فطواها، وأتى قرية تعرف بجُبَّى في وقت صلاة الظهر، فعبر دُجَيلاً من مخاضَة دلّ عليها، ولم يدخل القرية، وأقام خارجاً منها، وأرسل إلى مَنْ فيها، فأتاه كبراؤهم وكبراء أهل الكَرْخِ، فأمرهم بإقامة الأنزال له ولأصحابه فأقيم له ما أراد، وبات عندهم ليلتَه تلك. فلما أصبح أهدى له رجل من أهل جُبَّى فرساً كُميتاً، فلم يجد سَرْجاً ولا لجاماً، فركبه بحبل وسَنَفَه بليف، وسار حتى انتهى إلى المعروف بالعباسيّ العتيق، فأخذ منه دليلاً إلى السِّيب، وهو نهر القرية المعروفة

بالجعفريّة، ونذِر به أهل القرية، فهربوا عنها، ودخلها فنزل دار جعفر بن سليمان وهي في السوق، وتفرّق أصحابُه في القرية، فأتوْه برجل وجدُوه، فسأله عن وكلاء الهاشميّين، فأخبره أنهم في الأجمة. فوجّه الملقب بجُرْبان، فأتاه برئيسهم وهو يحيى بن يحيى المعروف بالزبيريّ أحد موالي الزياديّين، فسأله عن المال، فقال: لا مال عندي، فأمر بضرب عنقه. فلما خاف القتل أقرّ بشيء قد كان أخفاه، فوجّه معه، فأتاه بمائتي دينار وخمسين ديناراً وألف درهم؛ فكان هذا أول ما صار إليه. ثم سأله عن دوابّ وكُلاء الهاشميّين فدله على ثلاثة براذين: كُميت، وأشقر، وأشهب؛ فدفع أحدها إلى ابن سلْم، والآخر إلى يحيى بن محمد، وأعطى مُشرقاً غلام يحيى بن عبد الرحمٰن الثالث.

وكان رفيق يركب بغلاً كان يحمل عليه الثَّقَل، ووجد بعض السودان داراً لبعض بني هاشم فيها سلاح، فانتهبوه. فجاء النوبيّ الصغير بسيف، فأخذه صاحب الزَّنج، فدفعه إلى يحيى بن محمد، فصار في أيدي الزنج سيوفٌ وبالات وزقايات وتِراس. وبات ليلته تلك بالسِّيب. فلما أصبح أتاه الخبر أن رُميساً والحميريّ وعقيلاً الأبلّي قد وافوا السِّيب؛ فوجّه يحيى بن محمد في خمسمائة رجلٍ، فيهم سليمان وريحان بن صالح وأبو صالح النوبيّ الصغير، فلقوا القوم فهزموهم، وأخذوا سُمَيريّة[١] وسلاحاً، وهرب مَنْ كان هنالك. ورجع يحيى بن محمد فأخبره الخبر، فأقام يومه، وسار من غد يريد المذَار، بعد أن اتّخذ على أهل الجعفرية ألاّ يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً، ولا يستُروا

(١) السميريَّة: مركب حربي صغير، يستخدم في الأنهار.

عنه. فلما عبر السّيب صار إلى قرية تعرف بقرية اليهود شارعة على دِجْلة، فوافق هنالك رُمْيَساً في جَمْع، فلم يزل يقاتلهم يومه ذلك، وأسرَ من أصحابه عِدّة، وعقر منهم جماعة بالنُّشاب. وقتِل غلام لمحمد بن أبي عون كان مع رُمَيْس، وغرقت سميريّة كان فيها ملاّحُها، فأخِذ وضربت عنقه. وسار من ذلك الموضع يريد المَذَار، فلمّا صار إلى النهر المعروف بباب مداد جاوزه حتى أصحر، فرأى بُستاناً، وتلًّا يعرف بجبل الشياطين، فقصد التلّ فقعد عليه، وأثبت أصحابه في الصحراء، وجعل لنفسه طليعة.

تجديد الوعود والأيمان لأصحابه

فذُكر عن شبل أنه قال: أنا كنت طليعته على دِجْلة، فأرسلت إليه أخبره أن رُميساً بشاطىء دِجْلة يطلب رجُلاً يؤدّي عنه رسالة، فوجّه إليه عليّ بن أبان ومحمد بن سلم وسليمان بن جامع. فلما أتوْه قال لهم: اقرؤوا على صاحبكم السلام، وقولوا له: أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض؛ لا يعرض لك أحدٌ، واردد هؤلاء العبيد على مواليهم، وآخذ لك عن كلّ رأسٍ خمسة دنانير. فأتوا فأعلموه ما قال لهم رُميس، فغضب من ذلك وآلى ليرجعنّ فيبقرنّ بطن امرأة رُميس، وليحرقنّ داره، وليخوضنّ الدماء هنالك. فانصرفوا إليه، فأجابوه بما أمِرُوا به، فانصرف إلى مقابل الموضع الذي هو به من دِجْلة، فأقام به. فوافاه في ذلك اليوم إبراهيم بن جعفر المعروف بالهمْدانيّ ـ ولم يكن لحق به إلاَّ في ذلك الوقت ـ وأتاه بكتب فقرأها. فلما صلى العشاء الآخرة، أتاه إبراهيم، فقال له: ليس الرّأي لك إتيان المذار، قال: فما الرأي؟ فقال: ترجع، فقد بايع لك أهل عبّادان ومَيان رُوذان وسليمانان، وخلّفت جمعاً من البلالية بفوّهة القَنْدل وأبرسان ينتظرونك. فلمّا سمع

السودان ذلك من قول إبراهيم مع ما كان رُمَيس عَرَض عليه في ذلك اليوم خافوا أن يكونَ احتال عليهم ليردهم إلى مواليهم، فهرب بعضُهم، واضطرب الباقون. فجاءه محمد بن سلْم فأعلمه اضطرابَهم، وهرَب مَنْ هرب منهم، فأمر بجمعهم في ليلته تلك، ودعا مصلحاً، وميّز الزّنج من الفراتية. ثم أمر مصلحاً أن يعلمهم أنه لا يردّهم ولا أحداً منهم إلى مواليهم، وحلف لهم على ذلك بالأيمان الغِلاظ، وقال: ليُحطْ بي منكم جماعة، فإن أحسّوا مني غدراً فتكُوا بي. ثم جمع الباقي؛ وهم الفراتيّة والقرماطيّون والنوبة وغيرهم ممن يفصح بلسان العرب، فحلف لهم على مثل ذلك، وضمن ووثّق من نفسه، وأعلمهم أنه لم يخرج لعَرَض من أعراض الدنيا، وما خرج إلاّ غضباً لله، ولمَا رأى ما عليه الناس من الفساد في الدين، وقال: ها أنا ذا معكم في كلّ حرب، أشرككم فيها بيدي، وأخاطر معكم فيها بنفسي. فرضوا ودعوْا له بخير. فلمَّا أسحر أمر غلاماً من الشورجيّين يكنى أبا مَنَارة، فنفخ في بوق لهم كانوا يجتمعون بصوته وسار حتى أتى السِّيب راجعاً، فألفَى هناك الحميريّ ورُمَيْساً وصاحب ابن أبي عون، فوجّه إليهم مشرقاً برسالة أخفاها، فرجع إليه بجوابها، فصار صاحب الزّنج إلى النهر، فتقدم صاحب محمد بن أبي عون، فسلّم عليه، وقال له: لم يكن جزاء صاحبنا منك أن تفسد عليه عمَلَه، وقد كان منه إليك ما قد علمت بواسط، فقال: لم آت لقتالكم، فقل لأصحابك يوسّعون لي في الطريق، حتى أجاوزكم.

أهل الجعفرية يغدرون به:

فخرج من النهر إلى دِجْلَة، ولم يلبَثْ أن جاء الجند ومعهم أهل الجعفريّة في السلاح الشاك؛ فتقدّم المكتنى بأبي يعقوب المعروف

بجُرْبان، فقال لهم: يا أهل الجعفريّة، أما علمتم ما أعطيتمونا من الأيمان المغلّظة ألاّ تقاتلونا، ولا تُعِينوا علينا أحداً، وأن تعينونا متى اجتاز بكم أحد منا! فارتفعت أصواتُهم بالنعير والضّجيج، ورموه بالحجارة والنّشاب. وكان هناك موضع فيه زُهاء ثلاثمائة زرنوق[1]، فأمر بأخذها فأخذت، وقرن بعضها ببعض حتى صارت كالشاشات، وطرحت إلى الماء، وركبها المقاتلة فلحقوا القوم. فقال بعضهم: عبر عليّ بن أبان يومئذ قبل أخذ الزَّرانيق سباحة. ثم جمعت الزَّرانيق، وعبر الزنج، وقد زالوا عن شاطىء النهر فوضعوا فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير، وأتي منهم بأسرى، فوبّخهم وخلّى سبيلهم، ووجه غلاماً من غلمان الشورجيين يقال له سالم يعرف بالزغاويّ، إلى مَنْ كان دخل الجعفرية من أصحابه، فردَّهم، ونادى: ألا برئت الذّمة ممن انتهب شيئاً من هذه القرية، أو سبى منها أحداً؛ فمن فعل ذلك فقد حلّت به العقوبة الموجعة.

مواصلة الانتصارات:

ثم عبر من غربيّ السّيب إلى شرقية، واجتمع أصحابه الرؤساء حتى إذا جاوز القرية بمقدار غَلْوة[2] سمع النعير من ورائه في بطن النهر، فتراجع الزّنج، فإذا رُميس والحميريّ وصاحب ابن أبي عون قد وافوه لما بلغهم حال أهل الجعفرية. فألقى السودان أنفسَهم عليهم، فأخذوا منهم أربع سُمَيريّات بملاّحيها ومقاتليها، فأخرجوا السميريّات

(١) الزرنوق: النهر الصغير. وهو هنا بمعنى الخشبة المسطحة، تستخدم لاجتياز ماء النهر.

(٢) الغلوة: مسافة بمقدار رمية سهم.

بمن فيها. ودعا بالمقاتلة فسألهم، فأخبروه أن رُميساً وصاحب ابن أبي عون لم يَدَعاهم حتى حملاهم على المصير إليه، وأنّ أهل القرى حرّضوا رُميساً وضمِنوا له ولصاحب ابن أبي عون مالاً جليلاً، وضمن له الشورجيّون على ردّ غلمانهم؛ لكلّ غلام خمسة دنانير. فسألهم عن الغلام المعروف بالنميريّ المأسور والمعروف بالحجّام، فقالوا: أما النميريّ فأسير في أيديهم؛ وأما الحجام فإن أهل الناحية ذكروا أنه كان يتلصص في ناحيتهم، ويسفك الدماء، فضُرِبت عنقه، وصُلب على نهر أبي الأسد. فلما عرف خبرَهم أمر بضرب أعناقهم، فضربت إلاً رجلاً يقال له محمد بن الحسن البغداديّ، فإنه حلف له أنه جاء في الأمان، لم يُشْهِر عليه سيفاً، ولا نصب له حرباً، فأطلقه. وحمل الرؤوس والأعلام على البغال، وأمر بإحراق سفنهم فأحرِقت.

وسار حتى أتى نهر فريد، فانتهى إلى نهر يعرف بالحسن بن محمد القاضي وعليه مسنّاة تعترض بين الجعفرية ورُستاق القُفْص، فجاءه قوم من أهل القرية من بني عجْل، فعرضوا عليه أنفسَهم، وبذلوا له ما لديْهم، فجزاهم خيراً، وأمر بترك العرض لهم.

يهوديٌّ يبايعه:

وسار حتى أتى نهراً يعرف بباقثا، فنزل خارجاً من القرية التي على النهر وهي قرية تشرع على دُجيل، فأتاه أهل الكرخ، فسلّموا عليه، ودَعَوْا له بخير، وأمدُّوه من الأنزال بما أراد. وجاءه رجل يهوديّ خيبريّ يقال له ماندويه فقبّل يده، وسجَد له ـ زعم ـ شكراً لرؤيته إيّاه، ثم سأله عن مسائل كثيرة، فأجابه عنها، فزعم أنه يجدُ صفته في

التوراة، وأنه يرى القتال معه، وسأله عن علامات في بدنه ذكر أنه عرفها فيه، فأقام معه ليلَته تلك يحادثه.

تجنُّب بعض المواجهات:

وكان إذا نزل اعتزل عسكره بأصحابه الستة. ولم يكن يومئذ يُنكر النبيذ على أحد من أصحابه. وكان يتقدّم إلى محمد بن سلْم في حفظ عسكره، فلما كان في تلك الليلة أتاه في آخر الليل رجلٌ من أهل الكَرْخ، فأعلمه أن رُمَيْساً وأهل المفتح والقرى التي تتصل بها وعَقيلاً وأهل الأبُلّة قد أتوه ومعهم الدّبيلا بالسلاح الشاك، وأنّ الحميريّ في جمع من أهل الفُرات وقد صاروا في تلك الليلة إلى قنطرة نهر ميمون، فقطعوها ليمنعوه العبور. فلمّا أصبح أمر، فصيح بالزّنج، فعبروا دُجيلاً، وأخذ في مؤخّر الكرخ حتى وافى نهر ميمون، فوجد القنطرة مقطوعة، والناس في شرقيّ النّهر والسُّمَيْريّات في بطنه، والدَّبيلاَ في السُّميرّيات، وأهل القرى في الجريبيّات والمجونحات؛ فأمر أصحابه بالإمساك عنهم، وأن يرحلوا عن النهر توقّياً للنُّشاب، ورجع فقعد على مائة ذراع من القرية؛ فلمّا لم يروا أحداً يقاتلهم خرج منهم قوم ليعرفوا الخبر. وقد كان أمر جماعة من أصحابه، فأتوا القرية، فكَمَنُوا فيها مخفين لأشخاصهم؛ فلما أحسوا خروج مَنْ خرج منهم، شدّوا عليهم، فأسروا اثنين وعشرين رجلاً، وسعوا نحو الباقين، فقتلوا منهم جماعة على شاطىء النهر، ورجعوا إليه بالرؤوس والأسرى، فأمر بضرب أعناقهم بعد مناظرة جرتْ بينه وبينهم، وأمر بالاحتفاظ بالرؤوس. وأقام إلى نصف النهار، وهو يسمع أصواتهم، فأتاه رجل من أهل البادية مستأمناً، فسأله عن غَوْر النهر؛ فأعلمه أنه يعرف موضعاً منه يُخاض،

وأعلمه أن القوم على معاودته بجمْعهم يقاتلونه؛ فنهض مع الرَّجل حتى أتى به موضعاً على مقدار مِيل من المحمّدية، فخاض النهر بين يديه، وخاض الناس خلفه، وحمله ناصح المعروف بالرمليّ، وعبر بالدوابّ. فلما صار في شرقيّ النهر كرّ راجعاً نحو نهر ميمون، حتى أتى المسجد فنزل فيه، وأمر بالرؤوس فنُصِبت، وأقام يومه. وانحدر جيش رُميس بجمعه في بطن دُجيل، فأقاموا بموضع يعرف بأقشى بإزاء النهر المعروف ببَرد الخيار. ووجّه طليعة فرجع إليه، فأخبره بمقام القوم هناك، فوجّه من ساعته ألفَ رجلٍ، فأقاموا بسبَخة هناك على فُوّهة هذا النهر، وقال لهم: إن أتوْكم إلى المغرب؛ وإلاً فأعلموني. وكتب كتاباً إلى عَقيل، يذكره فيه أنه قد بايعه في جماعة من أهل الأبُلّة، وكتب إلى رُمَيس يذكّره حِلفه له بالسِّيب أنه لا يقاتله، وأنه يُنهي أخبارَ السلطان إليه، ووجّه بالكتابين إليهما مع بعض الأكرة بعد أن أحلفه أن يوصلهما.

أوّلُ سَبْي:

وسار من نهر ميمون يريد السَّبَخَة التي كان هيّأ فيها طليعةً؛ فلمّا صار إلى القادسية والشِّيفِيَا، سمع هناك نعيراً، ورأى رمياً؛ وكان إذا سار يتنكب القرى؛ فلم يدخلها. وأمر محمد بن سَلْم أن يصير إلى الشيفيا في جماعة، فيسأل أهلها أن يُسلموا إليه قاتل الرجل من أصحابه في ممرّه كان بهم؛ فرجع إليه، فأخبره أنهم زعموا أنَّه لا طاقة لهم بذلك الرّجل لولائه من الهاشميين ومنعهم له؛ فصاح بالغلمان، وأمرهم بانتهاب القريتين، فانتهب منهما مالاً عظيماً؛ عيناً وَوَرِقاً وجوهراً وحُلِيًّا وأواني ذهب وفضة، وسبى منهما يومئذ غلماناً ونسوة؛ وذلك أوّلُ سَبْي

سُبي. ووقفوا على دار فيها أربعة عشر غلاماً من غلمان الشورج، قد سُدّ عليهم باب؛ فأخذهم وأتِيَ بمولى الهاشميين القاتل صاحبه فأمر محمد بن سلم بضرب عنقه، ففعل ذلك، وخرج من القريتين في وقت العصر، فنزل السَّبَخة المعروفة ببرَد الخيار.

تحريم النبيذ:

فلما كان في وقت المغرب أتاه أحد أصحابه الستّة، فأعلمه أن أصحابه قد شغلوا بخمور وأنبذة وجدوها في القادسيّة؛ فصار ومعه محمد بن سلم ويحيى بن محمد إليهم، فأعلمهم أنّ ذلك مما لا يجوز لهم، وحرّم النبيذ في ذلك اليوم عليهم، وقال لهم: إنكم تلاقون جيوشاً تقاتلونهم، فدعوا شُرب النبيذ والتشاغل به، فأجابوه إلى ذلك. فلما أصبح جاءه غلام من السودان، يقال له قاقويه، فأخبره أن أصحاب رُميس قد صاروا إلى شرقيّ دُجيل، وخرجوا إلى الشطّ، فدعا عليّ بن أبان، فتقدم إليه أن يمضِيَ بالزّنج، فيوقع بهم، ودعا مشرقاً، فأخذ منه إصطرلاباً، فقاس به الشمس، ونظر في الوقت. ثم عبر وعبر الناس خَلْفَه القنطرة التي على النهر المعروف ببرَد الخيار فلما صاروا في شرقيّه، تلاحق الناس بعليّ بن أبان، فوجدوا أصحاب رُميس وأصحاب عَقيل على الشطّ، والدَّبيلا في السفن يرمون بالنُّشاب. فحملوا عليهم، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة. وهبّتْ ريح من غربيّ دُجيل، فحملت السفن، فأدنتها من الشطّ، فنزل السودان إليها، فقتلوا مَنْ وجدوا فيها. وانحاز رُميس ومَنْ كان معه إلى نهر الدير على طريق أقشى، وترك سفنه لم يحرّكها ليظنّ أنه مقيم. وخرج عَقيل وصاحب ابن أبي عون إلى دِجلة مبادريْن، لا يلويان على شيء.

وقائع أخرى مع أصحاب السلطان كان له فيها غنائم وقتل:

وأمر صاحب الزنج بإخراج ما في السفن التي فيها الدَّبيلا ـ وكان مقروناً بعضها ببعض ـ فنزل قاقويه ليفتّشها، فوجد رجلاً من الدَّبيلا، فحاول إخراجَه فامتنع عليه، وأهوى إليه بسُرتَى كان معه؛ فضربه ضربة على ساعده، فقطع بها عِرقاً من عروقه، وضربه ضربةً على رجله، فقطعتْ عصبةً من عصبه. وأهوى له قاقويه، فضربه ضربةً على هامته فسقط، فأخذ بشعره، واحتزّ رأسه؛ فأتى به صاحب الزّنج، فأمر له بدينار خفيف، وأمر يحيى بن محمد أن يقوِّدَه على مائة من السودان. ثم سار صاحب الزَّنج إلى قرية تعرف بالمهلَّبية تقابل قَيَّاران، ورجع السودان الذين كانوا اتّبعوا عَقيلاً وخليفة ابن أبي عون، وقد أخذ سُميريّة فيها ملاّحان؛ فسألهم عن الخبر، فقالوا: اتّبعناهم فطرحوا أنفسهم إلى الشطّ، وتركوا هذه السميريّة، فجئنا بها. فسأل الملاّحين، فأخبراه أن عقيلاً حملهما على اتباعه قهراً، وحبس نساءهما حتى اتّبعاه، وفعل ذلك بجميع مَنْ تبعه من الملاّحين؛ فسألهما عن سبب مجيء الدّبيلا، فقالا: إنّ عقيلاً وعدهم مالاً، فتبعوه، فسألهما عن السفن الواقعة بأقْشَى، فقالا: هذه سفن رُميس وقد تركها، وهرب في أوّل النهار. فرجع حتى إذا حاذاها أمر السودان فعبروا، فأتوه بها؛ فأنهبهم ما كان فيها، وأمر بها فأحرقت. ثم صار إلى القرية المعروفة بالمهلّبيّة واسمها تنغت، فنزل قريباً منها، وأمر بانتهابها وإحراقها؛ فانتُهبتْ وأحرقت، وسار على نهر الماديان، فوجد فيها تموراً، فأمر بإحراقها.

وكان لصاحب الزَّنج بعد ذلك أمور من عيْثه هو وأصحابه في

تلك الناحية تركنا ذكرها، إذ لم تكن عظيمة؛ وإن كان كلّ أموره كانت عظيمة.

ثم كان من عظيم ما كان له من الوقائع مع أصحاب السلطان وقعة كانت مع رجل من الأتراك يكنى أبا هلال في سوق الرّيان. ذكر عن قائد من قوّاده يقال له ريحان، أن هذا التركيّ وافاهم في هذا السوق، ومعه زهاء أربعة آلاف رجل أو يزيدون، وفي مقدّمته قوم عليهم ثياب مُشهرَة وأعلام وطبول، وأن السودان حملوا عليه حملة صادقة، وأنّ بعض السودان ألقى صاحب علم القوم فضربه بخشبتين كانتا معه في يده فصرعه. وانهزم القوم، وتلاحق السودان، فقتلوا من أصحاب أبي هلال زُهاء ألف وخمسمائة. وإن بعضهم اتبع أبا هلال ففاته بنفسه على دابة عُرْي، وحال بينهم وبين من أفلت ظلمة الليل؛ وأنه لما أصبَحَ أمر بتتبعهم، ففعلوا ذلك فجاؤوا بأسرى ورؤوس، فقتل الأسرى كلهم.

ثُمَّ كانت له وقعة أخرى بعد هذه الوقعة مع أصحاب السلطان، هزمهم فيها، وظفر بهم. وكان مبتدأ الأمر في ذلك ـ فيما ذكر عن قائد لصاحب الزنج من السودان يقال له ريحان ـ أنه قال: لما كان في بعض الليل من ليالي هذه السنة التي ذكرنا أنه ظهر فيها، سمع نباح كلب في أبواب تعرف بعمرو بن مسعدة، فأمر بتعرّف الموضع الذي يأتي منه النّباح. فوجّه لذلك رجلاً من أصحابه، ثم رجع فأخبره أنه لم ير شيئاً؛ وعاد النباح. قال ريحان: فدعاني، فقال لي: صر إلى موضع هذا الكلب النابح؛ فإنه إنما نَبَح شخصاً يراه. فصرتُ فإذا أنا بالكلب على المسنّاة، ولم أر شيئاً، فأشرفتُ فإذا أنا برجل قاعد في درجات هنالك،

فكلّمتُه. فلما سمعني أفصحُ بالعربيّة كلّمني، فقال: أنا سَيْران بن عفو الله، أتيتُ صاحبكم بكتب من شيعته بالبصْرة، وكان سيْران هذا أحدَ مَنْ صحب صاحب الزّنج أيام مُقامه بالبصرة، فأخذته فأتيته به، فقرأ الكتب التي كانت معه، وسأله عن الزّينبيّ وعن عدّة مَنْ كان معه، فقال: إن الزّينبيّ قد أعدّ لك الخَوَل والمطوّعة والبلالية والسعدية؛ وهم خلق كثير، وهو على لقائك بهم ببَيَان. فقال له: اخفِض صوتَك، لئلا يرتاع الغلمان بخبرك. وسأله عن الذي يقود هذا الجيش، فقال: قد نُدِب لذلك المعروف بأبي منصور؛ وهو أحد موالي الهاشميّين، قال له: أفرأيتَ جمعَهم؟ قال: نعم؛ وقد أعدُّوا الشُّرط لكتف من ظفروا به من السودان. فأمره بالانصراف إلى الموضع الذي يكون فيه مُقامه، فانصرف سيران إلى عليّ بن أبان ومحمد بن سلم ويحيى بن محمد، فجعل يحدّثهم إلى أن أسْفَر الصبح. ثم سار صاحب الزَّنج إلى أن أشرف عليهم. فلما انتهى إلى مؤخَّر تُرْسَى وبرسونا وسندادان بَيَان، عرض له قوم يريدون قتاله، فأمر عليّ بن أبان فأتاهم فهزمهم، وكان معهم مائة أسود، فظفر بهم. قال ريحان: فسمعته يقول لأصحابه: «من أمارات تمام أمركم ما تروْن من إتيان هؤلاء القوم بعبيدهم فيسلِّمونهم إليكم فيزيد الله في عددكم». ثم سار حتى صار إلى بَيَان.

قال ريحان: فوجّهني وجماعة من أصحابه إلى الحجر لطلب الكاروان وعسكرهم في طرف النخل في الجانب الغربيّ من بيان، فوجّهنا إلى الموضع الذي أمرنا بالمصير إليه، فألفينا هناك ألفاً وتسعمائة سفينة، ومعها قوم من المطوّعة قد احتبسوها. فلما رأوْنا خلَّوْا عن السفن، وعبروا سُلبان عَرايا ماضِين نحو جُوبك. وسقْنا السفن حتى وافيناه بها. فلما أتيناه بها أمر فبُسِط له على نشز من

الأرض وقعد. وكان في السفن قوم حجّاج أرادوا سلوك طريق البصرة، فناظرهم بقيّة يومه إلى وقت غروب الشمس؛ فجعلوا يصدقونه في جميع قوله، وقالوا: لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك. فردّهم إلى سُفُنهم. فلما أصبحوا أخرجهم، فأحلفهم ألاّ يخبروا أحداً بعدّة أصحابه، وأن يقللوا أمره عند من سألهم عنه. وعرضوا عليه بساطاً كان معهم، فأبدله ببساط كان معه، واستحلفهم أنه لا مال للسلطان معهم ولا تجارة، فقالوا: معنا رجل من أصحاب السلطان. فأمر بإحضاره، فأحضر؛ فحلف الرَّجل أنه ليس من أصحاب السلطان، وأنه رجل معه نُقْل أراد به البصرة. فأحضر صاحب السفينة التي وُجد فيها، فحلف له أنه إنما اتّجر فيه فحمله. فخلى سبيله، وأطلق الحجاج فذهبوا.

وشرع أهل سليمانان على بيان بإزائه في شرقيّ النهر، فكلمهم أصحابُه. وكان فيهم حسين الصيدنانيّ الذي كان صحبه بالبصرة ـ وهو أحد الأربعة الذين ظهروا بمسجد عبّاد، فلحق به يومئذ ـ فقال له: لِمَ أبطأتَ عني إلى هذه الغاية؟ قال: كنتُ مختفياً، فلما خرج هذا الجيش دخلتُ في سواده. قال: فأخبِرْني عن هذا الجيش، ما هم؟ وما عدّة أصحابه؟ قال: خرج من الخَوَل بحضرتي ألف ومائتا مقاتل، ومن أصحاب الزينبيّ ألف، ومن البلاليةِ والسعديّة زهاء ألفين، والفرسان مائتا فارس. ولما صاروا بالأُبُلّة وقع بينهم وبين أهلها اختلاف، حتى تلاعنوا، وشتم الخَوَلُ محمد بن أبي عون؛ وخلفتُهم بشاطىء عثمان وأحسبهم مصبّحيك في غد. قال: فكيف يريدون أن يفعلوا إذا أتونا؟ قال: هم على إدخال الخيل من سنداذان بَيَان، ويأتيك رجّالتهم من جنبتي النهر.

فلما أصبح وجّه طليعةً ليعرف الخبر ـ واختاره شيخاً ضعيفاً زمِناً[١] لئلا يُعرض له ـ فلم يرجع إليه طليعتُه. فلمّا أبطأ عنه وجّه فتحاً الحجام ومعه ثلاثمائة رجل، ووجّه يحيى بن محمد إلى سنداذان، وأمره أن يخرج في سوق بَيَان. فجاءه فَتْح فأخبره أن القوم مقبلون إليه في جمع كثير، وأنهم قد أخذُوا جنبتي النَّهر؛ فسأل عن المدّ، فقيل: لم يأتِ بعدُ. فقال: لم تدخل خيلُهم بعد! وأمر محمد بن سَلْم وعليّ بن أبان أن يقعدا لهم في النخل، وقعد هو على جَبَل مشرف عليهم. فلم يلبث أن طلعت الأعلام والرّجال حتى صاروا إلى الأرض المعروفة بأبي العلاء البلخيّ؛ وهي عطفة على دُبَيران. فأمر الزّنج فكبَّروا ثم حملوا عليهم فوافوا بهم دبيران. ثم حمل الخَوَل يقدُمهم أبو العباس بن أيمن المعروف بأبي الكباش وبشير القيسيّ، فتراجع الزَّنج حتى بلغوا الجبل الذي هو عليه، ثم رجعوا عليهم، فثبتوا لهم. وحمل أبو الكباش على فَتْح الحجام فقتله، وأدرك غلاماً يقال له دينار من السودان فضربَه ضربات، ثم حمل السودان عليهم، فوافَوْا بهم شاطىء بيان، وأخذتهم السيوف.

قال ريحان: فعهدِي بمحمد بن سلم وقد ضرب أبا الكباش، فألقى نفسه في الطين، فلحقه بعضُ الزّنج، فاحتزّ رأسه. وأما عليّ بن أبان، فإنّه كان ينتحل قتل أبي الكباش وبشير القيسيّ، وكان يتحدّث عن ذلك اليوم فيقول: كان أوّل مَنْ لقيني بشير القيسيّ، فضربني وضربتُه، فوقعتْ ضربته في تُرسي، ووقعت ضربتي في صدره وبطنه؛ فانتظمتْ جوانح صدره، وفريتُ بطنَه، وسقط، فأتيته فاحتززتُ رأسه. ولقيني أبو

(١) الزَّمِن: مَنْ كانت به عاهة.

الكَباش، فشُغِل بي؛ وأتاه بعضُ السودان من ورائه فضربه بعصاً كانت في يده على ساقيه، فكسرهما فسقط. فأتيتُه ولا امتناع به، فقتلته واحتززتُ رأسه، فأتيت بالرأسين صاحب الزَّنج.

قال محمد بن الحسن بن سهل: سمعت صاحبَ الزّنج يخبر أن عليًّا أتاه برأس أبي الكباش ورأس بشير القيسيّ ـ قال: ولا أعرفهما ـ فقال: كان هذان يقدمان القوم. فقتلهما فانهزم أصحابهما لمّا رأوا مصرعهما.

قال ريحان، فيما ذكر عنه: وانهزم الناس فذهبوا كلّ مذهب، واتّبعهم السودان إلى نهر بَيّان، وقد جَزَر النهر؛ فلما وافوه انغمسوا في الوحْل، فقتِل أكثرهم. قال: وجعل السودان يمرّون بصاحِبِهم دينار الأسود الذي كان أبو الكباش ضربه، وهو جريح ملقى، فيحسبونه من الخَوَل فيضربونه بالمناجل حتى أثخِن. ومرّ به من عرفه، فحمل إلى صاحب الزّنج، فأمر بمداواة كلومِه.

قال ريحان: فلما صار القوم إلى فُوّهة نهر بيان، وغرق مَنْ غرق، وأخذت السفن التي كانت فيها الدوابّ، إذا ملوّح يلوّح من سفينة. فأتيناه فقال: ادخلوا النهر المعروف بشريكان، فإنّ لهم كميناً هناك. فدخل يحيى بن محمد وعليّ بن أبان. فأخذ يحيى في غربيّ النهر، وسلك عليّ بن أبان في شرقيّه، فإذا كمين في زهاء ألف من المغاربة، ومعهم حسين الصَّيْدَناني أسيراً. قال: فلمّا رأوْنا شدّوا على الحسين، فقطّعوه قِطعاً. ثم أقبلوا إلينا، ومدّوا رماحَهم، فقاتلوا إلى صلاة الظهر. ثم أكبّ السودان عليهم فقتلوهم أجمعين، وحَوَوْا سلاحهم ورجع السودان إلى عسكرهم، فوجدوا صاحبهم قاعداً على

شاطىء بيان، وقد أتِيَ بنيّف وثلاثين عَلَماً وزهاء ألف رأس، فيها رؤوس أنجاد الخَوَل وأبطالهم؛ ولم يلبث أن أتوْه بزهير يومئذ.

قال ريحان: فلم أعرفه. فأتى يحيى وهو بين يديه، فعرفه فقال لي: هذا زهير الخَوَل؛ فما استبقاؤك إياه! فأمر به فضُربت عنقه. وأقام صاحب الزنج يومه وليلته. فلما أصبح وجّه طليعة إلى شاطىء دِجْلة، فأتاه طليعته، فأعلمه أن بدجلة شَذَاتَين[١] لاصقتين بالجزيرة، والجزيرة يومئذ على فُوّهة القَنْدَل، فردّ الطليعة بعد العصر إلى دِجلة ليعرف الخبر. فلمّا كان وقت المغرب أتاه المعروف بأبي العباس خال ابنه الأكبر، ومعه رجل من الجند يقال له عمران، وهو زَوْج أم أبي العباس هذا، فصفّ لهما أصحابه، ودعا بهما فأدّى إليه عمران رسالة ابن أبي عون، وسأله أن يعبر بياناً ليفارق عمله، وأعلمه أنه قد نحّى الشذَا عن طريقه. فأمر بأخذ السفن التي تخترق بَيَاناً من جُبَّى. فصار أصحابه إلى الحجر، فوجدوا في سُلبان مائتي سفينة، فيها أعدال دقيق، فأخِذَتْ. ووُجد فيها أكسية وبرّكانات، وفيها عشرة من الزَّنْج. وأمر الناس بركوب السفن. فلما جاء المدّ ـ وذلك في وقت المغرب ـ عبر وعبر أصحابه حيال فُوّهة القندل. واشتدّت الريح، فانقطع عنه من أصحابه المكنّى بأبي دلف، وكان معه السفن التي فيها الدقيق، فلمّا أصبح وافاه أبو دلف فأخبره أن الرّيح حملته إلى حسك عِمْران، وأن أهل القرية همُّوا به، وبما كان معه، فدفعهم عن ذلك. وأتاه من السودان خمسون رجلاً، فسار عند موافاة السفن والسودان إياه حتى دخل القَنْدل. فصار

(١) الشَّذا: ج شَذَوات، وهي ضربٌ من السفن.

إلى قرية للمعَلّى بن أيوب، فنزلها، وانبثّ أصحابه إلى دُبّا، فوجدوا هناك ثلاثمائة رجل من الزَّنْج، فأتوْه بهم. ووجدوا وكيلاً للمعلّى بن أيوب، فطالبه بمال، فقال: أعبر إلى برسان، فآتيكَ بالمال؛ فأطلقه، فذهب ولم يَعُد إليه. فلما أبطأ عليه أمر بانتهاب القرية فانتُهبت.

القائد ينتهب مع النهّابين:

قال ريحان ـ فيما ذكر عنه ـ: فلقد رأيتُ صاحب الزَّنج يومئذ ينتهب معنا. ولقد وقعتْ يدي ويده على جبّة صوف مُضرّبة؛ فصار بعضها في يده وبعضها في يدي، وجعل يجاذبني عليها حتى تركتُها له. ثم سار حتى صار إلى مسلحة الزينبيّ على شاطىء القَنْدَل في غربيّ النهر؛ فثبت له القوم الذين كانوا في المسلحة، وهم يروْن أنهم يطيقونه، فعجزوا عنه فقتِلوا أجمعين؛ وكانوا زُهاء مائتين. وبات ليلته في القَصْر. ثم غدا في وقت المَدّ قاصداً إلى سَبَخة القَنْدل، واكتنف أصحابه حافتي النهر، حتى وافوا مُنْذُران؛ فدخل أصحابُه القرية فانتهبوها. ووجدوا فيها جمعاً من الزَّنج، فأتوه بهم، ففرّقهم على قوّاده. ثم صار إلى مؤخّر القَنْدل، فأدخل السفن النهر المعروف بالحَسَنيّ النافذ إلى النهر المعروف بالصالحيّ ـ وهو نهر يؤدي إلى دُبَّا ـ فأقام بسبَخةٍ هناك.

البلالية يكيدون لصاحب الزنج:

فذكر عن بعض أصحابه أنه قال: هاهنا قوّد القوّاد؛ وأنكر أن يكون قوّد قبل ذلك. وتفرّق أصحابُه في الأنهار حتى صاروا إلى مربّعةِ دُبَّا، فوجدوا رجلاً من التمّارين من أهل كلاّء البصرة، يقال له محمد بن جعفر المُريديّ، فأتوه به. فسلّم عليه وعرفه، وسأله عن البلاليّة، فقال:

إنما أتيتُك برسالتهم، فلقيني السودان، فأتوْك بي، وهم يسألونك شروطاً إذا أعطيتَهم إياها سمعوا لك وأطاعوا. فأعطاه ما سأل لهم، وضمن القيام له بأمرهم حتى يصيروا في حيّزه. ثم خلّى سبيله، ووجّه معه مَنْ صيّره إلى الفيّاض، ورجع عنه. فأقام أربعة أيام ينتظره، فلم يأته. فسار في اليوم الخامس وقد سرّح السفن التي كانت معه في النهر، وأخذ هو على الظهر فيما بين نهر يقال له الدّاورْدانيّ والنهر المعروف بالحسَنيّ والنهر المعروف بالصالحي. فلم يتعدّ حتى رأى خيلاً مقبلة من نحو نهر الأمير زهاء ستمائة فارس. فأسرع أصحابُه إلى النهر الدَّاورْدانيّ، وكان الخيل في غربيّه، فكلَّموهم طويلاً، وإذا هم قوم من الأعراب فيهم عنترة بن حجنا وثمال. فوجّه إليهم محمد بن سلم، فكلّم ثمالاً وعنترة، وسألا عن صاحب الزَّنج، فقال: ها هو ذا، فقالا: نريد كلامَه. فأتاه فأخبره بقولهما، وقال له: لو كلّمتَهما! فزجره، وقال: إنَّ هذا مكيدة. وأمر السودان بقتالهم، فعَبَرُوا النهر، فعدلت الخيل عن السودان. ورفعوا علماً أسود، وظهر سليمان أخو الزينبيّ ـ وكان معهم ـ ورجع أصحاب صاحب الزَّنْج، وانصرف القوم. فقال لمحمد بن سلم: ألم أعلمك أنهم إنما أرادوا كيدَنا!

وسار، حتى صار إلى دُبّا وانبثّ أصحابه في النخل، فجاؤوا بالغنم والبقر، فجعلوا يذبحون ويأكلون. وأقام ليلته هناك. فلمّا أصبح سار حتى دخل الأرخنج المعروف بالمطّهريّ ـ وهو أرخنج ينفذ إلى نهر الأمير المقابل للفيّاض من جانبيه ـ فوجدوا هنا شهاب بن العلاء العنبريّ، ومعه قوم من الخَول، فأوقعوا به. وأفلت شهاب في نُفَير ممن كان معه، وقُتِل من أصحابه جماعة. ولحق شهاب بالمنصف من

الفيّاض. ووجد أصحاب صاحب الزّنج ستمائة غلام من غلمان الشورجيّين هناك، فأخذوهم، وقتلوا وكلاءهم، وأتوْه بهم. ومضى حتى انتهى إلى قصر يعرف بالجوهريّ على السَّبَخة المعروفة بالبرامكة، فأقام فيه ليلتَه تلك. ثم سار حيث أصبح حتى وافى السَّبَخة التي تُشَرع على النهر المعروف بالدينارِيّ، ومؤخّرها يُفضي إلى النهر المعروف بالحدث، فأقام بها وجمع أصحابه، وأمرهم ألاّ يعجلوا بالذهاب إلى البصرة حتى يأمرهم. وتفرّق أصحابُه في انتهاب كلّ ما وجدوا، وبات هناك ليلته تلك.

ذكر الخبر عن مسير صاحب الزنج بزنوجه وجيوشه إلى البصرة

ذكر أنه سار من السَّبخَة التي تشرع على النهر المعروف بالدينارِيّ، ومؤخّرها يفضِي إلى النهر المعروف بالحدث، بعدما جمع بها أصحابه يريد البصرة؛ حتى إذا قابل النهر المعروف بالرياحيّ أتاه قوم من السودان، فأعلموا أنهم رأوا في الرياحيّ بارقةً. فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى تنادى الزّنج السلاح، فأمر عليّ بن أبان بالعُبُور إليهم، وكان القوم في شرقيّ النهر المعروف بالدينارِيّ، فعبَر في زهاء ثلاثة آلاف. وحبّش[1] صاحب الزَّنْج عنده أصحابه، وقال لعليّ: إن احتجتَ إلى مزيد في الرّجال فاستمدّني. فلما مضى، صاح الزّنج: السلاح! لحركة رأوْها من غير الجهة التي صار إليها عليّ. فسأل عن الخبر، فأخبر أنه قد أتاه قوم من ناحية القرية الشارعة على نهر حرْب المعروفة بالجعفريّة، فوجّه محمد بن سلم إلى تلك الناحية.

---

(١) حبَّش: جمع واستبقى.

هزائم تلحق بصاحب الزنج:

ذكر عن صاحبه المعروف بريحان، أنه قال: كنتُ فيمن توجّه مع محمد، وذلك في وقت صلاة الظهر، فوافينا القومَ بالجعفريّة، فنَشَب القتال بيننا وبينهم إلى آخر وقت العصر. ثم حمل السودان عليهم حملةً صادقة، فولّوْا منهزِمين وقُتِل من الجند والأعراب وأهل البصرة البلالية والسعدية خمسمائة رجل. وكان فتح المعروف بغلام أبي شيث معهم يومئذ، فولّى هارباً، فاتّبعه فيروز الكبير. فلمّا رآه جادًّا في طلبه رماه ببيضة كانت على رأسه، فلم يرجع عنه؛ فرماه بترسه فلم يرجع عنه؛ فرماه بتنّور حديد كان عليه فلم يرجع عنه؛ ووافى به نهر حرْب، فألقى فتحٌ نفسه فيه، فأفلت. ورجع فيروز، ومعه ما كان فتح ألقاه من سلاحه، حتى أتى به صاحب الزَّنج.

قال محمد بن الحسن: قال شِبْل: حُكِي لنا أنّ فتحاً طَفَر يومئذ نهرَ حرب. قال: فحدّثت هذا الحديث الفضل بن عديّ الدارميَّ، فقال: أنا يومئذ مع السعديّة، ولم يكن على فتح تنُّور حديدٍ، وما كان عليه إلاّ صُدْرة حرير صفراء؛ ولقد قاتل يومئذ حتى لم يبق أحد يقاتل، وأتى نهر حرب، فوثبه حتى صار إلى الجانب الغربيّ منه. ولم يُعرف ما حكى ريحان من خبر فيروز.

قال: وقال ريحان: لقيتُ فيروز قبل انتهائه إلى صاحب الزَّنج، فاقتصّ عليّ قصّته وقصّة فَتْح، وأراني السلاح. وأقبل الزّنج على أخذ الأسلاب، وأخذتُ على النهر المعروف بالدّيناريّ؛ فإذا أنا برجل تحت نخلة عليه قلنسوة خزّ، وخُفّ أحمر ودرّاعة، فأخذتُه فأراني كتباً معه، وقال لي: هذه كتبٌ لقوم من أهل البصرة، وجّهوني بها. فألقيت في

عنقه عمامة، وقدته إليه، وأعلمته خبره، فسأله عن اسمه فقال: أنا محمد بن عبد الله، وأكنَى بأبي الليث، من أهل أصبهان؛ وإنما أتيتُك راغباً في صحبتك؛ فقبِله. ولم يلبث أن سمع تكبيراً؛ فإذا عليّ بن أبان قد وافاه ومعه رأس البلاليّ المعروف بأبي الليث القواريريّ.

قال: وقال شِبْل: الذي قتل أبا الليث القواريريّ وصيفٌ المعروف بالزّهريّ وهو من مذكوري البلاليّة، ورأسٌ المعروف بعبْدان الكسبيّ، وكان له في البلاليّة صوت في رؤوس جماعة منهم. فسأله عن الخبر فأخبره أنه لم يكن فيمن قاتله أشدّ قتالاً من هذين ـ يعني أبا الليث وعبدان ـ وأنه هزمهم حتى ألقاهم في نهر نافذ، وكانت معهم شذاة فغرّقها. ثم جاءه محمد بن سلْم ومعه رجل من البلالية أسيراً، أسره شِبْل يقال له محمد الأزرق القواريريّ، ومعه رؤوس كثيرة؛ فدعا الأسير فسأله عن أصحاب هذين الجيشين، فقال له: أما الذين كانوا في الرياحيّ فإنّ قائدهم كان أبا منصور الزّينبيّ. وأما الذين كانوا مما يلي نهر حرب، فإن قائدهم كان سليمان أخا الزينبي من ورائهم مُصْحراً. فسأله عن عددهم فقال له: لا أحصيهم، إلاّ أني أعلم أنهم كثير عددهم. فأطلق محمد القواريريّ، وضمه إلى شِبْل. وسار حتى وافى سَبَخة الجعفرية، فأقام ليلتَه بين القتلى. فلما أصبح جمع أصحابه فحذَّرهم أن يدخل أحد منهم البصرة. وسار فتسرّع منهم أنكلويه وزُريق وأبو الخَنْجر ـ ولم يكن قُوِّد يومئذ ـ وسليم ووصيف الكوفيّ، فوافَوا النهر المعروف بالشاذاني. وأتاهم أهل البصرة، وكَثروا عليهم. وانتهى الخبر إليه، فوجّه محمد بن سلْم وعليّ بن أبان ومشرقاً غلام يحيى في خلق كثير، وجاء هو يسايرهم، ومعه السفن التي فيها الدوابّ المحمولة ونساء الغلمان حتى أقام بقنطرة نهر كثير.

قال ريحان: فأتيته ـ وقد رُميت بحجر، فأصاب ساقي ـ فسألني عن الخبر فأخبرته أنّ الحرب قائمة. فأمرني بالرّجوع، وأقبل معي حتى أشرف على نهر السيابجة. ثم قال لي: امض إلى أصحابنا، فقل لهم يستأخروا عنهم. فقلت له: ابعد عن هذا الموضع فإني لست آمنُ عليك الخَوَل! فتنحّى، ومضيت فأخبرت القوّاد بما أمر به، فتراجعوا. وأكبّ أهل البصرة عليهم، وكانت هزيمة، وذلك عند العصر. ووقع الناس في النهرين: نهر كثير ونهر شَيْطان. فجعل يهتف بهم ويردّهم فلا يرجعون. وغرق جماعة من أصحابه في نهر كثير، وقتِل منهم جماعة على شطّ النهر وفي الشاذانيّ. فكان ممن غرق يومئذ من قوّاده أبو الجون ومبارك البحرانيّ وعطاء البربريّ وسلام الشاميّ. ولحقه غلام أبي شيث وحارث القَيْسيّ وسُحيل، فَعَلَوا القنطرة، فرجع إليهم وانهزموا عنه حتى صاروا إلى الأرض؛ وهو يومئذ في دُرّاعة وعمامة ونعل وسيف، وتُرسه في يده. ونزل عن القنطرة وصعدها البصريون يطلبونه، فرجع فقتل منهم بيده رجلاً على خمس مراق من القنطرة، وجعل يهتف بأصحابه ويعرّفهم مكانه؛ ولم يكن بقي معه في ذلك الموضع من أصحابه إلاّ أبو الشّوْك ومصلح رفيق غلام يحيى.

قال ريحان: فكنت معه، فرجع، حتى صار إلى المعلّى، فنزل في غربيّ نهر شيطان.

قال محمد بن الحسن: فسمعتُ صاحب الزَّنج يحدّث، قال: لقد رأيتُني في بعض نهار هذا اليوم، وقد ضللت عن أصحابي، وضلّوا عني، فلم يبق معي إلا مصلح ورفيق، وفي رِجْلي نعل سنديّ، وعليّ عمامة قد انحلّ كُور منها، فأنا أسحبها من ورائي، ويعجلني المشيُ عن

رفعها، ومعي سيفي وتُرسي. وأسرع مصلح ورفيق في المشي وقصّرتُ، فغابا عني. ورأيت في أثري رجلين من أهل البصرة، في يد أحدهما سيف، وفي يد الآخر حجارة. فلما رأياني عَرَفاني، فجدّا في طلبي، فرجعت إليهما، فانصرفا عني. ومضيتُ حتى خرجت إلى الموضع الذي فيه مجمع أصحابي؛ وكانوا قد تحيَّروا لفقدي. فلما رأوْني سكنوا إلى رؤيتي.

قال ريحان: فرجع بأصحابه إلى موضع يعرف بالمعلّى في غربيّ نهر شيطان، فنزل به. وسأل عن الرجال، فإذا قد هرب كثير منهم. ونظر فإذا هو من جميع أصحابه في مقدار خمسمائة رجل؛ فأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته، فلم يرجع إليه أحد؛ وبات ليلته. فلما كان في بعض الليل جاء الملقب بجُرْبان، وقد كان هرب فيمن هرب، ومعه ثلاثون غلاماً، فسأله أين كانت غيبته، فقال: ذهبت إلى الزّوارقة طليعةً.

قال ريحان: ووجّهني لأتعرّف له مَنْ في قنطرة نهر حَرْب، فلم أجد هناك أحداً. وقد كان أهل البصرة انتهبُوا السفن التي كانت معه، وأخذوا الدواب التي كانت فيها في هذا اليوم، وظفروا بمتاع من متاعه، وكتب من كتبه، وإصطرلابات كانت معه. فلما أصبح من غد هذا اليوم نظر في عدة أصحابه، فإذا هم ألف رجل قد كانوا ثابوا إليه في ليلتهم تلك.

مقتل محمد بن سلم ـ أحد قادة الزنج:

قال ريحان: فكان فيمن هرب شبل. وكان ناصح الرّمليّ ينكر

هرب شبل. قال ريحان: فرجع شبل من غد، ومعه عشرة غلمان، فلامه وعنّفه. وسأل عن غلام كان يقال له نادر يكنى بأبي نعجة، وعن عنبر البربريّ، فأُخبر أنهما هربا فيمن هرب. فأقام في موضعه، وأمر محمد بن سلم أن يصير إلى قنطرة نهر كَثير، فيعظ الناس ويُعلمهم ما الذي دعاه إلى الخروج. فصار محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد، فوقف سليمان ويحيى، وعبر محمد بن سلم حتى توسَّط أهل البصرة، وجعل يكلِّمهم؛ ورأوْا منه غِرّة فانطووا عليه، فقتلوه.

قال الفضل بن عديّ: عَبَر محمد بن سلم إلى أهل البصرة ليعظهم وهم مجتمعون في أرض تعرف بالفَضْل بن ميمون؛ فكان أوّل من بدر إليه وضربه بالسيف فَتحٌ غلام أبي شيث. وأتاه ابن التّومنيّ السعديّ، فاحتزّ رأسه. فرجع سليمان ويحيى إليه[1]، فأخبراه الخبر، فأمرهما بطيّ ذلك عن الناس حتى يكون هو الذي يقوله لهم. فلمّا صلى العصر نعى محمد بن سلم لأصحابه، وعرف خبره من لم يكن عرفه، فقال لهم: إنكم تقتلون به في غد عشرة آلاف من أهل البصرة. ووجّه زُريقاً وغلاماً له يقال له سقلبتويا، وأمرهما بمنع الناس من العبور؛ وذلك في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين.

يوم الشّذا: الانتقام من أهل البصرة

قال محمد بن الحسن: فحدّثني محمد بن سمعان الكاتب، قال:

---

(١) أي إلى علي بن محمد، قائد الزنج.

لما كان في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة جمع له أهل البصرة، وحشدوا له لمَا رأوا من ظهورهم عليه في يوم الأحد. وانتُدب لذلك رجل من أهل البصرة يعرف بحمّاد الساجيّ ـ وكان من غُزاة البحر ـ في الشَّذا، وله علم بركوبها والحرب فيها؛ فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومَنْ خفّ معه من حزبي البلالية والسعدية، ومَنْ أحبّ النظر من غير هذه الأصناف من الهاشميّين والقرشيين وسائر أصناف الناس؛ فشحن ثلاثة مراكب من الشّذا من الرماة. وجعلوا يزدحمون في الشذا حرصاً على حضور ذلك المشهد، ومضى جمهور الناس رجّالة؛ منهم من معه السلاح، ومنهم نظّارة لا سلاح معهم. فدخلت الشَّذا والسفن النهرَ المعروف بأم حبيب بعد زوال الشمس من ذلك اليوم في المدّ. ومرّت الرّجالة، والنظارة على شاطىء النهر قد سدّوا ما ينفذ فيه البصر تكاثفاً وكثرة. وكان صاحب الزنج مقيماً بموضعه من النهر المعروف بشيطان.

قال محمد بن الحسن: فأخبرنا صاحبُ الزّنج أنه لما أحسّ بمصير الجمع إليه، وأتته طلائعه بذلك، وجَّه زُريقاً وأبا الليث الأصبهانيّ في جماعة معهما في الجانب الشرقيّ من النهر كميناً، وشِبْلاً وحسيناً الحماميّ في جماعة من أصحابه في الجانب الغربيّ بمثل ذلك، وأمر عليّ بن أبان ومَنْ بقي معه من جمْعه بتلقّي القوم، وأن يجثو لهم فيمن معه، ويستتروا بتراسهم فلا يثور إليهم منهم ثائر حتى يوافيَهم القوم ويُوموا إليهم بأسيافهم؛ فإذا فَعلوا ذلك ثاروا إليهم. وتقدّم إلى الكمينين: إذا جاوزهما الجمع وأحسَّا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجا من جنبتي النهر، ويصيحا بالناس. وأمر نساء الزنج بجمع الآجرّ وإمداد الرجال به.

قال: وكان يقول لأصحابه بعد ذلك: لمّا أقبل إليّ الجمع يومئذ وعاينته رأيت أمراً هائلاً راعني، وملأ صدري رهبة وجَزعاً، وفزعت إلى الدعاء، وليس معي من أصحابي إلاَّ نفر يسير ـ منهم مصلح ـ وليس منا أحد إلاَّ وقد خُيِّل له مصرعه في ذلك. فجعل مصلح يعجّبني من كثرة ذلك الجمع، وجعلت أومي إليه أن يمسك. فلما قرب القوم مني قلت: اللهم إن هذه ساعة العسرة، فأعنّي! فرأيت طيوراً بيضاً تلقّتْ ذلك الجمع. فلم أستتمّ كلامي حتى بصرت بسُميريّة قد انقلبتْ بمن فيها، فغرقوا ثم تلتها الشّذَا. وثار أصحابي إلى القوم الذين قصدوا لهم فصاحوا بهم. وخرج الكمينان عن جنبتي النهر من وراء السفن والرّجّالة، وخبطوا مَنْ ولّى من الرّجّالة والنظّارة الذين كانوا على شاطىء النهر المعروف، فغرقت طائفة، وقتلت طائفة، وهربت طائفة نحو الشطّ طمعاً في النجاة، فأدركها السيف؛ فمن ثبت قُتِل، ومن رجع إلى الماء غرق. ولجأ من كان على شاطىء النهر من الرّجّالة إلى النهر فغرقوا وقتِلوا، حتى أبير أكثر ذلك الجمع، ولم ينج منهم إلاَّ الشريد. وكثر المفقودون بالبصرة. وعلا العويل من نسائهم. وهذا يوم الشذا الذي ذكره الناس، وأعظموا ما كان فيه من القتل. وكان فيمن قتل من بني هاشم جماعة من ولد جعفر بن سليمان وأربعون رجلاً من الرّماة المشهورين، في خلق كثير لا يحصى عددهم. وانصرف الخبيث وجُمعت له الرؤوس، فذهب إليه جماعة من أولياء القتلى، فعرضها عليهم، فأخذوا ما عرفوا منها، وعبّأ ما بقي عنده من الرؤوس التي لم يأت لها طالب في جريبيّة ملأها منها، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب في الجزر، وأطلقها. فوافت البصرة، فوقفت في مشرعة تعرف بمشرعة القيّار؛ فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس، فيأخذ رأسَ كل

رجل أولياؤه. وقويَ عدوّ الله بعد هذا اليوم، وتمكن الرّعب في قلوب أهل البصرة منه، وأمسكوا عن حربه. وكتِب إلى السلطان بخبر ما كان منه، فوجّه جُعْلان التركيّ مدداً لأهل البصرة، وأمر أبا الأحوص الباهليّ بالمصير إلى الأبُلّة والياً، وأمدّه برجل من الأتراك يقال له جُريح.

فزعم الخبيث أنَّ أصحابه قالوا له بعقب هذه الوقعة: إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة، ولم يبق فيها إلاً ضعفاؤهم ومَنْ لا حراك به، فأذنْ لنا في تقحُّمها. فزَبَرَهم وهجَّن آراءهم، وقال لهم: لا بل ابعدوا عنها؛ فقد أرعبناهم وأخفناهم وأمنتم جانبهم؛ فالرأي الآن أن تَدَعوا حربَهم حتى يكونوا هم الذين يطلبونكم. ثم انصرف بأصحابه إلى سَبَخة بمآخير أنهارهم، إردبّ يقارب النهر المعروف بالحاجر. قال شبل: هي سبَخة أبي قرّة؛ وموقعها بين النهرين: نهر أبي قرّة والنهر المعروف بالحاجر.

فأقام هناك، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ. وهذه السبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات. وبثّ أصحابه يميناً وشمالاً يغير بهم على القرى، ويقتل بهم الأكرة وينهب أموالهم، ويسوق مواشيَهم.

فهذا ما كان من خبره وخبر الناس الذين قربوا من موضع مخرجه في هذه السنة.

أخبار سنة ٢٥٦هـ

الخليفة يرسل جُعلان التركي بجيش ليردّ صاحل الزنج عن البصرة

وفي هذه السنة وافَى جعلان البصرة لحرب صاحب الزنج.

ذكر الخبر عما كان من أمرهما هنالك:

ذكر أن جُعلان لما صار إلى البصرة زحف بعسكره منها، حتى صار بينه وبين عسكر صاحب الزّنْج فرسخ. فخندق على نفسه ومَنْ معه، فأقام ستة أشهر في خندقه. فوجّه الزينبيُّ وبُرَيه وبنو هاشم ومَنْ خفّ لحرب الخبيث من أهل البصرة في اليوم الذين تواعدهم جعلان للقائه. فلما التقوا لم يكن بينهم إلاّ الرميُ بالحجارة والنشاب. ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلاً لضيق الموضع بما فيه من النخل والدّغل عن مجال الخيل، وأصحابه أكثرهم فرسان.

فذكر عن محمد بن الحسن أنّ صاحب الزنج قال: لمّا طال مقام جُعلان في خندقه، رأيتُ أن أخفِيَ له من أصحابي جماعة يأخذون عليه مسالك الخندق، ويبيّتونه فيه. ففعل ذلك، وبيّته في خندقه، فقُتِل جماعة من رجاله، ورِيع الباقون رَوْعاً شديداً. فترك جعلان عسكره ذلك، وانصرف إلى البصرة. وقد كان الزينبيّ قبل بيات الخبيث جعلان جمع مقاتلة البلالية والسعدية، ثم وجّه لهم من ناحية نهر نافذ وناحية هَزَارْدر، فواقعوه من وجهين. ولقيهم الزَّنْج، فلم يثبتوا لهم. وقهرهم الزّنج، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، وانصرفوا مفلولين. وانحاز جعلان إلى البصرة. فأقام بها وظهر عجزه للسلطان.

فشل جعلان وشخوص سعيد الحاجب

وفيها تحوّل صاحب الزَّنْج من السَّبَخة التي كان ينزلها إلى الجانب الغربيّ من النهر المعروف بأبي الخصيب.

وفيها أخذ صاحب الزّنج ـ فيما ذكر ـ أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر، وكانت اجتمعت تريد البصرة. فلمّا انتهى إلى أصحابها

خبره وخبر مَنْ معه من الزنج وقطعهم السبيل، اجتمعت آراؤهم على أن يشدُّوا مراكبهم بعضها إلى بعض، حتى تصير كالجزيرة، يتصل أولها بآخرها، ثم يسيروا بها في دِجْلة. فاتّصل به خبرها، فندب إليها أصحابه، وحرّضهم عليها، وقال لهم: هذه الغنيمة الباردة.

قال أبو الحسن: فسمعت صاحب الزَّنْج يقول: «لمّا بلغني قربُ المراكب مني نهضت للصلاة، وأخذت في الدعاء والتضرّع، فخوطبتُ بأن قيل لي: قد أظلّك فتح عظيم! والتفتُّ فلم ألبث أن طلعت المراكب، فنهض أصحابي إليها في الجريبيّات؛ فلم يلبثوا أن حَوَوْها وقتلوا مقاتلتها، وسبَوْا ما فيها من الرّقيق، وغنموا منها أموالاً عظاماً لا تُحصَى ولا يعرف قدرها». فأنهب ذلك أصحابه ثلاثة أيام، ثم أمر بما بقي فحيزَ له.

دخول الزنج الأبُلّة

ولخمس بَقِين من رجب من هذه السنة، دخل الزَّنج الأبلّة، فقتلوا بها خلقاً كثيراً وأحرقوها.

ذكر الخبر عنها وعن سبب الوصول إليها:

ذكر أن صاحب الزّنج ـ لما تنحّى جعلان عن خندقه بشاطىء عثمان الذي كان فيه، وانحاز إلى البصرة ـ ألحَّ بالسرايا على أهل الأبُلَّة، فجعل يحاربهم من ناحية شاطىء عثمان بالرجالة، وبما خفّ له من السفن من ناحية دِجْلة، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر مَعْقِل.

فذكر عن صاحب الزّنج، أنه قال: «ميّلت بين عبّادان والأبُلّة، فملتُ إلى التوجّه إلى عَبَّادان، وندبتُ الرّجالة لذلك، فقيل لي: إن

أقرب العدو داراً، وأولاه بألاّ تتشاغل بغيره عنه أهلُ الأبُلّة. فرددت الجيش الذي كنت سيّرتُ نحو عبّادان إلى الأبُلّة. فلم يزالوا يحاربون أهل الأبُلّة إلى ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب سنة ست وخمسين ومائتين». فلما كان في هذه الليلة اقتحمها الزنج مما يلي دِجْلة ونهر الأبُلّة، فقتل بها أبو الأحوص وابنه، وأضرمت ناراً. وكانت مبنية بالساج محفوفةً بناءً متكاثفاً، فأسرعت فيها النار. ونشأت ريحٌ عاصف، فأطارت شرر ذلك الحريق حتى وصلت بشاطىء عثمان، فاحترقَ. وقُتِل بالأبُلّة خلقٌ كثير، وغرق خلق كثير، وحُويت الأسلاب، فكان ما احترق من الأمتعة أكثر مما انتُهب.

وقتِل في هذه الليلة عبدُ الله بن حميد الطوسي وابنٌ له، كانا في شَذاة بنهر مَعْقِل مع نُصير المعروف بأبي حمزة.

استسلام أهل عبادان

وفيها استسلم أهل عبّادان لصاحب الزّنج فسلّموا إليه حصنهم.

ذكر الخبر عن السبب الذي دعاهم إلى ذلك:

ذُكر أنّ السبب في ذلك أنّ الخبيث لما فعل أصحابُه من الزّنج بأهل الأبُلّة ما فعلوا، ضعفت قلوبهم، وخافوهم على أنفسهم وحُرمهم، فأعطوا بأيديهم، وسلموا إليه بلدهم. فدخلها أصحابه، فأخذوا مَنْ كان فيها من العبيد، وحملوا ما كان فيها من السلاح إليه، ففرّقه عليهم.

دخول الأهواز:

وفيها دخل أصحابه الأهواز وأسروا إبراهيم بن المدبر.

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

وكان الخبيث لما أوقع أصحابه بالأُبُلّة، وفعلوا بها ما فعلوا، واستسلم له أهلُ عَبّادان، فأخذ مماليكهم، فضمّهم إلى أصحابه من الزّنْج، وفرّق بينهم ما أخذ من السلاح الذي كان بها، طمع في الأهواز. فاستنهض أصحابه نحو جُبّى، فلم يثبتْ لهم أهلها، وهربوا منهم، فدخلوا فقتلوا وأحرقوا، ونهبوا وأخربوا ما وراءها، حتى وافوا الأهواز، وبها يومئذ سعيد بن يكسين والٍ وإليه حربُها، وإبراهيم بن محمد بن المدبر وإليه الخراج والضياع. فهرب الناس منهم أيضاً فلم يقاتلهم كثير أحد. وانحاز سعيد بن يكسين فيمَن كان معه من الجُند، وثبت إبراهيم بن المدبّر فيمن كان معه من غلمانه وخَدَمِه. فدخلوا المدينة، فاحتوَوْها، وأسروا إبراهيم بن محمد بعد أن ضُرب ضربةً على وجهه؛ وحوَوْا كلّ ما كان يملك من مال وأثاث ورقيق؛ وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين.

ولما كان من أمره ما كان بالأهواز بعد الذي كان منه بالأُبُلّة، رعب أهل البصرة رعباً شديداً، فانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرّقوا في بلدان شتّى، وكثرت الأراجيف من عوامّها.

- وفي ذي الحجة من هذه السنة وجّه صاحب الزَّنْج إلى شاهين بن بسْطام جيشاً عليهم يحيى بن محمد البحرانيّ لحربه؛ فلم يَنَلْ يحيى من شاهين ما أمّل وانصرف عنه.
- وفي رجب من هذه السنة وافى البصرة سعيد بن صالح المعروف بالحاجب من قِبَل السلطان لحرب صاحب الزَّنْج.

أخبار سنة ٢٥٧ هـ

مسير سعيد الحاجب لمحاربة صاحب الزّنج في منطقة البصرة

وفيها أمِر بُغراج باستحثاث سعيد الحاجب في المصير إلى دِجْلة والإناخة بإزاء عسكر صاحب الزَّنج، ففعل ذلك بُغراج ـ فيما قيل ـ ومضى سعيد الحاجب لما أُمِر به من ذلك في رجب من هذه السنة.

فذُكر أن سعيداً لما صار إلى نهر مَعْقل وجد هنالك جيشاً لصاحب الزَّنج بالنهر المعروف بالمُرْغاب ـ وهو أحَد الأنهار المعترضة في نهر معقِل ـ فأوقع بهم فهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم من النِّساء والنهب. وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات، منها جراحة في فيه. ثم سار سعيد حتى صار إلى الموضع المعروف بعسكر أبي جعفر المنصور، فأقام به ليلة. ثم صار حتى أناخ بموضع يقال له هَطَمَة من أرض الفرات، فأقام هنالك أياماً يعبِّي أصحابه، ويستعدّ للقاء صاحب الزَّنْج. وبلغه في أيام مقامه هنالك، أن جيشاً لصاحب الزَّنْج بالفُرات، فقصد لهم بجماعة من أصحابه، فهزمهم؛ وكان فيهم عمران زَوْج جدّة ابن صاحب الزّنج المعروف بأنكلاي، فاستأمن عمران هذا إلى بُغراج، وتفرّق ذلك الجمع. قال محمد بن الحسن: فلقد رأيتُ المرأة من سكان الفرات تجد الزنجيَّ مستتراً بتلك الأدغال، فتقبض عليه حتى تأتي به عسكر سعيد ما به منها امتناع. ثم قصد سعيد حرب الخبيث فعبر إلى غربيّ دجلة، فأوقع به وقعات في أيام متوالية، ثم انصرف سعيد إلى معسكره بهَطَمَة، فأقام به يحاربه باقي رجب وعامّة شعبان.

تخلّص إبراهيم بن محمد بن المدبّر من حبس الخبيث

وفيها تخلص إبراهيم بن محمد بن المدبر من حبس الخبيث. وكان سبب تخلصه منه ـ فيما ذكر ـ أنه كان محبوساً في غرفة في منزل يحيى بن محمد البحرانيّ، فضاق مكانه على البَحْرانيّ، فأنزله إلى بيت من أبيات داره، فحبسه فيه. وكان موكَّلاً به رجلان، ملاصقٌ مسكنهما المنزل الذي فيه إبراهيم. فبذل لهما، ورغّبهما، فسرَبَا له سرَباً إلى الموضع الذي فيه إبراهيم من ناحيتهما، فخرج هو وابن أخ له يعرف بأبي غالب ورجل من بني هاشم كان محبوساً معهما.

هزيمة سعيد الحاجب

وفيها أوقع أصحاب الخبيث بسعيد وأصحابه فقتلوه ومَنْ معه.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

ذُكر أن الخبيث وجّه إلى يحيى بن محمد البحرانيّ وهو مقيم بنهر مَعْقِل في جيش كثيف يأمره بالتوجّه بألف رجل من أصحابه، يرئّس عليهم سليمان بن جامع وأبا الليث، ويأمرهما بالقَصْد لعسكر سعيد ليلاً حتى يوقعا به في وقت طلوع الفجر، ففعل ذلك. فصارا إلى عسكر سعيد، فصادفا منهم غِرّةً وغفلة، فأوقعا بهم وقْعَةً، فقتلا منهم مقتلة عظيمة. وأحرَق الزَّنج يومئذ عسكر سعيد، فضعف سعيد ومَنْ معه، ودخل أمرَهم خللٌ للبيات الذي تهيّأ عليهم، ولاحتباس الأرزاق عنهم ـ وكانت سبّبت لهم من مال الأهواز، فأبطأ بها عليهم منصور بن جعفر الخياط؛ وكان إليه يومئذ حرب الأهواز، وله من ذلك يدٌ في الخراج.

ولما كان من أمر سعيد بن صالح ما كان، أمِر بالانصراف إلى باب السلطان وتسليم الجيش الذي معه وما إليه من العمل هنالك إلى

منصور بن جعفر. وذلك أنّ سعيداً ترك بعدما كان من بيات الزَّنْج أصحابه وإحراقهم عسكره، فلم يكن له حركة إلى أن صُرِف عمّا كان إليه من العمل هنالك.

هزيمة منصور بن جعفر الخياط

وفيها كانت وقعة بين منصور بن جعفر الخياط وبين صاحب الزنّج، قُتل فيها من أصحاب منصور جماعة كثيرة.

ذكر الخبر عن صفة هذه الوقعة:

ذُكر أن سعيداً الحاجب لمّا صُرف عن البصرة، أقام بُغْرَاج بها يحمِي أهلها، وجعل منصور يَجمع السفن التي تأتي بالمِيرة، ثم يُبذْرِقها[1] في الشَّذَا إلى البصرة، فضاق بالزنج الميرة. ثم عبّأ منصور أصحابه، وجمع إلى الشذا التي كانت معه الشَّذَا الجنّابيات والسفن، وقصد صاحبَ الزَّنج في عسكره، فصعد قصراً على دجلة، فأحرقه وما حوله، ودخل عسكر الخبيث من ذلك الوجه، ووافاه الزَّنج، وكمّنوا له كميناً، فقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة، وألجىء الباقون إلى الماء، فغرق منهم خلق كثير، وحمِل من الرؤوس يومئذٍ - فيما ذكر - زهاء خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن محمد البحرانيّ بنهر معقِل، وأمر بنصبها هنالك.

استيلاء الزنج على جُبّى

وفيها قتِل شاهين بن بسطام وهزِم إبراهيم بن سيما.

---

(١) بَذْرَق: خَفَر. والشَّذا: نوع من السفن.

ذكر الخبر عن سبب مقتل شاهين وانهزام إبراهيم:

ذُكر أن البحرانيّ كان كتب إلى الخبيث يُشير عليه بتوجيه جيش إلى الأهواز للمقام بها، ويرغّبه في ذلك وأن يبدأ بقطع قنطرة أرْبُك، لئلا يصلَ الخيل إلى الجيش. وإن الخبيث وجّه عليّ بن أبان لقطع القنطرة، فلقيَه إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس؛ وكان بها مع الحارث بن سيما في الصَّحْراء المعروفة بدَسْت أربُك، وهي صحراء بين الأهواز والقنطرة. فلما انتهى عليّ بن أبان إلى القنطرة، أقام مُخْفِياً نفسه ومَنْ معه. فلمّا أصحَرَت الخيل، خرجت عليه من جهات، فَقَتَلَتْ من الزَّنْج خَلْقاً كثيراً، وانهزم عليّ، وتبعته الخيل إلى الفَنْدم. وأصابته طعنة في أخَمصِه، فأمسك عن التوجّه إلى الأهواز، وانصرف على وجهه إلى جُبَّى. وصُرف سعيد بن يكسين ووُلّيَ إبراهيم بن سيما. وكاتبه شاهين، فأقبلا جميعاً: إبراهيم بن سيما على طريق الفرات قاصداً لذُنَابة نهر جُبّى، وعليّ بن أبان بالخيزرانيّة؛ وأقبل شاهين بن بِسْطام على طريق نهر موسى، يقدّر لقاء إبراهيم في الموضع الذي قصد إليه، وقد اتّعدا لمواقعة عليّ بن أبان، فسبق شاهين. وأتى عليَّ بن أبان رجلٌ من نهر موسى فأخبره بإقبال شاهين إليه؛ فتوجّه عليّ نحوه، فالتقيا في وقت العصر على نهر يعرف بأبي العباس ـ وهو نهر بين نهر موسى ونهر جُبّى ـ ونشبت الحرب بينهما، وثبت أصحاب شاهين، وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم صدمهم الزّنج صدمة صادقة، فولّوْا منهزمين؛ فكان أوّل مَنْ قتِل يومئذ شاهين وابن عمّ له يقال له حيّان، وذلك أنه كان في مقدّمة القوم، وقُتِل معه من أصحابه بشر كثير. وأتى عليَّ بن أبان مخبر فأخبره بورود إبراهيم بن سيما ـ وذلك بعد فراغه من أمر شاهين ـ فسار من فورِه إلى نهر جُبّى، وإبراهيم بن سيما معسكر هنالك لا يعلم خبر

شاهين. فوافاه عليّ في وقت العشاء الآخرة، فأوقع بهم وقعة غليظة قتل فيها جمعاً كثيراً. وكان قتلُ شاهين والإيقاع بإبراهيم فيما بين العصر والعشاء والآخرة.

قال محمد بن الحسن: فسمعت عليّ بن أبان يحدّث عن ذلك، قال: لقد رأيتُني يومئذ، وقد ركبني حُمّى نافض كانت تعتادني. وقد كان أصحابي حين نالوا ما نالوا من شاهين تفرّقوا عني، فلم يصر إلى عسكر إبراهيم بن سيما معي إلا نحو من خمسين رجلاً. فوصلت إلى العسكر، فألقيت نفسي قريباً منه، وجعلت أسمع ضجيج أهلِ العسكر وكلامَهم. فلما سكنتْ حركتُهُم، نهضت فأوقعتُ بهم.

ثم انصرف عليّ بن أبان عن جُبَّى لمّا قُتِل شاهين، وهُزم إبراهيم بن سيما، لورود كتاب الخبيث عليه بالمصير إلى البصرة لحرب أهلها.

دخول الزنج البصرة وفتكهم بأهلها

وفيها دخل أصحاب الخبيث البصرة.

ذكر الخبر عن سبب وصولهم إلى ذلك وما عملوا بها حين دخلوها:

ذُكر أنّ سعيد بن صالح لمّا شَخَصَ من البَصْرة ضمّ السلطان عملَه إلى منصور بن جعفر الخياط؛ وكان من أمرِ منصور وأمرِ أصحاب الخبيث ما قد ذكرناه قبلُ. وضعفَ أمرُ منصور، ولم يَعُدْ لقتال الخبيث في عسكره، واقتصر عَلَى بذْرقة القَيْروانات[1]. واتّسع أهلُ البصرة

(١) البَذْرقة: الخفارة والحراسة. والقيروانات: القوافل (معرَّبة عن كاراوان الفارسية).

لوصول المير إليهم؛ وكان انقطاع ذلك عنهم قد أضرّ بهم. وانتهى إلى الخبيث الخبر بذلك، واتساعُ أهل البصرة، فعظم ذلك على الخبيث، فوجّه عليّ بن أبان إلى نواحي جُبَّى، فعسكر بالخيزُرانيّة، وشغل منصور بن جعفر عن بَذْرَقة القيروانات إلى البصرة، فعاد حال أهل البصرة إلى ما كانت عليه من الضيق. وألحّ أصحاب الخبيث على أهل البصرة بالحرب صباحاً ومساء.

فلما كان في شوال من هذه السنة أزمع الخبيث على جَمْع أصحابه للهجوم على أهل البصرة، والجدّ في خرابها؛ وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفرّقهم، وإضرار الحصار بهم، وخراب ما حولها من القرى. وكان قد نظر في حساب النجوم، ووقف على انكساف القمر ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة تخلُو من الشهر.

فذكر عن محمد بن الحسن بن سهل أنه قال: سمعتُه يقول: «اجتهدتُ في الدعاء على أهل البصرة، وابتهلت إلى الله في تعجيل خَرَابها، فخوطبتُ، فقيل لي: إنما البصرة خُبْزةٌ لك تأكلها من جوانبها؛ فإذا انكسر نصْفُ الرغيف خربت البصرة؛ فأوّلْتُ انكسار نصف الرغيف انكساف القمر المتوقَّع في هذه الأيام، وما أخلق أمر البصرة أن يكون بعده».

قال: فكان يحدّث بهذا حتى أفاض فيه أصحابه، وكثر تردده في أسماعهم وإحالته إياه بينهم.

ثم ندب محمد بن يزيد الدارميّ؛ وهو أحد مَنْ كان صحبه بالبحرين للخروج إلى الأعراب، وأنفذه، فأتاه منهم خَلْق كثير، فأناخوا بالقنْدل. ووجّه إليهم الخبيث سليمان بن موسى الشعرانيّ، وأمرهم

بتطرّق البصرة، والإيقاع بها. وتقدّم إلى سليمان بن موسى في تمرين الأعراب على ذلك. فلمّا وقع الكسوف أنهض عليّ بن أبان، وضمّ إليه طائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة مما يلي بني سعد. وكتب إلى يحيى بن محمد البحرانيّ ـ وهو يومئذ محاصر أهل البصرة ـ في إتيانها مما يلي نهر عديّ، وضمّ سائر الأعراب إليه. قال محمد بن الحسن: قال شبل: فكان أوّل مَنْ واقع أهل البصرة عليّ بن أبان، وبُغراج يومئذ بالبصرة في جماعة الجُند؛ فأقام يقاتلهم يومين، ومال الناس نحوه.

وأقبل يحيى بمن معه مما يلي قصر أنس قاصداً نحو الجسر. فدخل عليّ بن أبان المهلبيّ وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت. وغادى يحيى البصرة يوم الأحد، فتلقّاه بُغراج وبُرَيْهُ في جَمْع فردّاه، فرجع فأقام يومه ذلك. ثم غاداهم يوم الاثنين، فدخل وقد تفرّق الجند، وهرب بُرَيْهُ، وانحاز بغراج بمن معه، فلم يكن في وجهه أحدٌ يدافعه. ولقيَه إبراهيم بن يحيى المهلبيّ، فاستأمنه لأهل البصرة فآمنهم. ونادى منادي إبراهيم بن يحيى: مَنْ أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم. فحضر أهل البصرة قاطبةً حتى ملؤوا الرّحاب. فلما رأى اجتماعَهم انتهز الفرصة في ذلك منهم، فأمر بأخذ السكك والطرق والدروب لئلا يتفرقوا وغَدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم، فقتل كلّ مَنْ شهد ذلك المشهد إلاَّ الشاذّ. ثم انصرف يومَه ذلك، فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخُرَيبة.

قال محمد: وحدّثني الفضل بن عديّ الدارميّ، قال: أنا حين وجّه الخائن لحرب أهل البصرة في حَيز أهل البصرة مُقيمٌ في بني سعد.

قال: فأتانا آت في الليل، فذكر أنه رأى خيلاً مجتازة تؤمّ قصر عيسى بالخرَيبة، فقال لي أصحابي: اخرج فتعرّف لنا خَبَر هذه الخيل! فخرجتُ فإذا جماعة من بني تميم وبني أسد. فسألتهم عن حالهم، فزعموا أنهم أصحاب العَلَوِيّ[1] المضمومون إلى عليّ بن أبان، وأنّ عليًّا يوافي البصرة في غدِ تلك الليلة، وأنّ قصده لناحية بني سعد، وأن يحيى بن محمد بجمعه قاصدٌ لناحية آل المهلب. فقالوا: قل لأصحابك من بني سعد: إن كنتم تريدون تحصينَ حُرَمكم، فبادروا إخراجهم قبل إحاطة الجيش بكم.

قال الفضل: فرجعتُ إلى أصحابي، فأعلمتُهم خبرَ الأعراب فاستعدّوا، فوجهوا إلى بُريْهٍ يعلِمونه الخبر، فوافاهم فيمن كان بقِيَ من الخَوَل[2] وجماعة من الجند وقت طلوع الفجر. فساروا حتى انتهوْا إلى خندق يعرف ببني حِمَّان، ووافاهم بنو تميم ومقاتلة السعديّة. فلم يلبثوا أن طلع عليهم عليّ بن أبان في جماعة الزَّنْج والأعراب على مُتُون الخيل، فذهِل بُريه قبل لقاء القوم، فرجع إلى منزله؛ فكانت هزيمةٌ، وتفرّق مَنْ كان اجتمع من بني تميم. ووافى عليّ فلم يدافعه أحدٌ، ومرّ قاصداً إلى المِرْبد. ووجّه بُرَيهُ إلى بني تميم يستصرخُهم؛ فنهض إليه منهم جماعة. فكان القتال بالمرْبد بحضرة دار بُرَيْه. ثم انهزم بُريه عن داره، وتفرّق الناس لانهزامه، فأحرقت الزنج دارَه، وانتهبوا ما كان فيها. فأقام الناس يقتلون هنالك، وقد ضَعُف أهلُ البصرة، وقَوِي عليهم الزَّنْج. واتصلت الحرب بينهم إلى آخر ذلك اليوم. ودخل عليّ

---

(١) المراد به علي بن محمد، قائد الزَّنج. إذ كان ينتسب إلى البيت العلوي.

(٢) الخَوَل: العبيد والإماء.

المسجد الجامع فأحرقه. وأدركه فتح غلام أبي شيث في جماعة من البصريّين، فانكشف عليّ وأصحابه عنهم، وقُتِل من الزَّنْج قوم. ورجع عليّ فعسكر في الموضع المعروف بمقبرة بني شيبان. فطلب الناس سلطاناً يقاتلون معه فلم يجدوه، وطلبوا بُرَيْهاً، فوجدوه قد هرب. وأصبح أهلُ البصرة يوم السبت، فلم يأتهم عليّ بن أبان. وغاداهم يوم الأحد، فلم يقف له أحد، وظفر بالبصرة.

قال محمد بن الحسن: وحدّثني محمد بن سمعان، قال: كنت مقيماً بالبصرة في الوقت الذي دخلها الزَّنْج، وكنت أحضرُ مجلس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المعروف ببُريه. فحضرته وحضر يوم الجمعة لعشر ليال خلون من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين وعنده شهاب بن العلاء العنبريّ. فسمعتُ شهاباً يحدّثه أن الخائن قد وجه بالأموال إلى البادية ليعرّض بها رجال العرب، وأنه قد جمع جمعاً كثيراً من الخيل، وهو يريد تورّد البصرة بهم وبرجّالته من الزنج؛ وليس بالبصرة يومئذ من جند السلطان إلاّ نيّف وخمسون فارساً مع بُغراج. فقال بُريه لشهاب: إنَّ العرب لا تقدم عليّ بمساءة؛ وكان بُريه مطاعاً في العرب، محبّباً إليهم.

قال ابن سمعان: فانصرفت من مجلس بُرَيه، فلقيت أحمد بن أيوب الكاتب، فسمعته يحكي عن هارون بن عبد الرحيم الشيعيّ ـ وهو يومئذ يلي بَريد البصرة ـ أنّه صَحّ عنده أنّ الخائن[1] جمّع لثلاث خَلَوْن من شَوّال في تسعة أنفس؛ فكان وجوه أهل البصرة وسلطانها المقيم بها

(١) أي علي بن محمد، قائد الزنج. وأكثر ما ينعته الطبري بـ«الخبيث».

من الغَبَا عن حقيقة خبر الخائن على ما وصفت. وقد كان الحصار عضّ أهل البصرة، وكثر الوباء بها، واستعرَت الحرب فيها بين الحزبين المعروفين بالبلالية والسعدية.

فلما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيَتْ من شوّال من هذه السنة، أغارت خيل الخائن على البَصْرة صبحاً في هذا اليوم، من ثلاثة أوجه: من ناحية بني سَعْد والمربد والخُرَيبة؛ فكان يقودُ الجيش الذي سار إلى المربد عليّ بن أبان، وقد جعل أصحابه فرقتين: فرقة وَلّى عليها رفيقاً غلام يحيى بن عبد الرحمٰن بن خاقان، وأمرهم بالمصير إلى بني سعد، والفرقة الأخرى سار هو فيها إلى المِرْبَد. وكان يقود الخيل التي أتت من ناحية الخُربية يحيى بن محمد الأزرق البحرانيّ، وقد جمع أصحابه من جهة واحدة، وهو فيهم. فخرج إلى كلّ فرقة من هؤلاء من خفّ مِن ضعفاء أهل البصرة، وقد جَهَدهم الجوع والحصار. وتفرّقت الخيل التي كانت مع بُغراج فرقتين: فرقة صارت إلى ناحية المرْبد وفرقة صارت إلى ناحية الخُرَيبة. وقاتل من ورد ناحية بني سعد جماعة من مقاتلة السعديّة: فتح غلام أبي شيث وصحبه؛ فلم يُغْنِ قليلٌ من أهل البصرة إلى جموع الخبيث شيئاً، وهجم القوم بخيلهم ورجلهم.

قال ابن سمعان: فإنّي يومئذ لفِي المسجد الجامع، إذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه: زهران والمربد وبني حِمَّان في وقت واحد، كأنّ موقِدِيها كانوا على ميعاد؛ وذلك صدْر يوم الجمعة. وجلّ الخطب، وأيقن أهل البصرة بالهلاك، وسَعَى مَنْ كان في المسجد الجامع إلى منازلهم. ومضيتُ مبادراً إلى منزلي ـ وهو يومئذ في سكة المِرْبد ـ فلقيني منهزمو أهل البصرة في السكة راجعين نحو المسجد

الجامع، وفي أخراهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ؛ وهو على بغل متقلّد سيفاً يصيح بالناس: «ويحكم! أتسلمون بلدكم وحرمكم! هذا عدوّكم قد دخل البلد!» فلم يلووا عليه، ولم يسمعوا منه، فمضى. وانكشفت سكة المرْبد، فصار بين المنهزمين والزَّنج فيها فضاء يسافر فيه البصَر.

قال محمد: فلما رأيتُ ذلك دخلت منزلي، وأغلقت بابي. وأشرفتُ فإذا خيل من الأعراب ورجّالة الزنج، يتقدَّمهم رجل على حصان كُميت، بيده رمح، عليه عَذَبة صفراء. فسألت بعد أن صِير بي إلى مدينة الخائن[1] عن ذلك الرجل، فادّعى عليّ بن أبان أنه ذلك الرجل، وأنَّ الراية الصفراء رايتُه. ودخل القوم. فغابوا في سكة المرْبد إلى أن بلغوا باب عثمان؛ وذلك بعد الزوال ثم انصرفوا. فظنّ الناس من رعاع أهل البصرة وجهالهم أنّ القوم قد مضوْا لصلاة الجمعة. وكان الذي صرفهم أنهم خشوا أن يخرجَ عليهم جمع السعديّة والبِلالية من المربَّعة، وخافوا الكمناء هناك، فانصرفوا وانصرف من كان بناحية زَهْران وبني حصن؛ وذلك بعد أن أحرقوا وأنهبوا واقتدروا على البلد، وعلموا أنه لا مانع لهم منه. فأغبُّوا السبت والأحد، ثم غادوا البصرة يوم الاثنين، فلم يجدوا عنها مدافعاً. وجُمع الناس إلى باب إبراهيم بن يحيى المهلبيّ وأعطوا الأمان.

قال محمد بن سمعان: فحدثني الحسن بن عثمان المهلبيّ الملقب بمُنْدَلِقَة ـ وكان من أصحاب يحيى بن محمد ـ قال: أمرني يحيى في

---

(١) هي «المختارة» التي اتخذها صاحب الزنج عاصمة له.

تلك الغداة بالمصير إلى مقبرة بني شُكر، وحَمْل ما كان هناك من التنانير. فصرتُ إليها، فحملتُ نَيّفاً وعشرين تَنّوراً على رؤوس الرجال، حتى أتيت بها دار إبراهيم بن يحيى، والناس يظنّون أنها تعدّ لاتّخاذ طعام لهم؛ وهم من الجوع وشدة الحصار والجهد على أمر عظيم. وكثر الجمع بباب إبراهيم بن يحيى، وجعلوا ينوبون ويزدادون، حتى أصبحوا وارتفعت الشمس.

قال ابن سمعان: وأنا يومئذ قد انتقلت من سكة المربد من منزلي إلى دار جدّ أمي هشام المعروف بالدافّ، وكانت في بني تميم. وذلك للذي استفاض في الناس من دخول بني تميم في سِلْم الخائن. فإني لهناك إذ أتى المخبرون بخبر الوَقْعة بحضرة دار إبراهيم بن يحيى، فذكروا أن يحيى بن محمد البحرانيّ أمر الزَّنج، فأحاطوا بذلك الجمع، ثم قال: مَنْ كان من آل المهلب فليدخل دار إبراهيم بن يحيى! فدخلتْ جماعة قليلة، وأغلقوا الباب دونهم. ثم قيل للزَّنج: دونكم الناس فاقتلوهم، ولا تُبقوا منهم أحداً! فخرج إليهم محمد بن عبد الله المعروف بأبي الليث الأصبهاني، فقال للزّنج: كيلوا ـ وهي العلامة التي كانوا يعرفونها فيمن يؤمرون بقتله ـ فأخذ الناسَ السيف.

قال الحسن بن عثمان: فإني لأسمع تشهّدهم وضجيجهم، وهم يقتَلون. ولقد ارتفعت أصواتهم بالتشهّد، حتى لقد سُمعت بالطُّفَاوة، وهم على بُعد من الموضع الذي كانوا به. قال: ولما أُتِيَ على الجمع الذي ذكرنا أقبل الزّنج على قتل مَنْ أصابوا. ودخل عليّ بن أبان يومئذ، فأحرق المسجد الجامع، وراح إلى الكَلاَء، فأحرقه من الجبل إلى الجسر؛ والنار في كلّ ذلك تأخذ في كلّ شيء مَرّت به من إنسان

وبهيمة وأثاث ومتاع. ثم ألحّوا بالغُدو والرّواح على مَنْ وجدوا يسوقونهم إلى يحيى بن محمد؛ وهو يومئذ نازلٌ بسَيْحان؛ فمن كان ذا مال قرّره حتى يستخرج ماله، ويقتله، ومن كان مُمْلِقاً قتله.

وذُكِرَ عن شبْل أنه قال: باكر يحيى البصْرة يوم الثلاثاء بعد قتل مَنْ قتل بباب إبراهيم بن يحيى، فجعل ينادي بالأمان في الناس ليظهروا، فلم يظهر له أحدٌ. وانتهى الخبر إلى الخبيث، فصرف عليّ بن أبان عن البصرة، وأفرد يحيى بها لموافقة ما كان أتى يحيى من القتل إياه ووقوعه لمحبّته، وأنه استقر ما كان من عليّ بن أبان المهلّبيّ من الإمساك عن العيث بناحية بني سعد. وقد كان عليّ بن أبان أوفد إلى الخبيث من بني سعد وفداً، فصاروا إليه، فلم يجدوا عنده خيراً، فخرجوا إلى عَبّادان، وأقام يحيى بالبصرة، فكتب إليه الخبيث يأمره بإظهار استخلاف شِبْل على البصرة ليسكن الناس، ويظهر المستخفي ومَنْ قد عُرف بكثرة المال؛ فإذا ظهروا أخِذوا بالدلالة على ما دفنوا وأخفوا من أموالهم. ففعل ذلك يحيى؛ فكان لا يخلو في يوم من الأيام من جَماعة يُؤتى بهم؛ فمَنْ عُرف منهم باليسار استنظف ما عنده وقتله، ومن ظهرت له خَلّتُهُ عاجله بالقتل، حتى لم يدع أحداً ظهر له إلاَّ أتى عليه. وهرب الناس على وجوههم، وصرف الخبيث جيشه عن البصرة.

دعواه بأن الملائكة تسانده

قال محمد بن الحسن: ولما أخرب الخائن البصرة، وانتهى إليه عظيم ما فعل أصحابه فيها، سمعته يقول: دعوتُ على أهل البصرة في غداة اليوم الذي دخلها أصحابي، واجتهدت في الدعاء، وسجدت، وجعلت أدعو في سجودي، فرُفعتْ إليّ البصرة، فريتها ورأيت أصحابي

يقاتلون فيها، ورأيت بين السماء والأرض رجلاً واقفاً في الهواء في صورة جَعْفر المعلوف المتَوَلّي كان للاستخراج في ديوان الخراج بسامُرّاء، وهو قائم قد خفض يده اليسرى، ورفع يده اليمنى، يريد قلب البصرة بأهلها، فعلمتُ أن الملائكة تولّت إخرابها دون أصحابي. ولو كان أصحابي تولَّوْا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم الذي يحكى عنها. وإن الملائكة لتنصرني وتؤيدني في حربي، وتثبِّت مَنْ ضعُف قلبه من أصحابي.

الانتساب إلى يحيى بن زيد بن علي

قال محمد بن الحسن: وانتسب الخبيث إلى يحيى بن زيد بن عليّ بعد إخرابه البصرة؛ وذلك لمصير جماعة من العلويّة الذين كانوا بالبصرة إليه، وأنه كان فيمن أتاه منهم عليّ بن أحمد بن عيسى بن زيد، وعبد الله بن عليّ في جماعة من نسائهم وحُرَمهم. فلمّا جاؤوه ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى، وانتسب إلى يحيى بن زيد.

قال محمد بن الحسن: سمعتُ الخبيث وقد حضره جماعة من النوفليّين، فقال القاسم بن الحسن النوفليّ: إنه قد كان انتهى إلينا أنك من ولد أحمد بن عيسى بن زيد، فقال: «لست من ولد عيسى! أنا من ولد يحيى بن زيد». وهو في ذلك كاذب، لأن الإجماع في يحيى أنه لم يعقب إلاَّ بنتاً ماتت وهي ترضع.

السلطان يرسل المولّد إلى البصرة لحرب صاحب الزنج

وفيها أشخص السلطان محمداً المولّد إلى البصرة لحرب صاحب الزَّنْج فشخص من سامُرّاء يوم الجمعة لليلة خلت من ذي القعدة.

ذكر الخبر عما كان من أمر المولَّد هناك:

ذكر أن محمداً المعروف بالمولّد لما صار إلى ما هنالك نزل الأُبُلّة، وجاء بُرَيه، فنزل البصرة. واجتمع إلى بُريه من أهل البصرة خلق كثير ممن كان هرب. وكان يحيى(١) حين انصرف عن البصرة أقام بالنهر المعروف بالغوثيّ.

قال محمد: قال شِبْل: فلما قدم محمد المولد كتب الخبيث إلى يحيى يأمره بالمصير إلى نهر أوَّا، فصار إليه بالجيش، وأقام يحارب المولّد عشرة أيام. ثم أوطن المولّد المقام واستقرّ وفتر عن الحرب، فكتب الخبيث إلى يحيى يأمره بتبييته، ووجَّهَ إليه الشذا مع المعروف بأبي الليث الأصبهانيّ، فبيّته. ونهض المولَّد بأصحابه، فقاتلهم بقية ليلته ومن غدٍ إلى العصر، ثم ولى منصرفاً. ودخل الزَّنج عسكره، فغنموا ما فيه. فكتب يحيى إلى الخبيث بخبره، فكتب إليه يأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، وانصرف. فمرّ بالجامدَة، فأوقع بأهلها، وانتهب كلَّ ما كان في تلك القرى، وسفَك ما قدر على سفكه من الدماء. ثم عسكر بالجالة، فأقام هناك مدّة، ثمّ عاد إلى نهر معقل.

وفيها أخذ محمد المولّد سعيد بن أحمد بن سعيد بن سَلْم الباهليّ، وكان قد تغلّب على البطائح، هو وأصحابه من باهلة وأفسدوا الطريق.

(١) المراد يحيى بن محمد البحراني، أحد قادة صاحب الزنج.

أخبار سنة ٢٥٨ هـ

فيها ضُرب عنق قاضٍ لصاحب الزَّنج، كان يقضي له بعبّادان، وأعناق أربعة عشر رجلاً من الزَّنْج بباب العامّة بسامُرّاء، كانوا أسِرُوا من ناحية البصرة.

أبو أحمد الموفّق يتولى التصدّي للزنج

وعقد المعتمد يوم الاثنين لعشر بقين من شهر ربيع الأول لأبي أحمد[1] أخيه على ديار مُضر وقنَّسرين والعواصم. وجلس يوم الخميس مستهلّ شهر ربيع الآخر، فخلع عليه وعلى مُفلِح، فشخصا نحو البصرة وركب ركوباً عامًّا، وشيع أبا أحمد إلى بَرْكُوَار، وانصرف.

وفيها قُتِل منصور بن جعفر بن دينار الخيّاط

ذكر الخبر عن سبب مقتله وكيف كان أمره:

ذكر أن الخبيث لما فرغ أصحابه من أمر البصرة، أمر عليّ بن أبان المهلبيّ بالمصير إلى جُبّي لحرب منصور بن جعفر، وهو يومئذ بالأهواز. فخرج إليه، فأقام بإزائه شهراً. وجعل منصور يأتي عسكر عليّ وهو مقيمٍ بالخيزُرانيّة، ومنصور إذ ذاك في خفّ من الرجال. فوجّه الخبيث إلى عليّ بن أبان باثنتي عشرة شذاة مشحونة بجُلْدِ أصحابه، وولّى أمرها المعروف بأبي الليث الأصبهاني، وأمره بالسمع والطاعة لعليّ بن أبان. فصار المعروف بأبي الليث إلى عليّ، فأقام

(١) هو أبو أحمد الموفّق الذي سيقود منذ الآن أمور الدولة ومحاربة الزنج حتى الانتصار عليهم في سنة ٢٧٠هـ.

مخالفاً له، مستبدًّا بالرأي عليه. وجاء منصور كما كان يجيء للحرب، ومعه شذوات، فبدر إليه أبو الليث عن غير مؤامرة منه لعليّ بن أبان، فظفِر منصور بالشَّذَوات التي كانت معه، وقَتَل فيها من البِيضان والزَّنج خلقاً كبيراً. وأفلت أبو الليث، فانصرف إلى الخبيث، فانصرف عليّ بن أبان وجميع مَنْ كان معه، فأقاموا شهراً. ثم رجع عليّ لمحاربة منصور في رجاله. فلما استقرّ عليّ وجّه طلائع يأتونه بأخبار منصور وعساكره، وكان لمنصور والٍ مقيم بكَرْنَبا، فبيّت عليّ بن أبان ذلك القائد، فقتله وقتل عامّة مَنْ كان معه، وغنم ما كان في عسكره، وأصاب أفراساً، وأحرق العسكر. وانصرف من ليلته حتى صار في ذُنابة نهر جُبَّى. وبلغ الخبر منصوراً، فسار حتى انتهى إلى الخيزُرانيّة، فخرج إليه عليّ في نُفَير من أصحابه. وكانت الحرب بينهما منذ ضحى ذلك اليوم إلى وقت الظهر. ثم انهزم منصورٌ، وتفرّق عنه أصحابُه، وانقطع عنهم. وأدركته طائفة من الزَّنْج اتبعوا أثره إلى نهر يعرف بعمر بن مهْران، فلم يزل يكرّ عليهم حتى تقصّفت رماحه، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح. ثم حمل نفسه على النهر ليعبر، فصاح بحصان كان تحته، فوثب وقصرت رجلاه، فانغمس في الماء.

قال شبل: كان سبب تقصير الفرس عن عبور النهر بمنصور، أنّ رجلاً من الزَّنْج كان ألقى نفسه لمَّا رأى منصوراً قاصداً نحو النهر يريد عبورَه فسبقه سباحةً، فلمّا وثب الفرس تلقاه الأسود، فنكص به، فغاصا معاً. ثم أطلع منصور رأسَه، فنزل إليه غلام من السودان من عُرفاء مصلِح يقال له أبرون، فاحتزَّ رأسَه، وأخذ سَلبه. وقُتل ممن كان معه جماعة كثيرة، وقُتل مع منصور أخوه خَلَف بن جعفر، فولّى يارجوخ ما كان إلى منصور من العمل أصغجون.

مقتل مُفلح ـ أحد قادة الموفّق

ولاثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى منها، قُتِل مفلِح بسهم أصابه بغير نصل في صُدغه يوم الثلاثاء، فأصبح ميتاً يوم الأربعاء في غدِ ذلك اليوم، وحُمِلت جثّته إلى سامُرّاء، فدفن بها.

ذكر الخبر عن سبب مقتله وكيف كان الوصول إليه:

قد مضى ذكري شخوص أبي أحمد بن المتوكل من سامُرّاء إلى البصرة لحرب اللعين لمّا تناهى إليه وإلى المعتمد ما كان من فظيع ما ركب من المسلمين بالبصرة، وما قرب منها من سائر أرض الإسلام. فعاينتُ أنا[1] الجيش الذي شخص فيه أبو أحمد ومفلح ببغداد، وقد اجتازوا بباب الطاق، وأنا يومئذ نازلٌ هنالك، فسمعت جماعةً من مشايخ أهلِ بغداد يقولون: قد رأينا جيوشاً كثيرة من الخلفاء، فما رأينا مثلَ هذا الجيش أحسن عُدّة، وأكمل سلاحاً وعتاداً، وأكثر عدداً وجمعاً. واتَّبع ذلك الجيش من متسوّقة أهل بغداد خلق كثير.

وذكر عن محمد بن الحسن أن يحيى بن محمد البحرانيّ كان مقيماً بنهر معقِل قبل موافاة أبي أحمد موضعَ الخبيث، فاستأذنه في المصير إلى نهر العباس، فكره ذلك، وخاف أن يوافيَه جيشُ السلطان، وأصحابه متفرّقون. فألحّ عليه يحيى حتى أذن له، فخرج واتّبعَه أكثر أهل عسكر الخبيث.

وكان عليّ بن أبان مقيماً بجُبّى في جمع كثير من الزَّنج، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر الخبيث؛ فهم يغادونها ويراوحونها لنقل

(١) يحكي المؤرخ الطبري هنا معاينته الشخصية ولا ينقل عن أحد آخر.

ما نالته أيديهم منها، فليس بعسكر الخبيث يومئذ من أصحابه إلاَّ القليل. فهو على ذلك من حاله حتى وافى أبو أحمد في الجيش الذي كان معه فيه مفلح، فوافى جيشٌ عظيم هائل لم يرد على الخبيث مثله. فلمّا انتهى إلى نهر معقِل هرب مَنْ كان هناك من جيش الخبيث، فلحقوا به مرعوبين، فراع ذلك الخبيث، فدعا برئيسين من رؤساء جيشه الذي كان هناك، فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما؛ فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد، وكثرة عدد أهله وإحكام عُدّتهم، وأنّ الذي عاينا من ذلك لم يكن في قوتهما الوقوف له في العِدّة التي كانا فيها. فسألهما: هل علمتما مَنْ يقود الجيش؟ فقالا: لا. قد اجتهدنا في علم ذلك، فلم نجد من يصدُقُنا عنه. فوجّه الخبيث طلائعَه في سُميريّات لتعرف الخبر، فرجعت رسله إليه بتعظيم أمر الجيش وتفخيمه. ولم يقف أحدٌ منهم على مَنْ يقوده ويرأسه، فزاد ذلك في جزعه وارتياعه، فبادر بالإرسال إلى عليّ بن أبان، يعلمه خبر الجيش الوارد، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه. ووافى الجيش، فأناخ بإزائه. فلما كان اليوم الذي كانت فيه الوقعة وهو يوم الأربعاء، خرج الخبيث ليطوف في عسكره ماشياً، ويتأمل الحال فيمن هو مقيم معه من حزبه ومَنْ هو مقيم بإزائه من أهل حربه، وقد كانت السّماء مطرت في ذلك اليوم مطراً خفيفاً والأرض ثريّة تزلّ عنها الأقدام. فطوّف ساعة من أول النهار، ثم رجع فدعا بدواة وقرطاس لينفذ كتاباً إلى عليّ بن أبان، يعلمه ما قد أظَلّه من الجيش ويأمره بتقديم مَنْ قدر على تقديمه من الرّجال. فإنه لَفِي ذلك إذ أتاه المكتني أبا دُلف ـ وهو أحد قوّاد السودان ـ فقال له: إن القوم قد صعدوا وانهزم عنهم الزَّنج، وليس في وجوههم مَنْ يردّهم حتى انتهوْا إلى الحبل الرابع. فصاح به وانتهره،

وقال: اغرُب عني فإنك كاذب فيما حكيتَ؛ وإنما ذلك جزع دخلك لكثرة ما رأيتَ من الجمع، فانخلع قلبُك، ولست تدري ما تقول. فخرج أبو دلف من بين يديه، وأقبل على كاتبه. وقد كان أمر جعفر بن إبراهيم السجّان بالنداء في الزنج وتحريكهم للخروج إلى موضع الحرب؛ فأتاه السجّان، فأخبره أنه قد ندب الزَّنج، فخرجوا، وإنَّ أصحابه قد ظفروا بسُمَيريّتين. فأمره بالرجوع لتحريك الرّجّالة، فرجع ولم يلبث بعد ذلك إلاّ يسيراً، حتى أصيب مفلح بسهم غَرَبٍ لا يُعرف الرامي به. ووقعت الهزيمة، وقَويَ الزنج على أهل حربهم، فنالوهم بما نالوهم به من القتل. ووافى الخبيث زنجه بالرؤوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوها بين يديه، فكثرت الرؤوس يومئذ حتى ملأت كلّ شيء، وجعل الزّنج يقتسمون لحوم القتلى ويتهادوْنها بينهم.

وأتيَ الخائن بأسير من أبناء الفراغنة، فسأله عن رأس الجيش، فأعلمه بمكان أبي أحمد ومُفلِح، فارتاع لذكر أبي أحمد ـ وكان إذا راعه أمر كذّب به ـ فقال: ليس في الجيش غير مفلِح! لأني لست أسمع الذكر إلاّ له؛ ولو كان في الجيش مَنْ ذكر هذا الأسير لكان صوتُه أبعد، ولمَا كان مفلح إلاّ تابعاً له، ومضافاً إلى صحبته.

وقد كان أهلُ عسكر الخبيث لمَّا خرج عليهم أصحاب أبي أحمد، جزعوا جزعاً شديداً، وهربوا من منازلهم، ولجؤوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ولا جسر يومئذ عليه، فغرق فيه يومئذ خلق كثير من النساء والصبيان. ولم يلبث الخبيث بعد الوقعة إلاّ يسيراً، حتى وافاه عليّ بن أبان في جمع من أصحابه، فوافاه وقد استغنى عنه. ولم

يلبث مُفلح أن مات، وتحيّز أبو أحمد إلى الأبُلّة، ليجمع ما فرّقت الهزيمة منه، ويجدّد الاستعداد، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به.

قال محمد بن الحسن: فكان الخبيث لا يدري كيف قُتل مُفْلِح. فلما بلغه أنه أصيب بسهم، ولم ير أحداً ينتحل رميَه ادّعى أنه كان الراميَ له.

قال: فسمعته يقول: سقط بين يديّ سهم، فأتاني به واح خادمي، فدفعه إليّ، فرميت به فأصبت مفلحاً.

قال محمد: وكذَبَ في ذلك، لأني كنت حاضراً ذلك المشهد، وما زال عن فرسه حتى أتاه المخبر بخبر الهزيمة، وأتيَ بالرؤوس وانقضت الحرب.

وفي هذه السنة وقع الوباء في الناس في كور دِجْلة، فهلك فيها خَلْق كثير في مدينة السَّلام وسامُرّاء وواسط وغيرها.

مقتل يحيى بن محمد البحراني ـ أقد قادة الزّنج

وفيها أسر يحيى بن محمد البحرانيّ صاحب قائد الزّنج، وفيها قُتِل.

ذكِر عن محمد بن سمعان الكاتب أنه قال: لمّا وافَى يحيى بن محمد نهر العباس، لقيه بفُوّهة النهر ثلاثمائة وسبعون فارساً من أصحاب أصغجون العامل ـ كان عامل الأهواز في ذلك الوقت، كانوا مرتّبين في تلك الناحية. فلما بصر بهم يحيى استقلّهم، ورأى كثرة مَنْ معه من الجمع مما لا خوف عليه معهم، فلقيتهم أصحابه غير مستجنّين بشيء يردّ عنهم عاديتَهم. ورشقتهم أصحابُ أصغجون بالسهام، فأكثروا

الجراح فيهم. فلمّا رأى ذلك يحيى عبّر إليهم عشرين ومائة فارس كانت معه، وضمّ إليهم من الرّجال جمعاً كثيراً. وانحاز أصحاب أصغجون عنهم، وولج البحرانيّ ومَنْ معه نهر العباس؛ وذلك وقت قلّة الماء في النهر، وسفنُ القَيْروانات جانحة على الطين. فلما أبصر أصحابُ تلك السفن بالزَّنْج تركوا سفنَهم، وحازها الزَّنج، وغنموا ما كان فيها غنائم عظيمة جليلة، ومضوْا بها متوجّهين نحو البطيحة المعروفة ببطيحة الصحناة، وتركوا الطريق النّهج. وذلك للتحاسد الذي كان بين البحرانيّ وعليّ بن أبان المهلبيّ. وإن أصحاب يحيى أشاروا عليه ألاّ يسلك الطريق الذي يمرّ فيها بعكس عليّ، فأصغى إلى مشورتهم. فشرعوا له الطريق المؤدي إلى البطيحة التي ذكرنا، فسلكها حتى ولج البطيحة، وسرّح الخيل التي كانت معه، وجعل معها أبا الليث الأصبهانيّ، وأمره بالمصير بها إلى عسكر قائد الزَّنج. وكان الخبيث وجّه إلى يحيى البحرانيّ يعلمه ورودَ الجيش الذي ورد عليه، ويأمره بالتحرزّ في منصرفه من أن يلقاه أحدٌ منهم. فوجّه البحرانيّ الطلائع إلى دِجْلة، فانصرفت طلائعه وجيش أبي أحمد منصرف من الأبُلّة إلى نهر أبي الأسد، وكان السبب في رجوع الجيش إلى نهر أبي الأسد، أنّ رافع بن بِسطام من مجاوري نهر العباس وبطيحة الصّحْناة كتبوا إلى أبي أحمد يعرّفونه خبر البحرانيّ وكثرة جمعه، وأنه يقدّر أن يخرج من نهر العباس إلى دِجْلَة، فيسبق إلى نهر أبي الأسد ويعسكر به، ويمنعه الميرة ويحولُ بينه وبين من يأتيه أو يصدر عنه، فرجعت إليه طلائعهُ بخبره، وعظم أمر الجيش عنده، وهيبته منه. فرجع في الطريق الذي كان سلكه بمشقة شديدة نالتْه ونالت أصحابه، وأصابهم وباء من تردّدهم في تلك البطيحة، فكثر المرض فيهم. فلما قربوا من نهر العباس جعل يحيى بن

محمد سليمان بن جامع على مقدّمته، فمضى يقود أوائل الزَّنْج، وهم يجرّون سفنَهم، يريدون الخروج من نهر العباس، وفي النهر للسلطان شذوات وسميريات تحمي فوّهته من قبل أصغجون، ومعها جَمْعٌ من الفُرْسان والرّجالة، فراعه وأصحابه ذلك، فخلَّوْا سفنهم، وألقَوْا أنفسَهم في غربيّ نهر العباس. وأخذوا على طريق الزّيدان ماضين نحو عسكر الخبيث، ويحيى غارّ بما أصابهم، لم يأتِه علم شيء من خبرِهم، وهو متوسِّط عسكره، قد وقف على قنطرة قُورَج العباس في موضع ضيّق تَشتدّ فيه جرية الماء: فهو مشرف على أصحابه الزَّنْج، وهم في جرّ تلك السفن التي كانت معهم؛ فمنها ما يغرق، ومنها ما يسلم.

قال محمد بن سمعان: وأنا في تلك الحال معه واقف، فأقبل عليّ متعجّباً من شدّة جرية الماء وشدّة ما يلقى أصحابه من تلقّيه بالسفن، فقال لي: أرأيتَ لو هجم علينا عدوّنا في هذه الحال، مَنْ كان أسوأ حالاً منا! فما انقضى كلامُهُ حتى وافاه طاشتمر التركيّ في الجيش الذي أنفذه إليهم أبو أحمد عند رجوعه من الأبُلّة إلى نهر أبي الأسد، ووقعت الضّجّة في عسكره.

قال محمد: فنهضت مُتشوقاً للنظر؛ فإذا الأعلام الحمر قد أقبلتْ في الجانب الغربيّ من نهر العباس ويحيى به؛ فلما رآها الزَّنْج ألقَوْا أنفسهم في الماء جملة، فعبروا إلى الجانب الشرقيّ. وعرِيَ الموضع الذي كان فيه يحيى، فلم يبق معه إلاَّ بضعة عشر رجلاً. فنهض يحيى عند ذلك، فأخذ درقتَه وسيفه، واحتزم بمنديل، وتلقَّى القوم الذين أتوْه في النفر الذين معه. فرشقهم أصحاب طاشتمر بالسهام، وأسرع فيهم الجراح، وجرح البحرانيّ بأسهم ثلاثة في عَضُديْه وساقه اليسرى. فلما

رآه أصحابه جريحاً تفرّقوا عنه، فلم يعرَف فيقصد له. فرجع حتى دخل بعض تلك السفن، وعَبَر به إلى الجانب الشرقيّ من النهر؛ وذلك وقت الضحى من ذلك اليوم. وأثقَلت يحيى الجراحات التي أصابتْه. فلما رأى الزّنج ما نزل به اشتدّ جزعهم، وضعفت قلوبهم، فتركوا القتال، وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم. وحاز أصحاب السلطان الغنائم التي كانت في السفن بالجانب من النهر. فلما حَوَوْها أقعدوا في بعض تلك السفن النّفاطين[1]، وعبّروهم إلى شرقيّ النهر، فأحرقوا ما كان هناك من السفن التي كانت في أيدي الزّنج. وانفضّ الزَّنج عن يحيى، فجعلوا يتسللون بقية نهارهم بعد قتل فيهم ذريع، وأسر كثير. فلمّا أمسكوا وأسدف الليل طارُوا على وجوههم. فلما رأى يحيى تفرُّق أصحابه، ركب سُمَيريّة كانت لرجل من المقاتلة البِيضان، وأقعَد معه فيها متطبِّباً يقال له عبّاد يعرف بأبي جيش؛ وذلك لِما كان به من الجراح. وطمع في التخلّص إلى عسكر الخبيث، فسار حتى قرب من فُوّهة النهر، فبصر ملاّحو السميريّة بالشّذا والسميريات واعتراضها في النهر، فجزعوا من المرور بهم، وأيقنوا أنهم مدرَكون. فعبروا إلى الجانب الغربيّ، فألقَوْه ومَنْ معه على الأرض في زرع كان هناك. فخرج يمشي وهو مثقَل، حتى ألقى نفسه، فأقام بموضعه ليلتَه تلك. فلما أصبح بموضعه ذلك نهض عبّاد المتطبّب الذي كان معه، فجعل متشوقاً لأن يرى إنساناً، فرأى بعض أصحاب السلطان، فأشار إليهم فأخبرهم بمكان يحيى، وأتاه بهم حتى سلّمه إليهم.

---

(١) الذين يرمون السهام المشتعلة بالنفط.

وقد زعم قوم أنّ قوماً مرُّوا به، فرأوه فدلّوا عليه، فأخِذ. فانتهى خبره إلى الخبيث صاحب الزَّنْج، فاشتدّ لذلك جزعه، وعظم عليه توجّعه.

ثم حمِل يحيى بن محمد الأزرق البحراني إلى أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد بسامُرّاء، فأمر ببناء دكة بالحَيْر، بحضرة مجرى الحلبة، فبُنيت. ثم رفع للناس حتى أبصروه، فضرب بالسياط.

وذُكر أنه دخل سامرّاء يوم الأربعاء لتسع خلوْن من رجب على جمل، وجلس المعتمد من غدِ ذلك اليوم ـ وذلك يوم الخميس ـ فضُرب بين يديه مائتي سوط بثمارها، ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خُبط بالسيوف ثم ذُبح ثم أحرق.

صاحب الزنج يدّعي انكشاف المحجوب له، وأنه رفض النبوّة

قال محمد بن الحسن: لما قُتِل يحيى البحرانيّ وانتهى خبره إلى صاحب الزّنج، قال: عَظُم عليّ قتله، واشتدّ اهتمامي به، فخوطبتُ فقيل لي: قتلُه خير لك! إنه كان شرهاً. ثم أقبل على جماعة كنت أنا فيهم. قال: ومَنْ شرهه أنا غنمنا غنيمة من بعض ما كنَّا نصيبه؛ فكان فيه عقدان، فوقعا في يد يحيى، فأخفى عني أعظمهما خطراً، وعرض عليّ أخسهما، واستوهبنيه فوهبته له. فرُفع لي العقد الذي أخفاه، فدعوته فقلت: أحضرْني العقد الذي أخفيتَه! فأتاني بالعقد الذي وهبتُه له، وجحد أن يكون أخذ غيره. فرُفِع لي العقد، فجعلت أصفه وأنا أراه، فبُهت. وذهب فأتاني به، واستوهبنيه فوهبتُه له، وأمرته بالاستغفار.

وذكر عن محمد بن الحسن أن محمد بن سمعان حدّثه أنّ قائد

الزنج قال لي في بعض أيامه: لقد عُرِضَتْ عليّ النبوّة فأبيتُها، فقلتُ: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنّ لها أعباء خِفت ألاّ أطيق حملها!

انحياز الموفّق إلى واسط

وفي هذه السنة أنحاز أبو أحمد بن المتوكل من الموضع الذي كان به من قرب موضع قائد الزّنج إلى واسط.

ذكر الخبر عن سبب انحيازه ذلك إليها:

ذُكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ أبا أحمد لما صار إلى نهر أبي الأسد، فأقام به، كثر العلل فيمن معه من جنده وغيرهم، وفشا فيهم الموت. فلم يزل مقيماً هنالك حتى أبلّ مَنْ نجا منهم من الموت من عِلّته. ثم انصرف راجعاً إلى باذاوَرْد، فعسكر به، وأمر بتجديد الآلات وإعطاء مَنْ معه من الجند أرزاقَهم وإصلاح الشذوات والسميريات والمعابر، وشحنها بالقوّاد مِنْ مواليه وغلمانه. ونهض نحو عسكر الخبيث، وأمر جماعة من قُوّاده بقصد مواضع سمّاها لهم من نهر أبي الخصيب وغيره، وأمر جماعة منهم بلزومه والمحاربة معه في الموضع الذي يكون فيه. فمال أكثر القوم حين وقعت الحرب. والتقى الفريقان إلى نهر أبي الخصيب، وبقي أبو أحمد في قلّة من أصحابه. فلم يَزُلْ عن موضعه إشفاقاً من أن يطمع فيه الزَّنْج، وفيمن بإزائهم من أصحابه وهم بسبخة نهر منكى. وتأمل الزّنج تفرّق أصحاب أبي أحمد عنه، وعرفوا موضعه، فكثروا عليه. واستعَرَت الحرب، وكثر القتل والجراح بين الفريقين. وأحرق أصحاب أبي أحمد قصوراً ومنازل من منازل الزَّنج، واستنقذوا من النساء جمعاً كثيراً. وصرف الزَّنج جمعهم إلى الموضع الذي كان به أبو أحمد فظهر الموفّق على الشَّذَا، وتوسَّط

الحرب محرّضاً أصحابه حتى أتاه مِنْ جمع الزَّنْج ما عَلم أنه لا يقاوَم بمثل العدّة اليسيرة التي كان فيها. فرأى أنّ الحزم في محاجزتهم. فأمر أصحابه عند ذلك بالرجوع إلى سفنهم على تُؤَدَة ومَهَل. فصار أبو أحمد إلى الشَّذَا التي كان فيها بعد أن استقرّ أكثرُ الناس في سفنهم، وبقيت طائفة من الناس، ولجؤوا إلى تلك الأدغال والمضايق، فانقطعوا عن أصحابهم. فخرج عليهم كُمناء الزَّنج، فاقتطعوهم ووقعوا بهم، فحامَوْا عن أنفسهم، وقاتلوا قتالاً شديداً، وقتلوا عدداً كثيراً من الزَّنج. وأدركتهم المنايا فقتِلوا. وحَمَلوا إلى قائد الزنج مائة رأس وعشرة أرؤس، فزاد ذلك في عُتوّه. ثم انصرف أبو أحمد إلى الباذاوَرْد في الجيش، وأقام يعبي أصحابه للرجوع إلى الزَّنج. فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره، وذلك في أيام عصوف الريح، فاحترق العسكر، ورحل أبو أحمد منصرفاً ـ وذلك في شعبان من هذه السنة ـ إلى واسط. فلمَّا صار إلى واسط تفرّق عنه عامة من كان معه من أصحابه.

ومات يارْجُوخ يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رمضان، فصلى عليه أبو عيسى بن المتوكل، وحضر جعفر بن المعتمد.

أخبار سنة ٢٥٩هـ

فمن ذلك منصرف أبي أحمد بن المتوكل من واسط، وقدومه سامُرّاء يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الأول، واستخلافه على واسط وحرب الخبيث بتلك الناحية محمداً المولَّد.

دخول الزنج سوق الأهواز

ولستّ خلون من رجب منها، دخل المهلبيّ ويحيى بن خلف

النّهْرَبَطّيّ سوق الأهواز، فقتلوا بها خَلْقاً كثيراً، وقتلوا صاحب المعونة بها.

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة وكيف كان هلال صاحب الحرب من قبل السلطان فيها:

ذُكر أنّ قائد الزنج خفيَ عليه أمرُ الحريق الذي كان في عسكر أبي أحمد بالباذَاورد، فلم يعلم خبرهُ إلاَّ بعد ثلاثة أيام ـ ورد به عليه رجلان من أهل عبّادان فأخبراه ـ فعاد للعيْث، وانقطعت عنه المِيرة. فأنهض عليّ بن أبان المهلبي، وضمّ إليه أكثر الجيْش، وسار معه سُليمان بن جامع، وقد ضمّ إليه الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحرانيّ وسليمان بن موسى الشعرانيّ، وقد ضُمّت إليه الخيل وسائر الناس مع عليّ بن أبان المهلّبيّ؛ والمتولي يومئذ رجلٌ يقال له أصغجون، ومعه نيزَك في جماعة من القوّاد، فَسَار إليهم عليّ بن أبان في جمعه من الزنج. ونذِر به أصغجون، فنهض نحوه في أصحابه. فالتقى العسكران بصحراء تُعرف بدَسْتماران. فكانت الدّبرة يومئذ على أصغجون؛ فقُتل نَيْزك في جميع كثير من أصحابه، وغرق أصغجون، وأسِر الحسن بن هرثمة المعروف بالشار يومئذ، والحسن بن جعفر المعروف براوشار.

قال محمّد بن الحسن: فحدّثني الحسن بن الشار، قال: خرجنا يومئذ مع أصغجون للقاء الزّنج؛ فلم يثبت أصحابنا، وانهزموا، وقُتِل نيزك، وفقد أصغجون. فلمّا رأيت ذلك نزلت عن فرس محذوف كان تحتي، وقدّرتُ أن أتناول بذنَب جَنيبة كانت معي، وأقحمها النهر، فأنجو بها. فسبقني إلى ذلك غلامي، فنجا وتركني. فأتيت موسى بن جعفر لأتخلّص معه، فركب سفينة، ومضى فيها، ولم يُقِمْ عليّ.

وبصرت بزورق فأتيته فركبته، فكثر الناس عليّ وجعلوا يطلبون الركوب معي فيتعلّقون بالزّورق حتى غرقوه، فانقلب، وعلوتُ ظهره، وذهب الناس عني. وأدركني الزَّنج، فجعلوا يرمونني بالنُّشاب. فلما خفت التّلف قلت: أمسكوا عن رميي، وألقوا إليّ شيئاً أتعلّق به، وأصِير إليكم! فمدّوا إليّ رمحاً، فتناولتُه بيديّ وصرت إليهم.

وأما الحسن بن جعفر، فإن أخاه حمله على فرس، وأعدّه ليسفر بينه وبين أمير الجيش، فلما وقعت الهزيمة بادر في طلب النجاة، فعثر به فرسُه فأخِذ.

فكتب عليّ بن أبان إلى الخبيث بأمر الوقعة، وحمل إليه رؤوساً وأعلاماً كثيرة، ووجّه الحسن بن الشار والحسن بن جعفر وأحمد بن روح. فأمر بالأسرى إلى السجن. ودخل عليّ بن أبان الأهواز، فأقام يعيث بها إلى أن ندب السلطان موسى بن بُغا لحرب الخبيث.

انتداب موسى بن بُغا لمحاربة قائد الزنج

وفيها شخص موسى بن بغا عن سامرّاء لحربه، وذلك لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة، وشيّعه المعتمد إلى خلف الحائطيْن، وخلع عليه هناك.

وفيها وافى عبد الرحمٰن بن مفلح الأهواز وإسحاق بن كُنْدَاج البصرة وإبراهيم بن سيما باذاورد لحرب قائد الزنج من قبل موسى بن بغا.

ذكر الخبر عما كان من أمر هؤلاء في النواحي التي ضمت إليهم مع أصحاب قائد الزّنج في هذه السنة:

ذكر أن ابن مُفلِح لما وافى الأهواز، أقام بقنطرة أربُك عشرة

أيام، ثم مضى إلى المهلبيّ، فواقعه، فهزمه المهلبيّ وانصرف. واستعدّ ثم عاد لمحاربته، فأوقع به وقعة غليظة، وقتل من الزّنْج قتلاً ذريعاً، وأسر أسرى كثيرة. وانهزم عليّ بن أبان، وأفلت ومن معه من الزّنج، حتى وافوا بَياناً، فأراد الخبيث ردّهم، فلم يرجعوا للذّعر الذي خالط قلوبَهم. فلمّا رأى ذلك أذِن لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً، فأقاموا بمدينته. ووافى عبد الرحمٰن حصن المهديّ ليعسكر به، فوجّه إليه الخبيث عليّ بن أبان، فواقعه فلم يقدر عليه. ومضى عليّ يريد الموضع المعروف بالدّكر، وإبراهيم بن سيما يومئذ بالباذاوَرْد، فواقعه إبراهيم، فهُزم عليّ بن أبان. وعاوده فهزمه أيضاً إبراهيم. فمضى في الليل، وأخذ معه أدلاّء، فسلكوا به الآجام والأدغال، حتى وافى نهر يحيى. وانتهى خبره إلى عبد الرحمٰن، فوجّه إليه طاشتِمُر في جمع من الموالي، فلم يصل إلى علّي ومَنْ معه لوعورة الموضع الذي كانوا فيه، وامتناعه بالقصب والحلافي، فأضرمه عليهم ناراً، فخرجوا منه هاربين، فأسر منهم أسرى. وانصرف إلى عبد الرحمٰن بن مفلح بالأسرى والظَّفَر. ومضى عليّ بن أبان حتى وافى نسوخا، فأقام هناك فيمن معه من أصحابه، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد الرحمٰن بن مفلح، فصرف وجهه نحو العمود، فوافاه وأقام به.

وصار عليّ بن أبان إلى نهر السِّدرة، وكتب إلى الخبيث يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشَّذَوات. فوجّه إليه ثلاث عشرة شَذاة، فيها جمع كثير من أصحابه. فسار عليّ ومعه الشَّذَا حتى وافى عبد الرحمٰن. وخرج إليه عبد الرحمٰن بمن معه، فلم يكن بينهما قتال، وتواقف الجيشان يَومهما ذلك. فلما كان الليل، انتخب عليّ بن أبان من أصحابه جماعةً يثِق بجَلَدهم وصبرهم، ومضى فيهم ومعه سليمان بن

موسى المعروف بالشعرانيّ، وترك سائر عسكره مكانَه ليخفى أمرُه. فصار من وراء عبد الرحمٰن، ثم بيّته في عسكره، فنال منه ومن أصحابه نيلاً، وانحاز عبد الرحمٰن عنه، وخلى عن أربع شذوات من شَذَوَاته، فأخذها عليّ وانصرف. ومضى عبد الرحمٰن لوجهه حتى وافى الدولاب فأقام به، وأعدّ رجالاً من رجاله، وولّى عليهم طاشتمر، وأنفذهم إلى عليّ بن أبان. فوافوْه بنواحي بياب آزر، فأوقعوا به وقعة، انهزم منها إلى نهر السِّدرة. وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمٰن بانهزام عليّ عنه، فأقبل عبد الرحمٰن بجيشه حتى وافى العمود، فأقام به، واستعدّ أصحابه للحرب، وهيّأ شذواته، وولّى عليها طاشتمر. فسار إلى فُوّهة نهر السدرة، فواقع عليّ بن أبان وقعةً عظيمة، انهزم منها عليّ، وأخذ منه عشر شذوات، ورجع عليّ إلى الخبيث مفلولاً مهزوماً. وسار عبد الرحمٰن من فورِه، فعسكر ببيَان. فكان عبد الرحمٰن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر الخبيث، فيُوقعان به، ويُخيفان مَن فيه، وإسحاق بن كُنْداج يومئذ مقيم بالبصرة، قد قطع المِيرة عن عسكر الخبيث. فكان الخبيث يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمٰن بن مفلح وإبراهيم بن سيما حتى ينقضيَ الحرب، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة، فيواقع بهم إسحاق بن كُنْداج. فأقاموا في ذلك بضعة عشر شهراً إلى أن صُرف موسى بن بغا عن حرب الخبيث، ووُلِّيَها مسرور البلخيّ، وانتهى الخبر بذلك إلى الخبيث.

وفيها وُجِّه من الأهواز جماعة من الزّنج أسروا إلى سامُرا، فوثبت العامة بهم بسامُرّا، فقتلوا أكثرهم وسلبوهم.

أخبار سنة ٢٦٠هـ

فيها قتل قائد الزَّنج علي بن زيد العلوي صاحب الكوفة[١].

أخبار سنة ٢٦١هـ

وفيها ولِّيَ أبو الساج الأهواز وحرب قائد الزّنج، فصار إليها أبو الساج بعد شخوص عبد الرحمٰن بن مفلح إلى ناحية فارس.

دخول الزنج الأهواز ثانية

وفيها كانت بين عبد الرحمٰن صهر أبي الساج وعليّ بن أبان المهلبيّ وقعة بناحية الدولاب، قُتِل فيها عبدُ الرحمٰن، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرَم، ودخل الزَّنج الأهواز، فقتلوا أهلَها، وسبَوْا وانتهبوا، وأحرقوا دورَها. ثمّ صُرِف أبو الساج عمّا كان إليه من عمل الأهواز وحرب الزّنج، ووُلِّيَ ذلك إبراهيم بن سيما، فلم يزل مقيماً في عمله ذلك حتى انصرف موسى بن بغا، عمّا كان إليه من عمل المشرق.

تولية مسرور البلخي محاربة الزنج

ولما ضُمّ عمل المشرق إلى أبي أحمد ولَّى مسروراً البلخيّ الأهواز والبصرة وكُور دِجْلة، واليمامة والبحرين في شعبان من هذه السنة، وحرب قائد الزنج.

---

(١) لم يذكر الطبري من أخبار الزنج في هذه السنة سوى هذا الخبر، هكذا من دون أي تفصيل.

وليّان لعهد المعتمد

وفيها لاثنتي عشرة مضت من شوّال منها، جلس المعتمد في دار العامّة، فولّى ابنه جعفراً العهد، وسماه المفوّض إلى الله، وولاّه المغرب، وضمّ إليه موسى بن بغا، وولاّه إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وإرمينيَة وطريق خراسان ومِهْرَجا نَقَذَق وحُلوان. وولّى أخاه أبا أحمد العهد بعد جعفر، وولاّه المشرق، وضمّ إليه مسروراً البلخيَّ، وولاّه بغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن وكَسْكر وكُور دِجلة والأهواز وفارس وأصبهان وقمَّ والكَرَج والديْنَوَر والرّيّ وزِنجان وقزوين وخراسان وطَبَرِستان وجُرجان وكَرْمان وسِجِستان والسند. وعقد لكلّ واحد منهما لواءين: أسود وأبيض. وشرط إن حدث به حدث الموت وجعفر لم يكمل للأمر، أن يكون الأمر لأبي أحمد ثم لجعفر. وأخذت البيعة على الناس بذلك، وفرّقت نسخ الكتاب، وبُعث بنسخة مع الحسن بن محمد بن أبي الشوارب ليعلّقها في الكعبة. فعقد جعفر المفوّض لموسى بن بغا على المغرب في شوال وبعث إليه بالعقد مع محمد المولَّد.

أخبار سنة ٢٦٢هـ

وفيها وجه قائد الزنج جيوشه إلى ناحية البطيحة ودَستُمَيسَان

ذكر الخبر عن سبب توجيهه إياهم إليها:

ذُكر أن سبب ذلك كان أنّ المعتمد لمّا صرف موسى بن بغا عن أعمال المشرق وما كان متّصلاً بها، وضمّها إلى أخيه أبي أحمد، وضمّ أبو أحمد عمل كُور دِجلة إلى مسرور البلخيّ، وأقبل يعقوب بن الليث

مريداً أبا أحمد، وصار إلى واسط، خَلت كُور دجْلة من أسباب السلطان، خلا المدائن وما فوق ذلك. وكان مسرور قد وجّه قبل ذلك إلى الباذاوَرْد مكان موسى بن أتامش جُعلان التركيّ. وكان بإزاء موسى بن أتامش، من قِبَل قائد الزَّنْج سليمان بن جامع. وقد كان سليمان قبل أن يصرف ابنُ أتامش عن الباذاوَرْد، قد نال من عسكره؛ فلمّا صُرف ابن أتامش وجُعل موضعه جعلان، وجّه سليمان من قِبَله رجلاً من البحرانيّين يقال له ثعلب بن حفص، فأوقع به، وأخذ منه خيلاً ورجلاً. ووجّه قائد الزنج من قِبَله رجلاً من أهل جُبَّى يقال له أحمد بن مهديّ في سُميريّات، فيها رماة من أصحابه، فأنفذه إلى نهر المرأة، فجعل الجبائي يوقع بالقُرى التي بنواحي المذَار ـ فيما ذكر ـ فيعيث فيها، ويعود إلى نهر المرأة فيقيم به.

فكتب هذا الجبائيّ إلى قائد الزَّنج يخبر بأن البطيحة خالية من رجال السلطان، لانصراف مسرور وعساكره عند ورود يعقوب بن الليث واسطاً. فأمر قائد الزَّنْج سليمان بن جامع وجماعة من قُوّاده بالمصير إلى الحوانيت، وأمر رجلاً من الباهليّين يقال له عُمَيْر بن عمار، كان عالماً بطرق البَطيحة ومسالكها، أن يسير مع الجبائيّ حتى يستقرّ بالحوانيت.

فذكر محمد بن الحسن أن محمد بن عثمان العبّادانيّ قال: لمّا عزم صاحب الزَّنْج على توجيه الجيوش إلى ناحية البطيحة ودَسْتُمِيسان أمر سليمان بن جامع أن يعسكر بالمُطوّعة وسليمان بن موسى أن يعسكر على فُوّهة النهر المعروف باليهوديّ، ففعلا ذلك. وأقاما إلى أن أتاهما إذنه، فنهضا، فكان مسير سليمان بن موسى إلى القَرْية المعروفة

بالقادسيّة، ومسير سليمان بن جامع إلى الحوانيت والجُبْائيّ في السميريّات أمام جيش سليمان بن جامع. ووافى أبَّا التركيّ دجْلة في ثلاثين شَذاة، فانحدر يريد عسكر قائد الزّنج، فمرّ بالقرية التي كانت داخلة في سلْم الخبيث فنال منها، وأحرق؛ فكتب الخبيث إلى سليمان بن موسى في منعه الرجوع، وأخذ عليه سليمان الطريق، فأقام شهراً يقاتل حتى تخلّص فصار إلى البطيحة.

وذكر محمد بن عثمان أن جَبّاشاً الخادم زعم أنّ أبَّا التركيَّ لم يكن صار إلى دجلة في هذا الوقت، وأنّ المقيم كان هناك نُصير المعروف بأبي حمزة.

وذكر أن سليمان بن جامع لما فصل متوجّهاً إلى الحوانيت، انتهى إلى موضع يعرف بنهر العتيق. وقد كان الجبائيّ سار في طريق الماديان، فتلقّاه رميس، فواقعه الجبائيّ، فهزمه، وأخذ منه أربعاً وعشرين سُميريّة ونيّفاً وثلاثين صلغة. وأفلت رميس، فاعتصم بأجَمة لجأ إليها، فأتاه قوم من الجوخانيّين، فأخرجوه منها فنجا. ووافق المنهزمين من أصحاب رميس خروج سليمان من النهر العتيق، فتلقاهم فأوقع بهم، ونال منهم نيلاً. ومضى رميس حتى لحق بالموضع المعروف ببرّ مساور، وانحاز إلى سليمان جماعة من مذكوري البلاليّين وأنجادهم في خمسين ومائة سُميريّة، فاستخبرهم عما أمامه، فقالوا: ليس بينك وبين واسط أحدٌ من عمّال السلطان وولاته. فاغترّ سليمان بذلك، وركن إليه. فسار حتى انتهى إلى الموضع الذي يعرف بالجازرة، فتلقّاه رجل يقال له أبو معاذ القرشيّ، فواقعه، فانهزم سليمان عنه، وقتل أبو معاذ جماعة من أصحابه، وأسر قائداً من قواد الزَّنْج، يقال له

رياح القندليّ. فانصرف سليمان إلى الموضع الذي كان معسكراً به، فأتاه رجلان من البلاليّة، فقالا له: ليس بواسط أحد يدفع عنها غير أبي معاذ في الشَّذَوات الخمس التي لقيك بها. فاستعدّ سليمان وجمع أصحابه وكتب إلى الخبيث كتاباً مع البلاليّة الذين كانوا استأمنوا إليه وأنقذهم إلاّ جُميِّعة يسيرة في عشر سُميريّات، انتخبهم للمقام معه. واحتبس الاثنين معه اللذين أخبراه عن واسط بما أخبراه به. وصار قاصداً لنهر أبان، فاعترض له أبو معاذ في طريقه، وشبّت الحرب بينهما، وعصفت الريح، فاضطربت شذا أبي معاذ، وقويَ عليه سليمان وأصحابه، فأدبر عنهم معرّداً. ومضى سليمان حتى انتهى إلى نهر أبان، فاقتحمه، وأحرق وأنهب، وسبى النسا والصبيان. فانتهى الخبر بذلك إلى وُكلاء كانوا لأبي أحمد في ضياع من ضِياعه مُقيمين بنهر سِنداد، فساروا إلى سليمان في جماعة، فأوقعوا به وقعةً، قتلوا فيها جمعاً كثيراً من الزَّنْج. وانهزم سليمان وأحمد بن مهديّ ومن معهما إلى معسكرهما.

قال محمد بن الحسن: قال محمد بن عثمان: لما استقرّ سليمان بن جامع بالحوانيت، ونزل بنهر يعرف بيعقوب بن النضر، وجّه رجلاً ليعرف خبر واسط ومَن فيها من أصحاب السلطان؛ وذلك بعد خروج مسرور البلخيّ وأصحابه عنها، لورود يعقوب إياها. فرجع إليه، فأخبره بمسير يعقوب نحو السلطان. وقد كان مسرور قبل شخوصه عن واسط إلى السِّيب وَجّه إلى سليمان رجلاً يقال له وصيف الرّحال في شَذَوات؛ فواقعه سليمان فقتله، وأخذ منه سبع شَذَوات، وقتل مَنْ ظفر به، وألقى القتلى بالحوانيت ليُدخل الرّهبة في قلوب المجتازين بهم من أصحاب السلطان.

فلمّا ورد على سليمان خبرُ مسير مسرور عن واسط، دعا سليمان عُمير بن عمار خليفته ورجلاً من رؤساء الباهليّين يقال له أحمد بن شريك، فشاورهما في التنحّي عن الموضع الذي تصل إليه الخيل والشَّذَوات، وأن يلتمس موضعاً يتصل بطريق متى أراد الهرب منه إلى عسكر الخبيث سلكه. فأشار عليه بالمصير إلى عقر ماور، والتحصّن بطهيثًا والأدْغال التي فيها. وكره الباهليون خروجَ سليمان بن جامع من بين أظهرهم لغمسهم أيديهم معه، وما خافوا من تعقب السلطان إياهم، فحمل سليمان بأصحابه ماضياً في نهر البرور إلى طَهيثا، وأنفذ الجُبّائيّ إلى النهر المعروف بالعتيق في السُّمَيريّات، وأمره بالبدار إليه بما يعرف من خبر الشذا، ومن يأتي فيها ومن أصحاب السلطان. وخلّف جماعة من السودان لإشخاص مَنْ تخلّف من أصحابه. وسار حتى وافى عقر ماور، فنزل القرية المعروفة بقرية مرْوان بالجانب الشرقيّ من نهر طهيثا في جزيرة هناك.

وجمع إليه رؤوساء الباهليّين وأهل الطفوف، وكتب إلى الخبيث يعلمه ما صنع. فكتب إليه يصوّب رأيه، ويأمره بإنفاذ ما قبله من مِيرَة ونَعَم وغنم، فأنفذ ذلك إليه، وسار مسرور إلى موضع معسكر سليمان الأول، فلم يجد هناك كثير شيء، ووجد القوم قد سبقوه إلى نقل ما كان في معسكرهم. وانحدر أبّا التركيّ إلى البطائح في طلب سليمان؛ وهو يظنّ أنه قد ترك الناحية، وتوجّه نحو مدينة الخبيث فمضى فلم يقف لسليمان على أثر. وكرّ راجعاً، فوجد سليمان قد أنفذ جيشاً إلى الحوانيت ليطرُق من شذّ من عسكر مسرور، فخالف الطريق الذي خاف أن يؤدّيَهُ إليهم، ومضى في طريق آخر، حتى انتهى إلى مسرور، فأخبره أنه لم يعرف لسليمان خبراً.

وانصرف جيش سليمان إليه بما امتاروا. وأقام سليمان، فوجّه الجُبائيَّ في السُّميريّات للوقوف على مواضع الطعام والمِيَر والاحْتيال في حَمْلها. فكان الجبائيّ لا ينتهي إلى ناحية فيجد فيها شيئاً من المِيرَة إلاّ أحرقه. فساء ذلك سليمان، فنهاه عنه فلم يَنْتَهِ. وكان يقول: إن هذه المِيرة مادّة لعدوّنا، فليس الرأي ترك شيء منها.

فكتب سليمان إلى الخبيث يشكو ما كان من الجُبَّائيّ في ذلك، فورد كتاب الخبيث على الجُبّائيّ يأمره بالسمع والطاعة لسليمان، والائتمار له فيما يأمره به.

وورد على سليمان أن أغَرْتمش وخُشيشاً قد أقبلا قاصديْن إليه في الخيل والرِّجال والشَّذَا والسُّميريّات، يريدان مواقعته. فجزع جزعاً شديداً، وأنفذ الجبائيَّ ليعرف أخبارهما، وأخذ في الاستعداد للقائهما. فلم يلبث أن عاد إليه الجُبّائيّ مهزوماً، فأخبره أنهما قد وافيا باب طنج؛ وذلك على نصف فرسخ من عسكر سليمان حينئذ. فأمره بالرّجوع والوقوف في وجه الجيش، وشغله عن المصير إلى العسكر إلى أنْ يلحق به. فلما أنفذ الجبائيّ لِمَا له صعد سليمان سطحاً، فأشرف منه، فرأى الجيش مقبلاً، فنزل مسرعاً، فعبَر نهر طهيثا، ومضى راجلاً. وتبعه جَمْعٌ من قوّاد السودان حتى وافوْا باب طنج، فاستدبر أغرتمش، وتركهم حتى جدُّوا في المسير إلى عسكره. وقد كان أمر الذي استخلفه على جيشه ألاّ يدع أحداً من السودان يظهر لأحد من أهل جيش أغرتمش، وأن يخفوا أشخاصهم ما قدروا، ويَدَعُوا القوم حتى يتوغّلوا النهر إلى أن يسمعوا أصوات طبوله؛ فإذا سمعوها خرجوا عليهم، وقصدوا أغرتمش.

فجاء أغرتمش بجيشه حتى لم يكن بينه وبين العسكر إلاَّ نهر يأخذ من طهيثا يقال له جارورة بني مَرْوان. فانهزم الجُبائيّ في السُّميريّات حتى وافى طهيثاً، فخلف سُميرِيّاته بها، وعاد راجلاً إلى جيش سليمان. واشتدّ جزع أهل عسكر سليمان منه، فتفرّقوا أيادي سبا. ونهضت منهم شِرذمة فيها قائد من قوّاد السودان يقال له أبو النداء، فتلقَّوْهم فواقعوهم، وشغلوهم عن دخول العسكر، وشذّ سليمان من وراء القوم، وضرب الزَّنج بطبولهم، وألقوْا أنفسهم في الماء للعبور إليهم. فانهزم أصحابُ أغرتمش وشدّ عليهم مَنْ كان بطهيثا من السودان، ووضعوا السيوف فيهم. وأقبل خُشيش على أشهب كان تحته يريد الرجوع إلى عسكره، فتلقّاه السودان، فصرعوه وأخذتْه سيوفهم، فقتِل وحُمل رأسه إلى سليمان. وقد كان خُشيش حين انتزعوا إليه، قال لهم: أنا خُشيش، فلا تقتلوني، وامضوا بي إلى صاحبكم! فلم يسمعوا لقوله. وانهزم أغرتمش، وكان في آخر أصحابه، ومضى حتى ألقى نفسه إلى الأرض، فركب دابّة ومضى. وتبعهم الزّنج حتى وصلوا إلى عسكرهم، فنالوا حاجتَهم منه، وظفروا بشذوات كانت مع خُشيش، وظفر الذين اتبعوا الجيش المولي بشَذَوات كانت مع أغرتمش فيها مال. فلما انتهى الخبر إلى أغرتمش، كرّ راجعاً حتى انتزعها من أيديهم. ورجع سليمان إلى عسكره، وقد ظفر بأسلاب ودوابّ. وكتب بخبر الوقعة إلى قائد الزَّنْج، وما كان منه فيها. وحمل إليه رأس خشيش وخاتمه، وأقرّ الشَّذَوَات التي أخذها في عسكره. فلما وافى كتابُ سليمان ورأس خُشيش، فأمر فطِيف به في عسكره، ونصب يوماً؛ ثم حمله إلى عليّ بن أبان، وهو يومئذ مقيم بنواحي الأهواز، وأمر بنصبه هناك؛ وخرج سليمان والجُبائيّ معه وجماعة من قُوّاد السودان إلى ناحية الحوانيت متطرّفين،

فتوافقوا هناك ثلاث عشرة شَذَاة مع المعروف بأبي تميم أخي المعروف بأبي عَوْن صاحب وصيف التركيّ، فأوقعوا به، فقتل وغرق، وظفروا من شَذَوَاته بإحدى عشرة شذاة.

قال محمد بن الحسن: هذا خبر محمد بن عثمان العبّادانيّ. فأما جَبَّاش، فزعم أن الشّذا التي كانت مع أبي تَميم كانت ثمانية، فأفلت منها شذاتان كانتا متأخرتين، فمضتا بمَنْ فيهما وأصاب سلاحاً ونهباً، وأتى على أكثر مَنْ كان في تلك الشَّذَوات من الجيش. ورجع سليمان إلى عسكره، وكتب إلى الخبيث بما كان منه مِنْ قتل المعروف بأبي تميم ومن كان معه، واحتبس الشَّذَوات في عسكره.

وفيها كانت وقعة بين الزّنج وأحمد بن لَيثَويه، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر أبا داود الصعلوك وقد كان صار معهم

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسبب أسر الصعلوك:

ذكر أن مسروراً البلخيّ وجه أحمد بن ليثويه إلى ناحية كور الأهواز، فلما وصل إليها نزل السوس. وكان الصفّار قد قلّد محمد بن عبيد الله بن أزاذَمَرْد الكرديّ كُور الأهواز، فكتب محمد بن عبيد الله إلى قائد الزَّنج يطمعه في الميل إليه ـ وقد كانت العادة جرت بمكاتبة محمد إياه من أوّل مخرجه ـ وأوهمه أنه يتولّى له كور الأهواز ويداري الصفّار حتى يستويَ له الأمر فيها. فأجابه الخبيث إلى ذلك على أن يكون عليّ بن أبان المتولي لها، ويكون محمد بن عبيد الله يخلفُه عليها. فقبل محمّد بن عبيد الله ذلك. فوجّه عليّ بن أبان أخاه الخليل بن أبان، في جمع كثير من السودان وغيرهم، وأيّدهم محمد بن عبيد الله بأبي داود الصُّعلوك، فمضوْا نحو السوس، فلم يصلوا إليها. ودفعهم ابن ليثويه

ومن كان معه من أصحاب السلطان عنها، فانصرفوا مفلولين، وقد قتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم جماعة. وسار أحمد بن ليثويه حتى نزل جنديْ سابور.

وسار عليّ بن أبان من الأهواز منجداً محمد بن عبيد الله على أحمد بن لَيثوَيْه، فتلقاه محمد بن عبيد الله في جَمْع من الأكراد والصعاليك، فلما قرب منه محمد بن عبيد الله سارا جميعاً، وجعلا بينهما المسرُقان؛ فكانا يسيران عن جانبيه. ووجّه محمد بن عبيد الله رجلاً من أصحابه في ثلاثمائة فارس، فانضمّ إلى عليّ بن أبان. فسار عليّ بن أبان ومحمد بن عبيد الله إلى أن وَافيَا عسكر مُكْرَم. فصار محمد بن عبيد الله إلى عليّ بن أبان وحده، فالتقيا وتحادثا، وانصرف محمد إلى عسكره. ووجّه إلى عليّ بن أبان القاسم بن عليّ ورجلاً من رؤساء الأكراد، يقال له حازم، وشيخاً من أصحاب الصفار يعرف بالطّالقاني، وأتوْا عليًّا، فسلّموا عليه. ولم يزل محمد وعليّ على ألفة، إلى أن وافى عليٌّ قنطرة فارس، ودخل محمد بن عبيد الله تُسْتَر. وانتهى إلى أحمد بن ليثَوَيْه تضافُر عليّ بن أبان ومحمد بن عبيد الله على قتالِه، فخرج عن جنديْ سابور، وصار إلى السوس. وكانت موافاة عليّ قنطرة فارس في يوم الجُمعة، وقد وعده محمد بن عبيد الله أن يخطُب الخاطب يومئذ، فيدعو لقائد الزّنج وله على منبر تُسْتَر. فأقام عليّ منتظراً ذلك، ووجّه بهبوذ بن عبد الوهاب لحضور الجمعة وإتيانه بالخبر. فلما حضرت الصلاة قام الخطيب، فدعا للمعتمد والصفّار ومحمد بن عبيد الله. فرجع بهبوذ إلى عليّ بالخبر، فنهض عليّ من ساعته، فركب دوابّه، وأمر أصحابه بالانصراف إلى الأهواز، وقدّمهم أمامه، وقدّم معهم ابن أخيه محمد بن صالح ومحمد بن يحيى الكرمانيّ

خليفته وكاتبه، وأقام حتى إذا جاوزوا كسر قنطرة كانت هناك لئلا يتبعه الخيل.

قال محمد بن الحسن: وكنت فيمن انصرف مع المتقدّمين من أصحاب عليّ. ومرّ الجيش في ليلتهم تلك مسرعين، فانتهوا إلى عسكر مكرَم في وقت طلوع الفجر ـ وكانت داخلة في سلْم الخبيث ـ فنكث أصحابه، وأوقعوا بعسكر مَكْرَم، ونالوا نهباً. ووافى عليّ بن أبان في أثر أصحابه، فوقف على ما أحدثوا فلم يقدِر على تغييره. فمضى حتى صار إلى الأهواز. ولما انتهى إلى أحمد بن ليثويْه انصرافُ عليّ، كرّ راجعاً حتى وافى تُسْتَر، فأوقع بمحمد بن عبيد الله ومَنْ معه، فأفلت محمد، ووقع في يده المعروف بأبي داود الصعلوك، فحمله إلى باب السلطان المعتمد، وأقام أحمد بن ليثويْه بتُسْتَر.

قال محمد بن الحسن: فحدّثني الفضل بن عديّ الدارميّ ـ وهو أحد مَنْ كان من أصحاب قائد الزَّنج انضمّ إلى محمد بن أبان أخي عليّ بن أبان، قال: لمّا استقرّ أحمد بن ليثويه بتُسْتَر، خرج إليه عليّ بن أبان بجيشه، فنزل قرية يقال لها برنجان، ووجّه طلائع يأتونه بأخباره. فرجعوا إليه، فأخبروه أنّ ابن ليثويه قد أقبل نحوه، وأنّ أوائل خيله قد وافت قرية تعرف بالباهليّين. فزحف عليّ بن أبان إليه، وهو يبشرّ أصحابَه، ويعِدُهم الظفر، ويحكي لهم ذلك عن الخبيث. فلمّا وافى الباهليين تلقاه ابن ليثويه في خيله، وهي زهاء أربعمائة فارس؛ فلم يلبثوا أن أتاهم مدد خيل، فكثرت خيلُ أصحاب السلطان واستأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع عليّ بن أبان إلى ابن ليثويْه، وانهزم باقي خيل عليّ بن أبان، وثبت جُمَيّعة من الرّجّالة، وتفرّق عنه أكثرهم.

واشتدّ القتال بين الفريقين، وترجّل عليّ بن أبان، وباشر القتال بنفسه راجلاً، وبين يديه غلام من أصحابه يقال له فَتْح، يعرف بغلام أبي الحديد، فجعل يقاتل معه. وبصر بعليّ أبو نصر سَلهب وبدر الروميّ المعروف بالشعرانيّ فعرفاه، فأنذرا الناس به، فانصرف هارباً حتى لجأ إلى المسرُقان، فألقى بنفسه فيه، وتلاه فَتْح، فألقى نفسه معه، فغرق فتح. ولحق عليّ بن أبان نصر المعروف بالروميّ، فتخلّصه من الماء، فألقاه في سُمَيريّة. ورُمي عليّ بسهم، وأصيب به في ساقه، وانصرف مفلولاً. وقتل من أنجاد السودان وأبطالهم جماعة كثيرة.

ثم دخلت سنة ٢٦٣هـ

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفيها كان لابن ليثويه وقعة مع أخي عليّ بن أبان، ظفر فيها بجماعة كثيرة من زنوجه.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

ذكر عن عليّ بن أبان، أن ابن ليثويْه لما هزمه في الوقْعة التي كانت بينهما في الباهليّين، فأصابه ما أصابه فيها، ووافى الأهواز، لم يقمْ بها، ومضى إلى عسكر صاحبه قائد الزّنْج، فعالج ما قد أصابه من الجراح حتى برأ، ثم كرّ راجعاً إلى الأهواز، ووجّه أخاه الخليل بن أبان وابن أخيه محمد بن صالح المعروف بأبي سهل، في جيش كثيف إلى ابن لَيثويْه؛ وهو يومئذ مقيم بعسكر مكرَم. فسارا فيمن معهما، فلقيهما ابنُ ليثويْه على فرسخ من عسكر مكرَم، قاصداً إليهما، فالتقى الجمعان، وقد كمّن ابن ليثويْه كميناً، فلما استحرّ القتال تطارد ابن

ليثويْه، فطمع الزّنج فيه، فتبِعوه حتى جاوزوا الكمين، فخرج من ورائهم، فانهزموا وتفرّقوا، وكرّ عليهم ابن ليثوْيه، فنال حاجته منهم، ورجعوا مفلولين. فانصرف ابن ليثويه بما أصاب من الرؤوس إلى تُسْتَر، ووجّه عليّ بن أبان أنكلويه مسلحةً إلى المسرُقان إلى أحمد بن لَيْثَوَيْه، فوجّه إليه ثلاثين فارساً من جُلْد أصحابه. وانتهى إلى الخليل بن أبان مسيرُ أصحاب ابن ليثويه إلى المسلَحة، فكمن لهم فيمن معه. فلما وافْوه خرج إليهم، فلم يفلِتْ منهم أحد، وقُتلوا عن آخرهم، وحُمِلت رؤوسهم إلى عليّ بن أبان، وهو بالأهواز، فوجّهها إلى الخبيث، وحينئذ أتى الصفّار الأهواز، وهرب عنها ابن ليثويه.

قتال فمهادنة بين الصفّار والزّنج في الأهواز

ذُكر أنّ يعقوب بن الليث لما صار إلى جنديْ سابور، نزلها وارتحل عن تلك الناحية كلّ مَنْ كان بها من قبَل السلطان. ووجّه إلى الأهواز رجلاً من قبَله يقال له الحصن بن العنبر. فلمّا قاربها خرج عنها عليّ بن أبان صاحب قائد الزَّنج، فنزل نهر السدرة، ودخل حصن الأهواز، فأقام بها. وجعل أصحابه وأصحاب عليّ بن أبان يُغير بعضهم على بعض، فيصيب كلّ فريق منهم مِن صاحبه، إلى أن استعدّ عليّ بن أبان، وسار إلى الأهواز، فأوقع بالحصن ومَنْ معه وقعةً غليظة، قتلَ فيها من أصحاب يعقوب خلقاً كثيراً، وأصاب خيلاً، وغنم غنائم كثيرة. وهرب الحصن ومَنْ معه إلى عسكر مكرَم، وأقام عليّ بالأهواز حتى استباح ما كان فيها. ثم رجع عنها إلى نهر السدرة، وكتب إلى بَهْبُوذ يأمره بالإيقاع برجل من الأكراد من أصحاب الصفّار كان مقيماً بدَوْرَق، فأوقع به بهبوذ، فقتل رجاله وأسره، فمنَّ عليه

وأطلقه؛ فكان عليّ بعد ذلك يتوقّع مسير يعقوب إليه فلم يَسِرْ، وأمدّ الحصن بن العنبر بأخيه الفضل بن العنبر، وأمرهما بالكفّ عن قتال أصحاب الخبيث، والاقتصار على المقام بالأهواز. وكتب إلى عليّ بن أبان يسأله المهادنة، وأن يقرّ أصحابه بالأهواز، فأبى ذلك عليّ دون نقل طعام كان هناك. فتجافَى له الصفّار عن نقل ذلك الطعام، وتجافى عليّ للصفّار عن عَلَف كان بالأهواز، فنقل عليّ الطعام، وترك العَلَف، وتكافّ الفريقان، أصحاب عليٍّ وأصحاب الصفار.

أخبار سنة ٢٦٤هـ

وفيها وُلّيَ محمد المولّد واسطاً، فحاربه سليمان بن جامع، وهو عامل على ما يلي تلك الناحية من قِبَل قائد الزّنج، فهزمه وأخرجه عن واسط فدخلها.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسببها:

ذُكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ سليمان بن جامع الموجّه كان من قبل قائد الزّنج إلى ناحية الحوانيت والبطائح، لمّا هزم جُعلان التركيّ عامل السلطان، وأوقع بأغَرْتِمش، ففلَّ عسكره، وقتل خُشَيْشاً، ونهب ما كان معهم، كتب إلى صاحبه قائد الزّنج يستأذنه في المصير إليه، ليحدث به عهداً، ويصلح أموراً من أمور منزله. فلمّا أنفذ الكتاب بذلك، أشار عليه أحمد بن مهديّ الجبائيُّ بتطرُّق عسكر البخاريّ، وهو يومئذ مقيم ببَرْدُودا، فقبل ذلك. وسار إلى بَرْدودا، فوافى موضعاً يقال له أكرمهر؛ وذلك على خمسة فراسخ من عسكر تكين. فلما وافى ذلك الموضع، قال الجبائيّ لسليمان: إن الرأي أن تقيم أنت هاهنا، وأمضي

أنا في السُّميريّات، فأجرّ القوم إليك، وأتعبهم فيأتوك وقد لغِبوا، فتنال حاجتَك منهم. ففعل سليمان ذلك. فعبّى خيله ورجّالته في موضعه ذلك، ومضى أحمد بن مهديّ في السُّميريات مُسحراً، فوافى عسكر تكين، فقاتله ساعة. وأعدّ تكين خيلَه ورجاله، وتطارد الجُبائيّ له، وأنفذ غلاماً إلى سليمان يعلمه أنّ أصحاب تكين واردون عليه بخيلهم. فلقي الرسول سليمان، وقد أقبل يقفو أثر الجُبَّائيّ لما أبطأ عليه خبره، فردّه إلى معسكره. ووافى رسول آخر للجبائيّ بمثل الخبر الأوّل. فلما رجع إلى عسكره، أنفذه ثعلب بن حفص البحرانيّ وقائداً من قواد الزَّنج، يقال له منينا في جماعة من الزَّنْج، فجعلهما كميناً في الصحراء ممّا يلي ميسرة خيل تكين، وأمرهما إذا جاوزهم خيل تكين أن يخرجوا من ورائهم. فلما علم الجبائيُّ أن سليمان قد أحكم لهم خيلَه وأمر الكمين، رفع صوته ليسمع أصحاب تكين يقول لأصحابه: غررتموني وأهلكتموني! وقد كنت أمرتكم ألاّ تدخلوا هذا المدخل، فأبيتم إلاّ إلقائي وأنفسكم هذا الملْقَى الذي لا أرانا ننجو منه. فطمع أصحاب تكين لمّا سمعوا قوله، وجدُّوا في طلبه، وجعلوا ينادون: بلبل في قفص. وسار الجبائيُّ سيراً حثيثاً، وأتبعوه يرشقونه بالسهام، حتى جاوزوا موضع الكمين، وقاربوا عسكر سليمان، وهو كامن من وراء الجدُر في خيله وأصحابه. فزحف سليمان، فتلقّى الجيش، وخرج الكمين من وراء الخيل، وثنى الجبائيّ صدور سُميريّاته إلى مَنْ في النهر، فاستحكمت الهزيمة عليهم من الوجوه كلها، وركبهم الزّنج يقتلونهم ويسلبونهم، حتى قطعوا نحواً من ثلاثة فراسخ.

ثم وقف سليمان وقال للجبائيّ: نرجع فقد غنمنا وسلمنا، والسلامة أفضل من كل شيء. فقال الجبائيُّ: كلا؛ قد نَخبنا قلوبَهم،

ونفذتْ حيلتنا فيهم؛ والرأي أن نكسبهم في ليلتنا هذه، فلعلّنا أن نزيلهم عن عسكرهم، ونفضَّ جمعهم. فاتبع سليمان رأي الجبّائيّ، وصار إلى عسكر تكين، فوافاه في وقت المغرب، فأوقع به. ونهض تكين فيمن معه، فقاتل قتالاً شديداً، فانكشف عنه سليمان وأصحابه. ثم وقف سليمان وعبّأ أصحابه، فوجّه شبلاً في خيل من خيله، وضمّ إليه جمعاً من الرّجّالة إلى الصحراء، وأمر الجبّائيّ، فسار إلى السُّمَيريّات في بطن النهر، وسار هو فيمن معه من أصحابه الخيّالة والرّجالة. فتقدّم أصحابه حتى وافى تكين، فلم يقف له أحد، وانكشفوا جميعاً وتركوا عسكرهم. فغنم ما وجد فيه، وأحرق العسكر، وانصرف إلى معسكره بما أصاب من الغنيمة. ووافى عسكره، فألفى كتاب الخبيث قد ورد بالإذن له في المصير إلى منزله، فاستخلف الجُبائيّ، وحمل الأعلام التي أصابها من عسكر تكين والشَّذوات التي أخذها من المعروف بأبي تميم ومن خُشيش ومن تكين، وأقبل حتى ورد عسكر الخبيث؛ وذلك في جمادى الأولى من سنة أربع وستين ومائتين.

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله تهيأ للزنج دخول واسط، وذكر الخبر عن الأحداث الجليلة في سنة أربع وستين ومائتين:

ذكر أن الجُبّائيّ يحيى بن خلف لمّا شخص سليمان بن جامع من معسكره بعد الوقعة التي أوقعها بتكين إلى صاحب الزَّنج، خرج في السُّمَيريات بالعسكر الذي خلّفه سليمان معه إلى مازروان لطلب المِيرة، ومعه جماعة من السودان. فاعترضه أصحاب جُعْلان، فأخذوا سفناً كانتْ معه، وهزموه، فرجع مفلولاً حتى وَافَى طهيثا. ووافتْه كتب أهل القرية، يخبرونه أنّ منجور مولى أمير المؤمنين ومحمد بن علي بن

حبيب اليشكريّ لما اتّصل بهما خبر غيبة سليمان بن جامع عن طَهيثا، اجتمعا وجمعا أصحابهما، وقصدا القرية، فقتلا فيها وأحرقا وانصرفا. وجلا من أفلت ممن كان فيها، فصاروا إلى القرية المعروفة بالحجّاجية، فأقاموا بها. فكتب الجُبّائيّ إلى سليمان بخبر ما وردت به كُتُب أهل القرية، مع ما ناله من أصحاب جُعْلان، فأنهض قائد الزّنج سليمان إلى طهيثا معجّلا. فوافاها، فأظهر أنه يقصد لقتال جُعْلان، وعبّأ جيشه، وقدّم الجبائيّ أمامه في السميريّات، وجعل معه خيلاً ورجلاً، وأمره بموافاة مازروان والوقوف بإزاء عسكر جُعْلان، وأنْ يظهر الخيل ويرعاها بحيث يراها أصحاب جُعْلان، ولا يُوقع بهم. وركب هو في جيشه أجمع إلاّ نفراً يسيراً خلّفهم في عسكره. ومضى في الأهواز حتى خرج على الهورَيْن المعروفين بالربَّة والعمرقة. ثم مضى نحو محمد بن عليّ بن حبيب، وهو يومئذ بموضع يقال له تلفَخَّار، فوافاه فأوقع به وقعةً غليظة، قتل فيها قتلى كثيرة، وأخذ خيلاً كثيرة وحاز غنائم جزيلة، وقتل أخاً لمحمد بن عليّ، وأفلت محمد، ورجع سليمان. فلما صار في صحراء بين البزّاق والقرية وافته خيل لبني شيبان، وقد كان فيمن أصاب سليمان بتلّفخّار سيد من سادات بني شيبان، فقتله وأسر ابناً له صغيراً، وأخذ حِجْراً كانت تحته، فانتهى خبره إلى عشيرته، فعارضوا سليمان بهذه الصحراء في أربعمائة فارس. وقد كان سليمان وجّه إلى عُمير بن عمار خليفته بالطفّ حين توجّه إلى ابن حبيب، فصار إليه، فجعله دليلاً لعلمه بتلك الطريق. فلمّا رأى سليمان خيل بني شيبان قدّم أصحابه أجمعين إلاّ عمير بن عمار فإنه انفرد، فظفرت به بنو شيبان فقتلوه، وحملوا رأسه، وانصرفوا.

وانتهى الخبر إلى الخبيث، فعظُم عليه قتل عُمير. وحمل سليمان

إلى الخبيث ما كان أصاب من بلد محمد بن عليّ بن حبيب؛ وذلك في آخر رجب من هذه السنة. فلما كان في شعبان نهض سليمان في جَمْع من أصحابه، حتى وافى قرية حسان، وبها يومئذ قائد من قوّاد السلطان يقال له جيْش بن حمرتكين، فأوقع به، فأجفل عنه، وظفر بالقرية فانتهبها، وأحرق فيها وأخذ خيلاً، وعاد إلى عسكره، فوجد هنالك صلاغاً[1] فيها خيل من خيل جُعلان، كان أراد أن يوافي بها نهر أبان. وقد كان خرج إلى ما هناك متصيّداً، فأوقع الجبائيّ بتلك الصلاغ، فقتل مَنْ فيها، وأخذ الخيل ـ وكانت اثني عشر فرساً ـ وعاد إلى طَهيثا. ثم نهض سليمان إلى تلّ رمانا، لثلاث بقين من شعبان فأوقع بها، وجلا عنها أهلها، وحاز ما كان فيها، ثم رجع إلى عسكره. ونهض لعشر ليال خَلَوْن من شهر رمضان إلى الموضع المعروف بالجازرة، وأبًّا يومئذ هناك، وجُعْلان بمازروان.

وقد كان سليمان كتب إلى الخبيث في التوجيه إليه بالشّذا، فوجّه إليه عشر شذوات، مع رجل من أهل عبَّادان يقال له الصقر بن الحسين، فلمّا وافى سليمان الصّقر بالشَّذا أظهر أنه يريد جُعْلان. وبادرت الأخبار إلى جُعْلان بأن سليمان يريد موافاته؛ فكانت همّته ضبط عسكره. فلما قَرُب سليمان من موضع أبّا مال إليه، فأوقع به، وألفاه غارًّا بمجيئه، فنال حاجته، وأصاب ستّ شذَوات.

قال محمد بن الحسن: قال جبّاش: كانت الشَّذَوات ثمانية وجدها في عسكره، وأحرق شذاتين كانَتَا على الشطّ، وأصاب خيلاً

(١) الصَّلْغَة: السفينة الكبيرة.

وسلاحاً وأسلاباً، وانصرف إلى عسكره. ثم أظهر أنه يريد قصد تكين البخاريّ، وأعدّ مع الجبائيّ وجعفر بن أحمد خال ابن الخبيث الملعون المعروف بأنكلاي سفناً. فلما وافت السفن عسكر جُعْلان، نهض إليها، فأوقع بها، وحازها. وأوقع سليمان من وجهة البرّ، فهزمه إلى الرُّصافة، واسترجع سفنه. وحاز سبعة وعشرين فرساً ومهرين من خيل جُعْلان وثلاثة أبغل، وأصاب نهباً كثيراً وسلاحاً، ورجع إلى طَهيثا.

قال محمد: أنكر جبّاش أن يكون لتكين في هذا الموضع ذكر، ولم يعرف خبر العباداني في تكين، وزعم أنّ القصد لم يكن إلاّ إلى جُعْلان، وقد كان خبره خفيَ على أهل عسكره حتى أرجفوا بأنه قد قُتِل وقتل الجبّائيّ معه، فجزعوا أشدّ الجزع. ثم ظهر خبره وما كان منه من الإيقاع بجعلان، فسكنوا وقرّوا إلى أن وافَى سليمان، وكتب بما كان منه إلى الخبيث، وحمل أعلاماً وسلاحاً. ثم صار سليمان إلى الرُّصافة في ذي القعدة، فأوقع بمطر بن جامع، وهو يومئذ مقيم بها، فغنم غنائم كثيرة، وأحرق الرّصافة، واستباحها، وحمل أعلاماً إلى الخبيث. وانحدر لخمس ليالٍ خلون من ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين إلى مدينة الخبيث، فأقام ليعيّد هناك ويقيم في منزله. ووافى مطر بن جامع القرية المعروفة بالحجّاجية، فأوقع بها، وأسر جماعةً من أهلِها. وكان القاضي بها من قبَل سليمان رجلاً من أهلها يقال له سعيد بن السيد العدويّ. فأسِر وحُمِل إلى واسط هو وثعلب بن حفص وأربعة قوّاد كانوا معه. فصاروا إلى الحرجليّة على فرسخَيْن ونصف من طهِيثا، ومضى الجبّائيّ في الخيل والرجل لمعارضة مطر. فوافى الناحية وقد نال مطر ما نال منها، فانصرف عنها، وكتب إلى سليمان بالخبر، فوافى سليمان يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة من هذه السنة. ثم

صرف جُعْلان، ووافى أحمد بن ليثويْه، فأقام بالشديديّة. ومضى سليمان إلى موضع يقال له نهر أبان، فوجد هناك قائداً من قوّاد ابن ليثويْه يقال له طُرْناج، فأوقع به وقتله.

قال محمد: قال جبّاش: المقتول بهذا الموضع بينَك. فأما طُرْناج فإنه قتِل بمازروان. ثم وافى الرّصافة، وبها يومئذ عسكر مطر بن جامع، فأوقع به، فاستباح عسكره، وأخذ منه سبع شَذَوات، وأحرق شَذَاتين؛ وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين.

قال محمد: قال جبّاش: كانت هذه الوقعة بالشديديّة؛ والذي أخِذ يومئذ ستّ شذوات. ثم مضى سليمان في خمس شَذَوات، ورتّب فيها صناديد قوّاده وأصحابه، فواقعه تكين البخاريّ بالشديديّة، وقد كان ابن ليْثويْه حينئذ صار إلى ناحية الكوفة وجُنبلاَء، فظهر تكين على سليمان، وأخذ منه الشذوات التي كانت معه بآلتها وسلاحها ومقاتلتها. وقتِل في هذ الوقعة جِلّة قوّاد سليمان.

ثم زحف ابن ليثويْه إلى الشديديّة، وضبط تلك النواحي إلى أن ولَّى أبو أحمد محمّداً المولّد واسطاً.

قال محمد: قال جبّاش: لمّا وافَى ابن ليثويه الشديديّة سار إليه سليمان، فأقام يومين يقاتله. ثم تطارد له سليمان في اليوم الثالث، وتبعه ابن ليثويه فيمن تسرّع معه، فرجع إليه سليمان، فألقاه في فوّهة بردودا، فتخلص بعد أن أشفى على الغرق. وأصاب سليمان سبع عشرة دابة من دوابّ ابن ليثويه.

قال: وكتب سليمان إلى الخبيث يستمدّه، فوجّه إليه الخليل بن

أبان في زُهاء ألف وخمسمائة فارس، ومعه المذوّب. فقصد عند موافاة هذا المدد إياه لمحاربة محمد المولَّد، فأوقع به فهرب المولَّد، ودخل الزّنج واسطاً، فقتِل بها خلْق كثير، وانتهبت وأحرقت. وكان بها إذ ذاك كنجور البخاريّ، فحامى يومه ذلك إلى وقت العصر، ثم قتِل. وكان الذي يقود الخيل يومئذ في عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوّب. وكان الجُبّائيّ في السميريّات، وكان الزنجيّ بن مهربان في الشَّذَوات، وكان سليمان بن جامع في قوّاده من السودان ورجّالته منهم، وكان سليمان بن موسى الشعرانيّ وأخواه في خيله ورجْله مع سليمان بن جامع؛ فكان القوم جميعاً يداً واحدة. ثم انصرف سليمان بن جامع عن واسط، ومضى بجميع الجيش إلى جُنْبُلاء ليعيث ويخرب. ووقع بينه وبين الخليل بن أبان اختلافٌ، فكتب الخليل بذلك إلى أخيه عليّ بن أبان، فاستعفى له قائد الزنج من المُقام مع سليمان، وأذن للخليل بالرجوع إلى مدينة الخبيث مع أصحاب عليّ بن أبان وغلمانه. وتخلّف المذوَّب في الأعراب مع سليمان، وأقام بمعسكره أياماً، ثم مضى إلى نهر الأمير، فعسكر به. ووجّه الجبائيَّ والمذوّب إلى جُنْبُلاء، فأقاما هنالك تسعين ليلة، وسليمان معسكر بنهر الأمير.

قال محمد: قال جبّاش: كان سليمان معسكراً بالشديديّة.

ذكر خبر خروج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرّاء

وفي هذه السنة خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامُرّاء، ومعه الحسن بن وهب؛ وشيّعه أحمد بن الموفّق ومسرور البلخيّ وعامة القواد. فلما صار بسامُرّاء غضب عليه المعتمد وحبسه وقيّده، وانتهب

داره وداري ابنيْه وهب وإبراهيم. واستوزر الحسن بن مخلّد لثلاث بقين من ذي القعدة؛ فشخص الموفّق من بغداد ومعه عبيد الله بن سليمان. فلما قرب أبو أحمد من سامُرّاء تحوّل المعتمد إلى الجانب الغربيّ، فعسكر به، ونزل أبو أحمد ومَنْ معه جزيرة المؤيّد، واختلفت الرسل بينهما. فلمّا كان بعد أيام خَلَوْن من ذي الحجة، صار المعتمد إلى حَرّاقة[١] في دِجْلة، وصار إليه أخوه أبو أحمد في زَلاّلٍ[٢]، فخلع على أبي أحمد وعلى مسرور البلخيّ وكيْغَلغ وأحمد بن موسى بن بغا. فلما كان يوم الثلاثاء لثمان خَلَوْن من ذي الحِجة يوم التّروية عَبَر أهلُ عسكر أبي أحمد إلى عسكر المعتمد، وأطلق سليمان بن وهب، ورجع المعتمد إلى الجوْسق، وهرب الحسن بن مخلّد وأحمد بن صالح بن شيرزاد، وكتب في قبض أموالهما وأموال أسبابهما، وحبس أحمد بن أبي الأصبغ، وهرب القوّاد المقيمون كانوا بسامرّاء إلى تَكْريت. وتغيّب أبو موسى بن المتوكل، ثم ظهر. ثم شخص القوّاد الذين كانوا صاروا إلى تَكْرِيت إلى الموصل، ووضعوا أيديهم في الجباية.

أخبار سنة ٢٦٥هـ

وقعة بين أحمد بن لَيثونه وسليمان بن جامع قائد صاحب الزّنج بناحية جُنبُلاء

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسببها:

ذُكر أن سليمان بن جامع كتب إلى صاحب الزَّنج، يخبره بحال

(١) الحراقة: سفينة فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو.

(٢) الزلاّل: المركب السريع.

نهر يعرف بالزهيريّ، ويسأله الإذن له في النفقة على إنفاذ كَرْيه إلى سَوَاد الكوفة والبرار، ويُعلِمه أنّ المسافة في ذلك قريبة، وأنه متى أنفذه تهيّأ له بذلك حَمْل كلّ ما بنواحي جُنْبُلاء وسواد الكوفة من المِيرة. فوجّه الخبيث بذلك رجلاً يقال له محمد بن يزيد البصري، وكتب إلى سليمان بإزاحة عياله في الحال والإقامة معه في جيشه إلى وقت فراغه مما وُجّه له. فمضى سليمان بجميع جيشه حتى أقام بالشريطيّة نحواً من شهر، وألقى الفعَلة في النهر. وخلال ذلك ما كان سليمان يتطرّق ما حوله من أهل خُسْرُ سابور؛ وكانت المِيرة تتّصل به من ناحية الصين وما والاها إلى أن واقعه ابن لَيْثويْه عامل أبي أحمد على جُنْبُلاء، فقتل له أربعة عشر قائداً.

قال محمد بن الحسن: قتل سبعة وأربعون قائداً وخَلْقاً من الخلق لا يحصى كثرة، واستبيح عسكره، وأحرِقت سفنه، وكانت مقيمةً في هذا النهر الذي كان مقيماً على إنفاذه. فمضى مفلولاً حتى وافى طَهيثا، فأقام بها. ووافى الجُبّائيُّ في عقب ذلك، ثم أصعد فأقام بالموضع المعروف ببرّ تمرتا، واستخلف على الشَّذَوات الاشتيام الذي يقال له الزنجيّ بن مهربان. وقد كان السلطان وجّه نُصيراً لتقييد شامرْج، وحمْله إلى الباب، وتقلّد ما كان يتقلّده، فوافى نصير الزّنجيّ بن مهربان بعد حمله شامرج مقيّداً بنهر برّتمرتا، وأخذ منه تسع شَذَوات، واستردّ الزنجيّ منها ستّاً.

قال محمد بن الحسن: أنكر جبّاش أن يكون الزّنجيّ بن مهربان استردّ من الشَّذَوات شيئاً، وزعم أنّ نصيراً ذهب بالشَّذوات أجمع،

وانصرف إلى طَهِيثا، وبادر بالكتاب إلى سليمان، ووافاه. فأقام سليمان بطهِيثا إلى أن اتّصل به خبر إقبال الموفّق.

وفيها صارت جماعة من الزّنج في ثلاثين سُمَيريّة إلى جَبُّل، فأخذوا أربع سفن فيها طعام، ثم انصرفوا.

وفيها دخل الزَّنج النّعمانيّة، فأحرقوا سوقَها، وأكثر منازل أهلها، وسَبَوا، وصاروا إلى جَرْجَرَايا، ودخل أهلُ السواد بغداد.

وفي ذي الحجة منها صار مسرور البلخيّ إلى النيل، فتنحّى عنها عبد الله بن ليْثويْه في أصحاب أخيه، وقد أظهر الخلاف على السلطان، فصار ومَنْ معه إلى أحمد أباذ، فتبعهم مسرور البلخيّ يريد محاربتهم؛ فبدر عبد الله بن ليثويْه ومَنْ كان معه، فترجّلوا لمسرور، وانقادوا له بالسمع والطاعة، وعبد الله بن ليثويْه نزع سيفه ومنطقته فعلقهما في عُنُقه، يعتذر إليه، ويحلف أنه حمل على ما فعل، فقبل منه، وأمر فخلع عليه وعلى عدّة من القوّاد معه.

وفيها شخص تكين البخاريُّ إلى الأهواز مقدّمة لمسرور البلخي.

هزيمة الزنج في وقعة باب كودك

ذكر الخبر عمّا كان من أمر تكين بالأهواز حين صار إليها:

ذكر محمد بن الحسن أنّ تكين البخاريّ ولاّه مسرور البلخيّ كور الأهواز حين ولاَّه أبو أحمد عليها، فتوجّه تكين إليها، فوافاها. وقد صار إليه عليّ بن أبان المهلبيّ، فقصد تُسْتَرَ، فأحاط بها في جَمع كثير من أصحابه الزَّنج وغيرِهم، فراع ذلك أهلَها، وكادوا أن يُسلموها. فوافاها تكين في تلك الحال، فلم يضع عنه ثياب السَّفَر، حتى واقع

عليّ بن أبان وأصحابه؛ فكانت الدَّبَرَة على الزَّنج؛ فقتِلوا وهُزِموا وتفرّقوا، وانصرف عليّ فيمن بقي معه مفلولاً مدحوراً. وهذه وقعة باب كُودَك المشهورة.

ورجع تكين البخاريّ، فنزل تُسْتَر، وانضمّ إليه جمعٌ كثير من الصعاليك وغيرهم. ورحل إليه عليّ بن أبان في جمع كثير من أصحابه، فنزل شرقيّ المسرُقان، وجعل أخاه في الجانب الغربيّ في جماعة من الخيل، وجعل رجّالة الزّنج معه. وقدم جماعة من قوّاد الزَّنج، منهم أنكلويه وحسين المعروف بالحماميّ وجماعة غيرهما، فأمرهم بالمقام بقنطرة فارس.

وانتهى الخبر بما دبّره عليّ بن أبان إلى تكين، وكان الذي نقل إليه الخبر غلاماً يقال له وصيف الروميّ، وهرب إليه من عسكر عليّ بن أبان، فأخبره بمقام هؤلاء القوم بقنطرة فارس، وأعلمه تشاغُلَهم بشرب النبيذ وتفرّق أصحابهم في جمع الطعام. فسار إليهم تكين في الليل في جمع من أصحابه، فأوقع بهم؛ فقتل من قوّاد الزّنج أنكلويه والحسين المعروف بالحمّاميّ ومفرّج المكنى أبا صالح وأندرون. وانهزم الباقون، فلحقوا بالخليل بن أبان، فأعلموه ما نزل بهم؛ وسار تكين على شرقيّ المسرُقان حتى لقيَ علي بن أبان في جمعه، فلم يقف له عليّ وانهزم عنه، وأسِر غلام لعليّ من الخيالة يعرف بجَعْفَرَوَيْه، ورجع عليّ والخليل في جمعهما إلى الأهواز، ورجع تكين إلى تُسْتَر. وكتب عليُّ بن أبان إلى تكين يسأله الكفَّ عن قتل جعفرويه، فحبسه. وجرت بين تكين وعليّ بن أبان مراسلات وملاطفات، وانتهى الخبر إلى

مسرور، وانتهى إلى مسرور أنّ تكين قد ساءت طاعته، وركن إلى عليّ بن أبان ومايله.

قال محمد بن الحسن: فحدّثني محمد بن دينار، قال: حدّثني محمد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ المأمونيّ الباذغيسيّ ـ وكان من أصحاب تكين البخاريّ ـ قال: لمّا انتهى إلى مسرور الخبر بالتياث تكين عليه توقّف حتى عرف صحة أمره. ثم سار يريد كُور الأهواز وهو مظهرٌ الرضا عن تكين والإحماد لأمره، فجعل طريقه على شابَرْزان، ثم سار منها حتى وافَى السوس، وتكين قد عرف ما انتهى إلى مسرور من خبرِه؛ فهو مستوحش من ذلك ومن جماعة كانت تبعته عند مسرور من قوّاده. فجرت بين مسرور وتكين رسائل حتى أمنَ تكين. فصار مسرور إلى وادي تُسْتَر، وبعث إلى تكين، فعبَر إليه مسلِّماً، فأمر به فأخِذ سيفه، ووُكّلَ به. فلما رأى ذلك جيش تكين انفضُّوا من ساعتهم؛ ففرقة منهم صارت إلى ناحية صاحب الزّنج، وفرقة صارت إلى محمد بن عبيد الله الكرديّ. وانتهى الخبر إلى مسرور، فبسط الأمان لمن بقي من جيش تَكين، فلحقوا به.

قال محمد بن عبد الله بن الحسن المأمونيّ: فكنت أحد الصائرين إلى عسكر مسرور، ودفع مسرور تكين إلى إبراهيم بن جُعْلان، فأقام في يده محبوساً، حتى وافاه أجلُه فتوفِّيَ.

وكان بعض أمر مسرور وتكين الذين ذكرناه في سنة خمس وستين، وبعضه في سنة ست وستين.

وفيها كانت موافاة المعروف بأبي المغيرة بن عيسى بن محمد المخزومي متغلّباً بزنج معه على مكة.

أخبار سنة ٢٦٦هـ

مواجهات بين الزنج وعامل الأهواز

وفيها ولِّيَ أغرتمش ما كان تكين البخاريّ يليه من أعمال الأهواز. فسار أغرتمش إليها، ودخلها في شهر رمضان. فذكر محمد بن الحسن أن مسروراً وجّه أغرتمش وأبّا ومَطَر بن جامع لقتال عليّ بن أبان، فساروا حتى انتهوْا إلى تُسْتَر، فأقاموا بها، واستخرجوا مَن كان في حبس تكين؛ وكان فيه جعفرويه في جماعة من أصحاب قائد الزَّنج، فقتِلوا جميعاً. وكان مطر بن جامع المتولّي قتلهم. ثم ساروا حتى وافَوْا عسكر مكرَم. ورحل إليهم عليّ بن أبان، وقدّم أمامه إليهم الخليل أخاه. فصار إليهم الخليل، فواقفهم وتلاه عليّ. فلما كثر عليهم جمْع الزَّنج، قطعوا الجسر وتحاجزوا، وجنّهم الليل، فانصرف عليّ بن أبان في جميع أصحابه، فصار إلى الأهواز وأقام الخليل فيمن معه بالمسرُقان. وأتاه الخبر بأن أغرتمش وأبّا ومَطَر بن جامع قد أقبلوا نحوه، ونزلوا الجانب الشرقيّ من قنطرة أربُك ليعبروا إليه. فكتب الخليل بذلك إلى أخيه عليّ بن أبان. فرحل عليّ إليهم حتى وافاهم بالقنطرة، ووجّه إلى الخليل يأمره بالمصير إليه، فوافاه وارتاع مَنْ كان بالأهواز من أصحاب عليّ، فقلعوا عسكره، ومضوْا إلى نهر السِّدرة. ونشبت الحرب بين عليّ بن أبان وقوّاد السلطان هناك؛ وكان ذلك يومهم، ثم تحاجزوا. وانصرف عليّ بن أبان إلى الأهواز، فلم يجد بها أحداً، ووجد أصحابه أجمعين قد لحقوا بنهر السِّدرة، فوجّه إليهم مَنْ يردّهم، فعسر ذلك عليه فتبعهم، فأقام بنهر السِّدرة. ورجع قوّاد السلطان حتى نزلوا عسكر مكرم؛ وأخذ عليّ بن أبان في الاستعداد

لقتالهم. وأرسل إلى بهبوذ بن عبد الوهاب، فأتاه فيمن معه من أصحابه. وبلغ أغرتمش وأصحابه ما أجمع عليه من المسير إليهم عليّ، فساروا نحوه، وقد جعل عليّ بن أبان أخاه على مقدّمته، وضمّ إليه بَهْبُوذ وأحمد بن الزَّرَنجيّ، فالتقى الفريقان بالدُّولاب. فأمر عليّ الخليلَ بن أبان أن يجعلَ بَهْبُوذ كميناً، فجعله. وسار الخليل حتى لقيَ القوم، ونشب القتال بينهم، فكان أوّل نهار ذلك اليوم لأصحاب السلطان. ثم جالوا جَوْلة وخرج عليهم الكمين، وأكبّ الزّنج إكبابةً، فهزموهم، وأسِر مطر بن جامع، صُرِعَ عن فرس كان تحته، فأخذه بهبوذ، فأتى به عليًّا. وقتل سيما المعروف بصغراج في جماعة من القوّاد.

ولمّا وافى بهبوذ عليًّا بمطر، سأله مطر استبقاءَه، فأبى ذلك عليّ، وقال: لو كنت أبقيت على جعفرويْه لأبقينا عليك. وأمر به فأُدْنيَ إليه، فضرب عنقَه بيده.

ودخل عليّ بن أبان الأهواز، وانصرف أغرتمش وأبّا فيمن أفلت معهما، حتى وافيا تُسْتَرَ. ووجّه عليّ بن أبان الرؤوس إلى الخبيث، فأمر بنصبها على سُور مدينته.

قال: وكان عليّ بن أبان بعد ذلك يأتي أغرتمش وأصحابه، فتكون الحرب بينهم سِجالاً عليه وله. وصرَف الخبيث أكثر جنوده إلى ناحية عليّ بن أبان، فكثروا على أغرتمش، فركن إلى الموادعة. وأحبّ عليّ بن أبان مثل ذلك، فتهادَنَا. وجعل عليّ بن أبان يُغير على النواحي. فمن غاراته مصيره إلى القرية المعروفة ببيرُوذ، فظهر عليها،

ونال منها غنائم كثيرة، فكتب بما كان منه من ذلك إلى الخبيث، ووجّه بالغنائم التي أصابها وأقام.

وفيها وثبت الأعراب على كُسوة الكعبة، فانتهبوها، وصار بعضُها إلى صاحب الزَّنج، وأصاب الحاجّ فيها شدّة شديدة.

وفيها دخل أصحاب قائد الزنج رَامَهُرْمُز

ذكر الخبر عن سبب مصيرهم إليها:

قد ذكرنا قبلُ ما كان من أمر محمد بن عبيد الله الكرديّ وعليّ بن أبان صاحب الخبيث، حين تلاقَيَا على صلْح منهما. فذُكِر أنّ عليًّا كان قد احتجن على محمد ضِغْناً في نفسه، لما كان في سفره ذلك، وكان يرصده بشرّ. وقد عرف ذلك منه محمد بن عبيد الله، وكان يروم النَّجاة منه، فكاتبَ ابنَ الخبيث المعروف بأنكلاي، وسأله مسألة الخبيث ضمّ ناحيته إليه لتزول يد عليّ منه، وهاداه، فزاد ذلك عليّ بن أبان عليه غيظاً وحَنَقاً؛ فكتب إلى الخبيث يعرّفه به، ويصحّح عنده أنه مصرّ على غَدرِه، ويستأذنه في الإيقاع به، وأن يجعل الذّريعة إلى ذلك مسألته حمَل خراج ناحيته إليه، فأذن له الخبيث في ذلك. فكتب عليّ إلى محمد بن عبيد الله في حَمْل المال، فلواه به، ودافعه عنه. فاستعدّ له عليّ، وسار إليه، فأوقع برامهرمُز، ومحمدُ بن عبيد الله يومئذ مقيمٌ بها، فلم يكن لمحمد منه امتناع، فهرب ودخل عليّ رامهرمُز، فاستباحها. ولحق محمد بن عبيد الله بأقصى معاقله من أرْبَقَ والبيلم، وانصرف عليّ غانماً. وراع ما كان من ذلك من عليّ محمداً، فكتب يطلب المسألة، فأنهى ذلك عليّ إلى الخبيث، فكتب إليه يأمره بقبول ذلك، وإرهاق

محمد بحمْل المال. فحمل محمد بن عبيد الله مائتي ألف درهم، فأنفذها عليّ إلى الخبيث، وأمسك عن محمد بن عبيد الله وعن أعماله.

وفيها كانت وقعةٌ لأكراد الداربان مع زَنْج الخبيث، هزِموا فيها وفُلُّوا

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

ذُكر عن محمد بن عبيد الله بن أزارْمَرْد أنه كتب إلى عليّ بن أبان بعد حمله إليه المالَ الذي ذكرنا مبلغه قبلُ، وكفِّ عليّ عنه وعن أعماله، يسأله المعونة على جماعة من الأكراد كانوا بموضع يقال له الداربان، على أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم. فكتب عليّ إلى الخبيث يسأله الإذن له في النهوض لذلك، فكتب إليه أن وجِّه الخليل بن أبان وبهبوذ بن عبد الوهاب، وأقِمْ أنت، ولا تنفذ جيشك حتى تتوثّق من محمد بن عبيد الله برهائن تكون في يدك منه، تأمن بها من غدره فقد وترتَه، وهو غير مأمون على الطلب بثأره. فكاتب عليٌّ محمّدَ بن عبيد الله بما أمره به الخبيث، وسأله الرهائن، فأعطاه محمد بن عبيد الله الأيمان والعهود، ودافعه على الرهائن. فدعا عليًّا الحِرْصُ على الغنائم التي أطمعه فيها محمد بن عبيد الله إلى أن أنفذ الجيش. فساروا ومعهم رجال محمد بن عبيد الله، حتى وافوا الموضع الذي قصدوا له، فخرج إليهم أهله، ونشبت الحرب، فظهر الزّنج في ابتداء الأمر على الأكراد. ثم صدَّهم الأكراد، وخذلهم أصحاب محمد بن عبيد الله، فتصدّعوا وانهزموا مفلولين مقهورين؛ وقد كان محمد بن عبيد الله أعدّ لهم قوماً أمرهم بمعارضتهم إذا انهزموا، فعارضوهم وأوقعوا بهم، ونالوا منهم أسلاباً، وأرجلوا طائفة منهم عن دوابّهم فأخذوها، فرجعوا بأسوأ

حال. فكتب المهلبيّ إلى الخبيث بما نال أصحابه. فكتب إليه يعنّفه، ويقول: قد كنتُ تقدّمت إليك ألاّ تركن إلى محمد بن عبيد الله، وأن تجعل الوثيقة بينك وبينه الرّهائن، فتركتَ أمري، واتبعتَ هواك، فذاك الذي أردَاك وأردى جيشك.

وكتب الخبيث إلى محمد بن عبيد الله، أنه لم يخف عليّ تدبيرُك على جيش عليّ بن أبان، ولن تعدم الجزاء على ما كان منك.

فارتاع محمد بن عبيد الله مما ورد به عليه كتاب الخبيث، وكتب إليه بالتضرّع والخضوع، ووجّه بما كان أصحابه أصابوا من خيل أصحاب عليّ حيث عورضوا وهم منهزمون، فقال: إني صرتُ بجميع مَنْ معي إلى هؤلاء القوم الذين أوقعوا بالخليل وبَهْبُوذ، فتوعّدتهم وأخفتهم، حتى ارتجعت هذه الخيل منهم، ووجّهت بها. فأظهر الخبيث غضباً، وكتب إليه يتهدده بجيش كثيف يرميه به. فأعاد محمد الكتاب بالتضرّع والاستكانة؛ فأرسل إلى بَهْبُوذ، فضمن له مالاً، وضمن لمحمد بن يحيى الكِرمانيّ مثل ذلك، ومحمد بن يحيى يومئذ الغالب على عليّ بن أبان، والمصرّف له برأيه. فصار بَهْبُوذ إلى عليّ بن أبان، وظاهره محمد بن يحيى الكِرْمانيّ على أمره حتى أصلحا رأي عليّ في محمد بن عبيد الله وسلاّ ما في قلبه من الغَيْظ والحَنَق عليه، ثم مضيا إلى الخبيث. ووافق ذلك ورودُ كتاب محمد بن عبيد الله عليه، فصوّبا وصعّدا حتى أظهر لهما الخبيث قبولَ قولهما، والرجوعَ لمحمد بن عبيد الله إلى ما أحبّ، وقال: لست قابلاً منه بعد هذا إلاّ أن يَخطب لي على منابر أعماله.

فانصرف بَهْبُوذ والكرمانيّ بما فارقهما عليه الخبيث، وكتبا به إلى

محمد بن عبيد الله، فأصدر جوابه إلى كلّ ما أراده الخبيث، وجعل يُراوغ عن الدّعاء له على المنابر. وأقام عليّ بعد هذا مدّة، ثمّ استعدّ لمتّوث، وسار إليها؛ فرامها فلم يطقها لحصانتها وكثرة مَنْ يدافع عنها من أهلها، فرجع خائباً، فاتّخذ سلاليم وآلات ليرقى بها السور، وجمع أصحابه واستعدّ. وقد كان مسرور البلخيّ عرف قصد عليٍّ مَتُّوث، وهو يومئذ مقيمٌ بكُور الأهواز. فلما عاود المسيرَ إليها، سار إليه مسرور، فوافاه قبيل غروب الشمس، وهو مقيم عليها؛ فلما عاين أصحاب عليّ أوائل خيل مسرور، انهزموا أقبَحَ هزيمة، وتركوا جميع آلاتهم التي كانوا حملوها، وقتِل منهم جمع كثير، وانصرف عليّ بن أبان مدحوراً. ولم يلبث بعد ذلك إلاّ يسيراً حتى تتابعت الأخبار بإقبال أبي أحمد. ثم لم يكن لعليّ بعد رجوعه من متُّوث وقعة حتى فتحت سوق الخميس وطهيثا على أبي أحمد، فانصرف بكتاب ورد عليه من الخبيث يحفِزه فيه حفزاً شديداً بالمصير إلى عسكره.

أخبار سنة ٢٦٧هـ

وفيها غلب أبو العباس بن الموفّق على عامة ما كان سليمان بن جامع صاحب قائد الزنج غلب عليه من قرى كور دجلة كَعَبْدَسي ونحوها.

ذكر الخبر عن سبب غلبة أبي العباس على ذلك، وما كان من أمره وأمر الزّنج في تلك الناحية:

ذكر محمد بن الحسن أنّ محمد بن حماد حدّثه أن الزَّنج لمّا دخلوا واسطاً وكان منهم بها ما قد ذكرناه قبلُ، واتَّصل الخبر بذلك إلى

أبي أحمد بن المتوكل ندب ابنَه أبا العباس للشخوص إلى ناحية واسط لحرب الزّنج، فخفّ لذلك أبو العباس. فلما حضر خروج أبي العباس ركب أبو أحمد إلى بستان موسى الهادي في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين ومائتين، فعرض أصحاب أبي العباس، ووقف على عدّتهم؛ فكان جميع الفرسان والرّجّالة عشرة آلاف رجل في أحسن زِيّ وأجمل هيئة وأكمل عِدّة، ومعهم الشَّذَا والسُّمَيْريّات والمعابر للرجّالة؛ كل ذلك قد أحكمت صنعته. فنهض أبو العباس من بستان الهادي، وركب أبو أحمد مشيِّعاً له حتى نزل الفِرْك، ثم انصرف. وأقام أبو العباس بالفِرْك أياماً، حتى تكاملت عُدده، وتلاحق أصحابه، ثم رحل إلى المدائن، وأقام بها أيضاً، ثم رحل إلى دير العَاقُول.

قال محمد بن حمّاد: فحدّثني أخي إسحاق بن حماد وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل الهاشميّ المعروف ببُريه، ومحمد بن شعيب الاشتيام، في جماعة كثيرة ممن صحب أبا العباس في سفره ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا: لمّا نزل أبو العباس دير العاقول، ورد عليه كتابُ نُصير المعروف بأبي حمزة صاحب الشذّا والسمَيريّات، وقد كان أمضاه على مقدّمته، يعلمه فيه أن سليمان بن جامع قد وافَى في خيل ورجّالة وشذوات وسميريّات، والجبائيّ يقدمه، حتى نزل بالجزيرة التي بحضرة بردودا، وأن سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافى نهر أبان برجّالة وفرسان وسُميريّات؛ فرحل أبو العباس حتى وافى جَرْجَرَايا، ثم فم الصِّلْح، ثم ركب الظهر، فسار حتى وافى الصِّلح، ووجّه طلائعه ليعرف الخبر، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم وجمعهم وجيشهم، وأن أولهم بالصِّلح وآخرهم ببستان موسى بن بغا، أسفلَ واسط. فلما عرف ذلك عدل عن سنن الطريق، واعترض في

مسيره. ولقي أصحابه أوائل القوم، فتطاردوا لهم حتى طمعوا واغترّوا، فأمعنوا في اتباعهم، وجعلوا يقولون لهم: اطلبوا أميراً للحرب؛ فإنّ أميركم قد شغَل نفسَه بالصيد. فلمّا قَرَبُوا من أبي العباس بالصِّلْح، خرج عليهم فيمن معه من الخيل والرّجْل، وأمر فصِيح بنُصير: إلى أين تتأخر عن هؤلاء الأكلب! ارجع إليهم! فرجع نُصير إليهم.

وركب أبو العباس سُميريّة، ومعه محمد بن شعيب الاشتيام، وحفّ بهم أصحابه من جميع جهاتهم، فانهزموا. ومنح الله أبا العباس وأصحابَه أكتافهم يقتلونهم ويطردونهم، حتى وافَوْا قرية عبد الله؛ وهي على ستة فراسخ من الموضع الذي لَقُوهم فيه. وأخذوا منهم خمس شَذَوات وعدّة سُميريّات، واستأمن منهم قوم، وأسِر منهم أسرى، وغرق ما أدرك من سفنهم؛ فكان ذلك أوّلَ الفتح على العباس بن أبي أحمد.

ولما انقضت الحربُ في هذا اليوم، أشار على أبي العباس قُوّاده وأولياؤه، أن يجعل معسكَرَهُ بالموضع الذي كان انتهى إليه من الصِّلح، إشفاقاً عليه من مقاربة القوم، فأبى إلاّ نُزول واسط.

ولما انهزم سليمان بن جامع ومَنْ معه، وضرب اللّهُ وجوهَهم، انهزم سليمان بن موسى الشعرانيّ عن نهر أبان، حتى وافى سوق الخميس، ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير. وقد كان القوم حين لقوا أبا العباس أجالُوا الرّأي بينهم، فقالوا: هذا فتى حَدَثٌ، لم تطل ممارسته الحروب وتدرّبه بها؛ فالرّأي لنا أن نرميَه بحدّنا كلِّه، ونجتهد في أوّل لقية نلقاه في إزالته، فلعلّ ذلك أن يروعه، فيكون سبباً لانصرافه عنا. ففعلوا ذلك، وحشدوا واجتهدوا، فأوقع الله بهم بأسَه

ونقمته. وركب أبو العباس من غدِ يوم الوقعة، حتى دخل واسطاً في أحسن زيّ ـ وكان يوم جُمعة ـ فأقام حتى صلى بها صلاة الجمعة. واستأمن إليه خلق كثير. ثم انحدر إلى العُمْر ـ وهو على فرسخ من واسط ـ فقدّم فيه عسكره، وقال: أجعلُ معسكري أسفلَ واسط، ليأمن مَنْ فوقه الزّنج. وقد كان نُصير المعروف بأبي حمزة والشاه بن ميكال أشارا عليه أن يجعل مُقامه فوق واسط، فامتنع من ذلك، وقال لهما: لست نازلاً إلا العُمْر؛ فانزلا أنتما في فُوّهة بردودا. وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم؛ فنزل العُمر، وأخذ في بناء الشَّذَوات، وجعل يراوح القوم القتال ويغاديهم؛ وقد رتّب خاصّة غلمانه في سُميريّات فجعل في كلّ سميريّة اثنين منهم. ثم إن سليمان استعدّ وحشد وجمع وفرّق أصحابه فجعلهم في ثلاثة أوجه: فرقة أتت من نهر أبان، وفرقة من برّ تمرتا، وفرقة من بردودا. فلقيَهم أبو العباس، فلم يلبثوا أن انهزموا. فخلفت طائفة منهم بسوق الخميس وطائفة بمازروان، وأخذ قوم منهم في برّ تمرتا وآخرون أخذوا الماديان، وقوم منهم اعتصموا للقوم الذين سلكوا الماديان؛ فلم يرجع عنهم حتى وافى نهر بَرْمساور. ثم انصرف، فجعل يقف على القُرى والمسالك، ومعه الأدلاَّء، حتى وافى عسكره، فأقام به مريحاً نفسه وأصحابه. ثم أتاه مخبرٌ فأخبره أنّ الزَّنج قد جمعوا واستعدّوا لكبس عسكره، وأنهم على إتيان عسكره من ثلاثة أوجه، وأنهم قالوا: إنه حدَثٌ غِرٌّ يغرّ بنفسه. وأجمع رأيهم على تكمين الكُمناء والمصير إليه من الجهات الثلاث التي ذكرنا، فحذر لذلك، واستعدّ له. وأقبلوا إليه وقد كمنوا زُهاء عشرة آلاف في برّ تمرتا ونحواً من هذه العدّة في قُسّ هثا. وقدّموا عشرين سُميريّة إلى العسكر ليغترّ بها أهلُه، ويجيزوا

المواضع التي فيها كمناؤهم؛ فمنع أبو العباس الناس من اتباعهم. فلما علموا أن كيدهم لم ينفذ، خرج الجُبّائيّ وسليمان في الشَّذَوات والسميريّات. وقد كان أبو العباس أحسن تعبئة أصحابه، فأمر نصيراً المعروف بأبي حمزة أن يبرز للقوم في شذواته، ونزل أبو العباس عن فرس كان ركبه، ودعا بشذاة من شَذَواته قد كان سماها الغزال، وأمر اشتيامه محمد بن شعيب باختيار الجذّافين لهذه الشذاة، وركبها. واختار من خاصّة أصحابه وغلمانه جماعة دفع إليهم الرّماح، وأمر أصحاب الخيل بالمسير بإزائه على شاطىء النهر، وقال لهم: لا تدعوا المسير ما أمكنكم إلى أن تقطعوا الأنهار. وأمر بتعبير بعض الدوابّ التي كانت ببردودا. ونشبت الحرب بين الفريقين؛ فكانت معركة القتال من حدّ قرية الرمل إلى الرّصافة؛ فكانت الهزيمة على الزَّنج، وحاز أصحاب أبي العباس أربع عشرة شَذَاة. وأفلت سليمان والجبّائيّ في ذلك اليوم بعد أن أشفيا على الهلاك راجِلين، وأخذت دوابّهما بحلاها وآلتها. ومضى الجيش أجمع لا ينثني أحد منهم حتى وافوا طهيثا، وأسلموا ما كان معهم من أثاث وآلة. ورجع أبو العباس، وأقام بمعسكره في العمر، وأمر بإصلاح ما أخذ منهم من الشَّذا والسميريّات وترتيب الرجال فيها. وأقام الزَّنج بعد ذلك عشرين يوماً، لا يظهر منهم أحد. وكان الجبائيّ يجيء في الطلائع في كلّ ثلاثة أيام وينصرف، وحفر آباراً فوق نهر سِنْداد، وصيّر فيها سفافيد حديد، وغشّاها بالبواري، وأخفى مواضعها، وجعلها على سنَن مسير الخيل ليتهوّر فيها المجتازون بها؛ وكان يوافي طرف العسكر متعرضاً لأهله، فتخرج الخيل طالبةً له. فجاء في بعض أيامه، وطلبته الخيل كما كانت تطلبه، فقطر فرس رجل من قوّاد الفراغنة في بعض تلك الآبار، فوقف

أصحاب أبي العباس بما ناله من ذلك على ما دبّر الجُبائيّ، فحذروا ذلك، وتنكَّبوا سلوك ذلك الطريق. وألحّ الزَّنج في مغاداة العسكر في كلِّ يوم للحرب، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير. فلمّا لم يجد ذلك عليهم أمسكوا عن الحرب قَدْر شهر.

وكتب سليمان إلى صاحب الزّنج يسأله إمداده بسُميريّات، لكلّ واحدة منهنّ أربعون مجدافاً، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سُميريَّة، في كل سُميريّة مقاتلان، ومع ملاحيها السيوف والرماح والتِّراس. وجعل الجُبائيّ موقفه حيال عسكر أبي العباس. وعاودُوا التعرّض للحرب في كلّ يوم؛ فإذا خرج إليهم أصحاب أبي العباس انهزموا عنهم، ولم يثبتوا لهم؛ وخلال ذلك تأتي طلائعهم، فتقطع القناطر، وترمي ما ظهر لها من الخيل بالنّشاب، وتضرِم ما وجدت في النوبة من المراكب التي مع نصير بالنار؛ فكانوا كذلك قدر شهرين.

ثم رأى أبو العباس أن يكمُن لهم كميناً في قرية الرمل، ففعل ذلك. وقدّم لهم سُميريّات أمام الجيش ليطمعوا فيها، وأمر أبو العباس فأعِدّت له سُميريّة ولزيرَك سميريّة وحمل جماعة من غلمانه الذين اختارهم، وعرفهم بالنجدة في السميريّات. فحمل بدراً ومؤنساً في سُميريّة ورشيقاً الحجّاجي ويُمْناً في سميريّة وخَفيفاً ويُسراً في سميريّة، ونذيراً ووصيفاً في سُميريّة، وأعدّ خمس عشرة سُميريّة، وجعل في كلّ سميريّة مقاتلين، وجعلها أمام الجيش.

قال محمد بن شعيب الاشتيام: وكنتُ فيمن تقدّم يومئذ، فأخذ الزّنج من السميريّات المتقدّمة عدّة، وأسروا أسرى، فانطلقتُ مسرعاً،

فناديتُ بصوت عال: قد أخذ القوم سُميريّاتنا. فسمع أبو العباس صوتي وهو يتغدّى، فنهض إلى سُميريّته التي كانت أعدّت له، وتقدّم العسكر، ولم ينتظر لحاق أصحابه، فتبعه منهم من خفّ لذلك.

قال: فأدركنا الزّنج. فلمّا رأونا قذف الله الرّعب في قلوبهم، فألقوا أنفسهم في الماء، وانهزموا فتخلّصنا أصحابنا، وحوينا يومئذ إحدى وثلاثين سُميريّة من سُمَيْريّات الزّنج، وأفلت الجبائيّ في ثلاث سُميريّات. ورمى أبو العباس يومئذ عن قوس كان في يده حتى دميت إبهامه؛ فانصرف. ولو أنا جددنا في طلب الجبائيّ في ذلك اليوم ظننتُ أنا أدركناه، فمنعَنا من ذلك شدّة اللغوب[1]. ورجع أبو العباس وأكثر أصحابه بمواضعهم من فُوّهة بردودا لم يُرْمَ أحد منهم. فلما وافَى عسكره أمر لمن كان صحبه بالأطواق والخلَع والأسورة، وأمر بإصلاح السميريّات المأخوذة من الزّنج، وأمر أبا حمزة أن يجعل مقامه بما معه من الشَّذَا في دِجْلة بحذاء خُسْرُسابور.

ثم إنّ أبا العباس رأى أن يتوغّل في مازروان حتى يصير إلى القرية المعروفة بالحجّاجية، وينتهي إلى نهر الأمير، ويقف على تلك المواضع، ويتعرّف الطرق التي تجتاز فيها سُميريّات الزّنج. وأمر نصيراً فقدّمه بما معه من الشَّذا والسميريّات. فسار نصير لذلك؛ فترك طريق مازروان، وقصد ناحية نهر الأمير. فدعا أبو العباس سُميريّته، فركبها ومعه محمد بن شعيب، ودخل مازروان وهو يرى أن نصيراً أمامه.

---

(١) اللغوب: الضعف والتعب.

وقال لمحمد: قدّمني في النهر لأعرف خبر نُصير. وأمر الشذا والسميريّات بالمصير خلفه.

قال محمد بن شعيب: فمضينا حتى قاربنا الحجّاجية، فعرضت لنا في النهر صلْغة فيها عشرة زنوج؛ فأسرعنا إليها، فألقى الزُّنوج أنفسهم في الماء. وصارت الصلغة في أيدينا، فإذا هي مملوءة شعيراً. وأدركنا فيها زنجيًّا فأخذناه، فسألناه عن خبر نصير وشذواته فقال: ما دخلَ هذا النهر شيء من الشَّذَا والسُّميريّات. فأصابتنا حيرة. وذهب الزنج الذين أفلتوا من أيدينا فأعلموا أصحابهم بمكاننا؛ وعرض للملاحين الذين كانوا معنا غنمٌ فخرجوا لانتهابها.

قال محمد بن شعيب: وبقيتُ مع أبي العباس وحدي، فلم نلبث أن وافانا قائد من قوّاد الزنج، يقال له مُنتاب، في جماعة من الزَّنج من أحد جانبي النهر، ووافانا من الجانب الآخر عشرة من الزَّنج. فلمّا رأينا ذلك خرج أبو العباس، ومعه قوسه وأسهمه، وخرجتُ برمح كان في يدي. وجعلتُ أحميه بالرّمح وهو يرمي الزّنج، فجرح منهم زنجيّين، وجعلوا يثوبون ويكثرون. وأدركنا زيرك في الشَّذَا ومعه الغلمان؛ وقد كان أحاط بنا زُهاء ألفي زنجيّ من جانبي مازروان، وكفى الله أمرهم، وردّهم بذلّةٍ وصَغار. ورجع أبو العباس إلى عسكره، وقد غنم أصحابه من الغنم والبقر والجواميس شيئاً كثيراً. وأمر أبو العباس بثلاثة من الملاّحين الذين كانوا معه، فتركوه لانتهاب الغنم، فضربت أعناقهم، وأمر لمن بقي بالأرزاق لشهر، وأمر بالنداء في الملاّحين ألا يبرح أحدٌ من السميريّات في وقت الحرب؛ فمن فعل ذلك فقد حلّ دمه.

وانهزم الزَّنج أجمعون حتى لحقوا بطَهيثا، وأقام أبو العباس بمعسكره في العُمر، وقد بثّ طلائعه في جميع النواحي. فمكث بذلك حيناً. وجمع سليمان بن جامع عسكره وأصحابه، وتحصّن بطهِيثا، وفعل الشعرانيّ مثل ذلك بسوق الخميس. وكان بالصِّينيّة لهم جيش كثيف أيضاً، يقود أهله رجل منهم يقال له نصر السِّندي. وجعلوا يُخربون كلّ مَا وجدوا إلى إخرابه سبيلاً، ويحملون ما قدروا على حمله من الغلاّت، ويعمرون مواضعهم التي هم مقيمون بها. فوجّه أبو العباس جماعة من قوّاده، منهم الشاه وكمُشْجُور والفضل بن موسى بن بغا، وأخوه محمد على الخيل إلى ناحية الصّينيّة، وركب أبو العباس ومعه نصير وزِيرك في الشَّذَا والسميريّات، وأمر بخيل فعبرَ بها من بَرّ مساور إلى طريق الظهر.

وسار الجيش حتى صار إلى الهُرْث، فأمر أبو العباس بتعبير الدوابّ إلى الهُرْث، فعبرت، فصارتْ إلى الجانب الغربيّ من دِجْلة؛ وأمَر بأن يُسلك بها طريق دير العمال. فلما أبصر الزّنج الخيل دخلتهم منها رهبة شديدة، فلجأوا إلى الماء والسفن. ولم يلبثوا أن وافتهم الشَّذَا والسميريّات، فلم يجدوا ملجأ واستسلموا؛ فقتِل منهم فريق، وأسِر فريق، وألقى بعضهم نفسه في الماء. فأخذ أصحاب أبي العباس سفنهم، وهي مملوءة أرزّاً، فصارت في أيديهم، وأخذوا سُميريّة رئيسهم المعروف بنصر السنديّ، وانهزم الباقون. فصارت طائفة منهم إلى طَهِيثا وطائفة إلى سوق الخميس، ورجع أبو العباس غانماً إلى عسكره، وقد فتح الصينيّة وأجلى الزّنج عنها.

قال محمد بن شعيب: وبينا نحن في حرب الزَّنج بالصينيّة إذ

عرض لأبي العباس كُرْكيّ طائر، فرماه بسهم، فشكّه فسقط بين أيدي الزَّنج، فأخذوه. فلما رأوا موضع السهم منه، وعلموا أنه سهم أبي العباس زاد ذلك في رعبهم، فكان سبباً لانهزامهم يومئذ.

وقد ذُكر عمن لا يُتّهم أن خبر السهم الذي رمى به أبو العباس الكُرْكيّ في غير هذا اليوم. وانتهى إلى أبي العباس أنّ بعبدَسى جيشاً عظيماً يرأسهم ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ الزنجيّان. فصار أبو العباس إلى عَبْدَسى قاصداً للإيقاع بهما ومَنْ معهما في خيل جريدة، وقد انتخبت من جُلد غلمانه وحماة أصحابه. فوافى الموضع الذي فيه جمعهم في السَّحَر، فأوقع بهم وقعَة غليظة، قُتِل فيها من أبطالهم، وجُلد من رجالهم خلق كثير، وانهزموا. وظفر أبو العباس برئيسهم ثابت بن أبي دلف، فمنّ عليه واستبقاه، وضمّه إلى بعض قوّاده. وأصاب لؤلؤاً سهم فهلك منه. واستنقذ يومئذ من النساء اللواتي كنّ في أيدي الزَّنْج خلق كثير، فأمر أبو العباس بإطلاقهنّ وردّهن، وأخَذَ كلَّ ما كان الزنج جمعوه.

ثم رجع أبو العباس إلى معسكره، فأمر أصحابه أن يُريحوا أنفسَهم ليسير بهم إلى سوق الخميس، ودعا نصيراً فأمره بتعبئة أصحابه للمسير إليها، فقال له نصير: إنّ نهر سوق الخميس ضيّق، فأقم أنت وائذن لي في المسير إليه حتى أُعايِنَه. فأبى أن يدَعه حتى يعاينه، ويقف على علم من يحتاج إليه منه قبل موافاة أبيه أبي أحمد؛ وذلك عند ورود كتاب أبي أحمد عليه بعزمه على الانحدار.

قال محمد بن شعيب: فدعاني أبو العباس، فقال لي: إنه لا بدّ لي من دخول سوق الخميس، فقلت: إن كنتَ لا بدّ فاعلاً ما تذكر فلا

تكثر عدد مَنْ تحمل معك في الشَّذَا، ولا تزد على ثلاثة عشر غلاماً: عشرة رماة وثلاثة في أيديهم الرماح؛ فإني أكره الكثرة في الشَّذَا مع ضيق النهر. فاستعدّ أبو العباس لذلك، وسار إليه ونُصير بين يديه حتى وافَى فم بَر مساور، فقال له نُصير: قدّمني أمامك! ففعل ذلك؛ فدخل نُصير في خمس عشرة شَذَاة. واستأذنه رجل من قوّاد الموالي يقال له موسى دالجويه في التقدّم بين يديه، فأذن له. فسار وسار أبو العباس حتى انتهى به مسيره إلى بَسامِي، ثم إلى فوّهة براطق ونهر الرّق والنهر الذي ينفذ إلى رواطا وعَبْدَسى؛ وهذه الأنهار الثلاثة تؤدّي إلى ثلاث طرق مفترقة. فأخذ نصير في طريق نهر براطق وهو النهر المؤدي إلى مدينة سليمان بن موسى الشعرانيّ التي سمّاها المنيعة بسوق الخميس. وأقام أبو العباس على فُوّهة هذا النهر، وغاب عنه نُصَير حتى خفيَ عنه خبره. وخرج علينا في ذلك الموضع من الزّنج خلق كثير، فمنعونا من دخول النهر، وحالوا بيننا وبين الانتهاء إلى السور - وبين هذا الموضع الذي انتهينا إليه والسور المحيط بمدينة الشعرانيّ مقدار فرسخين - فأقاموا هناك يحاربوننا. واشتدّت الحرب بيننا وبينهم وهم على الأرض ونحن في السفن من أوّل النهار إلى وقت الظهر. وخفيَ علينا خبرُ نُصَير. وجعل الزّنج يهتفون بنا: قد أخذنا نُصيراً فماذا تصنعون؟ ونحن تابعوكم حيثما ذهبتم. فاغتمّ أبو العباس لما سمع منهم هذا القول، فاستأذنه محمد بن شعيب في المسير ليتعرّف خبر نصير، فأذن له. فمضى في سُميريّة بعشرين جذّافاً حتى وافى نصيراً أبا حمزة، وقد قرب من سِكْر[1] كان الفسقة سكروه، ووجده قد أضرم النار فيه وفي

---

(١) السِكر: ما سُدَّ به النهر.

مدينتهم، وحارب حرباً شديداً ورزق الظفر بهم. وكان الزّنج ظفروا ببعض شذوات أبي حمزة، فقاتل حتى انتزع ما كانوا أخذوا من أيديهم. فرجع محمد بن شعيب إلى أبي العباس، فبشره بسلامة نصير ومَنْ معه، وأخبره خبره، فسرّ بذلك. وأسَرَ نصير يومئذ من الزنج جماعة كثيرة، ورجع حتى وافى أبا العباس بالموضع الذي كان واقفاً به. فلمّا رجع نصير قال أبو العباس: لستُ زائلاً عن موضعي هذا حتى أراوحهم القتال في عشيّ هذا اليوم؛ ففعل ذلك، وأمر بإظهار شَذَاة واحدة من الشّذوات التي كانت معه لهم، وأخفى باقيها عنهم. فطمعوا في الشَّذَاة التي رأوها، فتبعوها، وجعل مَنْ كان فيها يسيرون سيراً ضعيفاً حتى أدركوها، فعلقوا بسكانها، وجعل الملاحون يسيرون حتى وافَوا المكان الذي كانت فيه الشَّذَوات المكمَّنة.

وقد كان أبو العباس ركب سُميريّة، وجعل الشذا خلْفه. فسار نحو الشذاة التي علق بها الزّنج لما أبصرها، فأدركها، والزّنج ممسكون بسُكانها يحيطون بها من جوانبها، يرمون بالنُّشاب والآجرّ، وعلى أبي العباس كيز تحته درع.

قال محمد: فنزعنا يومئذ من كيز أبي العباس خمساً وعشرين نُشابة، ونزعتُ من لُبّادَةٍ كانت عليّ أربعين نشابة، ومن لبابيد سائر الملاحين الخمس والعشرين والثلاثين. وأظفر الله أبا العباس بستّ سُميريّات من سُميريّات الزّنج، وتخلص الشذا من أيديهم، وانهزموا. ومال أبو العباس وأصحابه نحو الشّط، وخرج من الزّنج المقاتلة بالسيوف والتراس، فانهزموا لا يلوون على شيء للرهبة التي وصلت

إلى قلوبهم. ورجع أبو العباس سالماً غانماً، فخلع على الملاّحين ووصلهم. ثم صار إلى معسكره بالعُمر، فأقام به إلى أن وافى الموفّق.

شخوص الموفق لمحاربة صاحب الزنج

ولإحدى عشرة ليلة خلت من صفر منها، عسكر أبو أحمد بن المتوكل بالفِرْك، وخرج من مدينة السلام يريد الشخوص إلى صاحب الزَّنْج لحربه؛ وذلك أنه ـ فيما ذكر ـ كان اتّصل به أنّ صاحب الزنج كتب إلى صاحبه عليّ بن أبان المهلبيّ يأمره بالمصير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن جامع، ليجتمعا على حرب أبي العباس بن أبي أحمد. وأقام أبو أحمد بالفِرْك أياماً، حتى تلاحق به أصحابه وَمَنْ أراد النهوض به إليه، وقد أعدّ قبل ذلك الشذا والسُّميريّات والمعابر والسفن. ثم رحَل من الفِرْك ـ فيما ذكر ـ يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول في مواليه وغلمانه وفرسانه ورجّالته فصار إلى رومية المدائن. ثم صار منها، فنزل السِّيب ثم دَيْر العاقول ثم جَرْجَرَايا، ثم نزل جَبُّل، ثم نزل الصِّلح، ثم نزل على فرسخ من واسط، فأقام هنالك يومه وليلته. فتلقّاه ابنه أبو العبّاس به في جريدة خيل فيها وجوه قوّاده وجنده، فسأله أبو أحمد عن خبر أصحابه، فوصف له بلاءهم ونصحهم. فأمر أبو أحمد له ولهم بِخِلَع فخُلِعت عليهم. وانصرف أبو العباس إلى معسكره بالعُمْر، فأقام يومه. فلمّا كانت صبيحة الغد رحل أبو أحمد منحدراً في الماء، وتلقّاه ابنه أبو العباس بجميع مَنْ معه من الجند في هيئة الحرب والزّيّ الذي كانوا يلقوْن به أصحاب الخائن. فجعل يسير أمامه حتى وافى عسكره بالنهر المعروف بشيرزاد، فنزل به أبو أحمد. ثم رحل منه يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، فنزل على النهر

المعروف بِسِنْداد بإزاء القرية المعروفة بعبد الله، وأمر ابنه أبا العباس، فنزل شرقيّ دِجْلة بإزاء فُوّهة بردودا، وولاّه مقدّمته، ووضع العطاء فأعطى الجيش. ثم أمر ابنه بالمسير أمامه بما معه من آلة الحرب إلى فُوّهة بَر مساور. فرحل أبو العباس في المختارين من قواده ورجاله، منهم زيرَك التركيّ صاحب مقدّمته، ونُصَير المعروف بأبي حمزة صاحب الشّذا والسُّميريّات.

ورحل أبو أحمد بعد ذلك في الفرسان والرجّالة المنتخبين، وخلّف سواد عسكره وكثيراً من الفرسان والرّجالة بمعسكره؛ فتلقّاه ابنه أبو العباس بأسرى ورؤوس وقتلى قتلهم من أصحاب الشعرانيّ؛ وذلك أنه وافَى عسكره الشعرانيُّ في ذلك اليوم قبل مجيء أبيه أبي أحمد، فأوقع به وأصحابه، فقتل منهم مقتلةً عظيمة، وأسر منهم جماعة. فأمر أبو أحمد بضرب أعناق الأسرى فضُربت. ونزل أبو أحمد فوّهة بَر مساور، وأقام به يومين. ثم رحل يريد المدينة التي سمّاها صاحب الزّنج المنيعةَ من سوق الخميس في يوم الثلاثاء لثمانٍ ليال خلون من شهر ربيع الآخر من هذه السنة بمن معه من الجيش وما معه من آلة الحرب، وسلك في السفن في برمساور، وجعلت الخيل تسير بإزائه شرقيّ برمساور، حتى حاذى النهر المعروف ببراطق الذي يوصل إلى مدينة الشعرانيّ.

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب سليمان بن موسى الشعرانيّ قبل حرب سليمان بن جامع من أجل أن الشعرانيَّ كان وراءه. فخاف إن بدأ بابن جامع أن يأتيه الشعرانيُّ من ورائه، ويشغله عمّن هو أمامه، فقصده من أجل ذلك. وأمر بتعبير الخيل وتصييرها على جانبي النهر المعروف

ببراطق، وأمر ابنه أبا العباس بالتقدّم في الشذّا والسُّميريّات، وأتبعه أبو أحمد في الشَّذَا بعامّة الجيش. فلمّا بصر سليمان ومَنْ معه من الزّنج وغيرهم بقصد الخيل والرجّالة سائرين على جنبتي النهر ومسير الشذا والسميريّات في النهر ـ وقد لقيهم أبو العباس قبل ذلك، فحاربوه حرباً ضعيفة ـ انهزموا وتفرَّقوا.

وعلا أصحاب أبي العباس السور، ووضعوا السيوف فيمن لقيهم وتفرَّق الزَّنج وأتباعهم. ودخل أصحاب أبي العباس المدينة، فقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا بشراً كثيراً، وحَوَوْا ما كان في المدينة، وهرب الشعرانيّ ومَنْ أفلت منهم معه. وأتبعهم أصحاب أبي أحمد حتى وافَوْا بهم البطائح، فغرق منهم خلق كثير، ونجا الباقون إلى الآجام. وأمر أبو أحمد أصحابَه بالرجوع إلى معسكرهم قبل غروب الشمس من يوم الثلاثاء، وانصرف وقد استنقذ من المسلمات زُهاء خمسة آلاف امرأة، سوى مَنْ ظَفَر به من الزنجيات اللواتي كنّ في سوق الخميس. فأمر أبو أحمد بحياطة النساء جميعاً، وحملهنّ إلى واسط ليُدفعن إلى أوليائهنّ. وبات أبو أحمد بحيال النهر المعروف ببراطق. ثم باكر المدينة من غد، فأذن للناس في حياطة ما فيها من أمتعة الزّنج، وأخذ ما كان فيها أجمع، وأمر بهدم سورها وطمّ خندقها وإحراق ما كان بقيَ فيها من السفن. ورحل إلى معسكره ببرمساور بالظفر بما بالرساتيق والقرى التي كانت في يد الشعرانيّ وأصحابه من غلاّت الحِنْطة والشعير والأرزّ، فأمر ببيع ذلك، وصرف ثمنه في أعطيات مواليه وغلمانه وجنده وأهل عسكره. وانهزم سليمان الشعرانيّ وأخواه ومَنْ أفلت، وسُلب الشعْرانيّ ولده وما كان بيده من مال، ولحق بالمذار، فكتب إلى الخائن بخبره وما نزل به واعتصامه بالمذار.

فذكر محمد بن الحسن، أن محمد بن هشام المعروف بأبي واثلة الكرماني قال: كنتُ بين يدي الخائن وهو يتحدَّث، إذ ورد عليه كتاب سليمان الشعرانيّ بخبر الوقعة وما نزل به، وانهزامه إلى المذار. فما كان إلاَّ أن فضّ الكتاب، فوقعت عينُه على موضع الهزيمة حتى انحلّ وكاءُ بطنه. ثم نهض لحاجته، ثم عاد. فلمّا استوى به مجلسه أخذ الكتاب وعاد يقرأه. فلما انتهى إلى الموضع الذي أنهضه، نهض حتى فعل ذلك مراراً. قال: فلم أشكّ في عظم المصيبة، وكرهتُ أن أسأله. فلمّا طال الأمر تجاسرتُ، فقلت: أليس هذا كتاب سليمان بن موسى؟ قال: نعم، ورد بقاصمة الظَّهْر، أنّ الذين أناخوا عليه أوقعوا به وقعة لم تبق منه ولم تَذر؛ فكتب كتابه هذا وهو بالمَذَار، ولم يسلم بشيء غير نفسه. قال: فأكبرتُ ذلك؛ واللَّهُ يعلم مكروه ما أخفِي من السرور الذي وصل إلى قلبي، وأمسكُ مُبشراً بدنُو الفرج. وصبرَ الخائنُ على ما وصل إليه، وجعل يظهر الجلَد، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشعرانيّ، ويأمره بالتيقّظ في أمره وحفظ من قبلَه.

وذكر محمد بن الحسن أن محمد بن حماد قال: أقام الموفّق بعسكره ببرمساور يومين، لتعرّف أخبار الشعرانيّ وسليمان بن جامع والوقوف على مستقرّه. فأتاه بعضُ مَنْ كان وجّهه لذلك، فأخبره أنه معسكر بالقرية المعروفة بالحوانيت. فأمر عند ذلك بتعبير الخيل إلى أرض كَسْكَر في غربيّ دِجْلة، وسار على الظهر، وأمر بالشذا وسفن الرجّالة فحُدّرت إلى الكثيثة، وخلّف سواد عسكره وجمعاً كثيراً من الرجال والكُراع بفوّهة برمساور، وأمر بُغْراج بالمقام هناك؛ فوافى أبو أحمد الصينيّة، وأمر أبا العباس بالمصير في الشذا والسميريّات إلى الحوانيت مخفًا لتعرّف حقيقة خبر سليمان بن جامع في مقامه بها، وإن

وجد منه غِرّة أوقع به. فسار أبو العباس في عشيّ ذلك اليوم إلى الحوانيت، فلم يلفِ سليمانَ هناك، وألفَى من قوّاد السودان المشهورين بالبأس والنجدة شِبْلاً وأبا النداء وهما من قدماء أصحاب الفاسق الذين كان استتبعهم في بدء مخرجه. وكان سليمان بن جامع خَلْف هذين القائدين في موضعهما لحفظ غلات كثيرة كانت هناك، فحاربهما أبو العباس، وأدخل الشّذا موضعاً ضيقاً من النهر، فقتل مِنْ رجالهما، وجرح بالسهام خلقاً كثيراً ـ وكانوا أجلد رجال سليمان بن جامع ونخبتهم الذين يعتمد عليهم ـ ودامت الحرب بينهم إلى أن حجز الليل بين الفريقين.

قال: وقال محمد بن حماد: في هذا اليوم كان في أمرِ أبي العباس في الكركيّ الذي ذكره محمد بن شعيب في يوم الصّينيّة، وقد مرّ به سانحاً. قال: واستأمن في هذا اليوم رجلٌ إلى أبي العباس، فسأله عن الموضع الذي فيه سليمان بن جامع، فأخبره أنه مقيم بطهِيثا. فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان بمدينته التي سماها المنصورة، وهي في الموضع الذي يعرف بطَهِيثا، وأن معه هنالك جميع أصحابه غير شبل وأبي النداء؛ فإنهما بموضعهما من الحوانيت لما أمِروا بحفظه. فلما عرف ذلك أبو أحمد، أمر بالرّحيل إلى بردودا؛ إذ كان المسلك إلى طَهِيثا منه. وتقدّم أبو العباس في الشَّذَا والسمَيريّات، وأمر من خلّفه ببرمساور أن يصيروا جميعاً إلى بردودا. ورحل أبو أحمد في غد ذلك اليوم الذي أمر أبا العباس فيه بما أمره به إلى بردودا، وسار إليها يومين؛ فوافاها يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين، فأقام بها يصلح ما يحتاج إلى إصلاحه من أمر عسكره، وأمر بوضع العطاء وإصلاح سفن

الجسور ليحدرها معه، واستكثر من العمال والآلات التي تُسَدّ بها الأنهار، وتُصلح بها الطرق للخيل، وخلّف ببردودا بُغْرَاج التركيّ. وقد كان لمّا عزم على الرجوع إلى بردودا أرسل إلى غلام له يقال له جعلان وكان مخلَّفاً مع بغراج في عسكره، فأمر بقلع المضارب وتقديمها مع الدوابّ المخلّفة قِبَله والسلاح إلى بردودا. فأظهر جعلان ما أمر به في وقت العشاء الآخرة، ونادى في العسكر والناس غارّون، فألقِي في قلوبهم أنّ ذلك لهزيمة كانت. فخرجوا على وجوههم، وترك الناس أسواقَهم وأمتعتَهم، ظنًّا منهم أن العدوّ قد أظلّهم، ولم يلوِ منهم أحد على أحد، وقصدوا قصد الرجوع إلى عسكرهم ببردودا، وساروا في سواد ليلتهم تلك، ثم ظهر لهم بعد ذلك حقيقة الخبر، فسكنوا واطمأنّوا.

وفي هذه السنة لثلاث بَقِين من شهر ربيع الآخر دخل أبو أحمد وأصحابه طَهيثا، وأخرجوا منها سليمان بن جامع، وقُتِل بها أحمد بن مهديّ الجبّائيّ.

ذكر الخبر عن سبب دخول أبي أحمد وأصحابه طَهيثا ومقتل الجبائي

ذكر محمد بن الحسن أن محمّد بن حماد حدّثه أن أبا أحمد لما أعطى أصحابه ببردودا، فأصلح ما أراد إصلاحه من عُدّةِ حرب مَنْ قصد لحربه في مخرجه، سار متوجّهاً إلى طهيثا؛ وذلك يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين. وكان مسيره على الظهر في خَيْله. وحُدِّرت السفن بما فيها من الرجّالة والسلاح والآلات، وحُدِّرت المعابر والشَّذوات والسُّميريّات، إلى أن وافى بها النهر المعروف بمَهْرُوذ بحضرة القرية المعروفة بقرية الجوزيّة. فنزل أبو أحمد

هناك، وأمر بعقد الجسر على النهر المعروف بمَهْروذ، وأقام يومه وليلته. ثم غدا فعبَّر الفرسان والأثقال بين يديه على الجسر، ثم عبر بعد ذلك، وأمر القوّاد والناس بالمسير إلى طَهِيثا، فصاروا إلى الموضع الذي ارتضاه أبو أحمد لنفسه منزلاً على ميلين من مدينة سليمان بن جامع. فأقام هنالك بإزاء أصحاب الخائن يوم الاثنين والثلاثاء لثمانٍ بقين من شهر ربيع الآخر. ومطر السماء مَطَراً جَوْداً، واشتدّ البرد أيام مقامه هنالك، فشغِل بالمطر والبرد عن الحرب؛ فلم يحارب هذه الأيام وبقية الجمعة. فلما كان عشية يوم الجمعة ركب أبو أحمد في نفر من قوّاده ومواليه لارتياد موضع لمجال الخيل، فانتهى إلى قريب من سور سليمان بن جامع، فتلقّاه منهم جمع كثير. وخرج عليه كُمناء من مواضع شتى، ونشبت الحرب واشتدّت؛ فترجل جماعة من الفرسان، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا وغلوها، وأسِر من غلمان أبي أحمد وقوّاده غلام يقال له وصيف عَلْمدار وعدّة من قوّاد زيرَك. ورمى أبو العباس أحمدَ بن مهديّ الجبائيّ بسهم في إحدى منخريه، فخرق كلّ شيء وصل إليه حتى خالط دماغه، فخرّ صريعاً، وحُمِل إلى عسكر الخائن وهو لمآبه، فعظُمت المصيبة به عليه؛ إذ كان أعظَم أصْحابه غِنى عنه، وأشدّهم بصيرةً في طاعته. فمكث الجبائيّ يعالَج أياماً، ثم هلك؛ فاشتدّ جزع الخائن عليه، فصار إليه، فوليَ غسله وتكفينه والصلاة عليه والوقوف على قبره إلى أن دفن. ثم أقبل على أصحابه فوعظَهم، وذكر موت الجبائيّ. وكانت وفاته في ليلة ذات رعود وبروق. وقال فيما ذكر: علمتُ وقت قَبْض روحه قبل وصول الخبر إليه بما سمع من زَجَل الملائكة بالدّعاء له والترحُّم عليه.

قال محمد بن الحسن: فانصرف إليّ أبو وائِلة ـ وكان فيمن شهده

ـ فجعل يُعجّبني مما سمع. وجاءني محمد بن سمعان فأخبرني بمثل خبر محمد بن هشام. وانصرف الخائن من دفن الجبائي منكسراً عليه الكآبة.

قال محمد بن الحسن: وحدثني محمد بن حماد أنّ أبا أحمد انصرف من الوقعة التي كانت عشيّة يوم الجمعة لأربع ليال بقين من شهر ربيع الآخر، وكان خبره قد انتهى إلى عسكره، فنهض إليه عامة الجيش، فتلقوْه منصرفاً، فردّهم إلى عسكره؛ وذلك في وقت المغرب. فلمّا اجتمع أهلُ العسكر أمِروا بالتحارس ليلتهم والتأهّب للحرب. فأصبحوا يوم السبت لثلاث بقِين من شهر ربيع الآخر؛ فعبّأ أبو أحمد أصحابه، وجعلهم كتائب يتلُو بعضُها بعضاً، فرساناً ورجّالة، وأمر بالشَّذَا والسميريّات أن يُسار بها معه في النهر الذي يشقّ مدينة طَهِيثا المعروف بنهر المُنذر. وسار نحو الزَّنْج حتى انتهى إلى سور المدينة، فرتّب قُوّاد غلمانه في المواضع التي يخاف خروج الزَّنج عليه منها، وقدّم الرجّالة أمام الفرسان، ووكّل بالمواضع التي يخاف خروج الكُمَنَاء منها. ونزل فصلى أربع ركعات، وابتهل إلى الله عزّ وجلّ في النصر له وللمسلمين. ثم دعا بسلاحه فلبسه، وأمر ابنه أبا العباس بالتقدّم إلى السور وتحضيض الغلمان على الحرب، ففعل ذلك. وقد كان سليمان بن جامع أعدّ أمام سور مدينته التي سمّاها المنصورة خندقاً. فلمّا انتهى إليه الغلمان تهيبوا عبورَه، وأحجموا عنه. فحرّضهم قوّادُهم وترجّلوا معهم، فاقتحموه متجاسرين عليه، فعبروه. وانتهوا إلى الزَّنْج وهم مشرفون من سور مدينتهم، فوضعوا السلاح فيهم؛ وعبرت شِرْذمَة من الفرسان الخندق خوضاً.

فلمّا رأى الزَّنْج خبر هؤلاء القوم الذين لقوهم وكرّهم عليهم ولّوْا منهزمين. وأتبعهم أصحاب أبي أحمد، ودخلوا المدينة من جَوانبها. وكان الزَّنج قد حصنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كلّ خندق منها سوراً يمتنعون به. فجعلوا يقفون عند كلّ سور وخندق إذا انتهوا إليه. وجعل أصحاب أبي أحمد يكشفونَهم في كلّ موقف وقفوه. ودخلت الشَّذا والسميريّات مدينتهم من النهر المشقق لها بعد انهزامهم، فجعلت تغرق كلَّ ما مرّت لهم به من شَذاة وسُميريّة. وأتبعوا مَنْ بحافتي النهر، يُقتلون ويُؤسرون، حتى أجلُوا عن المدينة وعمّا اتصل بها؛ وكان زهاءُ ذلك فرسخاً. فحوى أبو أحمد ذلك كله، وأفلت سليمان بن جامع في نفر من أصحابه، فاستحرّ القتل فيهم والأسر. واستنقَذَ أبو أحمد من نساء أهل واسط وصبيانهم ومما اتصل بذلك من القُرى ونواحي الكوفة زُهاء عشرة آلاف. فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإنفاق عليهم، وحُملوا إلى واسط، ودُفعوا إلى أهليهم. واحتوى أبو أحمد وأصحابه على كلّ ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي، وكان ذلك شيئاً جليل القدر. فأمر أبو أحمد ببيع ما أصاب من الغلاّت وغير ذلك، وحمله إلى بيت ماله، وصرفه في أعطيات من في عسكره من مواليه وجنوده. فحملوا من ذلك ما تهيّأ لهم حمله. وأسِر من نساء سليمان وأولاده عدّة، واستُنقِذ يومئذ وصيف عَلْمدار ومَنْ كان أسِر معه عشيّة يوم الجمعة، فأخرجوا من الحبس، وكان الأمر أعجل الزَّنج عن قتلهم، ولجأ جمع كثير ممن أفلت إلى الآجام المحيطة بالمدينة. فأمر أبو أحمد فعُقد جِسرٌ على هذا النهر المعروف بالمنذر، فعبر الناس إلى غربيّه. وأقام أبو أحمد بطهِيثا سبعة عشر يوماً، وأمر بهدم سور المدينة وطمّ خنادقها، ففعل ذلك. وأمر بتتبع مَنْ لجأ إلى الآجام، وجعل لكل

مَنْ أتاه برجل منهم جُعْلاً، فتسارع الناس إلى طلبِهم؛ فكان إذا أُتيَ بالواحد منهم عفا عنه، وخلع عليه وضمّه إلى قوّاد غلمانه لما دبر من استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحبهم. وندب أبو أحمد نُصيراً في الشذا والسميريّات لطلب سليمان بن جامع ومن هرب معه من الزنج وغيرهم، وأمره بالجدّ في اتباعهم حتى يجاوز البطائح، وحتى يلج دِجْلة المعروفة بالعوراء. وتقدّم في فتح الكُور التي كان الفاسق أحدثها، ليقطع بها الشذا عن دِجلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب. وتقدّم إلى زيرَك في المقام بطَهِيثا ليتراجع إليها الذين كان الفاسق أجلاهم عنها من أهلها، وأمره بتتبع مَنْ بَقِيَ في الآجام من الزّنج حتى يظفر بهم.

وفي شهر ربيع الآخر منها ماتت أم حبيب بنت الرّشيد. ورحل أبو أحمد بعد إحكامه ما أراد إحكامه إلى معسكره ببَرْدُودا، مزمعاً عَلَى التوجّه نحو الأهواز ليصلحها. وقد كان اضطرب أمرُ المهلبيّ وإيقاعه بمن أوقع عليه من الجيوش التي كانت بها وغلبته على أكثر كُورها. وقد كان أبو العباس تقدّمه في مسيره ذلك. فلما وافَى بردودا أقام أياماً، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للمسير على الظهر إلى كُور الأهواز. وقدِمَ مَنْ يصلح الطريق والمنازل ويعدّ فيها المِيَرَ للجيوش التي معه. ووافاه قبل أن ترحّل عن واسط زيرك منصرفاً عن طهيثا، بعد أن تراجع إلى النواحي التي كان بها الزّنج أهلُها، وخلّفهم آمنين. فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار في الشَّذَا والسُّميريّات في نخبة أصحابه وأنجادهم، ليصير بهم إلى دِجْلة العوراء، فتجتمع يدُه ويد أبي حمزة على نفض دِجْلة واتباع المنهزمين من الزَّنْج والإيقاع بكلّ مَن لقوا من أصحاب الفاسق، إلى أن ينتهيَ بهم السير إلى مدينته بنهر أبي

الخصيب؛ وإن رأوا موضع حرب حاربوه في مدينته، وكتبوا بما كان منهم إلى أبي أحمد ليردّ عليهم من أمره ما يعملون بحسبه. واستخلف أبو أحمد على من خلّف في عسكره بواسط ابنه هارون. وأزمع على الشخوص فيمن خفّ من رجاله وأصحابه؛ ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنه هارون في أن يحدّر الجيش الذي خلّفه معه في السفن إلى مستقرّه بدِجْلة إذا وافى كتابه بذلك.

•

وفي يوم الجمعة لليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ـ وهي سنة سبع وستين ومائتين ـ ارتحل أبو أحمد من واسط شاخصاً إلى الأهواز وكورها، فنزل باذِبين ثم جوخَى ثم الطِّيب ثم قُرقوب ثم درستان ثم على وادي السوس ـ وقد كان عُقد له عليه جسر ـ فأقام به من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر، حتى عبّر أهلَ عسكره أجمع. ثم سار حتى وافَى السوس، فنزلها. وقد كان أمر مسروراً ـ وهو عامله على الأهواز ـ بالقدوم عليه، فوافاه في جيشه وقوّاده من غد اليوم الذي نزل فيه السوس، فخلع عليه وعليهم، وأقام في السوس ثلاثاً.

وكان ممن أسِرَ بطَهيثا من أصحاب الفاسق أحمد بن موسى بن سعيد البصريّ المعروف بالقَلُوص؛ وكان أحد عُدَده وقدماء أصحابه. أسِر بعد أن أثخِن جراحاً كانت منها منيّته. فلمّا هلك أمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط.

وكان ممّن أسِر يومئذ عبد الله بن محمد بن هشام الكَرْمانيّ؛ وكان الخبيث اغتصبه أباه، فوجّهه إلى طهيثا، وولاّه القضاء والصَّلاة بها. وأسِر من السودان جماعةٌ كان يعتمد عليهم، أهل نجدة وبأس وجَلد. فلمّا اتصل به الخبر بما نال هؤلاء انتقض عليه تدبيرُه، وضلَّت

حِيَله، فحمله فَرْط الهَلَع على أن كتب إلى المهلّبيّ وهو يومئذ مقيم بالأهواز في زهاء ثلاثين ألفاً مع رجل كان صحبه، يأمره بترك كلّ ما قِبَله من المِيَر والأثاث، والإقبال إليه. فوصل الكتاب إلى المهلّبيّ وقد أتاه الخبر بإقبال أبي أحمد إلى الأهواز وكُوَرِها ـ فهو لذلك طائر العقل ـ فترك جميع ما كان قِبَله، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكَرْنبائيّ، فدَخِل[1] قلبُ الكرنبائيّ من الوَجل، فأخلى ما استُخلف عليه، وتبع المهلّبيّ؛ وبجُبَّى والأهواز ونواحيها يومئذ من أصناف الحبوب والتمر والمواشي شيء عظيم، فخرجوا عن ذلك كله.

وكتب أيضاً الفاسق إلى بَهْبوذ بن عبد الوهاب ـ وإليه يومئذ عمل الفَنْدم والباسيَان وما اتّصل بهما من القُرى التي بين الأهواز وفارس، وهو مقيم بالفَنْدم ـ يأمره بالقدوم عليه. فترك بَهْبوذ ما كان قِبَله من الطعام والتمر ـ وكان ذلك شيئاً عظيماً ـ فحوى جميع ذلك أبو أحمد. فكان ذلك قوةً له على الفاسق، وضعفاً للفاسق.

ولَمّا فصل المهلبيّ عن الأهواز تفرّق أصحابُه في القرى التي بينها وبين عسكر الخبيث فانتهبوها، وأجْلَوْا عنها أهلَها؛ وكانوا في سلْمهم. وتخلّف خلْق كثير ممّن كان مع المهلبيّ من الفرسان والرجّالة عن اللحاق به، فأقاموا بنواحي الأهواز. وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان لما انتهى إليهم من عفوه عمّن ظفر به من أصحاب الخبيث بطهيثا. ولحق المهلبيّ ومَن اتّبعه من أصحابه بنهر أبي الخصيب.

وكان الذي دعا الفاسق إلى أمر المهلبيّ وبهبوذ بسرعة المصير إليه

---

(١) دخِلَ الشيء (بكسر الخاء): فسد ما بداخله.

خوفُه موافاة أبي أحمد وأصحابه إياه على الحال التي كانوا عليها من الوَجَل وشدّة الرّعب مع انقطاع المهلبيّ وبهبوذ فيمن كان معهما عنه؛ ولم يكن الأمر كما قدّر.

وأقام أبو أحمد حتى أحرز ما كان المهلبيّ وبهبوذ خلّفاه، وفُتِحت السكور التي كان الخبيث أحدثها في دِجْلة، وأصلِحت له طرقه ومسالكه. ورحل أبو أحمد عن السوس إلى جند يسابور، فأقام بها ثلاثاً. وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر، فوجّه في طلبها، وحملها ورحل عن جند يسابور إلى تُسْتَر. وأمر بجباية الأموال من كُور الأهواز، وأنفذ إلى كلّ كورة قائداً ليرُوج بذلك حمل الأموال. ووجّه أحمد بن أبي الأصبغ إلى محمد بن عبيد الله الكرديّ - وقد كان خائفاً أن يأتيَه صاحب الفاسق قبل موافاة أبي أحمد كور الأهواز - وأمره بإيناسه وإعلامه ما عليه رأيُه من العفو عنه، والتغمّد لزلته، وأن يتقدّم إليه في تعجيل حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز. وأمر مسروراً البلخيّ عامله بالأهواز بإحضار مَنْ معه من الموالي والغلمان والجند ليعرضهم، ويأمرَ بإعطائهم الأرزاق، وينهضهم معه لحرب الخبيث. فأحضرهم، وعُرضوا رجلاً رجلاً، وأُعطُوا. ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم، فجعله منزلاً اجتازه. ورحل منه فوافَى الأهواز، وهو يرى أنه قد تقدّمه إليها من الميرة ما يحمل عساكره. فغلُظ الأمر في ذلك اليوم، واضطرب له الناس اضطراباً شديداً. وأقام ثلاثة أيام ينتظر ورود المِيَر، فلم تَرِد، فساءت أحوال الناس، وكاد ذلك يفرّق جماعتهم. فبحث أبو أحمد عن السبب المؤخّر ورودها، فوجد الجند قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية كانت بين سوق الأهواز ورامَ هرمز يقال لها قنطرة أربُك، فامتنع التجار ومن يحمل الميرة من تطرُّقه لقطع تلك القنطرة.

فركب أبو أحمد إليها وهي على فرسخين من سُوق الأهواز، فجمع مَنْ كان بقيَ في العسكر من السودان، وأمرهم بنقل الحجارة والصّخْر لإصلاح هذه القنطرة وبَذَل لهم الأموال الرغيبة، فلم يرِمْ حتى أصلحت في يومه ذلك، ورُدّت إلى ما كانت عليه. فسلكها الناس، ووافت القوافل بالمِيَر، فحيِيَ أهل العسكر، وحسنت أحوالهم.

وأمر أبو أحمد بجمع السفن لعقد الجسر على دُجيل، فجمعت من كُور الأهواز وأخذ في عقد الجسر. وأقام بالأهواز أياماً حتى أصلح أصحابُه أمورهم، وما احتاجوا من آلاتهم، وحسُنت أحوال دوابّهم، وذهب عنها ما كان نالها من الضرّ بتخلف الأعلاف. ووافت كتب القوم الذين كانوا تخلّفوا عن المهلّبيّ، وأقاموا بسوق الأهواز يسألونه الأمان، فآمنهم. فأتاه نحو من ألف رجل، فأحسن إليهم، وضمهم إلى قُوّاد غلمانه، وأجرى لهم الأرزاق. وعقد الجسر على دُجَيل، فرحل بعد أن قدّم جيوشه، فعبر الجسر، وعسكر بالجانب الغربيّ من دُجيل في الموضع المعروف بقصر المأمون، فأقام هنالك ثلاثاً؛ وأصابت الناس في هذا الموضع من الليل زلزلة هائلة، وقَى الله شرّها، وصرف مكروهها.

وقد كان أبو أحمد قبل عبور الجسر المعقود على دُجَيل قدّم أبا العباس ابنه إلى الموضع الذي كان عزم على نزوله من دِجْلة العوراء، وهو الموضع المعروف بنهر المبارك من فُرات البصرة. وكتب إليه ابنه هارون بالانحدار في جميع الجيش المتخلف معه إلى نهر المبارك أيضاً لتجتمع العساكر هناك، فرحل أبو أحمد عن قصر المأمون، فنزل بقُورَج العباس. ووافاه أحمد بن أبي الأصبغ هنالك بما صالح عليه.محمد بن

عبيد الله وبهدايا أهداها إليه من دوابّ وضوارٍ وغير ذلك. ثم رحل عن القورَج، فنزل بالجعفرية، ولم يكن بهذه القرية ماء إلاً من آبار كان أبو أحمد تقدّم بحفرها في عسكره. وأنفذ لذلك سعداً الأسود مولى عبيد الله بن محمد بن عمار من قورَج العباس، فحُفرت. فأقام بهذا الموضع يوماً وليلة، وألفَى هناك مِيَراً مجموعة، واتّسع الناس بها، وتزوّدوا منها.

ثم رحل إلى الموضع المعروف بالبشير، وألفى فيه غديراً من المطر، فأقام به يوماً وليلة. ورحل في آخر الليل يريد نهر المبارك، فوافاه بعد صلاة الظهر، وكان منزلاً بعيد المسافة. وتلقّاه ابناه أبو العباس وهارون في طريقه، فسلّما عليه، وسارا بسيره حتى ورد نهر المبارك؛ وذلك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين ومائتين.

وكان لزِيرك ونصير في الذي كان أبو أحمد وجّه فيه زيرك من تتبُّع فلّ الخبيث من طَهيثا أثرٌ فيما بين فصول أبي أحمد من واسط إلى حال مصيره إلى نهر المبارك؛ وذلك ما ذكره محمد بن الحسن عن محمد بن حماد، قال: لمّا اجتمع زِيرك ونصير بدِجْلة العوراء انحدرا حتى وافيا الأبُلّة، فاستأمن إليهما رجل من أصحاب الخبيث، فأعلمهما أن الخبيث قد أنفذ عدداً كثيراً من السُّميريّات والزّواريق والصلاغ مشحونة بالزَّنج، يرأسهم رجل من أصحابه، يقال له محمد بن إبراهيم، يكنى أبا عيسى. ومحمد بن إبراهيم هذا رجل من أهل البصرة، كان جاء به رجل من الزّنج عند خراب البصرة يقال له يَسار، كان على شُرْطة الفاسق، فكان يكتب ليسار على ما كان يلي حتى مات. وارتفعت حال أحمد بن مهدي الجبائيّ عند الخبيث، فولاّه أكثر أعماله، وضمّ محمد بن إبراهيم

هذا إليه، فكان كاتبه إلى أن هلك الجبائيّ، فطمِع محمد بن إبراهيم هذا في مرتبته، وأن يحلّه الخبيث محلّ الجبائيّ؛ فنبذ الدواة والقلم، ولبس آلة الحرب، وتجرّد للقتال. فأنهضه الخبيث في هذا الجيش، وأمره بالاعتراض في دجْلة لمدافعة مَنْ يردُها من الجيوش، فكان في دِجْلة أحياناً، يأتي بالجمع الذي معه إلى النهر المعروف بنهر يزيد؛ ومعه في ذلك الجيش شِبْل بن سالم وعمرو المعروف بغلام بوذى وأجلاد من السودان وغيرهم. فاستأمن رجل كان في ذلك الجيش إلى زيرك ونُصير، وأخبرهما خبره، وأعلمهما أن محمد بن إبراهيم على القصد لسواد عسكر نُصَير، ونصير يومئذ معسكر بنهر المرأة، وأنهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقِل وبثْق شيرِين، حتى يوافوا الموضع المعروف بالشرطة، ليخرجوا من وراء العسكر فيكبُّوا على طرفيْه. فرجع نصير عند وصول هذا الخبر إليه من الأبُلّة مبادراً إلى معسكره، وسار زيرَك قاصداً لبَثْق شيرين، حتى صار من مؤخّرة في موضع يعرف بالميشان؛ وذلك أنه قدّر أن محمد بن إبراهيم ومن معه يأتون عسكر نُصير من ذلك الطريق؛ فكان ذلك كما ظنّ. ولقيهم في طريقهم فوهب الله له العلوّ عليهم بعد صبر منهم له ومجاهدة شديدة؛ فانهزموا ولجأوا إلى النهر الذي كانوا وضعوا الكمين فيه، وهو نهر يزيد، فدُلّ زيرك عليهم، فتوغّلت عليهم سُميريّاته وشذواته، فقتل منهم طائفة، وأسر طائفة. وكان ممن ظفِر به منهم محمد بن إبراهيم المكنى أبا عيسى وعمرو المعروف بغلام بوذى. وأخذ ما كان معهم من السُّميريّات؛ وذلك نحو من ثلاثين سُميريّة. وأفلت شبل في الذين نجوْا، فلحق بعسكر الخبيث، وخرج زيرك من بَثْق شِيرين ظافراً ومعه الأسارى، ورؤوس مَنْ قتل مع ما حوى من السميريّات والزّواريق

وسائر السفن. فانصرف زيرك من دِجْلة العَوْراء إلى واسط، وكتب إلى أبي أحمد بما كان من حربه والنصر والفتح.

وكان فيما كان من زيرك في ذلك وصول الجَزَع إلى كلّ مَنْ كان بدِجْلة وكُورها من أتباع الفاسق، فاستأمن إلى أبي حمزة وهو مقيم بنهر المرأة منهم زهاء ألفي رجل ـ فيما قيل ـ فكتب بخبرهم إلى أبي أحمد، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان وإجراء الأرزاق عليهم، وخلطهم بأصحابه ومناهضته العدوّ بهم.

وكان زيرك مقيماً بواسط إلى حين ورود كتاب أبي أحمد على ابنه هارون بالمصير بالجيش المتخلّف معه إلى نهر المبارك، فانحدر زيرك مع هارون. وكتب أبو أحمد إلى نصير وهو بنهر المرأة يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك، فوافاه هنالك. وكان أبو العباس عند مصيره إلى نهر المبارك انحدر إلى عسكر الفاسق في الشَّذا والسُّميريّات، فأوقع به في مدينته بنهر أبي الخصيب.

أوّل من استأمن من قواد الزنج

وكانت الحرب بينه وبينهم من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر، واستأمن إليه قائد من قوّاد الخبيث المضمومين كانوا إلى سليمان بن جامع، يقال له منتاب، ومعه جماعة من أصحابه؛ فكان ذلك مما كسر الخبيث وأصحابَه. وانصرف أبو العباس بالظَّفَر، وخلع على منتاب ووصله وحمله. ولمّا لقيَ أبو العباس أباه أعلمه خبر منتاب، وذكر له خروجه إليه بالأمان، فأمر أبو أحمد لمنتاب بخِلْعة وصِلة وحُملان. وكان منتاب أوّل مَن استأمن من قوّاد الزَّنج.

كتاب الموفّق إلى صاحب الزّنج يدعوه فيه إلى التوبة

ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين ومائتين، كان أول ما عمل به في أمر الخبيث ـ فيما ذكر محمد بن الحسن بن سهل، عن محمد بن حمّاد بن إسحاق بن حمّاد بن زيد ـ أن كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوّة والرسالة، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة، والأمان له موجود؛ فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخَطها الله، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظّ الجزيل في دنياه. وأنفذ ذلك مع رسوله إلى الخبيث، والتمس الرّسول إيصالَه، فامتنع أصحاب الخبيث من إيصال الكتاب، فألقاه الرسول إليهم، فأخذوه وأتوا به إلى الخبيث. فقرأ فلم يزدْه ما كان فيه من الوعظ إلاّ نفوراً وإصراراً، ولم يجب عن الكتاب بشيء، وأقام على اغتراره. ورجع الرسول إلى أبي أحمد فأخبَره بما فعل وترك الخبيث الإجابة عن الكتاب. وأقام أبو أحمد يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء متشاغلاً بعرض الشَّذَا والسُّميريّات وترتيب قوّاده ومواليه وغلمانه فيها، وتخيّر الرماة وترتيبهم في الشَّذَا والسُّميريّات.

الموفّق يهاجم المختارة

فلما كان يوم الخميس سار أبو أحمد في أصحابه، ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الخبيث التي سَمّاها «المختارة» من نهر أبي الخصيب، فأشرف عليها وتأمّلها، فرأى من مَنَعَتَها وحصانتها بالسُّور

والخنادق المحيطة بها وما عوَّر من الطرق المؤدية إليها وأعدَّ المجانيق والعرّادات والقسيّ الناوكيّة وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدّم من منازعي السلطان، ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلظ أمره. فلمّا عاين أصحابه أبا أحمد، ارتفعت أصواتُهم بما ارتَجَّت له الأرض. فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنه أبا العباس بالتقدّم إلى سُور المدينة وَرَشْق مَنْ عليه بالسهام، ففعل ذلك ودنا حتى ألصق شَذواته بمسنّاة قصر الخائن. وانحازت الفسقة إلى الموضع الذي دنت منه الشَّذَا، وتحاشدوا، وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم وعرّاداتهم ومقاليعهم، ورمى عوامُّهم بالحجارة عن أيديهم، حتى ما يقع طرف ناظر من الشذا على موضع إلاّ رأى فيه سهماً أو حجراً. وثبت أبو العباس، فرأى الخائن وأشياعه من جدّهم واجتهادهم وصَبْرهم ما لا عهد لهم بمثله من أحد حاربهم. فأمر أبو أحمد أبا العباس ومن معه بالرجوع إلى مواقفهم ليروِّحوا عن أنفسهم ويداووا جراحهم، ففعلوا ذلك.

واستأمن إلى أبي أحمد في تلك الحال مقاتلان من مقاتلة السُّميريّات، فأتوه بسُمَيريتهما وما فيها من الآلات والملاّحين. فأمر للمقاتلين بخلع ديباج ومناطق محلاّة، ووصلهما، وأمر للملاحين بخلَع من خلع الحرير الأحمر والثياب البيض بما حسن موقعه منهم وعمّهم جميعاً بصلاته، وأمر بإدنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم؛ فكان ذلك من أبخع المكايد التي كيد بها الفاسق. فلما رأى الباقون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم، رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه، فابتدروه مسرعين نحوه، راغبين فيما شرع لهم منه. فصار إلى أبي أحمد في ذلك اليوم عدد من أصحاب السميريّات، فأمر فيهم

بمثل ما أمر به في أصحابهم. فلما رأى الخبيثُ ركونَ أصحاب السميريّات إلى الأمان واغتنامهم له أمر بردّ مَنْ كان منهم في دِجْلة إلى نهر أبي الخصيب، ووكل بفوّهة النهر مَنْ يمنعهم من الخروج، وأمر بإظهار شذواته، وندب لهم بَهْبوذ بن عبد الوهاب وهو من أشدّ حماته بأساً، وأكثرهم عدداً وعِدّة. فانتدب بهبوذ لذلك في أصحابه، وكان ذلك في وقت إقبال المدّ وقوّته، وقد تفرّقت شَذَوات أبي أحمد. ولحق أبو حمزة فيما معه منها بشرقيّ دِجْلة، فأقام هنالك وهو يرى أنّ الحرب قد انقضت، واستُغني عنه.

فلما ظهر بَهْبوذ فيما معه من الشَّذَوات أمر أبو أحمد بتقديم شَذَوَاتِهِ، وأمر أبا العباس بالحمل على بهبوذ بما معه من الشَّذَا، وتقدّم إلى قُوّاده وغلمانه بالحمل معه. وكان الذي صَلِيَ بالحرب من الشَّذوات التي مع أبي العباس وزيرك من الشَّذَوات التي رتب فيها قوّاد الغلمان اثنتي عشرة شذاة. فنشبت الحرب، وطمع أصحاب الفاسق في أبي العباس وأصحابه لقلة عدد شذواتهم. فلما صُدِموا انهزموا. ووجّه أبو العباس ومَنْ معه في طلب بهبوذ، فألجؤوه إلى فناء قصر الخبيث، وأصابتْه طعنتان، وجُرح بالسهام جراحات، وأوهِنت أعضاؤه بالحجارة، وخلّى ما كان عليه مع أصحابه، فأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت. وقتل يومئذ ممن كان مع بهبوذ قائد من قوّاده ذو بأس ونجدة وتقدّم في الحرب، يقال له عميرة. وظفر أصحاب أبي العباس بشذَاة من شَذَوات بهبوذ، فقتل أهلها، وغرقوا، وأخذت الشذاة. وصار أبو العباس ومَنْ معه بشذواتهم بعد أن أتاهم أمر أبي أحمد بذلك، وبإلحاق الشَّذا بشرقيّ دِجْلة وصرف الجيش. فلمّا رأى الفاسق جيش أبي أحمد منصرفاً أمر مَنْ كان انهزم في شَذَواتِه إلى نهر

أبي الخصيب بالظهور ليسكن بذلك روعَةَ أصحابه، وليكون صرفه إياهم إذا صرفهم عن غير هزيمة. فأمر أبو أحمد جماعة من غلمانه بأن يثبّتوا صدور شذواتهم إليهم، ويقصدوهم. فلما رأوا ذلك ولَّوْا منهزمين مذعورين. وتأخرت عنهم شذاة من شذواتهم، فاستأمن أهلُها إلى أبي أحمد، ونكسوا علماً أبيض كان معهم. فصاروا إليه في شذاتهم، فأمنوا وحبُوا ووُصِلوا وكُسوا. فأمر الفاسق عند ذلك بردّ شذواتهم إلى النهر ومنعها من الخروج؛ وكان ذلك في آخر النهار. وأمر أبو أحمد أصحابه بالرجوع إلى معسكرهم بنهر المبارك.

سياسة الترغيب والترهيب التي اتّبعها الموفّق مع صاحب الزّنج

واستأمن إلى أبي أحمد في هذا اليوم عند منصرفه خَلْق كثير من الزَّنْج وغيرهم، فقبلهم، وحملهم في الشَّذا والسميريّات، وأمر أن يخلع عليهم ويوصلوا ويُحبَوْا، وتُكتب أسماؤهم في المضمومين إلى أبي العباس.

وسار أبو أحمد، فوافى عسكره بعد العشاء الأخيرة، فأقام به يوم الجمعة والسبت والأحد. ثم عزم على نقل عسكره إلى حيث يقرب منه عليه القَصْد لحرب الخبيث، فركب الشَّذَا في يوم الاثنين لستّ ليال بقين من رجب سنة سبع وستين ومائتين، ومعه أبو العباس والقوّاد من مواليه وغلمانه، فيهم زيرك ونصير حتى وافَى النهر المعروف بنهر جَطّى في شرقيّ دِجْلة، وهو حيال النهر المعروف باليهوديّ، فوقف عليه، وقدّر فيه ما أراد وانصرف، وخلّف به أبا العباس وزيرك ونصيراً، وعاد إلى معسكره. فأمر فنودي في الناس بالرحيل إلى الموضع الذي اختار من نهر جَطّى. وتقدم في قوْد الدوابّ بعد أن أصلحت لها الطرق،

وعقدت القناطر على الأنهار. وغدا في يوم الثلاثاء لخمس بقين من رجب في جميع عساكره حتى نزل نهر جَطّى، فأقام به إلى يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة سبع وستين ومائتين؛ ولم يحارب في شيء من هذه الأيام. وركب في هذا اليوم في الخيل والرجّالة، ومعه جميع الفرسان، وجعل الرجالة والمطوّعة في السفن والسميريّات، على كل رجل منهم لأمَتُه وزِيّه، وسار حتى وافى الفرات، ووازى عسكر الفاسق، وأبو أحمد من أصحابه وأتباعه في زُهاء خمسين ألف رجل أو يزيدون، والفاسق يومئذ في زهاء ثلاثمائة ألف إنسان، كلهم يقاتل أو يدافع؛ فمن ضارب بسيف، وطاعن برمح، ورامٍ بقوس، وقاذف بمقلاع، ورامٍ بعرّادة أو منجنيق؛ وأضعفهم أمرُ الرماة بالحجارة عن أيديهم وهم النظارة المكثرون السواد، والمعتَنون بالنعير والصياح، والنساء يشركنهم في ذلك.

فأقام أبو أحمد في هذا اليوم بإزاء عسكر الفاسق إلى أن أضحى. وأمر فنودي أنّ الأمان مبسوط للناس، أسودِهم وأحمرِهم إلاّ الخبيث. وأمر بسهام فعُلّقت فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان مثل الذي نودي به، ووعد الناس فيها الإحسان، ورمى بها إلى عسكر الخبيث. فمالت إليه قلوب أصحاب المارق بالرّهبة والطمع فيما وعدهم من إحسانه وعفوه. فأتاه في ذلك اليوم جمع كثير يحملهم الشَّذا إليه، فوصلهم وحباهم. ثم انصرف إلى معسكره بنهر جطّى، ولم يكن في هذا اليوم حرب.

وقدم عليه قائدان من مواليه، أحدهما بكتمر والآخر جعفر بن

بغلاغز، في جمع من أصحابهما، فكان ورودهما زائداً في قوّة مَنْ مع أبي أحمد.

ورحل أبو أحمد عن نهر جَطّى إلى معسكر قد كان تقدم في إصلاحه، وعقد القناطر على أنهاره، وقطع النهر ليوسعه بفرات البصرة بإزاء مدينة الفاسق؛ فكان نزوله هذا المعسكر في يوم الأحد للنصف من شعبان سنة سبع وستين ومائتين. وأوطن هذا المعسكر، وأقام به، ورتب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم فيه. فجعل نُصيراً صاحب الشَّذا والسميريات في جيشه في أوّل العسكر وآخره بالموضع الموازي النهر المعروف بجُوى كور، وجعل زيرك التركيّ صاحب مقدّمة أبي العباس في أصحابه موازياً ما بين نهر أبي الخصيب وهو النهر الموسوم بنهر الأتراك والنهر المعروف بالمغيرة، ثم تلاه عليّ بن جهشيار حاجبه في جَيْشه.

وكانت مضاربُ أبي أحمد وابنيه حيالَ الموضع المعروف بديْر جابِيل، وأنزل راشداً مولاه في مواليه وغلمانه الأتراك والخزر والرّوم والديالمة والطبرية والمغاربة والزّنج على النهر المعروف بهطَمَة. وجعل صاعد بن مَخْلَد وزيره في جيشه من الموالي والغلمان فُويق عسكر راشد. وأنزل مسروراً البلخيّ في جيشه على النهر المعروف بسِنْدَادَان. وأنزل الفضل ومحمداً، ابني موسى بن بُغا في جيشهما على النهر المعروف بهالة. وتلاهما موسى دالجويه في جيشه وأصحابه. وجعل بُغْراج التركيّ على ساقته نازلاً على نهر جَطَّى، وأوطنوه، وأقاموا به. ورأى أبو أحمد من حال الخبيث وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم أنه لا بدّ له من الصبر عليه ومحاصرته وتفريق أصحابه عنه، ببذل

الأمان لهم، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم، والغلظة على مَنْ أقام على غيّه منهم. واحتاج إلى الاستكثار من الشَّذَا وما يحارب به في الماء.

الموفقية بإزاء المختارة

فأمر بإنفاذ الرسل في حمل المِيَر في البرّ والبحر وإدرارها إلى معسكره بالمدينة التي سماها الموفَّقيّة، وكتب إلى عماله في النواحي في حمل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة. وأنفذ رسولاً إلى سِيراف وجنّابا في بناء الشَّذَا والاستكثار منها لما احتاج إليه في ترتيبها في المواضع التي يقطع بها المِيَر عن الخائن وأشياعه. وأمر بالكتاب إلى عمّاله في النواحي بإنفاذ كل مَنْ يصلح للإثبات في الديوان، ويرغب في ذلك. وأقام ينتظر شهراً أو نحوه؛ فوردت المِيَر متتابعةً يتلو بعضها بعضاً. وجهّز التجار صنوف التجارات والأمتعة وحملوها إلى المدينة الموفقيّة، واتخذت بها الأسواق، وكثر بها التجّار والمتجهزون من كلّ بلد، ووردتها مراكب البحر؛ وقد كانت انقطعت لقطع الفاسق وأصحابه سبلها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين. وبنى أبو أحمد مسجد الجامع، وأمر الناس بالصَّلاة فيه. واتَّخذ دُورَ الضَّرْب، فضرب فيها الدنانير والدراهم؛ فجمعت مدينة أبي أحمد جميع المرافق، وسيق إليها صنوف المنافع حتى كان ساكنوها لا يفقدون بها شيئاً مما يوجد في الأمصار العظيمة القديمة، وحملت الأموال، وأدرّ للناس العطاء في أوقاته، فاتّسعوا وحسنت أحوالهم. ورغب الناس جميعاً في المصير إلى المدينة الموفقيّة والمقام فيها.

كرّ وفرّ

وكان الخبيث بعد ليلتين من نزول أبي أحمد مدينته الموفقيّة أمر

بهبوذ بن عبد الوهاب، فعبَر والناس غارُّون في سُميريّات إلى طرف عسكر أبي حَمْزة، فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر جماعة، وأحرق كوخات كانت لهم قبل أن يبني الناس هنالك. فأمر أبو أحمد نُصيراً عند ذلك بجمع أصحابه، وألاّ يطلق لأحد مفارقة عسكره، وأن يحرس أقطار عسكره بالشَّذا والسميريّات والزّواريق فيها الرّجّالة إلى آخر مَيَان رُوذان والقَنْدل وأبرسان، للإيقاع بمن هنالك من أصحاب الفاسق.

وكان بميان روذان من قوّاده أيضاً إبراهيم بن جعفر الهمدانيّ في أربعة آلاف من الزَّنج، ومحمد بن أبان المعروف بأبي الحسن أخو عليّ بن أبان بالقَنْدل في ثلاثة آلاف، والمعروف بالدّور في أبرسان في ألف وخمسمائة من الزَّنج والجبائيّين، فبدأ أبو العباس بالهمدانيّ فأوقع به، وجرت بينهما حروب، قُتِل فيها خلق كثير من أصحاب الهمدانيّ، وأسر منهم جماعة. وأفلت الهمدانيّ في سُميريّة قد كان أعدّها لنفسه، فلحق فيها بأخي المهلبيّ المكنى بأبي الحسن؛ واحتوى أصحاب أبي العباس عَلَى ما كان في أيدي الزَّنج وحملوه إلى عسكرهم.

وقد كان أبو أحمد تقدم إلى ابنه أبي العباس في بذل الأمان لمن رغب فيه، وأن يضمن لمن صار إليه الإحسان. فصار إليه طائفة منهم في الأمان فآمنهم، فصار بهم إلى أبيه، فأمر لكل واحد منهم من الخِلَع والصلات على أقدارهم في أنفسهم، وأن يوقفوا بإزاء نهر أبي الخصيب ليعاينهم أصحابهم. وأقام أبو أحمد يكايد الخائن ببذل الأمان لمن صار إليه من الزّنج وغيرهم، ومحاصرة الباقين والتضييق عليهم، وقطع المِيَر والمنافع عنهم؛ وكانت ميرة الأهواز وما يرد من صنوف التجارات منها

ومن كورها ونواحي أعمالها يسلَك به النهر المعروف ببيان. فسرى بهبوذ في جُلد رجاله ليلة من الليالي، وقد نمِي إليه خبر قيروان ورد بصنوف من التجارات والمِير وكمّن في النخل؛ فلما ورد القَيْروان خرج إلى أهله، وهم غارّون، فقتَل منهم وأسرَ، وأخذ ما أحبّ أن يأخذ من الأموال.

وقد كان أبو أحمد أنفذ لبَذرقة ذلك القَيْروان رجلاً من أصحابه في جمع، فلم يكن للموجَّه لذلك ببهبوذ طاقة، لكثرة عدد مَنْ معه وضيق الموقع على الفرسان، وأنه لم يكن بهم فيه غناء. فلما انتهى ذلك إلى أبي أحمد، غلظ عليه ما نال الناس في أموالهم وأنفسهم وتجارتهم، وأمر بتعويضهم، وأخلف عليهم مثلَ الذي ذهب لهم. ورتّب الشّذا على فوّهة بيان وغيره من الأنهار التي لا يتهيّأ للفرسان سلوكُها في بنائها والإقبال بها إليه، فورد عليه منها عددٌ صالح. فرتّب فيها الرجال، وقلّد أمرها أبا العباس ابنه، وأمره أن يوكل بكل موضع يرد إلى الفَسَقة منه مِيرة. فانحدر أبو العباس لذلك إلى فُوّهة البحر في الشَّذوات، ورتب في جميع تلك المسالك القوّاد، وأحكم الأمر فيه غاية الإحكام.

صندل الزنجي وإذلال الحرائر المسلمات

وفي شهر رمضان منها قتل صندل الزنجيّ. وكان سبب قتله أن أصحاب الخبيث عَبَرُوا لليلتين خلتا من شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكر ـ أعني سنة سبع وستين ومائتين ـ يريدون الإيقاع بعسكر نصير وعسكر زيرك. فنذر بهم الناس، فخرجوا إليهم فردّوهم خائبين، وظفروا بصندل هذا. وكان ـ فيما ذكروا ـ يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهنّ ويقلّبهنّ تقليب

الإماء؛ فإن امتنعت منهنّ امرأة ضرب وجهها ودفعها إلى بعض علوج الزّنج يبيعها بأوكس الثمن. فلمّا أتي به أبو أحمد، أمر به فشُدَّ بين يديه، ثم رمِيَ بالسهام، ثم أمر به فقتل.

استئمان خلق كثير من الزّنج

وفي شهر رمضان من هذه السنة استأمن إلى أبي أحمد خلْق كثير من عند الزنج.

ذكر سبب ذلك:

وكان السبب في ذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ استأمن إلى أبي أحمد رجلٌ من مذكوري أصحاب الخبيث ورؤسائهم وشجعانهم، يقال له مهذَّب، فحمِل في الشذا إلى أبي أحمد، فأتِيَ به في وقت إفطاره. فأعلمه أنه جاء متنصّحاً راغباً في الأمان، وأن الزّنج على العبور في ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات، وأنّ الذين ندب الفاسق لذلك أنجادهم وأبطالهم. فأمر أبو أحمد بتوجيه مَنْ يحاربهم إليهم ومن يمنعهم من العبور وأن يعارضوا بالشَّذا. فلما علم الزَّنج أن قد نذِر بهم انصرفوا منهزمين، فكثر المستأمنة من الزّنج وغيرهم وتتابعوا. فبلغ عدد مَنْ وافى عسكر أبي أحمد منهم إلى آخر شهر رمضان سنة سبع وستين ومائتين خمسة آلاف رجل من بين أبيض وأسود.

وفي شوال من هذه السنة كانت لأبي العباس وقعة بالزّنج، قُتِل فيها منهم جمع كثير.

ذكر سبب ذلك:

وكان السبب في ذلك ـ فيما بلغني ـ أنّ الفاسق انتخب من كلّ

قيادة من أصحابه أهل الجَلَد والبأس منهم، وأمر المهلبيّ بالعبور بهم ليبيّت عسكر أبي أحمد، ففعل ذلك. وكانت عِدّة مَنْ عَبَر من الزَّنج وغيرهم زهاء خمسة آلاف رجل أكثرهم من الزنج، وفيهم نحو من مائتي قائد. فعَبَرُوا إلى شرقيّ دجْلة، وعزموا على أن يصير القوّاد منهم إلى آخر النخل مما يلي السَّبَخة، فيكونوا في ظهر عسكر أبي أحمد، ويعبر جماعة كثيرة منهم في الشَّذَا والسُّميريّات والمعابر قبالة عسكر أبي أحمد؛ فإذا نشبت الحرب بينهم انكبّ مَنْ كان عبر من قوّاد الخبيث، فصار إلى السَّبخة على عسكر أبي أحمد الموفق، وهم غارّون مشاغيل بحرب مَنْ بإزائهم. وقدّر أن يتهيأ له في ذلك ما أحبه. فأقام الجيش في الفُرات ليلتَهم، ليغادروا الإيقاع بالعسكر. فاستأمن إلى أبي أحمد غلام كان معهم من الملاّحين، فأنهى إليه خَبَرَهم وما اجتمعت عليه آراؤهم. فأمر أبو أحمد أبا العباس والقُوّاد والغلمان بالنهوض إليهم، وقصد الناحية التي فيها أصحاب الخبيث. وأنفذ جماعة من قُوّاد غلمانه في الخيل إلى السَّبَخة التي في مؤخّر النخل بالفرات، لتقطعهم عن الخروج إليها. وأمر أصحاب الشَّذَا والسُّميريّات، فاعترضوا في دِجْلة. وأمر الرجّالة بالزَّحْف إليهم من النخل. فلما رأى الفجّار ما أتاهم من التدبير الذي لم يحتسبوه كرّوا راجعين في الطريق الذي أقبلوا منه طالبين التخلص، فكان قصدهم لجوّيث بارَوَيْه. وانتهى خبر رجوعهم إلى الموفّق، فأمر أبا العباس وزِيرك بالانحدار في الشَّذَوات يسبقونهم إلى النهر، ليمنعوهم من عبوره. وأمر غلاماً من غلمانه، يقال له ثابت، له قيادة على جَمْع كثير من غلمانه السودان أن يحمل أصحابه في المعابر والزّواريق، وينحدر معهم إلى الموضع الذي فيه أعداء الله للإيقاع بهم حيث كانوا. فأدركهم ثابت في أصحابه بجوّيث بارويه؛ فخرج إليهم فحاربهم محاربة طويلة. وثبتوا له، واستقبلوا جمعه وهو من أصحابه

في زُهاء خمسمائة رجل، لأنهم لم يكونوا تكاملوا، وطمعوا فيه. ثم صدقهم وأكبَّ عليهم، فمنحه الله أكتافَهم؛ فمِنْ مقتول وأسير وغريق وملجّج في الماء بقدر اقتداره على السباحة التقطته الشذا والسميريّات في دِجْلة والنهر؛ فلم يفلت من ذلك الجيش إلاَّ أقله. وانصرف أبو العباس بالفَتْح، ومعه ثابت وقد عُلِّقت الرؤوس في الشَّذَوات وصُلب الأسارى فيها فاعترضوا بهم مدينتهم ليرهبوا بهم أشياعهم، فلما رأوْهم أبْلسوا[1] وأيقنوا بالبَوار. وأدخل الأسارى والرؤوس إلى الموفقيّة. وانتهى إلى أبي أحمد أن صاحب الزّنج موّه على أصحابه، وأوهمهم أن الرؤوس المرفوعة مُثُلٌ مثِّلت لهم[2] ليراعُوا، وأن الأسارى من المستأمنة. فأمر الموفق عند ذلك أبا العباس بجمع الرؤوس والمسير بها إلى إزاء قصر الفاسق والقذف بها في منجنيق منصوب في سفينة إلى عسكره، ففعل أبو العباس ذلك. فلما سقطت الرؤوس في مدينتهم، عرف أولياء القتلى رؤوس أصحابهم، فظهر بكاؤهم، وتبين لهم كذب الفاجر وتمويهه.

وفي ذي القعدة منها كانت لزِيرك وقعة مع جيش لصاحب الزنج بنهر ابن عمر، قتل زيرك منهم فيها خلقاً كثيراً.

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة:

ذكر أن صاحب الزَّنج كان قد أمر باتّخاذ شَذَوات، فعُمِلت له، فضمها إلى ما كان يحارب به. وقسّم شذواته ثلاثة أقسام بين بَهْبوذ ونصر الروميّ وأحمد بن الزرَنجيّ، وألزم كلّ واحد منهم غرْمَ ما يصنع

(١) أبلس: انكسر وحزن.
(٢) أي أنها تماثيل وليست رؤوساً حقيقية.

على يديه منها؛ وكانت زهاء خمسين شَذاة. ورتّب فيها الرّماة وأصحاب الرماح، واجتهدوا في إكمال عُدّتهم وسلاحهم. وأمرهم بالمسير في دِجْلة والعبور إلى الجانب الشرقيّ والتعرّض لحرب أصحاب الموفق، وعدّة شذوات الموفّق يومئذ قليلة، لأنه لم يكن وافاه كلّ ما كان أمر باتّخاذه، وما كان عنده منها فمتفرّق في فُوّهة الأنهار التي يأتي الزَّنج منها المِيَر. فغلظ أمر عوان الفاجر، وتهيّأ له أخذ شذاة بعد شذاة من شذا الموفّق. وأحجم نصير المعروف بأبي حمزة عن قتالهم والإقدام عليهم كما كان يفعل لقلة ما معه من الشَّذا، وأكثر شذوات الموفق يومئذ مع نصير، وهو المتولّي لأمرها. فارتاع لذلك أهلُ عسكر الموفق، وخافوا أن يقدم على عسكرهم الزَّنج بما معهم من فضل الشَّذَا. فورد عليهم في هذه الحال شَذوات كان الموفَّق تقدّم في بنائها بجنّابَا، فأمر أبا العباس بتلقّيها فيما معه من الشَّذَا حتى يوردها العسكر، إشفاقاً من اعتراض الزَّنج عليها في دِجْلة، فسلمت. وأتى بها حتى إذا وافت عسكر نُصير، فبصر بها الزنج وطمعوا فيها. فأمر الخبيث بإخراج شَذَواته، وأمر أصحابه بمعارضتها والاجتهاد في اقتطاعها، فنهضوا لذلك. فتسرّع غلام من غلمان أبي العباس شجاع يقال له وصيف يعرف بالحِجْراي، في شذوات كُنّ معه، فشدّ على الزنج فانكشفوا. وتبعهم حتى وافى بهم نهر أبي الخصيب، وانقطع عن أصحابه، فكرُّوا عليه شذواتِهم. وانتهى إلى مضيق، فعلقت مجاديف بعض شذواته بمجاديف بعض شذواتهم، فجنحت وتقصّفت بالشطّ. وأحاط به الآخرون واكتنفوه من جوانبه، وانحدر عليه الزَّنْج من السور، فحاربهم بمَنْ كان معه حرباً شديداً حتى قتلوا.

وأخذ الزّنج شذواتِهم، فأدخلوها نهر أبي الخصيب. ووافى أبو

العباس بالشذوات الجنّابية سالمة بما فيها من السلاح والرجال، فأمر أبو أحمد أبا العباس بتقلّد أمر الشَّذَوات كلها والمحاربة بها، وقطع مواد المِير عنهم من كلّ جهة، ففعل ذلك. فأصلِحت الشذوات، ورتب فيها المختارون من الناشبة والرّامحة، حتى إذا أحكم أمرها أجمع، ورتّبها في المواضع التي كانت تقصد إليها شذوات الخبيث، وتعيث فيها، أقبلت شذواته على عادتها التي كانت قد جرت عليها. فخرج إليهم أبو العباس في شَذَواته، وأمر سائر أصحاب الشَّذا أن يحملوا بحملته. ففعلوا ذلك وخالطوهم، وطفقوا يرشُقونهم بالسهام، ويطعنونهم بالرماح، ويقذفونهم بالحجارة؛ وضرب الله وجوهَهم، فولوْا منهزمين. وتبعهم أبو العباس وأصحابه حتّى أولجوهم نهر أبي الخصيب، وغرق لهم ثلاث شَذَوَات. وظفر بشذاتَين من شَذَواتهم بما فيها من المقاتلة والملاّحين. فأمر أبو العباس بضرب أعنَاق مَنْ ظفِر به منهم.

فلما رأى الخبيث ما نزل بأصحابه، امتنع من إخراج الشَّذا عن فناء قصره، ومنع أصحابه أن يجاوزوا بها الشطّ إلاّ في الأوقات التي يخلو دِجْلة فيها من شَذَوات الموفّق.

فلمّا أوقع بهم أبو العباس هذه الوقعة اشتدّ جزعُهم، وطلب وجوه أصحاب الخبيث الأمانَ فأومِنوا. فكان ممن استأمَن من وجوههم - فيما ذكر - محمد بن الحارث العميّ - وكان إليه حفظ عسكر مَنكى والسور الذي يلي عسكر الموفّق، وكان خروجُه ليلاً مع عدّة من أصحابه - فوصله الموفق بصلات كثيرة، وخلع عليه، وحمله على عدّة دوابّ بحليتها وآلتها، وأسنى له الرّزق. وكان محمد بن الحارث حاول

إخراج زَوْجته معه، وهي إحدى بنات عمه، فعجزت المرأة عن اللحاق به، فأخذها الزنج فردّوها إلى الخبيث، فحبسها مدّة، ثم أمر بإخراجها والنداء عليها في السوق، فبيعت. ومنهم أحمد المعروف بالبَرذعيّ. وكان ـ فيما قيل ـ من أشجع رجال الخبيث الذين كانوا في حيِّز المهلبيّ. ومن قوّاد الزنج مدبد وابن أنكلويه ومنينة، فخلع عليهم جميعاً، ووُصلوا بصلات كثيرة، وحُمِلوا على الخيل، وأحسن إلى جميع من جاؤوا به معهم من أصحابهم. وانقطعت عن الخبيث موادّ الميرة، وسُدّت عليه وعلى من أقام معه المذاهب. وأمر شبلاً وأبا النداء ـ وهما من رؤساء قوّاده وقدماء أصحابه الذين كان يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم ـ بالخروج في عشرة آلاف من الزَّنج وغيرهم، والقصد لنهر الدير ونهر المرأة ونهر أبي الأسد، والخروج من هذه الأنهار إلى البَطيحة للغارة على المسلمين، وأخذ ما وجدا من طعام وميرة ليُقطع عن عسكر الموفق ما يرده من الميرة وغيرها من مدينة السلام وواسط ونواحيها. فندب الموفّق لقصدهم حين انتهى إليه خبر مسيرهم مولاه زيرك صاحب مقدمة أبي العباس، وأمره بالنهوض في أصحابه إليهم، وضمّ إليه من اختار من الرجال. فمضى في الشَذَوات والسُّميريّات، وحمل الرجّالة في الزواريق والسفن الخِفاف حثيثاً، حتى صار إلى نهر الدير، فلم يعرِف لهم هنالك خبراً. فصار منه إلى بثْق شِيرين. ثم سلك في نهر عديّ حتى خرج إلى نهر ابن عمر، فالتقى به جيش الزَّنْج في جمع راعتْه كثرته. فاستخار الله في مجاهدتهم، وحمل عليهم في ذوي البصائر والثبات من أصحابه. فقذف الله الرعب في قلوبهم، فانفضّوا. ووضع فيهم السلاح، فقتَل منهم مقتلةً عظيمة، وغرِق منهم مثل ذلك، وأسرَ خلقاً كثيراً، وأخذ مِن سفنهم ما أمكنه أخذه، وغرَّق منه ما أمكن

تغريقه؛ فكان ما أخذ من سفنهم نحواً من أربعمائة سفينة. وأقبل بمن معه من الأسارى وبالرؤوس إلى عسكر الموفق.

وفي ذي الحجة لست بقين منه عبر الموفق بنفسه إلى مدينة الفاسق وجيشه لحربه.

ذكر السبب الذي من أجله كان عبورُه إليها:

وكان السبب في ذلك ـ فما ذكر ـ أن الرؤساء من أصحاب الفاسق ـ لمّا رأوْا ما قد حلّ بهم من البلاء مِنْ قتل مَنْ يظهر منهم وشدّة الحصار على مَنْ لزم المدينة، فلم يظهر منهم أحد، وحالَ مَنْ خرج منهم بالأمان من الإحسان إليه، والصفح عن جرْمه ـ مالوا إلى الأمان، وجعلوا يهربون في كلّ وجه، ويخرجون إلى أبي أحمد في الأمان كُلَّما وجدوا إليه السبيل. فملىء الخبيث من ذلك رُعْباً، وأيقن الهلاك. فوكّل بكلّ ناحية كان يرى أنّ فيها طريقاً للهرب من عسكره أحراساً وحَفظة، وأمرهم بضبط تلك النواحي، ووكّل بفُوّهة الأنهار مَنْ يمنع السفن من الخروج منها، واجتهد في سدّ كلّ مسلك وطريق وثلمة، لئلا يطمع في الخروج عن مدينته.

وأرسل جماعةٌ من قوّاد الفاجر صاحب الزنج إلى الموفق يسألونه الأمان، وأن يوجه لمحاربة الخبيث جيشاً ليجدوا إلى المصير إليه سبيلاً. فأمر الموفق أبا العباس بالمصير في جماعة من أصحابه إلى الموضع المعروف بنهر الغربيّ، وعليّ بن أبان حينئذ يحوط ذلك النهر، فنهض أبو العباس في المختارين من أصحابه، ومعه الشَّذَا والسُّميريّات والمعابِر، فقصد النهر الغربيّ، وانتدب المهلبيّ وأصحابه لحربه. فاستعرت الحرب بين الفريقين، وعلا أصحاب أبي العباس، وقهر

الزّنْج. وأمدّ الفاسق المهلبي بسليمان بن جامع في جَمع من الزّنج كثير، واتصلت الحرب يومئذ من أوّل النهار إلى وقت العصر؛ وكان الظفر في ذلك ليوم لأبي العباس وأصحابه. وصار إليه القوم الذين كانوا طلبوا الأمان من قُوّاد الخبيث، ومعهم جمع كثير من الفرسان وغيرهم من الزَّنْج. فأمر أبو العباس عند ذلك أصحابه بالرجوع إلى الشَّذا والسفن. وانصرف فاجتاز في منصرفه بمدينة الخبيث، حتى انتهى إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك، فرأى أصحابه من قلة عدد الزَّنْج في هذا الموضع من النهر ما طمعوا له فيمن كان هناك. فقصدوا نحوهم، وقد انصرف أكثر أصحابهم إلى المدينة الموفقيّة. فقربوا إلى الأرض، وصعِدوا وأمعنوا في دخول تلك المسالك، وعَلَتْ جماعةٌ منهم السور، وعليه فريق من الزّنج وأشياعهم، فقتلوا مَنْ أصابوا منهم هنالك، ونذِر الفاسق بهم، فاجتمعوا لحربهم، وأنجد بعضهم بعضاً.

فلمّا رأى أبو العباس اجتماعَ الخبثاء وتحاشدَهم وكثرة مَن ثاب إلى ذلك الموضع منهم، مع قلة عدد مَنْ هنالك من أصحابه، كرّ راجعاً إليهم فيمن كان معه في الشَّذَا، وأرسل إلى الموفّق يستمدّه، فوافاه لمعونته مَنْ خفّ لذلك من الغلمان في الشَّذَا والسُّميريّات؛ فظهروا على الزَّنْج وهزموهم. وقد كان سليمان بن جامع لما رأى ظهور أصحاب أبي العباس على الزَّنْج، وغَل في النهر مصاعداً في جمع كثير، فانتهى إلى النَّهر المعروف بعبد الله، واستدبر أصحاب أبي العباس وهم في حربهم، مقبلين عَلَى مَنْ بإزائهم ممّن يحاربهم، فيمعنون في طلب مَنْ انهزم عنهم من الزَّنْج. فخرج عليهم من ورائهم، وخفقت طبوله، فانكشف أصحاب أبي العباس، ورجع عليهم مَن كان انهزم عنهم من الزَّنج، فأصِيبت جماعة من غلمان الموفَّق وغيرهم من جُنده، وصار في

أيدي الزَّنج عدّة أعلام ومطارد. وحامى أبو العباس عن الباقين من أصحابه، فسلم أكثرُهم، فانصرف بهم؛ فأطمعت هذه الوقعة الزَّنْج وتبّاعهم، وشدّت قلوبهم، فأجمع الموفَّق على العبور بجيشه أجمع لمحاربة الخبيث، وأمر أبا العباس وسائر القوّاد والغلمان بالتأهّب للعبور، وأمر بجمع السفن والمعابر وتفريقها عليهم، ووقف على يوم بعينه أراد العبور فيه. فعصفت رياحٌ منعت من ذلك، واتصل عصوفها أياماً كثيرة، فأمهل الموفّق حتى انقضى هبوب تلك الرياح، ثم أخذ في الاستعداد للعبور ومناجزة الفاجر.

فلما تهيّأ له ما أراد من ذلك عبر يوم الأربعاء لست ليال بقين من ذي الحجة من سنة سبع وستين ومائتين في أكثف جَمْع وأكمل عدّة، وأمر بحمل خيل كثيرة في السفن. وتقدّم إلى أبي العباس في المسير في الخيل ومعه جميع قوّاده الفرسان ورجّالتهم، ليأتيَ الفجرة مِن ورائهم من مؤخّر النهر المعروف بمنكى. وأمر مسروراً البلخيّ مولاه بالقَصد إلى نهر الغربيّ ليضطر الخبيث بذلك إلى تفريق أصحابه. وتقدّم إلى نصير المعروف بأبي حمزة ورشيق غلام أبي العباس وهو من أصحابه ـ وشذواتُه في مثل العدّة التي فيها نصير ـ بالقصد لفوهة نهر أبي الخصيب والمحاربة لما يظهر من شَذَوات الخبيث، وقد كان استكثر منها، وأعدّ فيها المقاتلة وانتخبهم. وقصد أبو أحمد بجميع مَنْ معه لركن من أركان مدينة الخبيث قد كان حصّنه بابنه المعروف بأنكلاي، وكنفه بعليّ بن أبان وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ وحفّه بالمجانيق والعرّادات والقسيّ النّاوكيّة، وأعدّ فيه الناشبة وجمع فيه أكثر جيشه.

فلما التقى الجمعان أمر الموفق غلمانه، الناشبة والرامحة

والسودان، بالدنوّ من الركن الذي فيه جمع الفسقة، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك؛ وهو نهر عريض غزير الماء. فلما انتهوْا إليه أحجموا عنه. فصِيح بهم، وحُرِّضوا على العبور فعبروا سباحة، والفسقة يرمونهم بالمجانيق والعرّادات[١] والمقاليع والحجارة عن الأيدي، وبالسهام عن القسيّ الناوكية، وقسيّ الرِّجْل وصنوف الآلات التي يرمَى عنها، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر، وانتهوا إلى السور، ولم يكن لحِقهم من الفَعَلَة مَنْ كان أعِدَّ لهدمه. فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من سلاحهم ويسَّر الله ذلك، وسهّلوا لأنفسهم السبيل إلى عُلّوه. وحضرهم بعض السلاليم التي كانت أعِدّت لذلك، فعلَوا الركن، ونصبوا هنالك علماً من أعلام الموفق. وأسلم الفسقة سورهم، وخلوْا عنه بعد أن حوربوا عليه أشدّ حرب. وقتِل من الفريقين خلقٌ كثير، وأصيب غلامٌ من غلمان الموفّق يقال له ثابت بسهم في بطنه فمات؛ وكان من قوّاد الغلمان وجِلّتهم.

ولما تمكن أصحاب الموفّق من سُور الفسقة، أحرقوا ما كان عليه من منجنيق وعرّادة وقوس ناوكيّة، وخلّوْا عن تلك الناحية وأسلموها. وقد كان أبو العباس قصد بأصحابه في الخيل النهر المعروف بمنكى، فمضى عليّ بن أبان المهلبيّ في أصحابه، قاصداً لمعارضته ودفعه عمّا صمد له. والتقيا فظهر أبو العباس عليه وهزمه، وقتل جمعاً كثيراً من أصحابه، وأفلت المهلبيّ راجعاً. وانتهى أبو العباس إلى الموضع الذي قدّر أن يصل منه إلى مدينة الفاسق من مؤخر نهر منكى، وهو يرى أنّ

(١) المجانيق: آلات حربية لرمي القذائف المختلفة. والعرادات مختصَّة برمي الحجارة.

المدخل من ذلك الموضع سهلٌ، فدخل إلى الخندق فوجده عريضاً ممتنعاً. فحمل أصحابه على أن يعبروه بخيولهم، وعبّره الرجّالة سباحةً حتى وافوا السور، فثلموا فيه ثلماً اتّسع لهم منه الدخول فدخلوا. فلقي أوائلُهم سليمان بن جامع، وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية لمّا انتهى إليه انهزام المهلبيّ عنها، فحاربوه، وكان أمام القوم عشرة من غِلمان الموفق، فدافعوا سليمان وأصحابَه، وهم خلق كثير، وكشفوهم مراراً كثيرة، وحاموا عن سائر أصحابهم حتى رجعوا إلى مواضعهم.

وقال محمد بن حمّاد: لما غلب أصحاب الموفّق على الموضع الذي كان الفاسق حرسه بابنه والمذكورين من أصحابه وقوّاده، وشعّثوا من السور الذي أفضوْا إليه ما أمكنهم تشعيثُه، وافاهم الذين كانوا أعِدّوا للهدم بمعاولهم وآلاتهم، فثلموا في السور عدّة ثلم. وقد كان الموفّق أعدّ لخندق الفسقة جسراً يُمَدّ عليه، فمُدّ عليه، وعبر جمهور الناس. فلما عاين الخَبَثة ذلك، ارتاعوا فانهزموا عن سور لهم ثان قد كانوا اعتصموا به. ودخل أصحابُ الموفق مدينة الخائن، فولّى الفاجرُ وأشياعُه منهزمين، وأصحابُ الموفق يتبعونهم ويقتلون مَن انتهوا إليه منهم، حتى انتهوا إلى النهر المعروف بابن ِ سمعان. وصارت دار ابن سِمعان في أيدي أصحاب الموفق، وأحرقوا ما كان فيها وهدموها. ووقف الفجرة على نهر ابن سمعان وقوفاً طويلاً، ودافعوا مدافعة شديدة. وشدّ بعض غلمان الموفق على عليّ بن أبان المهلبيّ، فأدبر عنهم هارباً، فقبض على مئزره، فخلّى عن المئزر، ونبذه إلى الغلام، ونجا بعد أن أشفَى على الهَلَكة. وحمل أصحاب الموفق على الزَّنج حملةً صادقة، فكشفوهم عن النهر المعروف بابن سمعان، حتى وافَوْا بهم طرف ميدان الفاسق. وانتهى إليه خبرُ هزيمة أصحابه ودخول

أصحاب الموفّق مدينته من أقطارها، فركب في جمع من أصحابه، فتلقّاه أصحاب الموفق، وهم يعرفونه في طرف ميدانه، فحملوا عليه، فتفرّق عنه أصحابُه ومَن كان معه وأفردوه، وقَرُب منه بعض الرَّجّالة حتى ضرب وجه فرسه بتُرسه؛ وكان ذلك مع مغيب الشمس. فأمر الموفّق أصحابه بالرجوع إلى سفنهم، فرجعوا سالمين، قد حملوا من رؤوس الخبثاء شيئاً كثيراً، ونالوا كلّ الذي أحبُّوا منهم من قتل وجراح وتحريق منازل وأسواق. وقد كان استأمن إلى أبي العباس في أول النهار عدد من قوّاد الفاجر وفرسانه، فاحتاج إلى التوقف على حملهم في السفن. وأظلم الليل، وهبّت ريح شمال عاصف، وقوِيَ الجزر، فلصِق أكثر السفن بالطين.

وحرّض الخبيث أشياعَه واستنجدهم، فبانت منهم جماعة، وشدّوا على السفن المتخلّفة، فنالوا منها نَيْلاً، وقتلوا فيها نفراً. وقد كان بهبوذ بإزاء مسرور البلخيّ وأصحابه في هذا اليوم في نهر الغربيّ، فأوقع بهم، وقتل جماعة منهم، وأسر أسارى، وصارت في يده دوابّ من دوابهم، فكسر ذلك نشاط أصحاب الموفّق. وقد كان الخبيثُ أخرجَ في هذا اليوم جميع شَذَواته إلى دِجْلة محاربين فيه رشيقاً، وضرب منها رشيق على عدّة شَذَوات، وغرّق منها وحرّق، وانهزم الباقون إلى نهر أبي الخصيب.

وذُكر أنه نزل في هذا اليوم بالفاسق وأصحابه ما دعاهم إلى التفرّق والهرب على وجوههم نحو نهر الأمير والقَندل وإبرسان وعبّادان وسائر القرى. وهرب يومئذ أخوا سليمان بن موسى الشعرانيّ: محمد وعيسى، فمضيا يؤمّان البادية، حتى انتهى إليهما رجوع أصحاب الموفق، فرجعا. وهرب جماعة من العرب الذين كانوا في عسكر

الفاسق، وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد، فآمنهم، ووجّه إليهم السفن، فحملهم إلى الموفقيّة، وأمر أن يخلَع عليهم، ويوصلوا، ويجرَى عليهم الأرزاق والأنزال، ففعل ذلك بهم.

وكان فيمن رغب في الأمان من جلّة قوّاد الفاجر ريحان بن صالح المغربيّ، وكانت له رياسة وقيادة، وكان يتولّى حجبة ابن الخبيث المعروف بأنكلاي. فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفِذ إليه عدد كثير من الشذا والسميريّات والمعابر مع زيرك القائد صاحب مقدّمة أبي العباس. فسلك النهر المعروف باليهوديّ، حتى وافى الموضع المعروف بالمطّوعة، فألفى به ريحان ومن معه من أصحابه. وقد كان الموعد تقدم في موافاة ذلك الموضع زيرك ريحان ومن معه. فوافى بهم دار الموفق، فأمر لريحان بخلع، وحمل على عدّة من أفراس بآلتها، وأجيز بجائزة سنية، وخلع على أصحابه، وأجيزوا على أقدارهم، وضُمّ إلى أبي العباس، وأمِر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار الخبيث. فوقفوا هنالك في الشَّذَا، فعرفوا خروج ريحان وأصحابه في الأمان، وما صاروا إليه من الإحسان، فاستأمن في ساعتهم تلك من أصحاب ريحان الذين كانوا تخلّفوا وغيرهم جماعة، فألحِقوا في البرّ والإحسان بأصحابهم. وكان خروج ريحان بعد الوقعة التي كانت يوم الأربعاء في يوم الأحد لليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وستين ومائتين.

أخبار سنة ٢٦٨هـ

استئمان جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان إلى أبي أحمد الموفّق في يوم الثلاثاء في غرّة المحرم منها

وذكر أن السبب كان في ذلك الوقعة التي كانت لأبي أحمد في آخر ذي الحجة من سنة سبع وستين ومائتين التي ذكرناها قبلُ، وهرب ريحان بن صالح المغربيّ من عسكر الفاجر وأصحابه ولحاقه بأبي أحمد، فنخب[1] قلب الخبيث لذلك. وذلك أنّ السجّان كان ـ فيما قيل ـ أحد ثقاته. فأمر أبو أحمد للسجان هذا بخِلَع وجوائز وصِلات وحُملان وأرزاق، وأقيمت له أنزال، وضُمّ إلى أبي العباس. وأمره بحمله في الشَّذَاة إلى إزاء قصر الفاسق، حتى رآه وأصحابه. وكلّمهم السّجّان، وأخبرهم أنهم في غرور من الخبيث، وأعلمهم ما قد وقف عليه من كذبه وفجورِه؛ فاستأمن في هذا اليوم الذي حُمل فيه السجان من عسكر الخبيث خلقٌ كثير من قُوّاده الزّنج وغيرهم، وأحسِن إليهم. وتتابع الناس في طلب الأمان والخروج من عند الخبيث. ثم أقام أبو أحمد بعد الوقعة التي ذكرتُ أنها كانت لليلة بقيت من ذي الحجة من سنة سبع وستين ومائتين، لا يعبر إلى الخبيث لحرب، يُجِمّ[2] بذلك أصحابه إلى شهر ربيع الآخر.

عبور الموفّق إلى المختارة مجدّداً - هجمة فاشلة

ولأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر منها عبر أبو أحمد الموفق إلى مدينة الفاجر، بعد أو أوْهَى قوّته في مُقامه بمدينة الموفّقية، بالتضييق عليه والحصار، ومنعه وصول المِيَر إليه، حتى استأمن إليه خلق كثير من أصحابه. فلما أراد العبور إليها أمر ـ فيما ذكر ـ ابنه أبا العباس بالقَصْد للموضع الذي كان قصده من ركن مدينة الخبيث الذي

(١) نُخِب قلبه: انتُزع فصار جباناً.

(٢) يجمّ أصحابه: يجمعهم.

يحوطه بابنه وجِلّة أصحابه وقوّاده. وقصد أبو أحمد موضعاً من السور فيما بين النهر المعروف بمنكى والنهر المعروف بابنِ سِمْعان. وأمر صاعداً وزيرَه بالقصد لفوهة النهر المعروف بجَوَى كور. وتقدم إلى زِيرك في مكانفته. وأمر مسروراً البلخيّ بالقَصْد لنهر الغربيّ. وضمّ إلى كلّ واحد منهم من الفَعَلَة جماعة لهدم ما يليهم من السُّور. وتقدّم إلى جميعهم ألاّ يزيدوا على هدم السور، وألا يدخلوا مدينة الخبيث. ووكّل بكلّ ناحية من النواحي التي وجه إليها القوّاد شَذَوات فيها الرّماة، وأمرهم أن يحموا بالسهام مَنْ يهدم السور من الفَعَلة والرجّالة الذين يخرجون للمدافعة عنهم. فثُلم في السور ثلم كثيرة، ودخل أصحابُ أبي أحمد مدينة الفاجر من جميع تلك الثُّلَم. وجاء أصحاب الخبيث يحاربونهم، فهزمهم أصحابُ أبي أحمد، وأتبعوهم حتى وغلوا في طلبهم، واختلفت بهم طرق المدينة، وفرّقت بينهم السكك والفِجاج، فانتهوْا إلى أبعد من الموضع الذي كانوا وصلوا إليه في المرّة التي قبلها، وحرّقوا وقتّلوا.

ثم تراجع أصحاب الخبيث، فشدّوا على أصحاب أبي أحمد، وخرج كمناؤهم من نواحٍ يهتدون لها ولا يعرفها الآخرون. فتحيّر مَنْ كان داخل المدينة من أصحاب أبي أحمد، ودافعوا عن أنفسهم، وتراجعوا نحو دِجْلة حتى وافاها أكثرُهم؛ فمنهم مَنْ دخل السفينة، ومنهم مَنْ قذف نفسَه في الماء، فأخذه أصحاب الشَّذَا، ومنهم مَنْ قتِل. وأصاب أصحاب الخبيث أسلحةً وأسلاباً. وثبت جماعة من غلمان أبي أحمد بحضرة دار ابن سمعان، ومعهم راشد وموسى ابن أخت مفلح، في جماعة من قُوّاد الغلمان كانوا آخر مَنْ ثبت من الناس. ثم أحاطَ بهم الزَّنج وكثَرُوهم، وحالوا بينهم وبين الشَّذَا، فدافعوا عن أنفسهم

وأصحابهم، حتى وصلوا إلى الشَّذَا فركبوها. وأقام نحو من ثلاثين غلاماً من الديالمة في وجوه الزَّنج وغيرهم، يحمون الناس، ويدفعون عنهم حتى سلِموا. وقتِل الثلاثون من الدّيالمة عن آخرهم، بعدما نالوا من الفجار ما أحبوا. وعظم على الناس ما نالهم في هذه الوَقْعة. وانصرف أبو أحمد بمَنْ معه إلى مدينة الموفقيّة، وأمر بجمعهم وعَذْلِهم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والافتيات عليه في رأيه وتدبيره، وتوعدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لخلاف أمره بعد ذلك. وأمر بإحصاء المفقودين مِن أصحابه فأحْصُوا له، فأتِيَ بأسمائهم، وأقرَّ ما كان جارياً لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسُن موقع ذلك منهم، وزاد في صحة نياتهم لِمَا رأوْا من حياطته خلْف مَنْ أصيب في طاعته.

وفيها كانت لأبي العباس وقعةٌ بقوم من الأعراب الذين كانوا يميرون الفاسق اجتاحهم فيها.

ذكر الخبر عن السبب الذي كانت من أجله هذه الوقعة:

ذُكر أنّ الفاسق لما خرّب البصرة ولاّها رجلاً من قدماء أصحابه يقال له أحمد بن موسى بن سعيد المعروف بالقَلُوص؛ فكان يتولّى أمرها، وصارت فرصة للفاسق يَرِدها الأعراب والتّجار، ويأتونها بالميَر وأنواع التجارات، ويُحمل ما يردها إلى عسكر الخبيث، حتى فتح أبو أحمد طهِيثا، وأسر القَلوص. فولّى الخبيثُ ابنَ أخت القَلوص ـ يقال له مالك بن بِشران ـ البَصْرة وما يليها. فلمّا نزل أبو أحمد فرات البَصْرة خاف الفاجر إيقاع أبي أحمد بمالك هذا، وهو يومئذ نازل بسَيْحان على نهر يعرف بنهر ابن عتبة. فكتب إلى مالك يأمره بنقل عسكره إلى النهر المعروف بالديناريّ، وأن ينفذ جماعة ممّن معه لصيد السمك وإدرار

حمله إلى عسكره، وأن يوجّه قوماً إلى الطريق التي يأتي منها الأعراب من البادية، ليعرف ورود مَن يرد منهم بالمِيَر، فإذا وردت رُفقة من الأعراب خرج إليها بأصحابه، حتى يحمل ما تأتي به إلى الخبيث، ففعل ذلك مالك ابن أخت القَلوص، ووجّه إلى البَطيحة رجلين من أهل قرية بسمى، يعرف أحدهما بالرَّيان والآخر الخليل، كانا مقيمين بعسكر الخبيث. فنهض الخليل والرّيان وجمعا جماعةً من أهل الطّفّ، وأتيا قرية بسمى، فأقاما بها يحملان السمك من البَطيحة أوّلاً أوّلاً إلى عسكر الخبيث في الزواريق الصغار التي تسلك بها الأنهار الضيّقة والأرخنجان التي لا تسلكها الشَّذَا والسُّميريّات. فكانت موادّ سمك البَطيحة متّصلة إلى عسكر الخبيث بمقام هذين الرجلين بحيث ذكرنا، واتّصلت أيضاً مِيَر الأعراب وما كانوا يأتون به من البادية، فاتّسع أهلُ عسكره. ودام ذلك إلى أن استأمن إلى الموفّق رجلٌ من أصحاب الفاجر الذين كانوا مضمومين إلى القَلوص، يقال له عليّ بن عمر، وعرف بالنقّاب، فأخبر بخبر مالك بن بِشْران ومقامه بالنهر المعروف بالديناريّ، وما يصل إلى عسكر الخبيث بمقامه هناك من سَمك البطيحة وجلْب الأعراب. فوجَّه الموفق زِيرك مولاه في الشَّذَا والسُّميريّات إلى الموضع الذي به ابن أخت القَلوص، فأوقع به وبأهل عسكره، فقتل منهم فريقاً وأسر فريقاً، وتفرَّق أهلُ ذلك العسكر. وانصرف مالك إلى الخبيث مفلولاً، فردَّه الخبيث في جمع إلى مؤخّر النهر المعروف باليهوديّ، فعسكر هنالك بموضع قريب من النهر المعروف بالفيّاض؛ فكانت المِيَر تتّصِل بعسكر الخبيث مِمّا يَلِي سَبَخة الفيّاض. فانتهى خبر مالك ومقامه بمؤخّر نهر اليهودي ووقع المِيَر من تلك الناحية إلى عسكر الفاجر إلى الموفّق، فأمر ابنه أبا العباس بالمصير إلى نهر الأمير،

والنهر المعروف بالفيّاض لتعرّف حقيقة ما انتهى إليه من ذلك؛ فنفذ الجيش، فوافق جماعةً من الأعراب يرأسهم رجلٌ قد أورد من البادية إبلاً وغنماً وطعاماً، فأوقع بهم أبو العباس، فقتل منهم جماعةً وأسر الباقين، ولم يُفلت من القوم إلا رئيسهم؛ فإنه سبق على حِجْر[1] كانت تحته،فأمعن هرباً، وأخذ كلَّ ما كان أولئك الأعراب أتوا به من الإبل والغنم والطعام. وقطع أبو العباس يدَ أحد الأسرى وأطلقه، فصار إلى معسكر الخبيث، فأخبرهم بما نزل به، فرِيعَ مالك ابن أخت القَلوص بما كان من إيقاع أبي العباس بهؤلاء الأعراب. فاستأمن إلى أبي أحمد، فأومن وحُبي وكُسيَ وضُمّ إلى أبي العباس وأجرِيت له الأرزاق، وأقيمت له الأنزال. وأقام الخبيث مقام مالك رجلاً كان من أصحاب القلوص، يقال له أحمد بن الجنيد، وأمره أن يعسكر بالموضع المعروف بالدهرشير ومؤخّر نهر أبي الخصيب، وأن يصير في أصحابه إلى ما يقبل من سمك البَطِيحة، فيحمله إلى عسكر الخبيث. وتأدّى إلى أبي أحمد خبر أحمد بن الجنيد، فوجّه قائداً من قوّاد الموالي يقال له الترمدان في جيش، فعسكر بالجزيرة المعروفة بالرّوحية، فانقطع ما كان يأتي إلى عسكر الخبيث من سَمك البَطِيحة. ووجّه الموفق شهاب بن العلاء ومحمد بن الحسن العنبريّين في خيل لمنع الأعراب من حمل المِير إلى عسكر الخبيث، وأمر بإطلاق السوق لهم بالبصرة، وحمل ما يريدون امتيارَه من التمر؛ إذ كان ذلك سبب مصيرهم إلى عسكر الخبيث. فتقدّم شهاب ومحمد لما أمرا به، فأقاما بالموضع المعروف

---

(١) الحِجْر: الأنثى من الخيل.

بقصر عيسى؛ فكان الأعراب يوردون إليهما ما يجلبونَه من البادية، ويمتارون التمر ممّا قِبَلهما.

ثم صرف أبو أحمد الترمدان عن البصرة، ووجّه مكانه قائداً من قُوّاد الفراغنة، يقال له قيصر بن أرْخُوز إخشاذ فَرْغانة. ووجّه نصيراً المعروف بأبي حمزة في الشَّذا والسُّميريات، وأمره بالمقام بفيض البصرة ونهر دُبَيْس وأن يخترق نهر الأُبُلّة ونهر معقل ونهر الغربيّ، ففعل ذلك.

قال محمد بن الحسن: وحدّثني محمد بن حماد، قال: لما انقطعت المِير عن الخبيث وأشياعه بمقام نصير وقيصر بالبصرة، ومنعهم المِيرة من البَطيحة والبحر بالشَّذا، صرفوا الحيلة إلى سلوك نهر الأمير إلى القَنْدل، ثم سلوك المسيحيّ إلى الطريق المؤدية إلى البرّ والبحر؛ فكانت مِيَرهِم من البرّ والبحر، وامتيارهم سمك البحر من هذه الجهة. فانتهى ذلك إلى الموفّق، فأمر رشيقاً غلام أبي العباس باتّخاذ عسكر بجَوِّيث بارويه في الجانب الشرقي من دِجْلة بإزاء نهر الأمير، وأن يحفر له خندقاً حصيناً. وأمَر أبا العباس أن يضمّ إلى رشيق من خيار أصحابه خمسة آلاف رجل وثلاثين شَذاة. وتقدّم إلى رشيق في ترتيب هذه الشَّذَا على فُوّهة نهر الأمير، وأن يجعل على كلّ خمس عشرة شَذَاة منها نوبة يلِج فيها نهرَ الأمير، حتى ينتهيَ إلى المعترض الذي كان الزَّنج يسلكونه إلى دُبًا والقَنْدل والنهر المعروف بالمسيحيّ؛ فيكون هناك؛ فإن طلع عليهم من الخُبَثَاء طالع أوقعوا به؛ فإذا انقضت نَوبتهم انصرفوا وعاقبهم أصحابهم المقيمون على فُوّهة النهر ففعلوا مثل هذا الفعل. فعسكر رشيق في الموضع الذي أمِر بترتيبه به، فانقطعت طرق الفَجَرَة التي كانوا

يسلكونها إلى دُبًا والقَنْدل والمسيحيّ؛ فلم يكن لهم سبيل إلى برّ ولا بحر، فضاقت عليهم المذاهب واشتدّ عليهم الحصار.

وفيها أوقع أخو شركب بالخُجُستانيّ وأخذ أمَّه.

وفيها أوقع رشيق غلام أبي العباس بن الموفّق بقوم من بني تميم، كانوا أعانوا الزّنج على دخول البصرة وإحراقها.

وكان السبب في ذلك أنه كان انتهى إليه أنّ قوماً من هؤلاء الأعراب قد جلبوا ميرة من البرّ إلى مدينة الخبيث، طعاماً وإبلاً وغنماً، وأنهم في مؤخّر نهر الأمير ينتظرون سفناً تأتيهم من مؤخّر عسكر الفاجر تحملهم وما معهم. فسرَى إليهم رشيق في الشَّذَا، فوافى الموضع الذي كانوا حلّوا به، وهو النهرُ المعروف بالإسحاقيّ، فأوقع بهم وهم غارّون. فقُتِل أكثرُهُم وأسِر جماعة منهم وهم تجار كانوا خرجوا من عسكر الخبيث لجلْب المِيرة، وحوى ما كان معهم من أصناف المِير والشاء والإبل والحمير التي كانوا حملوا عليها الميرة. فحمل الأسرى والرؤوس في الشَّذَا وفي سفن كانت معه إلى الموفقيّة. فأمر الموفق فعلّقت الرؤوس في الشَّذَا، وصُلِب الأسارى هنالك، وأظهر ما صار إلى رشيق وأصحابه، وطِيف بذلك في أقطار العسْكر. ثم أمر بالرؤوس والأسارى، فاجتيز بهم على عسكر الخبيث حتى عرفوا ما كان من رشيق من الإيقاع بجالبي المِيَر إليهم، ففعل ذلك. وكان فيمن ظفِر به رشيق رجل من الأعراب، كان يُسفِر بين صاحب الزَّنْج والأعراب في جلب المِيرة، فأمر به الموفّق فقُطعت يدُه ورجله، وألقي في عسكر الخبيث. ثم أمر بضرب أعناق الأسارى فضربت، وسوّغ أصحاب رشيق ما أصابوا من أموالهم. وأمر لرشيق بخلع وصِلة، وردّه إلى

عسكره. فكثر المستأمنون إلى رشيق. فأمر أبو أحمد بضمّ مَنْ خرج منهم إلى رشيق إليه، فكثُروا حتى كان كأكثر العساكر جمعاً. وانقطعت عن الخبيث وأصحابه المِيَر من الوجوه كلّها، وانسدّ عليهم كلُّ مسلك كان لهم، فأضرَّ بهم الحِصار، وأضعف أبدانهم؛ فكان الأسير منهم يُؤسر، والمستأمِن يُستأمَن، فيسألُ عن عهده بالخبز، فيعجب من ذلك، ويذكر أنّ عهده بالخبز منذ سنة وسنتين. فلما صار أصحاب الخائن إلى هذه الحال، رأى الموفّق أن يتابع الإيقاع بهم، ليزيدهم بذلك ضُرًّا وجهداً. فخرج إلى أبي أحمد في هذا الوقت في الأمان خلْق كثير، واحتاج مَنْ كان مقيماً في حيّز الفاسق إلى الحيلة لقوته. فتفرّقوا في القُرى والأنهار النائية عن معسكرهم في طلب القوت. فتأدّى الخبر بذلك إلى أبي أحمد، فأمر جماعةً من قوّاد غلمانه السودان وعُرفائهم بأن يقصدوا المواضع التي يعتادها الزَّنْج، وأن يستميلوهم ويستدعوا طاعَتَهم؛ فمَنْ أبَى الدخول منهم في ذلك قتلوه وحملوا رأسه، وجعل لهم جُعْلاً؛ فحرصوا وواظبوا على الغدوّ والرواح؛ فكانوا لا يخلون في يوم من الأيام من جماعة يجلبونهم، ورؤوس يأتون بها، وأسارى يأسرونهم.

قال محمد بن الحسن: قال محمد بن حمّاد: ولمّا كثر أسارى الزَّنج عند الموفّق، أمر باعتراضهم؛ فمَنْ كان منهم ذا قوّة وجَلَد ونهوض بالسلاح منّ عليه، وأحسن إليه، وخلطه بغلمانه السودان، وعرّفهم ما لهم عنده من البرّ والإحسان، ومَن كان منهم ضعيفاً لا حَراك به، أو شيخاً فانياً لا يُطيق حمل السلاح، أو مجروحاً جراحة قد أزْمَنَتْه، أمر بأن يُكْسى ثَوبين، ويوصَل بدراهم، ويزوّد ويحمل إلى عسكر الخبيث؛ فيلقى هناك بعدما يؤمر بوصف ما عاين من إحسان

الموفّق إلى كلّ مَنْ يصير إليه، وأنّ ذلك رأيه في جميع مَن يأتيه مستأمِناً ويأسره منهم؛ فتهيّأ له من ذلك ما أراد من استمالة أصحاب صاحب الزَّنْج، حتى استشعروا الميل إلى ناحيته والدخول في سِلْمه وطاعته. وجعل الموفّق وابنه أبو العباس يغاديان حرب الخبيث ومَنْ معه، ويراوحانها بأنفسهما ومَنْ معهما، فيقتلان ويأسران ويجرحان. وأصاب أبا العباس في بعض تلك الوقعات سهم جرحه فبرأ منه.

ذكر الخبر عن قتل بهبوذ بن عبد الوهاب

وفي رجب من هذه السنة قتِل بهبوذ صاحب الخبيث.

ذكر الخبر عن سبب مقتله:

ذُكر أن أكثر أصحاب الفاسق غارات، وأرشدهم تعرّضاً لقطع السبيل وأخذ الأموال، كان بهبوذ بن عبد الوهاب؛ وكان قد جمع من ذلك مالاً جليلاً، وكان كثير الخروج في السميريّات الخِفاف، فيخترق الأنهار المؤدّية إلى دِجْلة. فإذا صادف سفينةً لأصحاب الموفّق أخذها فأدخلها النهر الذي خرج منه؛ فإن تبعه تابع حتى توغّل في طلبه خرج عليه من النّهر قوم من أصحابه قد أعدَّهم لذلك، فاقتطعوه وأوقَعوا به. فلما كثر ذلك وتُحُرِّزَ منه ركب شذاةً، وشبّهها بشذوات الموفّق، ونصب عليها مثل أعلامه، وسار بها في دِجْلة. فإذا ظفر بِغِرّة من أهل العسكر أوْقع بهم، فقتَل وأسر، ويتجاوز إلى نهر الأبُلّة ونهر مَعْقِل وبَثْق شيرين ونهر الدير فيقطع السبل، ويعبث في أموال السابلة ودمائهم. فرأى الموفّق عندما انتهى إليه من أفعال بَهْبوذ أن يَسكر جميع الأنهار التي يخفّ سَكْرُها، ويرتّبَ الشذاة على فُوهة الأنهار العظام، ليأمن عبث بهبوذ وأشياعه، ويأمن سُبل الناس ومسالكهم. فلمّا حُرست هذه

المسالك، وسُكر ما أمكن سكرُه من الأنهار، وحِيل بين بهبوذ وبين ما كان يفعل، أقام منتهزاً فرْصة في غفلة أصحاب الشَّذا الموكلين بفوّهة نهر الأبُلّة؛ حتى إذا وجد ذلك اجتاز من مؤخر نهر أبي الخصيب في شَذوات مثل أصحاب الموفق وسُميريّاتهم، ونصب عليها مثل أعلامهم، وشحنها بجُلد أصحابه وأنجادهم وشجعانهم، واعترض بها في معتَرَض يؤدّي إلى النهر المعروف باليهوديّ. ثم سلك نهر نافذ حتى خرج منه إلى نهر الأبُلّة، وانتهى إلى الشَّذَوات والسميريّات المرتبة لحفظ النهر، وأهلها غارُّون غافلون. فأوقع بهم، وقتل جَمْعاً، وأسر أسرى، وأخذ ستّ شَذَوات، وكرّ راجعاً في نهر الأبُلّة. وانتهى الخبر بما كان من بَهْبوذ إلى الموفق، فأمر أبا العباس بمعارضته في الشَّذَا من النَّهر المعروف باليهوديّ، ورجا أن يسبقه إلى المعتَرَض فيقطعه عن الطريق المؤدّي إلى مأمنه.

فوافى أبو العباس الموضع المعروف بالمطوّعة، وقد سبق بهبوذ، فَوَلَج النهر المعروف بالسعيديّ؛ وهو نهر يؤدّي إلى نهر أبي الخصيب. وبصر أبو العباس بشَذَوات بهبوذ، وطمِع في إدراكها، فجدّ في طلبها، فأدركها. ونشبت الحرب، فقتل أبو العباس من أصحاب بَهْبوذ جَمْعاً، وأسر جمعاً، واستأمن إليه فريق منهم. وتلقى بهبوذَ من أشياعه خلق كثير، فعاونوه ودافعوا عنه دفعاً شديداً. وقد كان الماء جَزَر، فجرتْ شذواتُه في الطين في المواضع التي نَضَبَ الماء عنها من تلك الأنهار والمعترضات، فأفلت بهبوذ والباقون من أصحابه بجُريعة الذَّقَن.

وأقام الموفق على حصار الخبيث ومَنْ معه، وسدّ المسالك التي كانت المِيَر تأتيهم منها، وكثر المستأمنون منهم. فأمر الموفّق لهم

بالخِلَع والجوائز، وحملوا على الخيل الجياد بسروجها ولجمها وآلتها، وأجرِيت لهم الأرزاق. وانتهى الخبر إلى الموفق بعد ذلك أن الضرّ والبؤس قد أحوج جماعةً من أصحاب الخبيث إلى التفرّق في القرى لطلب القوت من السمك والتمر، فأمر ابنه أبا العباس بالمصير إلى تلك القرى والنواحي والإسراع إليها في الشَّذَا والسميريّات، وما خفّ من الزواريق وأن يستصحب جُلْد أصحابه وشجعانهم وأبطالهم ليحولَ بين هؤلاء الرّجال والرجوع إلى مدينة صاحب الزَّنج. فتوجّه أبو العباس لذلك. وعلم الخبيث بمسير أبي العباس له، فأمر بهبوذ أن يسير في أصحابه في المعترَضات والأنهار الغامضة ليخفي خبره، إلى أن يوافي القَنْدل وأبراسان ونواحيها. فنهض بهبوذ لما أمره به الخبيث من ذلك فاعترضت له في طريقه سُميرية من سُميريات أبي العباس، فيها غلمان من غلمانه الناشبة في جماعة الزَّنْج، فقصد بهبوذ لهذه السميريّة طامعاً فيها، فحاربه أهلُها، فأصابته طعنة في بطنه من يد غلام من مقاتلة السميريّة أسود، فهوى إلى الماء، فابتدره أصحابُه، فحملوه، وولّوْا منهزمين إلى عسكر الخبيث، فلم يصلوا به إليه، حتى أراح الله منه. فعظُمت الفجيعة به على الفاسق وأوليائِه، واشتدّ عليه جزعُهم. وكان قتلُه الخبيثَ من أعظم الفتوح. وخفيَ هلاكُه على أبي أحمد، حتى استأمن رجلٌ من الملاحين، فأنهى إليه الخبَر. فسُرّ بذلك، وأمر بإحضار الغلام الذي وَلِيَ قَتْلَه، فأحضر، فوصله وكساه وطوّقه، وزاد في أرزاقه، وأمر لجميع مَنْ كان في تلك السميريّة بجوائز وخلع وصلات.

وفيها ظفر أبو أحمد بالذوائبيّ، وكان ممايلاً لصاحب الزَّنج.

وفيها قتَل صاحب الزنج ابنَ ملك الزّنج؛ وكان بلغه أنه يريد اللحاق بأبي أحمد.

أخبار سنة ٢٦٩هـ

وفيها خالفَ لؤلؤ غلام ابن طولون مولاه[١]؛ وفي يده حين خالفه حِمْص وحلب وقِنَّسرين وديار مُضر. وسار لؤلؤ إلى بالس فنهبها، وأسر سعيداً وأخاه ابني العباس الكلابيّ. ثم كاتب لؤلؤ أبا أحمد في المصير إليه ومفارقة ابن طولون، ويشترط لنفسه شروطاً، فأجابه أبو أحمد إلى ما سأله؛ وكان مقيماً بالرَّقَّة، فشخص عنها، وحمل جماعة من أهل الرَّافقة وغيرهم معه، وصار إلى قرقيسيا، وبها ابن صفوان العُقَيليّ، فحاربه فأخذ لؤلؤ قرْقِيسيا، وسلّمها إلى أحمد بن مالك بن طوْق، وهرب ابن صفوان، وأقبل لؤلؤ يريد بغداد.

الموفق يحاول هدم سور المختارة وانتهاب مسجدها

وفيها رُمِيَ أبو أحمد الموفّق بسهم ـ رماه غلام روميّ، يقال له قرطاس، للخبيث ـ بعدما دخل أبو أحمد مدينَتَه التي كان بناها لهدم سورها. وكان السبب في ذلك ـ فيما ذُكر ـ أن الخبيث بهبوذ لمّا هلك، طمع [صاحب] الزَّنْج في ما كان بهبوذ قد جمع من الكنوز والأموال؛ وكان قد صحّ عنده أن ملكه قد حوى مائتي ألف دينار وجوهراً وذهباً وفضّة لها قدر. فطلب ذلك بكلّ حيلة، وحَرَص عليه، وحبس أولياءه وقرابته وأصحابه، وضربهم بالسّياط، وأثار دوراً من دُوره، وهدم أبنيةً من أبنيته، طمعاً في أن يجد في شيء منها دفيناً، فلم يجد من ذلك شيئاً. وكان فعل الذي فعله بأولياء بهبوذ في طلب المال أحد ما أفسد قلوب أصحابه، ودعاهم إلى الهَرَب منه والزّهد في صحبته. فأمر

(١) سوف ينضمّ لؤلؤ هذا إلى الموفَّق لمحاربة صاحب الزنج.

المُوَفق بالنداء في أصحاب بهبوذ بالأمان، فنُودي بذلك، فسارعوا إليه راغبين فيه، فألحِقوا في الصِّلات والجوائز والخلَع والأرزاق بنظرائهم. ورأى أبو أحمد لما كان يتعذّر عليه من العُبور إلى عسكر الفاجر في الأوقات التي تهبّ فيها الرياح وتحرّك فيها الأمواج في دِجْلة أن يوسع لنفسه وأصحابه موضعاً في الجانب الغربيّ من دِجْلة ليعسكر به فيما بين ديْر جابيل ونهر المغيرة، وأمر بقطع النخل وإصلاح موضع الخندق، وأن يُحفّ بالخنادق، ويحصّن بالسور ليأمن بيات الفجّار واغتيالهم إياه، وجعل على قُوّاده نوائب؛ فكان لكلّ واحد منهم نوْبة يغدو إليها برجاله، ومعه العمال في كلّ يوم لإحكام أمر العسكر الذي عزم على اتّخاذه هنالك. فقابَل الفاسق ذلك بأن جعل علَى عليّ بن أبان المهلّبيّ وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ نُوباً، فكان لكلّ واحد منهم يوم ينوب فيه.

وكان ابنُ الخبيث المعروف بأنكلاي يحضرُ في كلّ يوم نوبة سليمان، وربما حضر في نوبة إبراهيم. ثم أقامه الخبيث مقام إبراهيم بن جعفر، وكان سليمان بن جامع يحضُر معه في نوبته، وضمّ إليه الخبيث سليمان بن موسى الشعرانيَّ وأخويه، وكانوا يحضُرُون بحضوره، ويغيبون بغيبته. وعلم الخبيثُ أن الموفّق إذا جاوره في محاربته، وقرب على مَن يريد اللحاق به المسافةُ فيما يحاول من الهرب إليه، مع ما يدخل قلوبَ أصحابه من الرهبة بتقارب العسكرين أنّ في ذلك انتقاضَ تدبيره، وفسادَ جميع أموره؛ فأمر أصحابَه بمحاربة من يعبر من القوّاد في كلّ يوم، ومنعهم من إصلاح ما يحاولون إصلاحَه من أمر عسكرهم الذين يريدون الانتقال إليه. وعصفت الرياح في بعض تلك الأيام وبعض قوّاد الموفّق في الجانب الغربيّ لِمَا كان يعبر له. فانتهز الفاسق

الفرصةَ في انفراد هذا القائد وانقطاعه عن أصحابه، وامتناع دِجْلة بعصوف الريح من أن يرام عُبُورها، فرمى القائد المقيم في غربي دِجْلة بجميع جيشه، وكاثره برجاله، ولم تجد الشَّذَوات التي كانت تكون مع القائد الموجّه سبيلاً إلى الوقوف بحيث كانت تقف لحمل الرياح إياها على الحجارة، وما خاف أصحابها عليها من التكسّر، فقويَ الزَّنْج على ذلك القائد وأصحابه، فأزالوهم من موضعهم، وأدركوا طائفةً منهم، فثبتوا فقُتِلوا عن آخرهم. ولجأت طائفةٌ إلى الماء، فتبعهم الزَّنْج، فأسروا منهم أسارى، وقتلوا منهم نفراً، وأفلت أكثرُهم، وأدركوا سفنَهم، فألقوا أنفسهم فيها، وعَبَروا إلى المدينة الموفقيّة. فاشتدّ جزع الناس لما تهيّأ للفسقة، وعَظُم بذلك اهتمامُهم. وتأمّل أبو أحمد فيما كان دبّر من النزول في الجانب الغربيّ من دِجْلة أنه أكدى، وما لا يؤمن من حيلة الفاسق وأصحابه في انتهاز فرصة، فيوقع بالعسكر بياتاً، أو يجد مساغاً إلى شيء ما يكون له فيه متنفَّس، لكثرة الأدغال في ذلك الموضع وصعوبة المسالك، وأنّ الزّنج على التوغّل إلى المواضع الوحشة أقدرُ، وهو عليهم أسهل من أصحابه.

فانصرف عن رأيه في نزول غربيّ دِجْلة، وجعل قصده لهدم سور الفاسق وتَوْسِعة الطرق والمسالك منها لأصحابه. فأمر عند ذلك أن يبدأ بهدْم السور مما يلي النهر المعروف بمنكى؛ فكان تدبير الخبيث في ذلك توجيه ابنه المعروف بأنكلاي وعليّ بن أبان وسليمان بن جامع للمنع من ذلك، كلّ واحد منهم في نَوْبته في ذلك اليوم، فإذا كثر عليهم أصحابُ الموفق اجتمعوا جميعاً لمدافعة مَنْ يأتيهم.

فلمّا رأى الموفّق تحاشُدَ الخبثاء وتعاونَهم على المنع من الهدم

للسور، أزْمَع على مباشرة ذلك وحضوره ليستدعيَ به جِدَّ أصحابه واجتهادهم، ويزيدَ في عنايتهم ومجاهدتهم؛ ففعل ذلك. واتّصلت الحرب، وغَلُظت على الفريقين، وكثر القتلى والجراح في الحزبَيْن كليْهما، فأقام الموفّق أياماً يغادِي الفسقة ويراوحهم؛ فكانوا لا يفترُون من الحرب في يوم من الأيام. وكان أصحاب أبي أحمد لا يستطيعون الوُلوج على الخَبَثة لقنطرتين كانتا على نهر منكى كان الزّنج يسلكونهما في وقت استعار الحرب، فينتهون منهما إلى طريق يخرجهم في ظهور أصحاب أبي أحمد، فينالون منهم، ويحجزونهم عن استتمام ما يحاولون من هدم السور. فرأى الموفَّق إعمال الحيلة في هدم هاتين القنطرتين ليمنع الفسقة عن الطَّريق الذي كانوا يصيرون منه إلى استدبار أصحابه في وقت احتدام الحرب؛ فأمر قوّاداً من قوّاد غلمانه بقصد هاتين القنطرتين، وأن يختلوا الزنج، وينتهزوا الفرصة في غفلتهم عن حراستهما؛ وتقدّم إليهم في أن يُعِدُّوا لهما من الفؤوس والمَنَاشير والآلات التي يحتاج إليها لقطعهما ما يكون عوناً لهم على الإسراع فيما يقصدون له من ذلك.

فانتهى الغلمان إلى ما أمِروا به، وصاروا إلى نهر منكى وقت نصف النهار، فبرز لهم الزّنْج، فبادروا وتسرَّعوا، فكان ممّن تسرع إليهم أبو النداء في جماعة من أصحابه يزيدون على الخمسمائة. ونشبت الحرب بين أصحاب الموفق والزَّنْج، فاقتتلوا صدَر النهار. ثم ظهر غلمان أبي أحمد على الفسقة فكشفوهم عن القنطرتين، فأصاب المعروفَ بأبي النداء سهمٌ في صدره وصل إلى قلبه فصرعه. وحامى أصحابه على جِيفته فاحتملوها، وولَّوْا منهزمين. وتمكن قوّاد غلمان الموفَّق من قطع القنطرتين، فقطعوهما وأخرجوهما إلى دِجْلة، وحملوا

خشبهما إلى أبي أحمد، وانصرفوا على حال سلامة. وأخبروا الموفّق بقتل أبي النداء وقَطْع القنطرتين، فعظم سروره وسرورُ أهل العسكر بذلك. وأمر لرامي أبي النداء بصِلة وافرة.

وألحّ أبو أحمد على الخبيث وأشياعه بالحرب، وهدم من السور ما أمكنهم به الولوج عليهم، فشغلوهم بالحرب في مدينتهم عن المدافعة عن سورهم. فأسرع الهدْم فيه، وانتهى منه إلى دارَي ابن سمعان وسليمان بن جامع، فصار ذلك أجمع في أيدي أصحاب الموفّق، لا يستطيع الفسقة دفعَهم عنه ولا منعَهم من الوصول إليه. وهُدِمت هاتان الداران، وانتُهِب ما فيهما. وانتهى أصحاب الموفّق إلى سوق لصاحب الزَّنج كان اتخذها مظلة على دِجْلة، سماها الميمونة. فأمر الموفّق زيرك صاحب مقدّمة أبي العباس بالقصْد لهذه السوق، فقصد بأصحابه لذلك، وأكبّ عليها، فهدمت تلك السوق وأخرِبَتْ. فقصد الموفّق الدار التي كان صاحب الزنج اتّخذها للجُبّائيّ فهدمها، وانتهب ما كان فيها وفي خزائن الفاسق كانت متّصلة بها.

وأمر أصحابه بالقصْد إلى الموضع الذي كان الخبيث اتخذ فيه بناء سماه مسجد الجامع، فاشتدّت محاماة الفسقة عن ذلك والذبّ عنه، بما كان الخبيث يحضُّهم عليه، ويُوهمهم أنه يجب عليهم من نُصرة المسجد وتعظيمه؛ فيصدّقُون قولَه في ذلك، ويتبعون فيه رأيه. وصعُب على أصحاب الموفّق ما كانوا يرومون من ذلك، وتطاولت الأيام بالحرب على ذلك الموضع. والذي حصل مع الفاسق يومئذ نخبة أصحابه وأبطالُهم والمُوَطّنون أنفسهم على الصبر معه، فحامُوا جهدَهم؛ حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدَهم السهمُ أو الطعنة أو

الضربة فيسقط، فيجذبه الذي إلى جنبه ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخْلُوَ موقف رجل منهم، فيدخل الخلل على سائر أصحابه.

فلمّا رأى أبو أحمد صبر هذه العصابة ومحاماتها، وتطاول الأيام بمدافعتها، أمر أبا العباس بالقصد لركن البناء الذي سماها الخبيث مسجداً، وأن يندب لذلك أنجادَ أصحابِهِ وغلمانه، وأضاف إليهم الفَعلة الذين كانوا أعِدّوا للهدم، فإذا تهيّأ له هدمُ شيء أسرعوا فيه، وأمر بوضع السلاليم على السور فوضعوها. وصعِد الرماة فجعلوا يرشقون بالسهام من وراء السور من الفَسَقة. ونظم الرجال من حدّ الدار المعرُوفة بالجُبّائيّ إلى الموضع الذي رتّب فيه أبا العباس. وبذل الموفق الأموال والأطوقة والأسورة لمن سارع إلى هدم سور الفاسق وأسواقِهِ ودور أصحابه، فتسهّل ما كان يصعُب بعد محاربة طويلة وشدّة. فهدم البناء الذي كان الخبيث سماه مسجداً، ووُصل إلى مِنْبره فاحتُمِل، فأتِيَ به الموفّق، وانصرف به إلى مدينته الموفقيّة جذِلاً مسروراً. ثم عاد الموفَّق لهدم السور فهدَمه من حدّ الدار المعروفة بأنكلاي إلى الدار المعروفة بالجُبّائيّ. وأفضى أصحاب الموفّق إلى دواوين من دواوين الخبيث وخزائن من خزائنه، فانتُهبت وأحرقت؛ وكان ذلك في يوم ذي ضباب شديد، قد ستر بعضَ الناس عن بعض، فما يكاد الرجل يبصره صاحبُه. فظهر في هذا اليوم للموفّق تباشير الفتح. فإنهم لعَلى ذلك، حتى وصل سهمٌ من سهام الفسقة إلى الموفّق، رماه به غلام روميّ كان مع الفاسق يقال له قرطاس، فأصابه في صدره؛ وذلك في يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين. فستر الموفّق ما ناله من ذلك السهم، وانصرف إلى مدينته الموفقية، فعُولج في ليلته تلك من جراحته. وبات ثم عاد إلى الحرب على ما به من ألم الجراح، يشدّ بذلك قلوبَ أوليائه من أن يدخلها وَهْن أو ضعف. فزاد

ما حَمَل نفسَه عليه من الحركة في قوة عِلَّته، فغلُظت وعظم أمرُها حتى خيف عليه، واحتاج إلى علاجه بأعظم ما يعالَج به الجراح. واضطرب لذلك العسكر والجند والرعية، وخافوا قوّة الفاسق عليهم، حتى خرج عن مدينته جماعةٌ ممن كان مقيماً بها، لما وصل إلى قلوبهم من الرَّهبة. وحَدَثت في حال صعوبة العلّة عليه حادثة في سلطانه، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرحلة عن معسكره إلى مدينة السلام، ويخلّف مَنْ يقوم مقامه؛ فأبى ذلك، وخاف أن يكون فيه ائتلاف ما قد تفرّق من شمل الخبيث. فأقام على صعوبة علّته عليه. وغلظ الأمر الحادث في سلطانه؛ فمنّ الله بعافيته، وظهر لقوّاده وخاصته، وقد كان أطال الاحتجاب عنهم. فقويَتْ بذلك مُنَّتُهم. وأقام متماثلاً مودّعاً نفسه إلى شعبان من هذه السنة. فلمّا أبلّ وقويَ على النهوض لحرب الفاسق، تيقظ لذلك، وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب. وجعل الخبيث لمّا صحّ عنده الخبر عما أصاب أبا أحمد يعِدُ أصحابَه العِدات، ويمنيهم الأمانيّ الكاذبة، وجعل يحلف على منبره ـ بعدما اتّصل به الخبر بظهور أبي أحمد وركوبه الشّذَا ـ أن ذلك باطلٌ لا أصل له، وأن الذي رأوه في الشَّذا مثال مُوّه لهم وشبّه لهم.

بين جِدّ الموفّق وخِفّة أخيه المعتمد

وفيها في يوم السبت للنصف من جمادى الأولى، شخص المعتمد يريد اللّحاق بمصر، وأقام يتصيّد بالكُحَيْل، وقدم صاعد بن مَخلَد من عند أبي أحمد، ثم شخص إلى سامُرّاء في جماعة من القوّاد في جمادى الآخرة. وقدم قائدان لابن طولون ـ يقال لأحدهما أحمد بن جبغَوَيْه وللآخر محمد بن عباس الكلابيّ ـ الرّقة. فلما صار المعتمد إلى عمل إسحاق بن كنداج ـ وكان العاملَ على الموصل وعامّة الجزيرة ـ وثب

ابن كنداج بمَنْ شخص مع المعتمد مِنْ سامُرّاء يريد مصر، وهم تينك وأحمد بن خاقان وخطارِمِش، فقيّدهم وأخذ أموالهم ودوابّهم ورقيقهم. وكان قد كتب إليه بالقبض عليهم وعلى المعتمد، وأقطع إسحاق بن كنداج ضياعهم وضياع فارس ابن بغا.

وكان سبب وصوله إلى القبض على مَنْ ذكرتُ، أنّ ابن كنداج لما صار إلى عمله، وقد نفذت إليه الكتب من قِبَل صاعد بالقبض عليهم، أظهر أنه معهم، وعلى مثل رأيهم في طاعة المعتمد، إذ كان الخليفة، وأنه غير جائز له الخلاف عليه. وقد كان مَنْ مع المعتمد من القوّاد حذّروا المعتمد المرورَ به، وخوّفوه وثوبه بهم؛ فأبى إلاَّ المرورَ به - فيما ذكر - وقال لهم: إنما هو مولاي وغلامي، وأريد أن أتصيّد؛ فإنّ في الطريق إليه صيداً كثيراً. فلما صاروا في عمله، لقيَهم وسار معهم كي يردَ المعتمِد - فيما ذكر - منزلاً قبل وصوله إلى عمل ابن طولون. فلمّا أصبح ارتحل التبّاع والغلمان الذين كانوا مع المعتمِد ومن شخص معه من سامُرّاء، وخلا ابن كنداج بالقُوّاد الذين مع المعتمد، فقال لهم: إنكم قد قربتم من عمل ابن طولون والمقيم بالرّقة من قوّاده؛ وأنتم إذا صرتم إلى ابن طولون، فالأمر أمرُه، وأنتم من تحت يده ومن جنده؛ أفترضوْن بذلك؛ وقد علمتم أنه إنما هو كواحد منكم! وجرت بينه وبينهم في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار، ولم يرتحل المعتمد بعدُ لاشتغال القوّاد بالمناظرة بينهم بين يديه، ولم يجتمع رأيهم بعدُ على شيء. فقال لهم ابن كنداج: قوموا بنا حتى نتناظر في هذا في غير هذا الموضع، وأكرموا مجلس أمير المؤمنين عن ارتفاع الصوت فيه. فأخذ بأيديهم، وأخرجهم من مضرب المعتمِد فأدخلهم مضرب نفسه؛ لأنه لم يكن بقيَ مضرب إلاَّ قد مضِي به غير مضربه، لما كان من تقدُّمه إلى

فرَّاشيه وغلمانه وحاشيته وأصحابه في ذلك اليوم ألاّ تبرحوا إلاّ ببراحه. فلما صاروا إلى مضربه دخل عليه وعلى مَنْ معه من القواد جِلّةُ غلمانه وأصحابه، وأحضرت القيود، وشدّ غلمانه على كلّ مَنْ كان شخص مع المعتمد من سامُرّاء من القوّاد، فقيَّدوهم؛ فلما قيّدوا وفرغ من أمرهم مضى إلى المعتمِد، فعذَلَه في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه وفراقه أخاه على الحال التي هو بها من حرب مَنْ يحاول قتلَه وقتل أهل بيته وزوال ملكهم. ثم حمله والذين كانوا معه في قيودهم حتى وافى بهم سامُرّاء.

وفي شعبان من هذه السنة أحرق أصحاب أبي أحمد قصر الفاسق، وانتهبوا ما فيه.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وسبب وصولهم إليه:

ذكر محمد بن الحسن، أن أبا أحمد لما برأ الجرح الذي كان أصابه، عاد للذي كان عليه من مغاداة الفاسق الحرب ومراوحته؛ وكان الخبيث قد أعاد بناء بعض الثُّلَم التي ثُلِمَت في السور، فأمر الموفّق بهدم ذلك، وهدم ما يتصل به. وركب في عشيّة من العشايا في أوّل وقت العصر؛ وقد كانت الحرب متّصلة في ذلك اليوم مما يلي نهر منْكى، والفسقة مجتمعون في تلك الناحية قد شغَلوا أنفسهم بها، وظنُّوا أنهم لا يحارَبون إلاّ فيها. فوافى الموفق وقد أعدّ الفعلة، وقرب على نهر مَنكى وناوش الفسقة فيه، حتى إذا استعرت الحرب أمر الجذّافين والاشتيامين[1] أن يحثّوا السير حتى ينتهوا إلى النّهر المعروف بجُوى

---

(١) الاشتيام: رئيس الركاب في المركب البحري.

كور ـ وهو نهر يأخذ من دِجْلة أسفل من النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ـ ففعلوا ذلك. فوافَى جوى كور، وقد خلا من المقاتلة والرّجّالة. فقرب وأخرج الفعلة، فهدموا من السور ما كان يلي ذلك النهر. وصعد المقاتلة وولجوا النهر، فقتلوا فيه مقتلةً عظيمة، وانتهَوْا إلى قصور من قصور الفَسَقة، فأنهبوا ما كان فيها وأحرقوها، واستنقذوا عدداً من النساء اللواتي كنّ فيها، وأخذوا خيلاً من خيل الفجرة، فحملوها إلى غربيّ دِجْلة. فانصرف الموفّق في وقت غروب الشمس بالظفر والسلامة. وغاداهم الحرب والقصد لهدم السور، فأسرع فيه حتى اتّصل بدار المعروف بأنكلاي؛ وكانت متصلة بدار الخبيث. فلما أعيت الحيلُ الخبيث في المنْع من هدم السور، ودفع أصحاب الموفّق عن ولوج مدينته، أسقِط في يديه، ولم يدر كيف يحتال لحسْم ذلك. فأشار عليه عليّ بن أبان المهلبيّ بإجراء الماء على السباخ التي يسلكها أصحاب الموفق لئلا يجدوا إلى سلوكها سبيلاً، وأن يحفر خنادق في مواضع عدّة يعوقهم بها من دخول المدينة، فإن حملوا أنفسهم على اقتحامها فوقعت عليهم هزيمة، لم يسهل عليهم الرجوع إلى سفنهم. ففعلوا ذلك في عِدّة مواضع من مدينتهم، وفي الميدان الذي كان الخبيث جعله طريقاً حتى انتهت تلك الخنادق إلى قريب من داره. فرأى الموفّق بعدما هيّأ الله له من هدم سور مدينة الفاسق ما هيّأ أن جعل قصده لطمّ الخنادق والأنهار والمواضع المعوَّرة كي تصلح فيها مسالك الخيل والرّجّالة. فرام ذلك، فحامى عنه الفسقة. ودامت الحرب وطالت ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمرٌ عظيم، حتى لقد عُدّ الجرحى في بعض تلك الأيام زُهاء ألفيْ جَريح؛ وذلك لتقارُب الفريقين في وقت القتال، ومنع الخنادق كلّ فريق منهم عن إزالة مَنْ بإزائه عن

موضعهم. فلما رأى ذلك الموفّق قصد لإحراق دار الخبيث والهجوم عليها من دِجْلة؛ وكان يعوّق عن ذلك كثرةُ ما أعدّ الخبيث من المقاتلة والحماة عن داره؛ فكانت الشذا إذا قربت من قَصْره رموا من سُوره ومن أعلى القصر بالحجارة والنشّاب والمقاليع والمجانيق والعرّادات، وأذيب الرصاص، وأفرغ عليهم؛ فكان إحراق داره يتعذّر عليهم لما وصفنا. فأمر الموفّق بإعداد ظلال من خشب للشّذَا وإلباسها جلود الجواميس، وتغطية ذلك بالخيش المطليّ بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الإحراق. فعمل ذلك، وطُليت به عدّة شَذَوات ورتّب فيها جميعاً شجعاء غلمانه: الرامحة والناشبة، وجمعاً من حُذّاق النفّاطين أعدّهم لإحراق دار الفاسق صاحب الزَّنج.

فاستأمن إلى الموفّق محمد بن سمعان كاتب الخبيث ووزيره في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة تسع وستين ومائتين. وكان سبب استئمانه ـ فيما ذكر محمد بن الحسن ـ أنه كان ممّن امتحن بصحبته، وهو لها كارهٌ على علم منه بضلالته. قال: وكنتُ له على ذلك مواصلاً، وكنّا جميعاً ندبِّر الحيلة في التخلّص، فيتعذّر علينا. فلما نزل بالخبيث من الحصار ما نزل، وتفرّق عنه أصحابه، وضَعُف أمره؛ شمّر في الحيلة للخلاص، وأطلعني على ذلك، وقال: قد طبتُ نفساً بألاّ أستصحب ولداً ولا أهلاً، وأن أنجوَ وحيداً؛ فهل لك في مثل ما عزمت عليه؟ فقلت له: الرأي لك ما رأيت؛ إذ كنتَ إنما تخلّف ولداً صغيراً لا سبيل للخائن عليه إلى أن يصول به، أو أن يحدث عليك فيه حدثاً يلزمك عاره؛ فأمّا أنا فإنّ معي نساء يلزمني عارهنّ، ولا يسعني تعريضهنّ لسطوة الفاجر؛ فامضِ لشأنك، فأخبِرْ عني بما علمت من نيّتي في مخالفة الفاجر وكراهة صحبته؛ وإن هيّأ الله لي الخلاص

بولدي، فأنا سريع اللحاق بك؛ وإن جرت المقادير فينا بشيء كنا معاً وصبرنا.

فوجّه محمد بن سمعان وكيلاً له يعرف بالعراقيّ، فأتى عسكر الموفّق، فأخذ له ما أراد من الأمان، وأعدّ له الشذا، فوافتْه في السَّبَخة في اليوم الذي ذكرنا، فصار إلى عسكر الموفق. وأعاد الموفّق محاربة الخبيث والقصد للإحراق من غد اليوم الذي استأمن فيه محمد بن سمعان ـ وهو يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة تسع وستين ومائتين ـ في أحسن زيّ، وأكمل عدّة، ومعه الشَّذَوات المطليّة بما وصفنا، وسائر شَذَواته وسُميريّاته فيها مواليه وغلمانه والمعابر التي فيها الرَّجالة. فأمر الموفق ابنَه أبا العباس بالقصد إلى دار محمد بن يحيى المعروف بالكَرَنْبائيّ، وهي بإزاء دار الخائن في شرقيّ النهر المعروف بأبي الخصيب، يشرع على النهر وعلى دِجْلة. وتقدّم [أبو العباس] إليه في إحراقها وما يليها من منازل قوّاد الخائن، وشغلهم بذلك عن إنجاده ومعاونته؛ وأمر المرتبين في الشَّذا المظلّلة بالقصد لما كان مطلًّا على دِجْلة من رواشين[1] الخبيث وأبنيته، ففعلوا ذلك، وألصقوا شَذَواتِهم بسور القصر، وحاربوا الفجَرة أشدّ حرب، ونضحوهم بالنيران. وصبر الفَسَقة وقاتلوا، فرزق الله النصر عليهم، فتزحزحوا عن تلك الرواشين والأبنية التي كانوا يحامون عنها، وأحرقها غلمان الموفق. وسلِم مَنْ كان في الشَّذا مما كان الخبثاء يكيدونهم به

(١) رواشين أو رواشن: جمع رُوْشَن، بضم الراء وفتح الشين. وهو لفظ فارسي بمعنى الكوَّة والنافذة. وتكون أيضاً بمعنى الشرفة.

من النشاب والحجارة وصبّ الرصاص المذاب وغير ذلك بالظلال التي كان اتّخذها على الشَّذا؛ فكان ذلك سبباً لتمكنها من دار الخبيث.

وأمر الموفّق مَنْ كان في الشَّذا بالرجوع فرجعوا، فأخرج مَنْ كان فيها من الغلمان، ورتّب فيها آخرين، وانتظر إقبال المدّ وعلوّه. فلما تهيّأ ذلك عادت الشَّذَوات المظللة إلى قصر الخبيث، فأمر الموفّق مَنْ كان فيها بإحراق بيوت كانت تشرّع على دِجْلة من قصر الفاسق؛ ففعلوا ذلك، فاضطرمت النار في هذه البيوت، واتّصلت بما يليها من الستارات التي كان الخبيث ظلّل بها دارَه، وستور كانت على أبوابه. فقويت النار عند ذلك على الإحراق، وأعجلت الخبيث ومَنْ كان معه عن التوقّف على شيء مما كان في منزله من أمواله وذخائره وأثاثه وسائر أمتعته، فخرج هارباً، وترك ذلك كله. وعلا غلمان الموفّق قصر الخبيث مع أصحابهم؛ فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الأمتعة الفاخرة والذهب والفضة والجوهر والحلي وغير ذلك، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان الخبيث استرقّهنّ. ودخل غلمان الموفّق سائرَ دور الخبيث ودور ابنه أنكلاي، فأضرموها ناراً. وعظم سرور الناس بما هيأ الله لهم في هذا اليوم. فأقام جماعة يحاربون الفَسَقة في مدينتهم وعلى باب قصر الخبيث، مما يلي الميدان، فأثخنوا فيهم القتل والجراح والأسر. وفعل أبو العباس في دار المعروف بالكرنبائيّ وما يتّصل بها من الإحراق والهدم والنهب مثل ذلك. وقطع أبو العباس يومئذ سلسلة حديد عظيمة وثيقة كان الخبيث قطع بها نهر أبي الخصيب ليمنع الشّذَا من دخوله، وحازها، فحُملت في بعض شَذَواتِهِ. وانصرف الموفّق بالناس صلاة المغرب بأجمل ظفر. وقد نال الفاسقَ في ذلك اليوم في نفسه وماله وولده وما كان غلب عليه من نساء المسلمين مثل الذي

أصاب المسلمين منه من الذّعر والجلاء وتشتيت الشمل والمصيبة في الأهل والولد، وجُرح ابنه المعروف بأنكلاي في هذا اليوم جراحة شديدة في بطنه أشفى منها على التلف.

وفي غد هذا اليوم وهو يوم الأحد لعشر بقين من شعبان من هذه السنة غرق نصير.

ذكر سبب غرقه:

ذكر محمد بن الحسن أنه لما كان غد هذا اليوم، باكر الموفّق محاربة الخبيث، وأمر نصيراً المعروف بأبي حمزة بالقَصْد لقنطرة كان الخائن عملها بالسياج على النهر المعروف بأبي الخصيب، دون الجسريْن اللذيْن اتخذهما عليه، وأمر زِيرك بإخراج أصحابه مما يلي دار الجُبّائيّ لمحاربة مَنْ هناك من الفَجَرة. وأخرج جمعاً من قوّادها مما يلي دار أنكلاي لمحاربتهم أيضاً. فتسرّع نُصير، فدخل نهر أبي الخَصِيب في أوّل المدّ في عدّة من شَذَوَاته، فحملها المدّ فألصقها بالقنطرة، ودخلت عِدّة من شَذَوَات موالي الموفّق وغلمانه ممّن لم يكن أمِر بالدخول، فحملهم المدّ فألقاهم على شَذَوات نصير، فصكّت الشَّذوات بعضها بعضاً، حتى لم يكن للاشتيامين والجذّافين فيها حيلة ولا عمل. ورأى الزّنج ذلك، فاجتمعوا على الشَّذوات، وأحاطوا بها من جانبي نهر أبي الخصيب، فألقى الجذَّافُون أنفسَهم في الماء ذعراً ووجلاً. ودخل الزَّنج الشّذوات، فقتلوا بعض المقاتلة، وغرق أكثرُهم. وحاربهم نصير في شَذَواته حتى خاف الأسر، فقذف نفسه في الماء فغرق. وأقام الموفّق في يومه يحارب الفَسَقة، وينهب ويحرق منازَلهم، ولم يَزل باقي يومه مستعلياً عليهم. وكان ممّن حامى على قصر الخائن

يومئذ وثبت في أصحابه سليمان بن جامع. فلم تزل الحرب بين أصحاب الموفّق وبينه، وهو مقيم بموضعه لم يَزُل عنه إلى أن خرج في ظهره كمين من غلمانِ الموفّق السودان، فانهزم لذلك. واتَّبعه الغلمان يقتلون أصحابه، ويأسرون منهم. وأصابت سليمان في هذا الوقت جراحة في ساقه، فهوى لفيه في موضع قد كان الحريق ناله ببعض جمْر فيه، فاحترق بعض جسَده. وحامى عليه جماعة من أصحابه، فنجا بعد أن كاد الأسر يحيط به. وانصرف الموفّق ظافراً سالماً، وضعفت الفسقة، واشتدّ خوفُهم لما رأوا من إدبار أمرهم. وعرضت لأبي أحمد عِلّة من وجع المفاصل، فأقام فيه بقية شعبان وشهر رمضان وأياماً من شوال ممسكاً عن حرب الفاسق. فلما أبرأ من عِلّته وتماثل، أمر بإعداد ما يحتاج إليه للقاء الفسَقة، فتأهّب لذلك جميع أصحابه.

وفي يوم الثلاثاء لعشر خلوْن من هذه السنة، كانت بين أبي أحمد وبين الزَّنْج وقعة في مدينة الفاسق أثّر فيها آثاراً، وصل بها إلى مراده منها.

ذكر السبب في هذه الوقعة وما كان منها:

ذكر محمد بن الحسن أنّ الخبيث عدوّ الله كان في مدّة اشتغال الموفق بعلّته أعاد القنطرة التي كانت شَذوات نصير لجّجت فيها، وزاد فيها ما ظنّ أنه قد أحكمها، ونصب دونها أدقال ساج وصل بعضها ببعض، وألبسها الحديد، وسكَر أمام ذلك سِكْراً بالحجارة ليضيق المدخل على الشَّذَا، وتحتدّ جرية الماء في النهر المعروف بأبي الخصيب، فيهاب الناس دخولَه. فندب الموفَّق قائديْن من قُوّاد غلمانه في أربعة آلاف من الغلمان، وأمرهما أن يأتيا نهر أبي الخصيب، فيكون

أحدهما في شرقيه والآخر في غربيه، حتى يوافيا القنطرة التي أصلحها الفاجر وما عمل في وجهها من السّكْر فيحاربا أصحاب الخبيث حتى يجلياهم عن القنطرة. وأعدّ معهما النجارين والفَعَلة لقطع القنطرة والبدود التي كانت جعلت أمامها. وأمر بإعداد سفن محشوّة بالقصب المصبوب عليه النّفط، لتدخل ذلك النهر المعروف بأبي الخصيب، وتضرم ناراً لتحترق بها القنطرة في وقت المدّ. فركب الموفّق في هذا اليوم في الجيش حتى وافى فوّهة نهر أبي الخصيب، وأمر بإخراج المقاتلة في عدّة مواضع من أعلى عسكر الخبيث وأسفله، ليشغلهم بذلك عن التعاون على المنع عن القنطرة. وتقدّم القائدان في أصحابهما، وتلقاهما أصحاب الخائن من الزَّنْج وغيرهم، يقودهم ابنه أنكلاي وعليّ بن أبان المهلبيّ وسليمان بن جامع. فاشتبكت الحرب بين الفريقيْن، ودامت. وقاتل الفسقة أشدّ قتال، محاماةً عن القنطرة، وعلموا ما عليهم في قطعها من الضرر، وأنّ الوصول إلى ما بعدها من الجسرين العظيمين اللّذين كان الخبيث اتخذهما على نهر أبي الخصيب سهْل مرامه. فكثر القتل والجراح بين الفريقيْن، واتّصلت الحرب إلى وقت صلاة العصر. ثم إنّ غلمان الموفّق أزالوا الفَسَقة عن القنطرة وجاوزوها، فقطعها النّجارون والفَعلة، ونقضوها وما كان اتخذ من البدود التي ذكرناها.

وكان الفاسق أحكم أمر هذه القنطرة والبدود إحكاماً تعذّر على الفَعلة والنّجارين الإسراع في قطعها، فأمر الموفّق عند ذلك بإدخال السفن التي فيها القصب والنّفط، وضربها بالنار وإرسالها مع الماء؛ ففعل ذلك، فوافت السفن القنطرة فأحرقتها، ووصل النَّجارون إلى ما أرادوا من قطع البدود فقطعوها، وأمكن أصحاب الشَّذا دخول النهر

فدخلوه. وقوِيَ نشاطُ الغلمان بدخول الشَّذا، فكشفوا أصحاب الفاجر عن مواقِفهم حتى بلغوا بهم الجسر الأوّل الذي يتلُو هذه القنطرة. وقُتِل من الفجَرَة خلق كثير، واستأمن فريق منهم؛ فأمر الموفّق أن يخلع عليهم في ساعتهم تلك، وأن يوقفوا بحيث يراهم أصحابُهم، ليرغبوا في مثل ما صاروا إليه. وانتهى الغلمان إلى الجسر الأوّل، وكان ذلك قبيل المغرب، فكره الموفّق أن يُظلم الليل، والجيش موغل في نهر أبي الخصيب، فيتهيّأ للفجرة بذلك انتهازُ فرصة، فأمر الناسَ بالانصراف، فانصرفوا سالمين إلى المدينة الموفقيّة. وأمر الموفق بالكتاب إلى النواحي بما هيأ الله له من الفتح والظَّفر، ليقرأ بذلك على المنابر. وأمر بإثابة المحسنين من غلمانه على قدر غنَائهم وبلائهم وحسن طاعتهم، ليزدادوا بذلك جدًّا واجتهاداً في حرب عدوّهم.

ففعل ذلك. وعَبر الموفّق في نفر من مواليه وغلمانه في الشَّذَوات والسميريّات وما خفّ من الزّواريق إلى فُوّهة نهر أبي الخصيب؛ وقد كان الخبيث ضيّقها ببرجين عملهما بالحجارة ليضيّق المدخل وتحتدَّ الجرية، فإذا دخلت الشَّذَا النهر لجَّجتْ فيه، ولم يسهل السبيل إلى إخراجها منه. فأمر الموفَّق بقطع ذينك البُرْجين، فعمل فيهما نهار ذلك اليوم؛ ثم انصرف العمال وعادوا من غد لاستتمام قلع ما بقي من ذلك، فوجدوا الفَجَرة قد أعادوا ما قلع منهما في ليلتهم تلك؛ فأمر بنصب عرّادتين قد كانتا أعدّتا في سفينتين نُصِبتا حيال نهر أبي الخصيب، وطرحت لهما الأناجر حتى استقرّتا؛ ووكّل بهما من أصحاب الشَّذَا، وأمر بقطع هذين البُرْجَيْن، وتقدّم إلى أصحاب العرّادتين في رَمْي كلّ ما دنا من أصحاب الفاسق لإعادة شيء من ذلك في ليل أو نهار؛ فتحامى الفجرة الدنوَّ من الموضع، وأحجموا عنه.

وألحّ الموكَّلون بقلع هذه الحجرة بعد ذلك، حتى استتمّوا ما أرادوا، واتَّسع المسْلَك للشذا في دخول النهر والخروج منه.

وفي هذه السنة تحوَّل الفاسق من غربي نهر أبي الخصيب إلى شرقيّه وانقطعت عنه الميرة من كلّ وجهة.

ذكر الخبر عن حاله وحال أصحابه وما آل إليه أمرهم عند انتقاله من الجانب الغربيّ:

ذُكر أن الموفّق لما أخرب منازل صاحب الزَّنج وحرّقها، لجأ إلى التحصّن في المنازل الواغلة في نهر أبي الخصيب؛ فنزل منزلاً كان لأحمد بن موسى المعروف بالقَلُوص، وجمع عياله وولده حوله هناك، ونقل أسواقه إلى السوق القريبة من الموضع الذي اعتصم به؛ وهي سوق كانت تعرف بسوق الحسين. وضعُف أمره ضعفاً شديداً، وتبين للناس زوالُ أمره، فتهيّبُوا جلْب المِيرة إليه، فانقطعت عنه كلّ مادّة، فبلغ عنده الرَّطل من خبز البرّ عشرة دراهم؛ فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب. ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن كانوا يتبعون الناس؛ فإذا خلا أحدُهم بامرأة أو صبيّ أو رجل ذبحه وأكله. ثم صار قويّ الزَّنْج يَعْدو على ضعيفهم؛ فكان إذا خلا به ذَبَحه وأكل لحمه. ثم أكلوا لحوم أولادهم. ثم كانوا ينبشون الموتى، فيبيعون أكفانَهم ويأكلون لحومهم. وكان لا يعاقب الخبيثُ أحداً مما فعل شيئاً من ذلك إلاَّ بالحبس؛ فإذا تطاول حبسُه أطلقه.

وذكر أن الفاسق لما هُدِمت داره وأحرِقت، وانتُهب ما فيها، وأخرِج طريداً سليباً من غربيّ نهر أبي الخصيب، تحوّل إلى شرقيّه. فرأى أبو أحمد أن يخرب عليه الجانب الشرقيّ لتصير حال الخبيث فيه

كحاله في الغربيّ في الجلاء عنه. فأمر ابنه أبا العباس بالوقوف في جمع من أصحابه في الشَّذَا في نهر أبي الخصيب، وأن يختار من أصحابه وغلمانه جمعاً يخرجهم في الموضع الذي كان فيه دار الكرنبائيّ من شرقيّ نهر أبي الخصيب، ويخرج معهم الفَعَلة لهدم كلّ ما يلقاهم من دور أصحاب الفاجر ومنازلهم. ووقف الموفّق على قصر المعروف بالهمدانيّ ـ وكان الهمدانيّ يتولى حياطة هذا الموضع، وهو أحد قادة جيوش الخبيث وقدماء أصحابه ـ وأمر الموفّق جماعة من قوّاده ومواليه فقصدوا لدار الهَمْدانيّ، ومعهم الفَعلة؛ وقد كان هذا الموضع محصّناً بجمع كثير من أصحاب الخبيث من الزَّنْج وغيرهم، وعليه عرّادات ومجانيق منصوبة وقسي ناوكية. فاشتبكت الحرب وكثر القتلُ والجراح إلى أن كشف أصحاب الموفق الخبثاءَ، ووضعوا فيهم السلاح، فقتل منهم مقتلة عظيمة. وفعل أصحاب أبي العباس مثل ذلك بمن مرّ بهم من الفَسَقة.

والتقى أصحابُ الموفق وأصحاب أبي العباس، فكانوا يداً واحدة على الخبثاء، فولّوْا منهزمين. وانتهوْا إلى دار الهمدانيّ، وقد حصّنها ونصب عليها العرّادات، وحفّها بأعلام بِيض من أعلام الفاجر، مكتوب عليها اسمه، فتعذّر على أصحاب الموفق تسوّر هذه الدار لعلوّ سورها وحصانتها. فوضعوا عليها السلاليم الطوال، فلم تبلغ آخره. فرمى بعضُ غلمان الموفّق بكلاليب كانوا أعدُّوها، وجعلوا فيها الحبال لمثل هذا الموضع، فأثبتوها في أعلام الفاسق وجذبوها، فانقلبت الأعلام منكوسة من أعلى السور، حتى صارت في أيدي أصحاب الموفّق؛ فلم يشكّ المحامون عن هذه الدار أنّ أصحاب أبي أحمد قد علوْها، فوجَلوا فانهزموا، وأسلموها وما حوْلها. وصعِد النّفّاطون

فأحرقوا ما كان عليها من المجانيق والعرّادات، وما كان فيها للهمدانيّ من متاع وأثاث، وأحرقوا ما كان حولها من دور الفجرة. واستنقذوا في هذا اليوم من نساء المسلمين المأسورات عدداً كثيراً، فأمر الموفّق بحملهنّ في الشّذَا والسميريّات والمعابر إلى الموفقية والإحسان إليهنّ.

ولم تزل الحرب في هذا اليوم قائمةً من أوّل النهار إلى بعد صلاة العصر، واستأمن يومئذ جماعةٌ من أصحاب الفاسق وجماعة من خاصّة غلمانه الذين كانوا في داره يلون خدمَتَه والوقوف على رأسه؛ فآمنهم الموفّق وأمر بالإحسان إليهم، وأن يُخلَع عليهم، ويوصلوا وتُجرى لهم الأرزاق. وانصرف الموفق، وأمر أن تنكَس أعلام الفاسق في صدور الشَّذَوات ليراها أصحابه. ودلّت جماعة من المستأمنة الموفَّق على سوق عظيمة كانت للخبيث في ظهر دار الهمدانيّ متصلةً بالجسر الأوّل المعقود على نهر أبي الخصيب، كان الخبيث سمّاها المباركة، وأعلموه أنه إن تهيأ له إحراقها لم يبق لهم سوق، وخرج عنهم تجّارهم الذين بهم قوامهم، واستوحشوا لذلك، واضطروا إلى الخروج في الأمان. فعزم الموفّق عند ذلك على قصد هذه السوق وما يليها بالجيوش من ثلاثة أوجه؛ فأمر أبا العباس بقصد جانب من هذه السوق مما يلي الجسر الأول؛ وأمر راشداً مولاه بقصدها مما يلي دار الهمْدانيّ؛ وأمر قوّاداً من قواد غلمانه السودان بالقصد لها من نهر أبي شاكر. ففعل كلٌّ فريق ما أمِر به. ونذِر الزَّنج بمسير الجيوش إليهم، فنهضوا في وجوههم. واستعرت الحرب وغلظتْ، فأمدّ الفاجر أصحابه. وكان المهلبيّ وأنكلاي وسليمان بن جامع في جميع أصحابهم بعد أن تكاملوا ووافقتْهم أمداد الخبيث بهذه السوق يحامون عنها، ويحاربون فيها أشدّ حرب.

وقد كان أصحاب الموفّق في أول خروجهم إلى هذا الموضع وصلُوا إلى طرف من أطراف هذه السوق، فأضرموه ناراً فاحترق؛ فاتّصلت النار بأكثر السُّوق، فكان الفريقان يتحاربون والنار محيطة بهم. ولقد كان ما علا من ظلالٍ يحترق فيقع على رؤوس المقاتلة، فربما أحرق بعضَهم. وكانت هذه حالهم إلى مغيب الشمس وإقبال الليل. ثم تحاجزوا، وانصرف الموفّق وأصحابه إلى سفنهم، ورجع الفَسَقة إلى طاغيتهم بعد أن احترقت السوق، وجلا عنها أهلُها ومَن كان فيها من تجار عسكر الخائن وسُوقتهم، فصاروا في أعلى مدينته بما تخلّصوا به من أموالهم وأمتعتهم. وقد كانوا تقدّموا في نقل جلّ تجارتهم وبضائعهم من هذه السوق خوفاً من مثل الذي نالهم في اليوم الذي أظفر الله فيه الموفّق بدار الهَمْدانيّ وهيّأ له إحراق ما أحرق حولها.

ثم إن الخبيث فعل في الجانب الشرقيّ من حفر الخنادق وتعوير الطرق ما كان فعل في الجانب الغربيّ بعد هذه الوقعة، واحتفر خندقاً عريضاً من حدّ جوى كور إلى نهر الغربيّ. وكان أكثر عنايته بتحصين ما بين دار الكرْنبائيّ إلى النهر المعروف بجُوى كور، لأنه كان في هذا الموضع جُلّ منازل أصحابه ومساكنهم. وكان من حدّ جوى كور إلى نهر الغربيّ بساتين ومواضع قد أخلَوْها، والسُّور والخندق محيطان بها، وكانت الحرب إذا وقعت في هذا الموضع قصدوا من موضعهم إليه للمحاماة عنه والمنع منه؛ فرأى الموفّق عند ذلك أن يخرِب باقي السور إلى نهر الغربيّ، ففعل ذلك بعد حرب طويلة في مدة بعيدة.

وكان الفاسق في الجانب الشرقيّ من نهر الغربيّ في عسكر فيه جمع من الزَّنْج وغيرهم متحصّنين بسور منيع وخنادق، وهم أجلد

أصحاب الخبيث وشجعانهم. فكانوا يحامون عما قَرُب من سور نهر الغربيّ، وكانوا يخرجون في ظهور أصحاب الموفّق في وقت الحرب على جوى كور وما يليه. فأمر الموفّق بقصد هذا الموضع ومحاربة مَنْ فيه وهدم سُوره وإزالة المتحصّنين به. فتقدّم عند ذلك إلى أبي العباس وعِدّة من قوّاد غلمانه ومواليه في التأهّب لذلك، ففعلوا ما أمِرُوا به. وصار الموفق بمَنْ أعدّه إلى نهر الغربيّ، وأمر بالشَّذَا فنُظمت من حدّ النهر المعروف بجوى كور إلى الموضع المعروف بالدبّاسين. وخرج المقاتلة على جنبتي نهر الغربيّ، ووُضعت السلاليم على السور، وقد كانت لهم عليه عدّة عرّادات. ونشَبَت الحرب، ودامت منذ أول النهار إلى بعد الظهر. وهُدم من السور مواضع، وأحرق ما كان عليه من العرّادات. وتحاجز الفريقان، وليس لأحدهما فضل على صاحبه إلاّ ما وصل إليه أصحاب الموفّق من هذه المواضع التي هدموها وإحراق العرّادات. ونال الفريقين من ألم الجراح أمرٌ غليظ موجع.

فانصرف الموفّق وجميعُ أصحابه إلى الموفقيّة؛ فأمر بمداواة الجرحى، ووصلَ كلّ امرىء على قدر الجراح التي أصابته. وعلى ذلك كان أجرى التدبير في جميع وقائعه منذ أول محاربته الفاسق إلى أن قتله الله.

وأقام الموفّق بعد هذه الوقعة مدّة. ثم رأى معاودة هذا الموضع والتشاغل به عن [أي موضع آخر]، لما رأى من حصانته وشجاعة من فيه وصبرهم وأنه لا يتهيأ ما يقدر فيما بين نهر الغربيّ وجوى كور إلاّ بعد إزالة هؤلاء. فأعدّ ما يحتاج إليه من آلات الهدم، واستكثر من الفعلة، وانتخب المقاتلة الناشبة والرّامحة والسودان أصحاب السيوف،

وقصد هذا الموضع على مثل قصده له المرّة الأولى. فأخرج الرجّالة في المواضع التي رأى إخراجَهم فيها، وأدخل عدداً من الشَّذَا النهر. ونشبت الحرب ودامت. وصَبَر الفسَقَة أشدّ صبر، وصبر لهم أصحاب الموفق.

واستمدّ الفسقة طاغيتَهم، فوافاهم المهلبيّ وسليمان بن جامع في جيشهما؛ فقويت قلوبُهم عند ذلك، وحملوا على أصحاب الموفق. وخرج سليمان كميناً مما يلي جوى كور، فأزالوا أصحاب الموفّق حتى انتهوْا إلى سفنهم، وقتلوا منهم جماعة. وانصرف الموفق ولم يبلغ كلّ الذي أراد. وتبينّ أنه قد كان يجب أن يحارب الفسقة من عدّة مواضع، ليفرّق جمعَهم، فيخفّ وطؤهم على مَنْ يقصد لهذا الموضع الصعب، وينال منه ما يحبّ، فعزم على معاودتهم، وتقدّم إلى أبي العباس وغيره من قوّاده في العبور واختيار أنجاد رجالهم، ووكّل مسروراً مولاه بالنهر المعروف بمنكى، وأمره أن يخرج رجاله في ذلك الموضع وما يتصل به من الجبال والنخل، لتشتغل قلوب الفَجَرة، وليروْا أنّ عليهم تدبيراً من تلك الجهة. وأمر أبا العباس بإخراج أصحابه على جوى كور. ونظم الشذا على هذه المواضع حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالدّباسين؛ وهو أسفل نهر الغربيّ. وصار الموفّق إلى نهر الغربيّ، وأمر قوّاده وغلمانه أن يخرجوا في أصحابهم فيحاربوا الفَسَقة في حصنهم ومعقلهم، وألا ينصرفوا عنهم حتى يفتح الله لهم، أو يبلغ إرادته منهم. ووكل بالسور مَنْ يهدمه. وتسرّع الفَسَقة كعادتهم، وأطمعهم ما تقدّم من الوقعتين اللتين ذكرناهما، فثبت لهم غلمان الموفق، وصدقوهم اللقاء؛ فأنزل الله عليهم نصره، فأزالوا الفَسَقة عن مواقفهم. وقويَ أصحابُ الموفق، فحملوا عليهم حملةً كشفوهم بها، فانهزموا وخَلَّوْا عن

حصنهم، وصار في أيدي غلمان الموفق فهدموه، وأحرقوا منازلهم، وغَنَموا ما كان فيها. واتّبعوا المنهزمين منهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا، واستنقذوا من هذا الحصن من النساء المأسورات خَلْقاً كثيراً. فأمر الموفّق بحملهنّ والإحسان إليهنّ. وأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم ففعلوا. وانصرف إلى عسكره بالموفقيّة، وقد بلغ ما حاول من هذا الموضع.

وفيها دخل الموفق مدينة الفاسق، وأحرق منازله من الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب.

ذكر الخبر عن سبب وصوله إلى ذلك:

ذُكر أنّ أبا أحمد لما أراد ذلك بعد هدمه سورَ داره ذلك، أقام يصلح المسالك في جنبتي نهر أبي الخصيب وفي قصر الفاسق، ليتسع على المقاتلة الطريق في الدخول والخروج للحرب، وأمر بقلع باب قصر الخبيث الذي كان انتزعه من حصن أرْوَخ بالبصرة، فقُلع وحُمل إلى مدينة السلام. ثم رأى القصد لقطع الجسر الأوّل الذي كان على نهر أبي الخصيب، لما في ذلك من منع معاونة بعضهم بعضاً عند وقوع الحرب في نواحي عسكرهم، فأمر بإعداد سفينة كبيرة تُملأ قصباً قد سُقِيَ النّفْط، وأن يُنْصَب في وسط السفينة دَقَلٌ[1] طويل يمنعها من مجاوزة الجسر إذا لصقت به، وانتهز الفرصة في غفلة الفسقة وتفرُّقهم.

فلما وجد ذلك في آخر النهار قُدِّمت السفينة، فجرَّها الشذا حتى وردت النهر، وأشعِل فيها النيران. وأرسِلت وقد قوي المدّ، فوافت

(١) الدَّقَل: خشبة طويلة تُشدُّ في وسط السفينة ويُمدّ عليها الشراع.

القنطرة. ونَذِرَ الزَّنج بها، وتجمعوا وكثروا حتى ستروا الجسر وما يليه، وجعلوا يقذفون السفينة بالحجارة والآجرّ، ويهيلون عليها التراب، ويصبّون الماء، وغاص بعضهم فنقبها؛ وقد كانت أحرقت من الجسر شيئاً يسيراً، فأطفأه الفسقة، وغرّقوا السفينة وحازوها، فصارت في أيديهم.

فلما رأى أبو أحمد فعلَهم ذلك، عزم على مجاهدتهم على هذا الجسر حتى يقطعه، فسمّى لذلك قائدين من قوّاد غلمانه، وأمرهما بالعبور في جميع أصحابهما في السلاح الشاك واللأمة الحصينة والآلات المحكمة، وإعداد النفاطين والآلات التي تُقْطع بها الجسور، فأمر أحد القائدين أن يقصد غربيَّ النهر، وجعل الآخر في شرقيّه. وركب الموفّق في مواليه وخدّامه وغلمانه الشَّذَوات والسُّميريّات، وقصد فُوّهَة نهر أبي الخصيب؛ وذلك في غداة يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من شوّال سنة تسع وستين ومائتين. فسبق إلى الجسر القائد الذي كان أمِر بالقصد له من غربيّ نهر أبي الخصيب، فأوقع بمَن كان موكَّلاً به من أصحاب الفاسق، وقُتلت منهم جماعة، وضُرب الجسر بالنار، وطرح عليه القصب وما كان أعِدّ له من الأشياء المحرِقة. فانكشف مَن كان هناك من أعوان الخبيث. ووافى بعد ذلك مَنْ كان أمر بالقصد للجسر من الجانب الشرقيّ، ففعلوا ما أمِروا به من إحراقه.

وقد كان الخبيث أمر ابنه أنكلاي وسليمان بن جامع بالمقام في جيشهما للمحاماة عن الجسر، والمنع من قطعه؛ ففعلا ذلك. فقصد إليهما مَنْ كان بإزائهما، وحاربوهم حرباً غليظاً حتى انكشفا، وتمكنوا من إحراق الجسر فأحرقوه، وتجاوزوه إلى الحظيرة التي كان يعمل فيها

شَذَوات الفاسق وسُميريّاته وجميع الآلات التي كان يحارب بها؛ فأحرِق ذلك عن آخره إلاّ شيئاً يسيراً من الشّذوات والسميريّات كان في النهر، وانهزم أنكلاي وسليمان بن جامع. وانتهى غلمان الموفق إلى سجْن كان للخبيث في غربيّ نهر أبي الخصيب، فحامى عنه الزَّنج ساعة من النهار حتى أخرجوا منه جماعة، وغلبهم عليه غلمان الموفّق، فتخلّصوا مَنْ كان فيه من الرجال والنساء. وتجاوز من كان في الجانب الشرقيّ من غلمان الموفق، بعد أن أحرقوا ما وُلُّوا من الجسر إلى الموضع المعروف بدار مصلِح؛ وهو من قدماء قوّاد الفَاسق. فدخلوا داره وأنهبوها، وسَبَوْا ولده ونساءه، وأحرقوا ما تهيأ لهم إحراقه في طريقهم. وبقيت من الجسر في وسط منه أدقال قد كان الخبيث أحكَمَها، فأمر الموفق أبا العباس بتقديم عدّة من الشَّذَا إلى ذلك الموضع، ففعل ذلك؛ فكان فيمن تقدّم زيرك في عدد من أصحابه، فوافَى هذه الأدقال، وأخرجوا إليها قوماً قد كانوا أعدّوهم لها معهم الفؤوس والمناشير، فقطعوها، وجُذبت وأخرجت عن النهر، وسقط ما بقي من القنطرة. ودخلت شذوات الموفّق النهر، وسار القائدان في جميع أصحابهما على حافتيه فهُزم أصحاب الفاجرِ في الجانبين. وانصرف الموفق وجميع أصحابه سالمين، واستُنقذ خلق كثير، وأتي الموفق بعدد كثير من رؤوس الفسقة، فأثاب مَنْ أتاه بها، وأحسن إليه ووصله.

وكان انصرافه في هذا اليوم على ثلاث ساعات من النهار، بعد أن انحاز الفاسِق وجميع أصحابه من الزَّنْج وغيرهم إلى الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب، وأخلوا غربيّه. واحتوى عليه أصحاب الموفّق، فهدموا ما كان يعوق عن محاربة الفَجَرة من قصور الفاسق وقصور

أصحابه، ووسَّعوا مخترقات ضيّقة كانت على نهر أبي الخصيب، فكان ذلك مما زاد في رعب أصحاب الخائن. ومال جمعٌ كثير من قوّاده وأصحابه الذين كان لا يرى أنه يفارقونه إلى طلب الأمان، فبُذل ذلك لهم، فخرجوا أرسالاً، فقبِلوا، وأحسِن إليهم وألحقوا بنظرائهم في الأرزاق والصِّلات والخلع.

ثم إن الموفق واظب على إدخال الشذا النهر، وتقحّمه في غلمانه، وأمر بإحراق ما على حافتيه من منازل الفجرة وما في بطنه من السفن. وأحبّ تمرين أصحابه على دخول النهر وتسهيل سلوكه لهم لِمَا كان يقدّر من إحراق الجسر الثاني، والتوصّل إلى أقصى مواضع الفجرة.

فبينا الموفق في بعض أيامه ـ التي ألحّ فيها على حرب الخبيث وولوج نهر أبي الخصيب ـ واقف في موضع من النهر ـ وذلك في يوم جمعة ـ إذ استأمن إليه رجل من أصحاب الفاجر، وأتاه بمنبر كان للخبيث في الجانب الغربيّ، فأمره بنقله إليه، ومعه قاض كان للخبيث في مدينته؛ فكان ذلك مما فتّ في أعضادهم. وكان الخبيث جمع ما كان بقيَ له من السفن البحرية وغيرها، فجعلها عند الجسر الثاني، وجمع قوّاده وأصحابه وأنجاد رجاله هنالك؛ فأمر الموفّق بعض غلمانه بالدنوّ من الجسر وإحراق ما تهيأ إحراقُه من المراكب البحرية التي تليه، وأخذ ما أمكن أخذُه منها. ففعل ذلك المأمورون به من الغلمان، فزاد فعلهم في تحرّز الفاجر ومحاماته عن الجسر الثاني، فألزم نفسه وجميع أصحابه حفظه وحراسته خوفاً من أن تتهيّأ حيله، فيخرج الجانب الغربيّ عن يده، ويُوطئه أصحاب الموفق، فيكون ذلك سبباً لاستئصاله. فأقام

الموفق بعد إحراق الجسر الأول أياماً يعبرُ بجمع بعد جمع من غلمانه إلى الجانب الغربيّ من نهر أبي الخصيب، فيحرقون ما بقي من منازل الفجرة، ويقرُبون من الجسر الثاني فيحاربهم عليه الزنج.

وقد كان تخلّف منهم جمعٌ في منازلهم في الجانب الغربيّ المقاربة للجسر الثاني. وكان غلمان الموفق يأتون هذا الموضع ويقفون على الطرق والمسالك التي كانت تخفى عليهم من عسكر الخبيث، فلما وقف الموفّق على معرفة غلمانه وأصحابه بهذه الطريق واهتدائهم لسلوكها، عزم على القصد لإحراق الجسر الثاني ليحوز الجانب الغربيّ من عسكر الخبيث، وليتهيأ لأصحابه مساواتُهم على أرض واحدة، لا يكون بينهما فيها حائل غير نهر أبي الخصيب. فأمر الموفّق عند ذلك أبا العباس بقصد الجانب الغربيّ في أصحابه وغلمانه ـ وذلك في يوم السبت لثمان بقين من شوال سنة تسع وستين ومائتين ـ وتقدّم إليه أن يجعل خروجه بأصحابه في موضع البناء الذي كان الفاجر سمّاه مسجد الجامع، وأن يأخذ الشارع المؤدي إلى الموضع الذي كان الخبيث اتخذه مصلى يحضره في أعياده؛ فإذا انتهى إلى موضع المصلى عطف منه إلى الجبل المعروف بجبل المكتني بأبي عمرو أخي المهلبيّ. وضمّ إليه من قُوّاد غلمانه الفرسان والرّجالة زُهاء عشرة آلاف، وأمره أن يرتّب زِيرَك صاحب مقدّمته في أصحابه في صحراء المصلى، ليأمن خروج كمين إن كان للفسقة من ذلك الموضع، وأمر جماعة من قوّاد الغلمان أن يتفرقوا في الجبال التي فيها بين الجبل المعروف بالمكتني بأبي عمرو وبين الجبل المعروف بالمكتني أبا مقاتل الزنجيّ، حتى توافَوْا جميعاً من هذه الجبال إلى موضع الجسر الثاني في نهر أبي الخصيب. وتقدّم إلى جماعة من قوّاد الغلمان المضمومين إلى أبي العباس أن يخرجوا في

أصحابهم بين دار الفاسق ودار ابنه أنكلاي، فيكون مسيرهم على شاطىء نهر أبي الخصيب وما قاربه، ليتصلوا بأوائل الغلمان الذين يأتون على الجبال، ويكون قصدُ الجميع إلى الجسر. وأمرهم بحمل الآلات من المعاول والفؤوس والمناشير مع جمع من النَّفاطين لقطع ما يتهيّأ قطعُه، وإحراق ما يتهيأ إحراقه. وأمر راشداً مولاه بقصد الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب في مثل العِدّة التي كانت مع أبي العباس وقصد الجسر ومحاربة مَنْ يدافع عنه. ودخل أبو أحمد نهر أبي الخصيب في الشّذَا، وقد أعدّ منها شَذَوات رتّب فيها من أنجاد غلمانه الناشبة والرّامحة من ارتضاه، وأعدّ معهم من الآلات التي يقطع بها الجسر ما يحتاج إليه لذلك، وقدّمهم أمامه في نهر أبي الخصيب. واشتبكت الحرب في الجانبين جميعاً بين الفريقين، واشتدّ القتال.

وكان في الجانب الغربيّ بإزاء أبي العباس ومَنْ معه أنكلاي ابن الفاسق في جيشه، وسليمان بن جامع في جيشه؛ وفي الجانب الشرقيّ بإزاء راشد ومَن معه الفاجر صاحب الزَّنْج والمهلبيّ في باقي جيشهم. فكانت الحرب في ذلك اليوم إلى مقدار ثلاث ساعات من النهار. ثم انهزمت الفسقة لا يلوُون على شيء، وأخذت السُّيوفُ منهم مأخَذَها، وأخذ من رؤوس الفسقة ما لم يقع عليه إحصاء لكثرته؛ فكان الموفّق إذا أتي برأس من الرؤوس أمر بإلقائه في نهر أبي الخصيب، ليدع المقاتلة الشغل بالرؤوس، ويجدّوا في اتباع عدوّهم. وأمر أصحاب الشذا الذين رتبهم في نهر أبي الخصيب بالدنّو من الجسر وإحراقه، ودفع مَنْ تحامى عنه من الزَّنْج بالسهام؛ ففعلوا ذلك وأضرموا الجسر ناراً. ووافى أنكلاي وسليمان في ذلك الوقت جريحيْن مهزومين، يريدان العبور إلى شرقيّ نهر أبي الخصيب، فحالت النار بينهما وبين

الجسر، فألقوْا أنفسهما ومن كان معهما من حُماتِهِم في نهر أبي الخصيب، فغرق منهم خلق كثير، وأفلت أنكلاي وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك. واجتمع على الجسر من الجانبين خلق كثير، فقطِع بعد أن ألقيت عليه سفينة مملوءة قصباً مضروماً بالنار، فأعانت على قطعه وإحراقه. وتفرّق الجيش في نواحي مدينة الخبيث من الجانبين جميعاً، فأحرقوا مِن دورهم وقصورهم وأسواقهم شيئاً كثيراً، واستنقذوا من النساء المأسورات والأطفال ما لا يُحصى عدده، وأمر الموفَّق المقاتلة بحملهم في سفنهم والعبور بهم إلى الموفقيّة.

وقد كان الفاجر سكن بعد إحراق قصره ومنازله الدّار المعروفة بأحمد بن موسى القَلوص والدّار المعروفة بمحمد بن إبراهيم أبي عيسى، وأسكن ابنه أنكلاي الدار المعروفة بمالك ابن أخت القَلُوص؛ فقصد جماعة من غلمان الموفق المواضع التي كان الخبيث يسكنها فدخلوها، وأحرقوا منها مواضع، وانتهبوا منها ما كان سَلم للفاسق من الحريق الأول. وهرب الخبيث ولم يوقَف في ذلك اليوم على مواضع أمواله. واستنقذ في هذا اليوم نسوة عَلَويَّات كنّ محتبسات في موضع قريب من داره التي كان يسكنها، فأمر الموفق بحملهنّ إلى عسكره، وأحسن إليهنّ، ووصلهنّ. وقصد جماعة من غلمان الموفق من المستأمنة المضمومين إلى أبي العباس سجناً كان الفاسق اتّخذه في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب، ففتحوه وأخرجوا منه خلقاً كثيراً ممّن كان أسر من العساكر التي كانت تحارب الفاسق وأصحابه، ومن سائر الناس غيرهم. فأخرج جميعهم في قيودهم وأغلالهم حتى أتِيَ بهم الموفّق. فأمر بفكّ الحديد عنهم وحملهم إلى الموفقيّة. وأخرج في ذلك اليوم كل ما كان بقي في نهر أبي الخصيب من شذاً ومراكب بحرية

وسفن صغار وكبار وحَرّاقات وزلالات وغير ذلك من أصناف السفن من النهر إلى دِجْلة، وأباحها الموفق أصحابه وغلمانه مع ما فيها من السلب والنهب الذي حازوا في ذلك اليوم من عسكر الخبيث؛ وكان بذلك قدر جليل وخطر عظيم.

وفيها سأل أنكلاي ابن الفاسق أبا أحمد الموفّق الأمان، وأرسل إليه في ذلك رسولاً، وسأل أشياء فأجابه الموفق إلى كلّ ما سأله، وردّ إليه رسوله. وعرض للموفّق بعقب ذلك ما شغله عن الحرب. وعلم الفاسق أبو أنكلاي بما كان من ابنه فعذَله ـ فيما ذكر ـ على ذلك، حتى ثناه عن رأيه في طلب الأمان، فعاد للجدّ في قتال أصحاب الموفق، ومباشرة الحرب بنفسه.

وفيها وجه أيضاً سليمان بن موسى الشعرانيّ ـ وهو أحد رؤساء أصحاب الفاسق ـ من يطلب الأمان له من أبي أحمد، فمنعه أبو أحمد ذلك، لِمَا كان سلف منه من العبث وسفك الدماء. ثم اتصل به أنّ جماعةً من أصحاب الخبيث قد استوحشوا لمنعِهِ ذلك الشعرانيّ، فأجابه أبو أحمد إلى إعطائه الأمان، استصلاحاً بذلك غيره من أصحاب الفاسق، وأمر بتوجيه الشَّذَا إلى الموضع الذي واعدهم الشعرانيّ، ففعل ذلك، فخرج الشعرانيّ وأخوه وجماعة من قوّاده، فحملهم في الشَّذا، وقد كان الخبيث حرسَ به مؤخّر نهر أبي الخصيب. فحمله أبو العباس إلى الموفق، فمنَّ عليه، ووفّى له بأمانه، وأمر به فوُصل ووُصل أصحابه، وخلع عليهم، وحمل على عدّة أفراس بسروجها وآلتها، ونزَّله وأصحابه أنزالاً سنية، وضمه وإياهم إلى أبي العباس، وجعله في جملة أصحابه، وأمره بإظهاره في الشَّذَا لأصحاب الخائن ليزدادوا ثقةً بأمانه؛

فلم يبرح الشَّذا من موضعها من نهر أبي الخصيب، حتى استأمن جمع كثير من قوّاد الزَّنج وغيرهم؛ فحمِلوا إلى أبي أحمد، فوصلهم وألحقهم في الخلع والجوائز بمن تقدّمهم.

استئمان شبل بن سالم

ولما استأمن الشعرانيّ اختلّ ما كان الخبيث يضبط به من مؤخر عسكره، ووَهى أمرُه وضعف؛ فقلّد الخبيث ما كان إلى الشعرانيّ من حفظ ذلك شِبل بن سالم، وأنزله مؤخّر نهر أبي الخصيب. فلم يُمسِ الموفّق من اليوم الذي أظهر فيه الشعرانيّ لأصحاب الخبيث حتى وافاه رسولُ شبْل بن سالم يطلب الأمان، ويسأل أن يوقف شَذَوات عند دار ابن سمعان، ليكون قصدُه فيمن يصحبه من قوّاده ورجاله في الليل إليها.

فأعطِيَ الأمانَ ورُدّ إليه رسوله، ووُقِفَت له الشَّذا في الموضع الذي سأل أن توقَف له؛ فوافاها في آخر الليل ومعه عياله وولده وجماعة من قوّاده ورجاله، وشهَر أصحابه سلاحَهم. وتلقّاهم قوم من الزَّنج قد كان الخبيث وجّههم لمنعه من المصير إلى الشَّذا ـ وقد كان خبره انتهى إليه ـ فحاربهم شبل وأصحابُه. وقتلوا منهم نفراً؛ فصاروا إلى الشَّذا سالمين، فصير بهم إلى قصر الموفق بالموفقية، فوافاه وقد ابتلج الصبح؛ فأمر الموفق أن يوصَل شبل بصلة جزيلة، وخلع عليه خلعاً كثيرة، وحمله على عدّة أفراس بسروجها ولُجمها.

وكان شبل هذا من عُدَد الخبيث وقدماء أصحابه وذوي الغَنَاء والبلاء في نُصرته. ووصل أصحاب شبل، وخلع عليهم، وأسنِيت له ولهم الأرزاق والأنزال، وضُموا جميعاً إلى قائد من قوّاد غلمان

الموفق. ووُجّه به وبأصحابه في الشَّذا، فوقفوا بحيث يراهم الخبيث وأشياعه. فعظم ذلك على الفاسق وأوليائه، لِمَا رأوْا من رغبة رؤسائهم في اغتنام الأمان. وتبين الموفّق من مناصحة شبل وجودة فهمه ما دعاه إلى أن يستكفِيَه بعض الأمور التي يكيد بها الخبيث؛ فأمره بتبييت عسكر الخبيث في جمع أمر بضمِّهم إليه من أبطال الزَّنْج المستأمنة، وأفرده وإيّاهم بما أمرهم به من البيات؛ لعلمهم بالمسالك في عسكر الخبيث.

فنفذ شبل لِمَا أمِر به، فقصد موضعاً كان عرفه، فكبسه في السَّحَر، فوافَى به جمعاً كثيفاً من الزَّنْج في عدّة من قُوّادهم وحماتهم، قد كان الخبيث رتَّبهم في الدفع عن الدار المعروفة بأبي عيسى؛ وهي منزل الخبيث حينئذ. فأوقع بهم وهم غارّون، فقتَل منهم مقتلةً عظيمة، وأسر جمعاً من قوّاد الزّنج، وأخذ لهم سلاحاً كثيراً، وانصرف ومَنْ كان معه سالمين. فأتي بهم الموفَّق، فأحسن جائزتهم وخلع عليهم، وسوَّر جماعة منهم.

ولما أوقع أصحاب شبل بأصحاب الخائن هذه الوقعة ذعرهم ذلك ذُعْراً شديداً، وأخافهم ومنعهم النوم؛ فكانوا يتحارسون في كلّ ليلة، ولا تزال النَّفَرة تقع في عسكرهم لـمَا استشعروا من الخوف، ووصل إلى قلوبهم من الوَحشة؛ حتى لقد كان ضجيجهم وتحارسهم يُسمَع بالموفقيّة.

الموفّق يجنّد المستأمنين لمحاربة صاحب الزنج

ثم أقام الموفق بعد ذلك ينفذ السرايا إلى الخبثة ليلاً ونهاراً من جانبي نهر أبي الخصيب، ويكدّهم بالحرب، ويُسْهر ليلهم، ويحول بينهم وبين طلب أقواتهم، وأصحابه في ذلك يتعرّفون المسالك،

ويتدرَّبون بالوغول في مدينة الخبيث وتقحّمها، ويصرُّون من ذلك على ما كانت الهيبة تحولُ بينهم وبينه؛ حتى إذا ظنّ الموفق أن قد بلغ أصحابه ما كانوا يحتاجون إليه، صحّ عزمه على العبور إلى محاربة الفاسق في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب. فجلس مجلساً عامًّا، وأمر بإحضار قوّاد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجَّالتهم من الزَّنج والبِيضان، فأدخِلُوا إليه، ووقفوا بحيث يسمعون كلامه. ثم خاطبهم فعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم، وما كان الفاسق ديَّن لهم من معاصي الله؛ وأن ذلك قد كان أباح له دماءهم، وأنه قد غفر الزَّلَّة، وعفا عن الهفوة، وبذل الأمان، وعاد على مَنْ لجأ إليه بفضله، فأجزل الصّلات، وأسنى الأرزاق، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة؛ وأن ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقه وطاعته؛ وأنهم لن يأتوا شيئاً يتعرّضون به لطاعة ربهم والاستدعاء لرضا سلطانهم، أوْلى بهم من الجدّ والاجتهاد في مجاهدة عدوّ الله الخائن وأصحابه؛ وأنهم من الخبرة بمسالك عسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي أعدّها للهرب إليها على ما ليس عليه غيرهم؛ فهم أحرياء أن يمحضُوه نصيحتهم، ويجتهدوا في الوُلُوج على الخبيث، والتوغُّل إليه في حصونه، حتى يمكنهم الله منه ومن أشياعه. فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد. وإن مَنْ قصّر منهم استدعى من سلطانه إسقاطَ حاله وتصغير منزلته، ووضع مرتبته. فارتفعت أصواتُهم جميعاً بالدّعاء للموفق والإقرار بإحسانه، وبما هم عليه من صحة الضمائر في السمع والطاعة والجدّ في مجاهدة عدوّه، وبذل دمائهم ومُهجهم في كلّ ما يقرّبهم منه، وأن ما دعاهم إليه قد قوَّى نيَّتهم، ودلهم على ثقته بهم وإحلاله إياهم محلَّ أوليائه. وسألوه أن يُفردهم بناحية يحاربون فيها،

فيظهر من حسن نيّاتهم ونكايتهم في العدوّ ما يعرف به إخلاصهم وتورّعهم عما كانوا عليه من جهلهم. فأجابهم الموفق إلى ما سألوا، وعرّفهم حُسن موقع ما ظهر له من طاعتهم. وخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

وفي ذي القعدة من هذه السنة دخل الموفق مدينة الفاسق بالجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب، فخرّب داره، وانتهب ما كان فيها.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

ذكر أن أبا أحمد لما عزم على الهجوم على الفاسق في مدينته بالجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب، وأمر بجمع السفن والمعابر من دِجْلة والبَطحية ونواحيها ليضيفها إلى ما في عسكره؛ إذ كان ما في عسكره مقصّراً عن الجيش لكثرته. وأحصى ما في الشَّذا والسُّميريات والرّقيّات التي كانت تعبر فيها الخيل، فكانوا زهاء عشرة آلاف سلاّح، ممن يجري عليه الرزق من بيت المال مشاهرة، سوى سفن أهل العسكر التي يحمل فيها المِيرة، ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما كان لكلّ قائد ومن يحضر من أصحابه من السميريات والجريبيات والزّواريق التي فيها الملاحون الراتبة. فلمّا تكاملت له السفن والمعابر، ورضي عددَها، تقدّم إلى أبي العباس وإلى قوّاد مواليه وغلمانه في التأهّب والاستعداد للقاء عدوهم، وأمر بتفرقة السفن والمعابر إلى حمل الخيل والرّجالة. وتقدّم إلى أبي العباس في أن يكون خروجه في جيشه في الجانب الغربيّ من نهر أبي الخصيب، وضمّ إليه قوّاداً من قُوّاد غلمانه في زُهاء ثمانية آلاف من أصحابهم، وأمره أن يعمد مؤخّر عسكر الفاسق حتى يتجاوز دار المعروف بالمهلبيّ؛ وقد كان الخبيث حصَّنها

وأسكن بقربها خَلْقاً كثيراً من أصحابه، ليأمن على مؤخّر عسكره، وليصعب على من يقصده المسلك إلى هذا الموضع.

فأمر أبو أحمد أبا العباس بالعبور بأصحابه إلى الجانب الغربيّ من نهر أبي الخصيب، وأن يأتيَ هذه الناحية من ورائها؛ وأمر راشداً مولاه بالخروج في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب في عدد كثير من الفرسان والرّجالة زُهاء عشرين ألفاً؛ وأمر بعضهم بالخروج في ركن دار المعروف بالكرنبائيّ كاتب المهلبيّ. وهي على قرنة نهر أبي الخصيب في الجانب الشرقيّ منه، وأمرهم أن يجعلوا مسيرهم على شاطىء النهر حتى يوافُوا الدار التي نزلها الخبيث؛ وهي الدار المعروفة بأبي عيسى. وأمر فريقاً من غلمانه بالخروج على فُوّهة النهر المعروف بأبي شاكر، وهو أسفل من نهر أبي الخصيب، وأمر آخرين منهم بالخروج في أصحابهم على فُوّهة النهر المعروف بجوى كور. وأوعز إلى الجميع في تقديم الرّجّالة أمام الفرسان، وأن يزحفوا بجميعهم نحو دار الخائن؛ فإن أظفرهم الله به وبمَنْ فيها من أهله وولده وإلاّ قصدوا دار المهلبيّ ليلقاهم هنالك من أمر بالعبور مع أبي العباس، فتكون أيديهم يداً واحدة على الفسقة.

فعمل أبو العباس وراشد وسائر قوّاد الموالي والغلمان بما أمِرُوا به، فظهروا جميعاً، وأبرزوا سفنهم في عشيّة الإثنين لسبع ليال خلون من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين. وسار الفرسان يتلُو بعضهم بعضاً، ومشت الرجّالة وسارت السفن في دِجلة منذ صلاة الظهر من يوم الاثنين إلى آخر وقت عشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء. فانتهوْا إلى موضع من أسفل العسكر؛ وكان الموفق أمر بإصلاحه وتنظيفه وتنقية ما فيه من

خراب ودَغل، وطمّ سواقيه وأنهاره حتى استوى واتّسع، وبعدت أقطارُه، واتخذ فيه قصراً وميداناً لعرض الرجال والخيل بإزاء قصر الفاسق؛ وكان غرضه في ذلك إبطال ما كان الخبيث يَعِد به أصحابه من سرعة انتقاله عن موضعه؛ فأراد أن يُعلم الفريقين أنه غير راحل حتى يَحكم الله بينه وبين عدُوّه؛ فبات الجيش ليلة الثلاثاء في هذا الموضع بإزاء عسكر الفاسق؛ وكان الجميع زُهاء خمسين ألف رجل من الفرسان والرّجالة في أحسن زِيٍّ وأكمل هيئة، وجعلوا يكبّرون ويهللون، ويقرؤون القرآن، ويصلّون، ويوقدون النار.

فرأى الخبيث من كثرة الجمع والعُدّة والعدد ما بهر عقله وعقول أصحابه. وركب الموفق في عشية يوم الاثنين الشَّذَا؛ وهي يومئذ مائة وخمسون شَذَاة قد شحنها بأنجاد غلمانه ومواليه الناشبة والرّامحة، ونظمها من أوّل عسكر الخائن إلى آخره، لتكون حصناً للجيش من ورائه، وطُرِحت أناجرها بحيث تقرب من الشطّ، وأفرِد منها شذوات اختارها لنفسه، ورتّب فيها من خاصّة قوّاد غلمانه ليكونوا معه عند تقحّمه نهر أبي الخصيب. وانتخب من الفرسان والرّجّالة عشرة آلاف، وأمرهم أن يسيروا على جانبي نهر أبي الخصيب بمسيره، ويقفوا بوقوفه، ويتصرّفوا فيما رأى أن يصرّفهم فيه في وقت الحرب.

وغدا الموفق يوم الثلاثاء لقتال الفاسق صاحب الزَّنْج. وتوجّه كلّ رئيس من رؤساء قوّاده نحو الموضع الذي أمِر بقصده. وزحف الجيش نحو الفاسق وأصحابه، فتلقّاهم الخبيث في جيشه، واشتبكت الحرب، وكثر القتل والجراح بين الفريقين. وحامى الفسقة عما كانوا اقتصروا عليه من مدينتهم أشدّ محاماة، واستماتوا. وصبر أصحاب الموفق،

وصدقوا القتال، فمنّ الله عليهم بالنصر، وهزم الفسقة؛ فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا من مقاتلتهم وأنجادهم جمعاً كثيراً.

اقتحام دار صاحب الزنج

وأتي الموفق بالأسارى، فأمر بهم فضربت أعناقهم في المعركة. وقصد بجمعه لدار الفاجر فوافاها، وقد لجأ الخبيث إليها، وجمع أنجاد أصحابه للمدافعة عنها؛ فلمّا لم يغنُوا عنها شيئاً أسلمها، وتفرّق أصحابه عنها، ودخلها غلمان الموفّق، وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله وأثاثه؛ فانتهبوا ذلك كلَّه، وأخذوا حرمه وولده الذكور والإناث؛ وكانوا أكثر من مائة بين امرأة وصبيّ. وتخلّص الفاسق ومضى هارباً نحو دار المهلبِيّ، لا يلوي على أهل ولا مال. وأحرقت داره وما بقي فيها من متاع وأثاث. وأتِيَ الموفّق بنساء الخبيث وأولاده، فأمر بحملهم إلى الموفقية والتوكيل بهم، والإحسان إليهم.

وكان جماعة من قواد أبي العباس عبروا نهر أبي الخصيب، وقصدوا الموضع الذي أمِرُوا بقصْده من دار المهلبيّ، ولم ينتظروا إلحاق أصحابهم بهم، فوافوْا دار المهلبيّ، وقد لجأ إليها أكثرُ الزَّنج بعد انكشافهم عن دار الخبيث؛ فدخل أصحاب أبي العباس الدّار، وتشاغلوا بالنهب وأخذ ما كان غلب عليه المهلبيّ من حرم المسلمين وأولاده منهنّ، وجعل كلّ مَنْ ظفر بشيء انصرف به إلى سفينته في نهر أبي الخصيب.

وتبين الزّنج قلة مَنْ بَقِيَ منهم وتشاغلهم بالنهب، فخرجوا عليهم من عدَّة مواضع قد كانوا كمنوا فيها، فأزالوهم عن مواضعهم. فانكشفوا، وأتبعهم الزَّنْج حتى وافوْا نهر أبي الخصيب وقَتَلوا مِنْ

فرسانهم ورجّالتهم جماعةً يسيرة، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوا من النساء والمتاع.

وكان فريق من غلماء الموفق وأصحابه الذين قصدوا دار الخبيث في شرقيّ نهر أبي الخصيب تشاغلوا بالنَّهب وحمْل الغنائم إلى سفنهم، فأطمع ذلك الزَّنج بهم، فأكبُّوا عليهم، فكشفوهم واتَّبعوا آثارهم إلى الموضع المعروف بسوق الغنم من عسكر الزَّنْج. فثبتت جماعة من قُوَّاد الغلمان في أنجاد أصحابهم وشجعانهم، فردّوا وجوه الزَّنج حتى ثاب الناس، وتراجعوا إلى مواقفهم. ودامت الحرب بينهم إلى وقت صلاة العصر، فأمر أبو أحمد عند ذلك غلمانه أن يحملوا على الفسقة بأجمعهم حملةً صادقة. ففعلوا ذلك، فانهزم الزَّنْج وأخذتهم السيوف حتى انتهوْا إلى دار الخبيث؛ فرأى الموفّق عند ذلك أن يصرف غلمانه وأصحابه على إحسانهم، فأمرهم بالرجوع؛ فانصرفوا على هُدُوّ وسكون. فأقام الموفق في النهر ومَنْ معه في الشَّذا يحميهم، حتى دخلوا سفنهم، وأدخلوها خيلهم. وأحجم الزَّنْج عن اتّباعهم لما نالهم في آخر الوقعة.

وانصرف الموفّق ومعه أبو العباس وسائر قوّاده وجميع جيشه قد غنموا أموال الفاسق، واستنقذوا جمعاً من النساء اللَّواتي كان غلب عليهنّ من حرم المسلمين كثيراً، جعلن يخرجن في ذلك اليوم أرسالاً إلى فوّهة نهر أبي الخصيب، فيحمَلن في السفن إلى الموفقيّة إلى انقضاء الحرب.

وكان الموفق تقدّم إلى أبي العباس في هذا اليوم أن ينفذ قائداً من قوّاده في خمس شَذَوات إلى مؤخر عسكر الخبيث بنهر أبي الخصيب،

لإحراق بيادرَ ثمّ جليلِ قدرها، كان الخبيث يقوت أصحابه منها من الزَّنْج وغيرهم؛ ففعل ذلك وأحرق أكثره. وكان إحراق ذلك من أقوى الأشياء على إدخال الضعف على الفاسق وأصحابه؛ إذ لم يكن لهم معوّل في قوتهم غيره. فأمر أبو أحمد بالكتاب بما تهيأ له على الخبيث وأصحابه في هذا اليوم إلى الآفاق ليُقرأ على الناس، ففعل ذلك.

وفي يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من ذي الحجة من هذه السنة وافى عسكر أبي أحمد صاعد بن مخلد كاتبه منصرفاً إليه من سامُرّاء، ووافَى معه بجيش كثيف قيل إنّ عدد الفرسان والرّجّالة الذين قدموا كان زُهاء عشرة آلاف. فأمر الموفّق بإراحة أصحابه وتجديد أسلحتهم وإصلاح أمورهم، وأمرَهم بالتأهب لمحاربة الخبيث. فأقام أياماً بعد قدومه لما أمِر به.

انضمام لؤلؤ غلام ابن طولون إلى الموفّق

فهم في ذلك من أمرهم، إذْ ورد كتاب لؤلؤ صاحب ابن طولون مع بعض قوّاده، يسأله فيه الإذن له في القُدوم عليه، ليشهد عليه حرب الفاسق. فأجابه إلى ذلك، فأذن له في القدوم عليه، وأخّر ما كان عزم عليه من مناجزة الفاجر انتظاراً منه قدوم لؤلؤ. وكان لؤلؤ مقيماً بالرَّقة في جيش عظيم من الفراغنة والأتراك والرّوم والبربر والسودان وغيرهم، من نخبة أصحاب ابن طولون. فلما ورد على لؤلؤ كتاب أبي أحمد بالإذن له في القدوم عليه، شخص من ديار مضر حتى ورد مدينة السلام في جميع أصحابه، وأقام بها مدّة. ثم شخص إلى أبي أحمد فوافاه بعسكره يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة سبعين ومائتين. فجلس له أبو أحمد، وحضر ابنه أبو العباس وصاعد والقوّاد على

مراتبهم؛ فأدخِل عليه لؤلؤ في زيّ حسن. فأمر أبو العباس أن ينزل معسكراً كان أعدّ بإزاء نهر أبي الخصيب، فنزله في أصحابه. وتقدّم إليه في مباكرة المصير إلى دار الموفّق، ومعه قوّاده وأصحابه للسلام عليه. فغدا لؤلؤ يوم الجمعة لثلاث خلون من المحرّم، وأصحابُه معه في السواد، فوصل إلى الموفق وسلَّم عليه فقرّبه وأدناه، ووعده وأصحابه خيراً. وأمر أن يخلع عليه وعلى خمسين ومائة قائد من قُوّاده. وحمله على خيل كثيرة بالسُّروج واللجُم المحلاّة بالذهب والفضّة، وحمِل بين يديه من أصناف الكسي والأموال في البُدُور ما يحمله مائة غلام. وأمر لقوّاده من الصلات والحُملان والكُسي على قدر محلّ كلّ إنسان منهم عنده. وأقطعه ضياعاً جليلة القدر. وصرفه إلى عسكره بإزاء نهر أبي الخصيب بأجمل حال. وأعِدّت له ولأصحابه الأنزال والعلُوفات. وأمره برفع جرائد أصحابه بمبلغ أرزاقهم على مراتبهم؛ فرفع ذلك؛ فأمر لكلّ إنسان منهم بالضِّعف مما كان يجرى له وأمر لهم بالعطاء عند رفع الجرائد، ووفُّوا ما رسم لهم.

ثم تقدّم إلى لؤلؤ بالتأهب والاستعداد للعبور إلى غربيّ دِجْلة لمحاربة الفاسق وأصحابه، وكان الخبيث لما غلب على نهر أبي الخصيب، وقُطعت القناطر والجسور التي كانت عليه، أحدث سَكراً في النهر من جانبيه، وجعل في وسط السَّكْر باباً ضيّقاً لتَحْتدَّ فيه جرية الماء، فيمتنع الشَّذَا من دخوله في الجزْر، ويتعذّر خروجها منه في المدّ. فرأى أبو أحمد أنّ حربه لا تتهيأ له إلا بقلع هذا السَّكْر. فحاول ذلك، فاشتدتّ محاماة الفَسَقة عنه، وجعلوا يزيدون فيه في كلّ يوم وليلة، وهو متوسط دورهم، والمؤونة لذلك تسهل عليه وتغلظ على مَنْ حاول قلعه.

فرأى أبو أحمد أن يحارب بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ، لِيَضْرَوا لمحاربة الزَّنْج، ويقفوا على المسالك والطرق في مدينتهم. فأمر لؤلؤاً أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السَّكْر، وأمر بإحضار الفَعَلة لقلعه. ففعل. فرأى الموفق من نجدة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه وصبرهم على ألم الجراح وثبات العدّة اليسيرة منهم في وجوه الجمع الكثير من الزَّنْج ما سرّه. فأمر لؤلؤاً بصرف أصحابه إشفاقاً عليهم، وضنًّا بهم. فوصلهم الموفق، وأحسن إليهم، وردّهم إلى معسكرهم. وألحّ الموفَّق على هذا السَّكْر؛ فكان يحارب المحامين عنه من أصحاب الخبيث بأصحاب لؤلؤ وغيرهم، والفَعلة يعملون في قَلْعه، ويحارب الفاجر وأشياعه من عدّة وجوه، فيحرق مساكنهم، ويقتل مقاتلَتهم، ويستأمن إليه الجماعة من رؤسائهم.

وكانت قد بقيَتْ للخبيث وأصحابه أرَضُون من ناحية نهر الغربيّ، كان لهم فيها مزارع وخُضَر وقنطرتان على نهر الغربيّ، يعبرون عليها إلى هذه الأرضين. فوقف أبو العباس على ذلك فقصد لتلك الناحية، واستأذن الموفق في ذلك، فأذن له، وأمره باختيار الرّجال، وأن يجعلهم شجعاء أصحابه وغلمانه. ففعل أبو العباس ذلك، وتوجه نحو نهر الغربيّ، وجعل زِيرك كميناً في جمع من أصحابه في غربيّ النهر، وأمر رشيقاً غلامه أن يقصدَ في جمع كثير من أنجاد رجاله ومختاريهم للنهر المعروف بنهر العمَيْسيين، ليخرج في ظهور الزَّنْج وهم غارّون، فيوقع بهم في هذه الأرضين. وأمر زِيرك أن يخرج في وجوههم إذا أحسَّ بانهزامهم من رشيق.

وأقام أبو العباس في عدة شذوات قد انتخب مقاتلتها واختارهم

في فوّهة نهر الغربيّ، ومعه من غلمانه البِيضان والسودان عدد قد رضيَه. فلما ظهر رشيق للفَجرة في شرقيّ نهر الغربيّ، راعهم فأقبلوا يريدون العبور إلى غربيه ليهربوا إلى عسكرهم. فلما عاينهم أبو العباس اقتحم النَّهر بالشَّذَوات، وبث الرّجّالة على حافتَيْه، فأدركوهم ووضعوا السيف فيهم؛ فقتل منهم في النهر وعلى ضفّتيه خَلْق كثير، وأسر منهم أسرى، وأفلت آخرون؛ فتلقاهم زيرك في أصحابه فقتلوهم، ولم يُفلت منهم إلاّ الشريد، وأخذ أصحاب أبي العباس من أسلحتهم ما ثقل عليهم حمله، حتى ألقوا أكثره. وقطع أبو العباس القنطرتين، وأمر بإخراج ما كان فيهما من البُدود والخشب إلى دِجْلة وانصرف إلى الموفق بالأسارى والرؤوس، فطِيف بها في العسكر، وانقطع عن الفسقة ما كانو يرتفِقُون به من المزارع التي كانت بنهر الغربيّ.

وفي ذي الحجة من هذه السنة ـ أعني سنة تسع وستين ومائتين ـ أدخِل عيال صاحب الزّنج وولده بغداد.

أخبار سنة ٢٧٠هـ

في المحرّم منها كانت وقعة بين أبي أحمد وصاحب الزّنج أضعفت أركان صاحب الزنج.

وفي صفر منها قتل الفاجر، وأسر سليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ واستريح من أسباب الفاسق.

ذكر الخبر عن هاتين الوقعتين:

قد ذكرنا قبل أمر السَّكْر الذي كان الخبيث أحدثه، وما كان من أمر أبي أحمد وأصحابه في ذلك. ذكر أن أبا أحمد لم يزل ملحًّا على

الحرب على ذلك السَّكْر حتى تهيّأ له فيه ما أحبّ، وسهل المدخل للشَّذا في نهر أبي الخصيب في المدّ والجزر. وسهل لأبي أحمد في موضعه الذي كان مقيماً فيه كل ما أراده من رُخْص الأسعار وتتابع المِيَر وحَمْل الأموال إليه من البلدان ورغبة الناس في جهاد الخبيث ومَنْ معه من أشياعه، فكان ممّن صار إليه من المطوّعة أحمد بن دينار عامل إيذَج ونواحيها من كُور الأهواز في جمع كثير من الفرسان والرّجّالة؛ فكان يباشر الحرب بنفسه وأصحابه إلى أن قُتل الخبيث. ثم قدم بعده من أهل البحرين ـ فيما ذكر ـ خلق كثير، زُهاء ألفي رجل، يقودهم رجل من عبد القيس؛ فجلس لهم أبو أحمد، ودخل إليه رئيسهم ووجوههم، فأمر أن يُخلع عليهم، واعترض رجالهم أجمعين، وأمر بإقامة الأنزال لهم. وورد بعدهم زهاء ألف رجل من كُور فارس، يرأسهم شيخ من المطوّعة يكنى أبا سلمة؛ فجلس لهم الموفّق، فوصل إليه هذا الشيخ ووجوه أصحابه، فأمر لهم بالخِلع، وأقرّ لهم الأنزال، ثم تتابعت المطوّعة من البلدان. فلما تيسر له ما أراد من السَّكْر الذي ذكرنا، عزم على لقاء الخبيث؛ فأمر بإعداد السفن والمعابر وإصلاح آلة الحرب في الماء وعلى الظَّهْر، واختار مَنْ يثِق ببأسه ونجدته في الحرب فارساً وراجلاً، لضيق المواضع التي كان يحارب فيها وصعوبتها وكثرة الخنادق والأنهار بها؛ فكان عِدّة مَنْ تخيّر من الفرسان زُهاء ألفي فارس، ومن الرَّجالة خمسين ألفاً أو يزيدون، سوى مَنْ عبر من المطوّعة وأهل العسكر، ممّن لا ديوان له. وخلّف بالموفقيّة من لم يتسع السفن بحمله جمًّا كثيراً أكثرهم من الفرسان.

وتقدّم الموفّق إلى أبي العباس في القصد للموضع الذي كان صار إليه في يوم الثلاثاء لعشر خلون من ذي العقدة سنة تسع وستين ومائتين

من الجانب الشرقيّ بإزاء دار المهلبيّ في أصحابه وغلمانه ومَنْ ضمّهم إليه من الخيل والرجّالة والشَّذا. وأمر صاعد بن مخلَد بالخروج على النهر المعروف بأبي شاكر في الجانب الشرقيّ أيضاً. ونظم القوّاد من مواليه وغلمانه من فُوهة نهر أبي الخصيب إلى نهر الغربيّ. وكان فيمن خرج من حدّ دار الكرنبائيّ إلى نهر أبي شاكر راشد ولؤلؤ، موليَا الموفق، في جمع من الفرسان والرّجالة زُهاء عشرين ألفاً، يتلو بعضُهم بعضاً؛ ومن نهر أبي شاكر إلى النهر المعروف بجوى كور جماعة من قوّاد الموالي والغلمان؛ ثم من نهر جوى كور إلى نهر الغربيّ مثل ذلك. وأمر شبلاً أن يقصد في أصحابه ومَن ضُمّ إليه إلى نهر الغربيّ، فيأتي منه موازياً لظهر دار المهلبيّ، فيخرج من ورائها عند اشتباك الحرب. وأمر الناس أن يزحفوا بجميعهم إلى الفاسق، لا يتقدّم بعضهم بعضاً؛ وجعل لهم أمارة الزَّحْف تحريكَ علم أسود أمر بنصبه على دار الكرنبائي بفُوهة نهر أبي الخصيب في موضع منها مشيد عالٍ، وأن ينفخ لهم ببوق بعيد الصوت. وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث ليال بقين من المحرّم سنة سبعين ومائتين. فجعل بعض مَن كان على النهر المعروف بجوى كور يَزْحف قبل ظهور العلامة، حتى قرب من دار المهلبيّ، فلقيه وأصحابه الزَّنْج فردُّوهم إلى مواضعهم، وقَتَلُوا منهم جمعاً؛ ولم يشعر سائر الناس بما حدَث على هؤلاء المتسرَعين للقتال لكثرتهم وبعد المسافة فيما بين بعضهم وبعض.

فلمّا خرج القوّاد ورجالهم من المواضع التي أمِرُوا بالخروج منها، واستوى الفرسان والرجّالة في أماكنهم، أمر الموفّق بتحريك العلَم والنفخ في البوق، ودخل النهر في الشَّذَا، وزحف الناس يتلو بعضهم بعضاً. فلقيَهم الزَّنج وقد حشدوا وجمّوا واجترؤوا بما تهيأ لهم

على من كان تسرّع إليهم. فلقيهم الجيش بنيّات صادقة وبصائر نافذة، فأزالوهم عن مواضعهم بعد كرّات كانت بين الفريقين، صُرِع فيها منهم جمع كثير. وصبر أصحاب أبي أحمد، فمنّ الله عليهم بالنّصر، ومنحهم أكتاف الفسقة، فولّوْا منهزمين. واتبعهم أصحاب الموفق، يقتلون ويأسرون. وأحاط أصحاب أبي أحمد بالفجرة من كلّ موضع، فقتل الله منهم في ذلك اليوم ما لا يحيط به الإحصاء، وغرق منهم في النهر المعروف بجوى كور مثل ذلك. وحوى أصحاب الموفّق مدينةَ الفاسق بأسرها، واستنقذوا مَنْ كان فيها من الأسرى من الرجال والنساء والصبيان، وظفروا بجميع عيال عليّ بن أبان المهلبيّ وأخويه الخليل ومحمد ابني أبان وسليمان بن جامع وأولادهم، وعُبِر بهم إلى المدينة الموفقيّة. ومضى الفاسق في أصحابه ومعه المهلبيّ وابنه أنكلاي وسليمان بن جامع وقوّاد من الزَّنْج وغيرهم هُرّاباً، عامدين لموضع قد كان الخبيث رآه لنفسه ومَنْ معه ملجأ إذا غُلبوا على مدينته؛ وذلك على النهر المعروف بالسفيانيّ.

وكان أصحاب أبي أحمد حين انهزم الخبيث، وظفروا بما ظفروا به، أقاموا عند دار المهلبيّ الواغلة في نهر أبي الخصيب، وتشاغلوا بانتهاب ما كان في الدار وإحراقها وما يليها، وتفرّقوا في طلب النهب، وكُلّ مَا بقي للفاسق وأصحابه مجموعاً في تلك الدار.

وتقدم أبو أحمد في الشّذا قاصداً للنهر المعروف بالسفيانيّ، ومعه لؤلؤ في أصحابه الفرسان والرجالة، فانقطع عن باقي الجيش، فظنُّوا أنه قد انصرف. فانصرفوا إلى سفنهم بما حَووا. وانتهى الموفّق فيمن معه إلى معسكر الفاسق وأصحابه وهم منهزمون؛ فأتبعهم لؤلؤ وأصحابُه

حتى عبروا النهر المعروف بالسفيانيّ، فاقتحم لؤلؤ النهر بفرسه، وعَبَر أصحابه خَلْفه. ومضى الفاسق حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريريّ، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابُه، فأوقعوا به وبمَنْ معه، فكشفوهم، فولَّوْا هاربين وهم يتبعونهم، حتى عَبَرُوا النهر المعروف بالقريريّ. وعبر لؤلؤ وأصحابه خلفهم وألجأوهم إلى النهر المعروف بالمساوان، فعبروه واعتصموا بجبل وراءه.

وكان لؤلؤ وأصحابه الذين انفردوا بهذا الفعل دون سائر الجيش، فانتهى بهم الجدّ في طلب الفاسق وأشياعه إلى هذا الموضع الذي وصفنا في آخر النهار، فأمره الموفّق بالانصراف محمود الفعل. فحمله الموفّق معه في الشَّذا، وجدّد له من البرّ والكرامة ورفع المرتبة، لما كان منه في أمر الفسقة حسب ما كان مستحقًّا. ورجَع الموفق في الشَّذَا في نهر أبي الخصيب وأصحاب لؤلؤ يسايرونه. فلما حاذى دار المهلبيّ، لم ير بها أحداً من أصحابه، فعلم أنهم قد انصرفوا، فاشتدّ غيظه عليهم. وسار قاصداً لقصره، وأمر لؤلؤ بالمضيّ بأصحابه إلى عسكره، وأيقن بالفتح لما رأى من أمارته. واستبشر الناس جميعاً بما هيأ الله من هزيمة الفاسق وأصحابه وإخراجهم عن مدينتهم، واستباحة كلّ ما كان لهم من مال وذخيرة وسلاح، واستنقاذ جميع من كان في أيديهم من الأسرى. وكان في نفس أبي أحمد على أصحابه من الغيظ لمخالفتهم أمره، وتركهم الوقوف حيث وقفهم، فأمر بجمع قوّاد مواليه وغلمانه ووجوههم؛ فجُمعوا له، فوبّخهم على ما كان منهم وعَجّزهم، وأغلظ لهم. فاعتذروا بما توهّموا من انصرافه، وأنهم لم يعلموا بمسيره إلى الفاسق وانتهائه إلى حيث انتهى من عسكره، وأنهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه. ولم يبرحوا موضعهم حتى تحالفوا وتعاقدوا على ألاّ

ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث حتى يظفرهم الله به؛ فإن أعياهم ذلك أقاموا بمواضعهم حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا أن يأمر بردّ السفن التي يعبرون فيها إلى الموفقيّة عند خروجهم منها للحرب، لتنقطع أطماع الذين يريدون الرجوع عن حرب الفاسق من ذلك. فجزاهم أبو أحمد الخير على تنصّلهم من خطئهم، ووعدهم الإحسان، وأمرهم بالتأهّب للعبور، وأن يعظوا أصحابهم بمثل الذي وُعِظوا به. وأقام الموفق بعد ذلك يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لإصلاح ما يحتاج إليه؛ فلما كَمَل ذلك تقدّم إلى من يثِق به من خاصّته وقُوّاد غلمانه ومواليه، بما يكون عليه عملُهم في وقت عبورهم.

وفي عشيّ يوم الجمعة، تقدّم إلى أبي العباس وقوّاد غلمانه ومواليه بالنهوض إلى مواضع سمّاها لهم؛ فأمر أبا العباس بالقصد في أصحابه إلى الموضع المعروف بعسكر ريحان، وهو بين النهر المعروف بالسفيانيّ والموضع الذي لجأ إليه، وأن يكون سلوكه بجيشه في النهر المعروف بنهر المغيرة، حتى يخرج بهم في معترَض نهر أبي الخصيب، فيوافي بهم عسكَر ريحان من ذلك الوجه. وأنفذ قائداً من قوّاد غلمانه السودان، وأمره أن يصير إلى نهر الأمير فيعترض في المَنصف منه. وأمر سائر قواده وغلمانه بالمبيت في الجانب الشرقيّ من دِجْلة بإزاء عسكر الفاسق متأهبين للغدوّ على محاربته. وجعل الموفق يطوف في الشَّذا على القُوّاد ورجالهم في عشيّ يوم الجمعة وليلة السبت، ويفرّقهم في مراكزهم والمواضع التي رتَّبهم فيها من عسكر الفاسق، ليباكروا المصير إليها على ما رسم لهم.

وغدا الموفق يوم السبت لليلتين خَلَتا من صفر سنة سبعين

ومائتين، فوافى نهر أبي الخصيب في الشذا. فأقام بها حتى تكامل عبورُ الناس وخروجهم عن سفنهم، وأخذ الفرسان والرجّالة مراكزَهم. وأمر بالسفن والمعابر فرُدّت إلى الجانب الشرقيّ. وأذن للناس في الزَّحف إلى الفاسق، وسار يقدمهم حتى وافى الموضع الذي قدّر أن يثبُت الفسقة فيه لمدافعة الجيش عنهم.

وقد كان الخائن وأصحابه لخبثهم رجعوا إلى المدينة يوم الاثنين بعد انصراف الجيش عنها، وأقاموا بها، وأمّلوا أن تتطاول بهم الأيام، وتندفع عنهم المناجزة. فوجد الموفّق المتسرعين من فرسان غلمانه ورجّالتهم قد سبقوا أعظم الجيش، فأوقعوا بالفاجر وأصحابه وقعةً أزالوهم بها عن مواقفهم؛ فانهزموا وتفرَّقُوا لا يلوي بعضهم على بعض. وأتبعهم الجيش يقتلون ويأسرون مَنْ لحقوا منهم. وانقطع الفاسق في جماعة من حُماته من قُوّاد الجيش ورجالهم، وفيهم المهلبيّ وفارقه ابنه أنكلاي وسليمان بن جامع.

فقصد لكل فريق ممّن سمّينا جمع كثيف من موالي الموفق وغلمانه الفرسان والرَّجالة. ولَقِيَ مَنْ كان رتبه الموفق من أصحاب أبي العباس في الموضع المعروف بعسكر ريحان المنهزمين من أصحاب الفاجر، فوضعوا فيهم السلاح. ووافى القائد المرتب في نهر الأمير، فاعترض الفجرة، فأوقع بهم. وصادف سليمان بن جامع فحاربه، فقتل جماعة من حُماته، فظفر بسليمان فأسره، فأتى به الموفق بغير عهد ولا عقد. فاستبشر الناس بأسر سليمان، وكَثُر التكبير والضجيج، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحابه غنَاء عنه. وأسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني ـ وكان أحد أمراء جيوشه ـ وأسِر نادر الأسود المعروف

بالحفار، وهو أحد قدماء أصحاب الفاجر. فأمر الموفّق بالاستيثاق منهم وتصييرهم في شذاة لأبي العباس. ففُعل ذلك.

ثم إن الزَّنْج الذين انفردوا مع الفاسق عطفوا على الناس عطفة أزالوهم بها عن مواقفهم، ففتروا لذلك. وأحسّ الموفّق بفتورهم، فجدّ في طلب الخبيث، وأمعن في نهر أبي الخصيب، فشدّ ذلك من قلوب مواليه وغلمانه، وجدُّوا في الطلب معه.

وانتهى الموفّق إلى نهر أبي الخصيب، فوافاه البشير بقتل الفاجر؛ ولم يلبث أن وافاه بشير آخر ومعه كفّ زعم أنها كفه، فقوي الخبر عنده بعض القُوّة. ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركُض على فرس، ومعه رأس الخبيث، فأدناه منه، فعرضه على جماعة ممن كان بحضرته من قوّاد المستأمنة، فعرَفوه. فخرّ للَّهِ ساجداً على ما أولاه وأبلاه، وسجد أبو العباس وقُوّاد موالي الموفق وغلمانِه شكراً لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه. وأمر الموفَّق برفع رأس الفاجر على قناة ونصبه بين يديه. فتأمَّله الناس وعرفوا صِحة الخبر بقتله، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله.

وذكر أن أصحاب الموفق لما أحاطوا بالخبيث، ولم يبقَ معه من رؤساء أصحابه إلاَّ المهلبيّ، ولَّى عنه هارباً وأسلمه. وقصد النهر المعروف بنهر الأمير، فقذف نفسه فيه يريد النجاة. وقبل ذلك ما كان ابن الخبيث أنكلاي فارق أباه، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالديناريّ، فأقام فيه متحصّناً بالأدغال والآجام. وانصرف الموفق ورَأس الخبيث منصوب بين يديه على قناة في شَذاة، يخترق بها نهر أبي الخصيب، والناس في جنبي النهر ينظرون إليه حتى وافى دِجْلة. فخرج إليها فأمر

بردّ السفن التي كان عبر بها في أول النهار إلى الجانب الشرقي من دِجْلة، فرُدّت ليعبر الناس فيها.

ثم سار ورأسُ الخبيث بين يديه على القناة، وسليمان بن جامع والهمدانيّ مصلوبان في الشَّذا، حتى وافى قصرَه بالموفقيَّة. وأمَر أبا العباس بركوب الشذا وإقرار الرأس وسليمان والهمدانيّ على حالهم والسير بهم إلى نهر جَطّى، وهو أوّل عسكر الموفق، ليقع عليهم عيون الناس جميعاً في العسكر. ففعل ذلك وانصرف إلى أبيه أبي أحمد. فأمر بحبس سليمان والهمدانيّ وإصلاح الرأس وتنقيته.

وذكر أنه تتابع مجيء الزَّنج الذين كانوا أقاموا مع الخبيث وآثروا صحبته، فوافى ذلك اليوم زُهاء ألف منهم. ورأى الموفق بذل الأمان، لما رأى من كثرتهم وشجاعتهم، لئلا تبقى منهم بقية تُخاف معرّتها على الإسلام وأهله. فكان من وافَى من قُوّاد الزَّنج ورجالهم في بقية يوم السبت وفي يوم الأحد والاثنين زُهاء خمسة آلاف زنجيّ. وكان قد قُتِل في الوقعة وغرق وأسِر منهم خَلْقٌ كثير لا يوقَف على عددهم. وانقطعت منهم قطعة زهاء ألف زِنجيّ مالوا نحو البرّ، فمات أكثرهم عطشاً، فظفر الأعراب بمَنْ سلم منهم واسترقّوهم.

وانتهى إلى الموفَّق خبر المهلبيّ وأنكلاي ومقامهما بحيث أقاما مع مَنْ تبعهما من جِلَّة قُوّاد الزَّنْج ورجالهم، فبثّ أنجاد غلمانه في طلبهم، وأمرهم بالتضييق عليهم؛ فلما أيقنوا بأن لا ملجأ لهم أعْطَوْا بأيديهم، فظفر بهم الموفَّق وبمَنْ معهم، حتى لم يشذَّ أحد. وقد كانوا على نحو العِدَّة التي خرجت إلى الموفق بعد قتل الفاجر في الأمان، فأمر الموفق بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلاي وحبسهما، ففعل.

وكان فيمن هرب من عسكر الخبيث يوم السبت ولم يركن إلى الأمان قرطاس الذي كان رمى الموفق بالسهم. فانتهى به الهرب إلى رامَهُرْمز، فعرفه رجل قد كان رآه في عسكر الخبيث فدلّ عليه عامل البلد، فأخذه وحمله في وَثاق. فسأل أبو العباس أباه أن يوليه قتلَه فدفعه إليه فقتله.

وفيها استأمن درمويه الزنجيّ إلى أبي أحمد. وكان درمويه هذا ـ فيما ذكر ـ من أنجاد الزَّنْج وأبطالهم. وكان الفاجر وجَّهه قبل هلاكه بمدة طويلة إلى أواخر نهر الفَهْرَج، وهي من البصرة في غربيّ دجلة، فأقام هنالك بموضع وَعْر كثير النخل والدَّغل والآجام متصل بالبَطِيحة. وكان درمويه ومَن معه هنالك يقطعون على السابلة في زواريق خِفاف وسُميريَّات اتَّخذوها لأنفسهم. فإذا طلبهم أصحاب الشَّذا ولجوا الأنهار الضيِّقة، واعتصموا بمواضع الأدغال منها، وإذا تعذّر عليهم مسلك نَهر منها لضيقها خرجوا من سفنهم وحملوها على ظهورهم، ولجأوا إلى هذه المواضع الممتنعة؛ وفي خلال ذلك يُغيرون على قرى البَطِيحة ومَا يليها، فيقتلون ويسلبون مَنْ ظفروا به. فمكث درمويه ومَنْ معه يفعلون هذه الأفعال إلى أن قتِل الفاجر وهم بموضعهم الذي وصفنا أمره، لا يعلمون بشيء مما حدث على صاحبهم. فلما فُتح بقتل الخبيث موضعه، وأمن الناس وانتشروا في طلب المكاسب وحمل التجارات، وسلكت السابلة دِجْلة، أوقع درمويه بهم، فقتل وسلب. فأوحش الناس ذلك، واشرأبّ لمثل ما فيه درمويه جماعة من شرار الناس وفُسَّاقهم، وحدّثوا أنفسم بالمصير إليه وبالمقام معه على مثل ما هو عليه. فعزم الموفق على تسريح جيش من غلمانه السودان ومَنْ جرى مجراهم من أهل البَصَر بالحرب في الأدغال ومضايق الأنهار، وأعدّ لذلك صغار

السفن وصنوف السلاح؛ فبينا هو في ذلك وافى رسول لدرمويه يسأل الأمان له على نفسه وأصحابه، فرأى الموفق أن يؤمّنه ليقطع مادّة الشرّ الذي كان فيه الناس من الفاجر وأشياعه.

وذكر أن سبب طلب درمويه الأمان كان أنه كان فيمن أوْقع به قومٌ ممن خرج من عسكر الموفق للقصد إلى منازلهم بمدينة السلام، فيهم نسوة، فقتلهم وسلبهم، وغلب على النسوة اللاتي كنّ معهم؛ فلما صِرْن في يده بحثهنّ عن الخبر، فأخبرنه بقتل الفاسق والظفر بالمهلبيّ وأنكلاي وسليمان بن جامع وغيرهم من رؤساء أصحاب الفاسق وقوّاده ومصير أكثرهم إلى الموفق في الأمان وقبوله إياهم وإحسانه إليهم؛ فأسقط في يده، ولم ير لنفسه ملجأ إلاّ التعوّذ بالأمان ومسألة الموفق الصفح عن جُرْمه. فوجَّه في ذلك، فأجيب إليه. فلما ورد عليه الأمان خرج وجميع من معه حتى وافى عسكر الموفق. فوافت منهم قطعة حسنة كثيرة العدد لم يصبها بؤس الحِصار وضرّه مثل ما أصاب سائر أصحاب الخبيث، لما كان يصل إليهم من أموال الناس وميرهم.

فذكر أن درمويه لما أومن وأحسن إليه وإلى أصحابه، أظهر كلّ ما كان في يده وأيديهم من أموال الناس وأمتعتهم، وردّ كلّ شيء منه إلى أهله رداً ظاهراً مكشوفاً فوفِق بذلك على إنابته، فخلع عليه وعلى وجوه أصحابه وقُوّاده، ووصِلوا. فضمهم الموفق إلى قائد من قُوّاد غلمانه. وأمر الموفّق أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأُبلّة وكُور دِجْلة وأهل الأهواز وكوَرها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزَّنج بقتل الفاسق، وأن يُؤمروا بالرجوع إلى

أوطانهم. ففُعل ذلك، فسارع الناس إلى ما أمِرُوا به، وقدموا المدينة الموفقيّة من جميع النواحي.

وأقام الموفّق بعد ذلك بالموفقيّة ليزداد الناس بمقامه أمناً وإيناساً. وولّى البصرة والأبلّة وكُور دِجْلة رجلاً من قُوّاد مواليه قد كان حمِد مذهبه، ووقف على حسن سيرته، يقال له العباس بن تركس؛ فأمره بالانتقال إلى البصرة والمقام بها.

وولّى قضاء البصرة والأبُلّة وكُور دِجلة وواسط محمد بن حماد.

وقدّم ابنه أبا العباس إلى مدينة السلام، ومعه رأس الخبيث صاحب الزّنْج ليراه الناس، فيستبشروا. فنفذ أبو العباس في جيشه ووافى مدينة السلام يوم السبت لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة، فدخلها في أحسن زيّ، وأمر برأس الخبيث فسِير به بين يديه على قناة، واجتمع الناس لذلك.

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقتِل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين، فكانت أيّامه من لدن خرج إلى اليوم الذي قتل فيه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين، وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين، فقال ـ فيما كان من أمر الموفق، وأمْر المخذول ـ الشعراء أشعاراً كثيرة. فمما قيل في ذلك قول يحيى بن محمد الأسلميّ:

أقولُ وقد جاءَ البشيرُ بوقعةٍ أعَزَّتْ من الإسلامِ ما كان واهِيا
جَزَى اللَّهُ خيرَ النَّاسِ للناسِ بعْدَما أُبِيح حِمَاهُم خيرَ ما كان جازيا
تَفَرَّد إذ لم ينصر اللَّهَ ناصرٌ بتجديدِ دينٍ كان أصبح بالِيا
وتشديدِ ملك قد وَهَى بعد عزِّه وإدراك ثَاراتٍ تبير الأعادِيا
ورَدِّ عِمارات أُزيلتْ وأُخْربتْ ليرجع فيْء قد تخُرِّم وافِيا
ويرجعَ أَمْصارٌ أُبيحتْ وأُحْرِقَتْ مِراراً فقد أمست قِوَاءً عوافيا
ويُشفَى صدور المؤمنينَ بوقعةٍ يقرُّ بها منا العيونَ البواكيا
ويُتلى كتاب اللَّهِ في كل مسجدٍ ويُلقى دعاءُ الطالبيِّين خاسِيًا
فأعرَض عن أحبابهِ ونعيمِهِ وعن لذةِ الدنيا وأقبلَ غازِيا

في قصيدة طويلة. ومن ذلك أيضاً قوله:

أينَ نجومُ الكاذِب المارِق ما كان بالطَّبِّ ولا الحاذقِ
صبَّحَهُ بالنحْسِ سعدٌ بدَا لسيّدٍ في قولِه صادقِ
فخرّ في مأزِقِه مسلَما إلى أُسُودِ الغابِ في المازِقِ
وذاق من كأسِ الردَى شرْبة كريهةَ الطعْم على الذائِق

وقال فيه يحيى بن خالد:

يا ابنَ الخلائفِ من أرومَةِ هاشمٍ والغامرينَ الناسَ بالإفضال
والذائدينَ عن الحريم عدوّهم والمعلِمين لكل يومِ نزالِ
ملِكٌ أعادَ الدينَ بعدَ دروسهِ واستنقذ الأسْرَى من الأغلالِ
أنت المُجيرُ من الزمانِ إذا سَطَا وإليك يَقصِدُ راغبٌ بسؤالِ

أطفأْتَ نِيرانَ النفاقِ وقد علَتْ ... يـا واهِـبَ الآمـال والآجـالِ

لـلَّهِ درُّكَ من سَليلِ خلائفٍ ... ماضِي العزيمةِ طاهرِ السِّرْبالِ

أفنيتَ جمعَ المارقينَ فأصبحوا ... متلَدِّدِينَ قد أيقنوا بزوالِ

أَمْطرْتهم عزمات رأيٍ حازمٍ ... ملأتْ قلوبَهُمُ مِنَ الأهوالِ

لمّا طَغى الرجسُ اللعينُ قصدته ... بالمَشرَفِيِّ وبالقَنا الجوّالِ

وتركتَهُ والطيرُ يحْجُلُ حولهُ ... مُتقطِّعَ الأوداجِ والأوصال

يَهوِي إلى حَرّ الجحِيمِ وقعرِها ... بسلاسل قد أوهَنته ثِقالِ

هذا بما كسبتْ يداهُ وما جَنى ... وبما أتى من سيِّىء الأعمالِ

أقرَرْتَ عينَ الدينِ ممّن قادَهُ ... وأذَلْتَهُ من قاتلِ الأطفالِ

صال الموفَّقُ بالعراقِ فأفزعتْ ... مَنْ بالمغارب صولةُ الأبطالِ

وفيه يقول أيضاً يحيى بن خالد بن مروان:

أبنْ لي جواباً أيُّها المَنزلُ القفرُ ... فلا زال مُنهلًا بساحاتِكَ القطرُ

أبِنْ لي عن الجيرانِ أين تحمَّلوا ... وهل عادَتِ الدنيا، وهل رجعَ السَّفرُ

وكيف تجيبُ الدارُ بعد دروسها ... ولم يبقَ من أعلام ساكنِها سَطْرُ

منازلُ أبكاني مَغَانِيُّ أهلها ... وضاقت بيَ الدنيا وأسلَمَني الصبْرُ

كأنَّهُمُ قومٌ رغا البكرُ فيهمُ ... وكان على الأيامِ في هُلكِهم نُذرُ

وعاثَتْ صُرُوفُ الدهر فيهم فأسرعت ... وشرُّ ذوي الأصعادِ ما فعل الدهرُ

فقد طابت الدنيا وأينَعَ نَبتُها ... بيُمْنِ وليِّ العهدِ وانقلب الأمر

وعاد إلى الأوطانِ مَنْ كان هارباً ولم يبق للملعون في موضعٍ إِثْرُ
بسيف ولي العَهْد طالت يدُ الهدى وأَشْرَق وجْهُ الدين واصطُلم الكُفْر
وجاهَدَهم في اللّهِ حقَّ جِهادِهِ بنفسٍ لها طولُ السلامة والنصرُ

وهي طويلة. وقال يحيى بن محمد:

عنّي اشتغالَك إني عنكِ في شَغَلٍ لا تعذُلي مَنْ به وقْرٌ عن العذَلِ
لا تعذُلي في ارتحالي إنني رجلٌ وقفٌ على الشَّدِّ والأسفارِ والرَّحَلِ
فيمَ المُقامُ إذا ما ضاقَ بي بلدٌ كأنني لحجالِ العينِ والكِلَلِ
ما استيقظتْ همّةٌ لم تلفِ صاحبها يَقظان قَدْ جانَبَتْهُ لذةُ المُقَلِ
ولم يبتْ أَمِناً من لم يبتْ وجِلاً مِنْ أنْ يَبيتَ له جار على وَجَلِ

وهي أيضاً طويلة.



- ثورة الزنـج في مرآة الأدب العربي
- ثورة الأرقّاء في روما بقيادة سبارتاكوس
- في ان الظُّلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران

ثورة الزنج في مرآة الأدب العربي

أحمد عُلبي[1]

كانت ثورة الزَّنج بؤرة استلهام أدبي يمكن أن نتبيَّن معالمه في النماذج التالية:

ابن الرومي

لابن الرومي قصيدة في رثاء البصرة التي أحرقها الزنج وانتهبوها سنة ٢٥٧هـ. ومطلعها:

ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنامِ　　شُغْلُها عنه بالدموعِ السِّجامِ

وهي قطعة فنيَّة، جميلة السبك، نفيسة المحتوى، على ما فيها من غلوّ. يقول الشاعر، ناعياً على صاحب الزنج ادّعاءَه المهديَّة:

وتسمَّى بغير حقٍّ إماماً　　لا هَدى اللَّهُ سَعْيَه من إمامِ

ثم يصف دخول الزنج البصرة، فيقول في مطلع مقطع ربما هو أجمل ما في القصيدة:

دخلوها كأنهم قِطَعُ الليلِ　　إذا راحَ مُدْلَهِمُّ الظلامِ

ويقول أيضاً:

(١) «ثورة الزنج، وقائدها علي بن محمد» ص ٢٥٣ ـ ٢٦٢.

كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيهِ   وهو يُعْلَى بصارمٍ صَمْصامِ
كم رضيعٍ هناك قد فطموهُ   بِشَبَا السيفِ قبل حينِ الفِطامِ
صبَّحوهم فكابَد القومُ منهم   طولَ يومٍ كأنه ألفُ عامِ

ويذكر الشاعر ما حلَّ باقتصاد البصرة:

لَهْفَ نفسي عليكِ يا فُرْضَةَ البُلْـ   ـدانِ لهفاً يبقى على الأعوامِ

والفُرْضة هي الميناء. ويقول أيضاً:

أين ضوضاءُ ذلك الخَلْقِ فيها   أين أسواقُها ذواتُ الزَّحامِ
أين فُلكٌ فيها وفُلْكٌ إليها   مُنْشَآتٌ في البحر كالأعلامِ

ويتطرّق ابن الرومي إلى وصف «أطلال» مجزرة البصرة، فيقول:

وخَلَتْ من حُلُولها فهي قَفْرٌ   لا ترى العينُ بين تلك الأكامِ
غيرَ أيْدٍ وأرجُلٍ بائناتٍ   نُبِذَتْ بينهنَّ أَفْلاقُ هامِ[1]
ووجوهٌ قد رَمَّلتها دماءٌ   بأبي تلكُمُ الوجوهُ الدَّوامي
وُطِئتْ بالهوان والذُّلِّ قَسْراً   بعدَ طولِ التبجيل والإعظامِ
فتراها تَسْفي الرياحُ عليها   جارياتٍ بهَبْوَةٍ وقَتامِ[2]
خاشعاتٍ كأنها باكياتٌ   بادياتِ الثغور لا لابتسامِ

ثم يصف الشاعر تقاعس المسلمين عن نجدة البصرة:

---

(١) بائنات: منفصلات عن الجسد. نُبِذت: طُرحت. أفلاقُ هام: رؤوس متفلّقة.

(٢) هَبْوة: غبار. قَتام: غبار أسود. وهنا دخان الحريق.

كمْ خذلْنا من ناسكٍ ذي اجتهادٍ وفـقـيـهٍ فـي ديـنـه عَـلاَّمٍ

والجدير بالذكر أن الفقيه زيد بن أخزم قد لقي مصرعه في مجزرة البصرة.

وفي نهاية القصيدة يحثّ ابن الرومي المسلمين على الأخذ بالثأر واستخلاص السبايا. . . وإلا:

إنْ قعدتُمْ عن اللّعين فأنتم شركاءُ اللّعين في الآثامِ

والقصيدة طويلة، تقع في ثلاثة وثمانين بيتاً. وهناك لابن الرومي قصيدة طويلةٌ أخرى في مدح قامع الثورة، أبي أحمد الموفَّق، وغيره من كبار القوم.

ابن المعتزّ

ولابن المعتزّ قصيدة يمدح فيها المعتمد، الخليفة الفخري وبطل التقاعس في حرب الزنج، يقول فيها، ويا للغرابة:

ولما طغى أمرُ الدعِيّ رمَيْتَهُ بعزمٍ يردُّ العَضْبَ وهو فليلُ

وأعلمتَهُ كيف التَّصافُحُ بالقَنا وكيف تُرَوَّى البِيضُ وهي مُحُولُ[1]

شعراء آخرون

ويذكر ابن أبي الحديد أن «الشعراء قالوا في وقائع الزنج فأكثروا، كالبحتري وابن الرومي وغيرهما».

كذلك أثبت الطبري في تاريخه فقرات من قصائد طوال، لشعراء

(١) العضب: السيف القاطع. مُحول: مُجْدِبة.

من الدرجة الثانية أو ربما دونها، قيلت في هجاء صاحب الزنج ومديح الموفَّق. وهذه القصائد الطوال ـ باستثناء قصيدة ابن الرومي ـ غثَّة باردة. فهي تقوم على المديح التقليدي والمعاني المطروقة، كقول يحيى بن محمد الأسلمي مثلاً:

أقولُ وقد جاء البشيرُ بوقعةٍ أعزَّتْ من الإسلامِ ما كان واهِيا

جزى اللَّهُ خيرَ الناسِ للناس بعدما أُبيحَ حِماهُمْ خيرَ ما كان جازيا

والوقعةُ المشار إليها هي تلك المعركة الأخيرة التي انتصر فيها جيش الخلافة على الزنج ودخل عاصمتهم «المختارة». ولا ننتظر أن ينهض، بين الشعراء المتكسبين المنتفعين، مَنْ يقف في صفّ صاحب الزنج ويعاضد ثورته. فالشعر العربي كان معظمه وَقْفاً على فئة أرستقراطية حاكمة أو نافذة، فعكس مآربها ونُظم حياتها الزاهية، وظل يدور في دائرة مترفة، ولم يتعدَّ عتبة القصور إلا لماماً.

وابن الرومي الذي انفرد، أو ربما كاد، في تصوير بعض المظاهر الاجتماعية لفئات من الكادحين في العصر العباسي، والذي رثى يحيى بن عمر العلوي أجمل الرثاء، هذا الشاعر نفسه نظر إلى ثورة الزنج وصاحبها نظرة تقليدية، فقال في قصيدته السالفة:

أيُّ نومٍ من بعدما انتهك الزَّ نْـجُ جهاراً محارِمَ الإسلامِ

نحن لا نطالب أدباء العصر العباسي بالوقوف إلى جانب ثورة الزنج، بل يكفينا لو أنهم صوّروا هذه الثورة، على ما فيها من روعة ملحمية أحياناً، تصويراً واقعياً فقط. وذلك كما فعل الشاعر الخرَيْمي ـ وكان أعمى، وقيل أعور ـ في مطوَّلته الرائعة التي أثبتها الطبري، والتي يصف فيها الشاعر ما حلَّ ببغداد خلال فتنة الأمين والمأمون.

وإذا كانت ثورة الزنج لم تُلهم أدباء العصر العباسي، نتيجة ارتباطهم بالبلاط، أو لتخلُّفهم في الرؤية، فهي حريَّةٌ بأن تُلهم أدباءَنا المحدثين، فيحيونها في ملحمةٍ شعرية أو رواية، كما فعل الأديب علي أحمد باكثير في رواية «الثائر الأحمر» الذي هو حمدان قرمط. وهذا ما نهض به بعض أدبائنا في الميدان المسرحي، فكتب نور الدين فارس: «لتنهضوا أيها العبيد!»، ونظم معين بسيسو مسرحيته الشعرية: «ثورة الزنج»، وكتب عز الدين المدني: «ديوان الزنج».

نَصُوح فاخوري

للشاعر السوري نَصُوح فاخوري قصيدة حديثة بعنوان «صاحب الزَّنْج». وهي قصيدة تقليدية الصياغة، باستثناء تنويع القافية، ناصَرَ شعرُها بحماسة خطابية ثورة الزنج وصاحبها. ومما جاء فيها:

ما هَمُّهُ التخريبُ والعدوانُ، ما هو باللَّعين!
مَنْ يقطعُ الأعوامَ يَنْشدُ مَحْقَ زَيْفِ الحاكمين

ما دمَّرتْ نيرانُه، في البصرةِ الزهراء، دارا
هي غَضْبَةُ العِبْدان تضربُ زَنْدُها خِزْياً وعارا

أسرى من البحرين ـ قالوا ـ صاحبُ الزَّنج «الخبيثْ»
ونقول: مِنْ جزرٍ نماها الجوعُ، فهو بها يعيثْ

في غابِ أفريقيا يُباعُ العَبدُ بالدينار بَخْسا
ويُساق للأسياد موثوقاً، فيا تَعْساً ونَحْسا

هيّا اكسحوا هذي «السّباخ» وكوّموا هذي «الكُسوحْ»
هيّا اعمُروا للسادةِ الوَهْدَ العميقةَ والسُّفوحْ

مُتَدافِعينَ على السهولِ، على الهضابِ، على المياهْ
سَيْلاً من الحقد المقدَّسِ ماضياً يَحْدو الحياهْ

وإذا «الموفَّقُ» ينتشي زَهْواً على الشعبِ القتيلْ
ويحزُّ هامةَ صاحب الزَّنجِ الشهيدِ ويستطيلْ

يا إخوةً دَرَجوا، ولم تَدْرُجْ لما رسموه ذكرى
نقشوا برُغْمِ تَخَرُّص التاريخ، في التاريخ، سَطْرا

ممدوح عُدوان

كذلك هناك قصيدة للشاعر السوري ممدوح عدوان بعنوان: «الهروب من ثورة الزنج». وفي هذه القصيدة ينضح الراحل ممدوح عدوان، على عادته، بالشعر المرهف الجميل. ولكنه إنسانٌ قانِطٌ معذَّبٌ طعين، لم يعد يؤمن بعدالة قادمة أو مهديّ منتظر أو مخلّص مَرْجوّ. كلُّهم زَيْفٌ ودَجَلٌ واستثمار لأشواق الناس وخداع! وكأني به يعكس خيباته المعاصرة، ويردّها إلى الماضي القريب والبعيد. فهو يستهدف الحاضر وراء قناع التاريخ ورموزه. لهذا جاء موقفه سلبياً من ثورة الزنج، برغم نُبل المشاعر الجارحة التي تضجّ في قصيدته ذات الحساسية العالية:

ورأيتُ عليًّا ينادِم جُنْدَ «الموفَّق» خلفَ سِتارَهْ

وأمامي رأيتُ المدائنَ تَهْوي
ولكنْ ببغدادَ بانَتْ لنا كعبةٌ
فوقَ جُرْحِ ابنها حانِيَهْ
كان فيها جياعٌ تهاوَوْا بقصفي
ومثليَ ذاقوا الهوانْ
صِحْتُ فيهم:
هو السَّيْلُ،
إنّا جُرفنا قطيعاً إلى هاوِيهْ
وعليٌّ[1] هو الخُدْعَةُ القاتلهْ!
ليس ثأراً ولا واحةً للأمانْ
لم يَعُدْ بَلْسماً لجراح الزمانْ
إنه الخُدعةُ القاتلهْ
والذي يغسِلُ الفَقْرَ من عُمرنا
ضيَّعته الخُطا العاجِلهْ!
صِحْتُ فيهم، بكيتُ، ولكنَّ موجَ الجموعْ
كان أقوى من الصوتِ أو هسهسات الدموعْ

---

(١) المراد علي بن محمد، صاحب الزنج.

ثورة الأرقاء في روما
(٧٣ قبل الميلاد)

وول ديورانت[١]

كان لهذه الثورة أسبابٌ كثيرة، وكان لها نتائج يخطئها الحصر، وكانت الشخصيات التي أطاحت بها الأزمة من أقوى الشخصيات في التاريخ. ولم تنشب قط قبل هذه الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حربٌ كان لأهدافها من الخطر ما كان لتلك الحرب.

أول أسباب تلك الثورة تدفُّق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق في صقلية وسردانية وأسبانيا وأفريقيا، وما أحدثه تدفُّقها من خراب حلَّ بالزرّاع الإيطاليين. إذ انخفض ثمن الحبوب التي تنتجها أراضيهم إلى أقلّ من تكاليف إنتاجها. وكان سببها الثاني تدفُّق الرقيق الذين حلّوا محلَّ الزرّاع في الريف والعمال الأحرار في المدن. وكان ثالث هذه الأسباب امتلاك أعضاء مجلس الشيوخ ضياعاً كثيرة وأراضي زراعية واسعة، بما ملكوا من ثروة جمعوها من غنائم الحروب. وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطر المالك الصغير إلى اقتراض المال بفوائد فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها. فلم يلبث أن دُفع في هاوية الفقر

---

(١) قصة الحضارة.

والإفلاس، أو فقد أرضه، ونزح إلى المدن ليسكن في أحيائها القذرة الوبيئة.

وآخر ما نذكر من أسباب الثورة ما طرأ على الفلاح نفسه من تغيُّر كبير. لقد جُنِّد هذا الفلاح في الجيش، وهيَّأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة في العالم، وأصبح يكره العمل الانفرادي الرتيب الخالي من المغامرات في الحقول ولا يستطيع الصبر عليه. وكان أحبَّ إليه من هذا العمل أن ينضمَّ إلى صعاليك المدينة المشاغبين، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان، ويبيع صوته في الانتخابات لمن يدفع له أغلى الأثمان.

(. . .) كان أجر العبد في الضياع الواسعة لا يزيد على الطعام والكساء اللذين يمكّنانه من أن يكدح كدحاً متواصلاً في كل يوم، من شروق الشمس إلى غروبها، حتى تدركه الشيخوخة. فإذا شكا أو عصى أمر حارسه أُلزم أن يعمل ورجلاه مكبّلتان بالأغلال، وأن يقضي الليل في جُبّ تحت الأرض (. . .) لتلك الأسباب كانت ثورات الأرقاء والفقراء مستمرة في العهد الروماني.

ثورة سبارتاكوس

[انطلقت ثورة سبارتاكوس في جنوب إيطاليا سنة ٧٣ قبل الميلاد، فجمعت حولها الأرقاء والفقراء الكادحين والثائرين بالنظام الاجتماعي من الأحرار، الذين أصبحوا ذات يوم فإذا بالأرض والثروة والتجارة محتكرة في قبضة الأرستوقراطية الرومانية المثرية. وقد وجد سبارتاكوس في «كمبانيا» بالذات، حيث تفجرت الثورة، أرضاً خصبة

بعوامل التذمّر والتوثُّب. فهذه المنطقة من إيطاليا قد تشبَّث بها الإقطاعيون، فلم تطلها عملياً السياسة الإصلاحية لعائلة كراكوس][1].

كان[2] لنتولس بتياتس *Lentulus batiates* قد أنشأ في كپوا مدرسة للمصارعين، رجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم، ودربهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً، في حلبة الصراع العامة أو في البيوت الخاصة. ولم يكن ينتهي الصراع حتى يقتل المصارع. وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا، ونجح منهم ثمانية وسبعون، وتسلحوا واحتلوا أحد سفوح بركان ڤيزوف، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام. واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعي اسپارتكوس *Spartacus* يقول فيه أفلوطرخس إنه «لم يكن رجلاً شهماً شجاعاً وحسب، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذي كان فيه ذكاء في العقل ودماثة الأخلاق».

وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء في إيطاليا يدعوهم إلى الثورة، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام. وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم، وأن يقاتلوا في نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم لإخضاعهم. وقذفت انتصاراته الرعب في قلوب أثرياء الرومان، وملأت قلوب الأرقاء أملاً، فهرعوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه. وبلغوا من

---

(١) بين معقوفين إضافة من أحمد علبي، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) من هنا نواصل النقل عن وول ديورانت.

الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفاً لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم.

وصار بجيوشه صوب جبال الألب، وغرضه من هذا أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال. ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية، فتمردوا على قائدهم، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية، ويعيثون فيها فساداً. وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة القنصلين لتأديب العصاة. والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسپارتكوس وأفناها عن آخرها. وهاجم الجيش الثاني قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله.

ثم سار اسپارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى في أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شر هزيمة، ولكنه وجد جيوشاً رومانية أخرى تقف في وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب وزحف على رومة.

وكان نصف الأرقاء في إيطاليا متأهبين للثورة، ولم يكن في وسع أحد في العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنشب هذه الثورة في بيته. وكانت تلك الطائفة الموسرة المترفة التي تتمتع بكل ما في وسع الرق أن يمتعها به، كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر في أنها ستخسر كل شيء: السيادة والملك والحياة نفسها. ونادى الشيوخ وذوو الثراء يطالبون بقائد قدير، ولكن أحداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة. فقد كان القواد كلهم يخافون هذا العدو الجديد العجيب. ثم تقدم كراسس *Crassus* آخر الأمر وتولى القيادة، وكان تحت إمرته أربعون

ألفاً من الجنود، وتطوع كثير من الأشراف في جيشه لأنهم لم ينسوا كلهم تقاليد الطبقة التي ينتمون إليها.

ولم يكن يخفى على اسپارتكوس أنه يقاتل إمبراطورية بأكملها، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شؤون العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها. فلم يعرج في زحفه على رومة وواصل السير مخترقاً إيطاليا كلها من شماليها إلى جنوبيها، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقية. وظل سنة ثالثة يصد الهجمات التي يشنّها عليه الرومان. ولكن جنوده نفد صبرهم وسئموا القتال، فخرجوا عليه وعصوا أوامره، وأخذوا يعيثون فساداً في المدن المجاورة. والتقى كراسس بجماعة من أولئك النهابين وفتك بهم، وكانوا اثني عشر ألفاً وثلاثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم.

وفي هذه الأثناء كان جنود پمپى قد عادوا من أسبانيا فأرسلوا لتقوية جيوش كراسس، وأيقن اسپارتكوس أن لا أمل له في الانتصار على هذه الجيوش الجرارة، فانقض على جيش كراسس وألقى بنفسه في وسطه مرحباً بالموت في وسط المعمعة، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين. ولما أصابته طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راكع على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جسمه بحيث لم يكن من المستطاع أن يتعرف عليه. وهلك معه معظم أتباعه، وفر بعضهم إلى الغابات، وظل الرومان يطاردونهم فيها، وصلب ستة آلاف من الأسرى في الطريق الأبياوي الممتد من كپوا إلى رومة. وتركت أجسامهم المتعفنة على هذه الحال عدة شهور تطميناً لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد.

في أن الظُّلم مُؤذِنٌ بخراب العمران

المؤرخ ابن خلدون[(١)]

اعلمْ أن العدوانَ على الناس في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابُها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك.

وعلى قَدَر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداءُ كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش، كان القعودُ عن الكسب كذلك، لذهابه بالآمال جملةً بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً، كان الانقباض عن الكسب على نسبته.

والعمرانُ ووفورُهُ ونَفاقُ أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب، ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناسُ عن المعاش وانقبضت أيديهم عن الكسب، كسدت أسواقُ العمران، وانْتَقَضت الأحوال، وابْذَعَرَّ[(٢)] الناس في الآفاق، من غير تلك الإيالة في طلب

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون، ص ٥٠٧ ـ ٥١٢، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٩.

(٢) تفرّقوا.

الرزق[1] فيما خرج عن نطاقها؛ فخفَّ ساكنُ القُطر، وخلتْ دياره، وخربتْ أمصارُه، واختلَّ باختلاله حالُ الدولة والسلطان، لما أنها صورةٌ للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورةً.

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس، عن الموبَذان صاحب الدين عندهم أيام بَهْرام بن بَهْرام، وما عرَّض به للملِك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة، بضربِ المثال في ذلك على لسان البوم، حين سمع الملكُ أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إن بوماً ذكراً يرومُ نكاحَ بومٍ أنثى، وإنها شرطتْ عليه عشرين قريةً من الخراب في أيام بَهْرام، فقبل شرطها وقال لها: إن دامتْ أيامُ الملكِ أَقْطعتُكِ ألفَ قرية، وهذا أسهل مرام. فتنبَّه الملكُ من غفلته، وخلا بالموبذان وسأله عن مراده، فقال له:

أيها الملك! إن المُلكَ لا يتمُّ عِزُّه إلا بالشريعة، والقيام لله بطاعته، والتصرُّفِ تحت أمره ونَهْيه؛ ولا قِوام للشريعة إلا بالمِلك؛ ولا عِزَّ للمِلك إلا بالرجال؛ ولا قوام للرجال إلا بالمال؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعِمارة؛ ولا سبيل للعِمارة إلا بالعدل. والعدلُ الميزانُ المنصوبُ بين الخليقة، نصبه الربُّ وجعل له قيّماً، وهو المِلك. وأنتَ أيه الملكُ عمدتَ إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها؛ وهم أرباب الخراج ومَنْ تؤخَذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشيةَ والخدمَ وأهلَ البطالة، فتركوا العِمارة، والنظر في العواقب وما يُصلح الضياع،

(١) الإيالة في طلب الرزق: إعمال السياسة والتدبير في طلب الرزق.

وسُومحوا في الخراج لقُرْبهم من الملك. ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعُمّار الضياع، فانجلوا عن ضياعهم وخَلَّوْا ديارهم، وآوَوْا إلى ما تعذَّر من الضياع فسكنوها، فقلَّت العمارة، وخربت الضياع، وقلَّت الأموال، وهلكت الجنودُ والرعيَّة، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك، لعلمهم بانقطاع الموادّ التي لا تستقيمُ دعائمُ المُلك إلا بها.

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه، وانتُزعت الضياعُ من أيدي الخاصَّةِ ورُدَّتْ على أربابها، وحُملوا على رسومهم السالفة[1]، وأخذوا في العِمارة، وقوي من ضَعُفَ منهم، فعَمَرت الأرضُ، وأخصبت البلادُ، وكثرت الأموالُ عند جُباة الخراج، وقويت الجنودُ، وقُطعت موادُّ الأعداء، وشُحِنت الثغور، وأقبل الملكُ على مباشرة أموره بنفسه، فحسُنَتْ أيامُه وانتظم ملكُه. فتفهَّم الملكُ من هذه الحكاية أن الظُّلم مُخْرِبٌ للعمران، وأن عائدةَ الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض.

ولا تنظُرْ في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها، ولم يقعْ فيها خراب. واعلم أن ذلك إنما جاء من قِبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المِصْر. فلما كان المصرُ كبيراً وعُمرانُه كثيراً وأحوالُه متَّسعة بما لا ينحصر، كان وقوعُ النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لأن النَّقْص إنما يقعُ بالتدريج. فإذا خفي بكثرة

(١) حُملوا على رسومهم السالفة: عادوا لما كانوا عليه سابقاً من معاملةٍ ليس فيها تمييز ولا محاباة.

الأموال واتّساع الأعمال في المصر، لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهب تلك الدولةُ المعتديةُ من أصلها قبل خراب المِصْر وتجيءُ الدولةُ الأخرى، فتَرْقَعه بجِدَّتها، وتَجْبُر النقص الذي كان خفياً فيه، فلا يكاد يُشْعَرُ به؛ إلا أن ذلك في الأقلّ النادر.

والمرادُ من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمرٌ واقعٌ لا بدَّ منه، لما قدَّمناه، ووبالُه عائدٌ على الدول.

ولا تحسبنَّ الظُّلم إنما هو أخذُ المالِ أو المِلْك من يد مالكه من غير عِوَضٍ ولا سببٍ، كما هو المشهور؛ بل الظُّلمُ أعَمُّ من ذلك. وكلُّ من أخذ مِلْكَ أحدٍ، أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع، فقد ظلمه. فجُباة الأموال بغير حقّها ظَلَمة، والمعتدون عليها ظَلَمة، والمنتهبون لها ظَلَمة، والمانعون لحقوق الناس ظَلَمة، وغُصَّاب الأملاك على العموم ظَلَمَةٌ؛ ووبالُ ذلك كله عائدٌ على الدولةِ بخراب العمران الذي هو مادَّتُها، لإذهابه الآمالَ من أهله.

واعلمْ أن هذه هي الحكمةُ المقصودةُ للشارع في تحريم الظلم؛ وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه؛ وذلك مؤذِنٌ بانقطاع النوع البشري؛ وهي الحكمةُ العامة المراعيةُ للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة: من حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. فلما كان الظلمُ كما رأيتَ مؤذِناً بانقطاع النوع، لما أدَّى إليه من تخريب العمران، كانت حكمةُ الحظر فيه موجودة، فكان تحريمُه مهماً. وأدلَّتُه من القرآن والسنَّة كثير، أكثر من أن يأخذها قانونُ الضبط والحصر.

ولو كان كلُّ واحدٍ قادراً عليه لوُضِعَ بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع، التي يقدر كلُّ أحدٍ على اقترافها، من الزنا والقتل والسُّكر. إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه، لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان؛ فبُولِغَ في ذَمّه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازعُ فيه للقادر عليه في نفسه.. «وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيد».

ولا تقولنَّ إن العقوبة قد وُضعت بإزاء الحِرابةِ في الشرع، وهي من ظُلم القادر؛ لأن المحارب زمنَ حِرابته قادرٌ. فإن في الجواب عن ذلك طريقين. أحدهما أن تقول: العقوبةُ على ما يقترفه من الجنايات في نفسٍ أو مالٍ، على ما ذهب إليه كثير. وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته. وأما نفسُ الحِرابة فهي خِلْوٌ من العقوبة. الطريق الثاني أن تقول: المحاربُ لا يوصف بالقدرة، لأنَّا إنما نعني بقدرة الظالم اليدَ المبسوطة التي لا تعارضها قدرةٌ؛ فهي المؤذِنةُ بالخراب. وأما قدرةُ المحارب فإنما هي إخافةٌ يجعلها ذريعةً لأخذ الأموال. والمدافعةُ عنها بيد الكلّ موجودةٌ شرعاً وسياسةً. فليست من القَدَر المؤذِن بالخراب... والله قادرٌ على ما يشاء.

فصل ـ ومن أشدّ الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليفُ الأعمال وتسخيرُ الرعايا بغير حقّ. وذلك أن الأعمال من قبيل المتموَّلات، كما سنبيّن في باب الرزق؛ لأن الرزق والكسب إنما هو قَيّمُ أعمال أهل العمران. فإذن مساعيهم وأعمالهم كلُّها مُتَموَّلاتٌ ومكاسبُ لهم، بل لا مكاسب لهم سواها. فإن الرعيَّة المعتملين في العمارة إنما معاشُهم ومكاسبُهم من اعتمالهم ذلك. فإذا كُلّفوا العملَ

في غير شأنهم، واتُّخذوا سُخرياً في معاشهم، بطل كسبُهم، واغتُصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو مُتَمَوَّلُهم، فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظٌّ كبيرٌ من معاشهم، بل هو معاشُهم بالجملة. وإن تكرَّر ذلك عليهم، أفسد آمالهم في العِمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملةً، فأدَّى إلى انتقاضِ العمران وتخريبه... واللَّهُ سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

فهرس الأسماء والمصطلحات

يشتمل هذا الفهرس المفصّل على أسماء الأشخاص والأماكن والجماعات، وبعض المصطلحات الثقافية - الحضارية في السياسة والاجتماع والإدارة والآلات وما إلى ذلك. وقد أسقطنا بعض الأسماء التي تتكرر في معظم صفحات الكتاب (مثل: الزَّنج، علي بن محمد، العباسيون، المسلمون...) لأن فهرستها تُثقل على الكتاب ولا تساعد الباحث.

غير أننا في المقابل أدخلنا "أخبار الزنج في تاريخ الطبري" في عملية الفهرسة، رغم اشتمال هذا النصّ التاريخي على كثرة فاحشة في أسماء الأشخاص والأماكن. وذلك تحصيلاً لفائدة استثنائية. فالطبري لم يقدّم لنا مجرد رواية تاريخية، بل قدم صورةً لمسرح الأحداث وما يتحرك عليه أشبه ما تكون بتلك الصورة التي تقدمها تقارير شهود العيان. وهذه فائدة جليلة لمن يريد إعادة تركيب المشهد التاريخي بكل تفاصيله الحيّة.

أخيراً، وجرياً على الخطّة الأسلم في فهرسة الأسماء، فإننا لم نحسب ما يسبق الاسم من زيادات، نحو: ابن وبنت وبنو وأل التعريف... فأبو جعفر المنصور وابن الجوزي، مثلاً، تجدهما في حرف "الجيم"، وآل هاشم أو بنو هاشم في حرف "الهاء"، وهكذا...

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس المحتويات

الباب الثاني: الإطار التاريخي لثورة الزنج

الباب الثالث:

عقيدة علي بن محمد والمضمون الديني لثورة الزنج

الباب الرابع:
مراحل الثورة

الباب الخامس:
أخبار ثورة الزَّنْج كما جاءت في تاريخ ابن جرير الطبري